جلال الفكر

فى

التفسير الموضوعى لآيات من الذكر

دكتور
جمعة على عبد القادر
استاذ التفسير وعلوم القرآن
بكلية اصول الدين - جامعة الازهر

الطبعة الاولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان وعلمه البيان، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له خصنا بخير كتابٍ أُنزل، وأنعم علينا بخير نبيٍ أُرسل، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

أما بعد:

فهذا كتاب تطرق فيه البحث إلى موضوعات هى وثيقة الصلة بالتفسير الموضوعى ولمّا كانت طبيعة البحث هكذا اقتضت المنهجية فيه أن يلم القارئ الكريم بالنقاط التالية والتى لابد من معرفتها لمن يعيش فى التفسير الموضوعى، وهذه النقاط وتلك القضايا تتمثل فى:

١) مدخل إلى التفسير الموضوعى.

٢) أهمية التفسير الموضوعى.

٣) الفرق بين التفسير الموضوعى وأنواع التفاسير الأخرى.

٤) طريقة البحث فى التفسير الموضوعى.

٥) الوان التفسير الموضوعى.

٦) إجمال لما عرض إليه القرآن من موضوعات.

٧) منهج القرآن الكريم فى عرض موضوعاته.

وبعد معايشة القارئ لهذه القضايا وتلك النقاط يعيش القارئ بعد ذلك مع نماذج من التفسير الموضوعى يحفل بها كتاب جلال الفكر فى التفسير الموضوعى لآيات من الذكر

والله نسأل أن يوفقنا لما قصدنا إليه ويهدينا أقوم الطرق وأجل السبل فإنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

أ.د/ جمعه على عبدالقادر

تمهيد ومدخل إلى
التفسير الموضوعى

(أ) معنى (تفسير موضوعى):

التفسير :عبارة عن الكشف والبيان، يقال: أسفر الصبح لذى عينين أى بان ووضح. وفى الشرع: عبارة عن الكشف عن معانى ايات القرآن الكريم والغوص فى أعماقها للوصول إلى مراد الله تعالى منها بقدر الطاقة البشرية.

وموضوعى: نسبة إلى موضوع، فيقال مثلا: البر فى القرآن الكريم، القيامة والجزاء فى القرآن الكريم، الإحسان إلى الوالدين فى القرآن الكريم، وهكذا .

وإضافة (تفسير) إلى (موضوعى): صارت علماً على هذا الفن بعد أن ركّبت معها وصارت كلمة واحدة كتركيب (معديكرب) فتنوسيت تلك الإضافة.

فالتفسير الموضوعى: عبارة عن جمع الآيات القرآنية التى تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة فى الهدف، وترتيبها على حسب النزول - كلما أمكن ذلك - ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع فى شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد فى القرآن الكريم، والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من المباحث والموضوعات المتنوعة التى تخدم الفرد والمجتمع المسلم القوى، وتدفع بالجميع إلى حياة أفضل، هدفها نشر الدين وإعلاء كلمة الله ثم الجزاء بالحسنى والزيادة عند لقيا الله - عز وجل - فى الآخرة.

والتفسير الموضوعي تقسيم لآيات القرآن الكريم إلى مجموعات كل مجموعة منها تندرج تحت عنوان يشملها جميعاً، هذه الآيات المتفرقة تكون بحثاً مستقلاً متميزاً عن غيره، ذات موضوع واحد وهدف واحد[١].

والتفسير الموضوعي: يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه:

الأول: جمع الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغويّة، ثم ترتيبها ترتيباً معجمياً، وذلك كما صنع الفقيه الدامغانى في كتابه [إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم] وكان يسميه أحياناً [قاموس القرآن].

وقريب منه كتاب [بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز] للفيروز أبادى.

– ومنهم من لايتقيد بالترتيب الهجائى للمفردات، كما صنع مقاتل بن سليمان البلخى، المتوفى (١٥٠ هـ) فى كتابه [الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم] مثل كلمة «الاستغفار» فقد وردت فى القرآن على ثلاثة أوجه ثم أتى بعدها بكلمة (الدين)، وردت على خمسة أوجه ثم ذكر (الحس) وردت على أربعة أوجه[٢] وهكذا دون ترتيب أبجدى.

– وقريب منه أيضاً – ابن الجوزى – المتوفى (٥٩٧ هـ) فى كتابه القيّم [نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر].

– كذا – ابن العماد المتوفى (٨٨٧ هـ) فى كتابه [كشف السرائر فى الوجوه والأشباه والنظائر] وغيرهم ممن تحدث عن الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم.

---

(١) انظر التفسير الموضوعى للدكتور/ محمد القاسم ص ٧ – ٨.

(٢) انظر الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٣٢ – ١٣٥.

الثاني: – ذكر الموضوع، ثم جمع الآيات المتفرقة فى سور القرآن مما لها علاقة به، سواء اشتركت معه فى اللفظ أو المعنى أو ارتبطت بالموضوع ارتباطاً قوياً ولو من بعض الوجوه.، وذلك مثل موضوع: «المرأة فى القرآن الكريم» فتجمع الآيات التى تحدثت عن المرأة فى الزواج، والطلاق، والحضانة، والميراث والعلاقة الزوجية، وغير ذلك مما يتعلق بشئون المرأة – مما تناولته الآيات القرآنية.

– كذلك (الجهاد فى القرآن) ومثله (الصبر فى القرآن) إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة.

– من خلال ماسبق يتبين لنا أن أقرب تعريف للتفسير الموضوعى.. أن يقال: هو [جمع الآيات المتفرقة فى سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية].

(ب) نشأته وتطوره:

– لانستطيع أن نحدد بداية لظهور التفسير الموضوعى للقرآن الكريم بالمعنى الاصطلاحي الذى ظهر فى عصرنا الحاضر، إذ أنه حتى لو وجد هذا اللون من التفسير لدى بعض المتقدمين فإنه لم يكن معروفاً وشائعاً بينهم بهذا الاسم فيما أعلم، ولكننى بعد التأمل فى كتاب الله ودراسة بعض الموضوعات ظهر لى أن أصل هذا الاتجاه فى التفسير الموضوعى كامنٌ فى كتاب الله تعالى وفى أياته البيّنات التى وردت فى موضوع واحد لمعالجته فى صوره المتنوعة، وظفرت بأمثلة، منها (عدة المطلّقة). فإن الآية الكريمة التى تقول: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾(١) قد عمّت جميع المطلقات فى الحكم، وبالنظر فى أيات القرآن المتعلقة بهذا الموضوع مجتمعة، تبيّن لى أن كل اية منها تعنى حالة من حالات المطلقة، فليس كل مطلقة عدّتها ثلاثة قروء، سواء أكانت القروء بمعنى الأطهار أم كانت بمعنى الحيض؛ بل هناك مطلقة ليس لها عدّة أصلاً، وهى المطلقة قبل أن يمسها

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٨).

زوجها، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾(١)- واليائسة من الحيض لكبر سنها مثلاً، عدتها ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرة التى لم تحض فإن عدتها ثلاثة أشهر.. قال تعالى: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾(٢).

- وهناك نوع آخر من المطلقات، وهى المرأة المطلّقة وهى حامل فعدتها بوضع حملها، كما قال تعالى ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾(٣).

- وهذا النوع يذكره الأصوليون فى مباحث الخاص والعام، ولكن لاأرى مانعاً من أن تجرى عليه دراسة التفسير الموضوعى لأنه تفسير للقرآن بالقرآن، ومن المعلوم أن أعظم مصادر التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، وهو منهج أصيل استعمله النبىﷺ ، ووجه إليه، كما ثبت فى الحديث الصحيح الذى رواه أحد والشيخان عن ابن مسعود ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾(٤) شقَّ ذلك على الناس فقالوا: - يارسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ قال إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح [إن الشرك لظلم عظيم] إنما هو الشرك(٥).

- وكما فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمسة، ثم قرأ ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾(٦).

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٤٩).

(٢) سورة الطلاق الآية (٤).

(٣) سورة الطلاق الآية (٤).

(٤) سورة الأنعام (٨٢).

(٥) انظر صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٢٨ والآية من سورة لقمان (١٣).

(٦) صحيح البخارى - كتاب التفسير جـ ٣ ص ١٧٤ - والخمس هى المذكورة فى آخر سورة لقمان - وهى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾. آية (٣٤).

فإذا نظرنا إلى المفسرين القدامى، نجد من انتهج هذا المنهج ولو من بعض الوجوه - فمثلاً: مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠ هـ له كتاب [الأشباه والنظائر] كما سبقت الإشارة إليه، وهو أقدم وثيقة بين أيدينا فى كتب الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم، - وهو سائر على بيان أوجه الكلمة التى وردت فى القرآن - فمثلاً يقول عن كلمة (الطعام) مانصّه:

- تفسير الطعام على أربعة وجوه:

* فوجه منها: الذى يأكله الناس، كما فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾(١).

* والوجه الثانى: الطعام يعنى الذبائح فذلك قوله تعالى فى المائدة: ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾(٢) يعنى وذبائحكم حل لهم.

* والوجه الثالث: الطعام - يعنى مليح السمك، فذلك قوله تعالى فى المائدة ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾(٣). يعنى مليح السمك.

* الوجه الرابع: طعموا: يعنى شربوا، فذلك قوله تعالى فى سورة المائدة ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾(٤) يعنى شربوامن الخمر قبل التحريم كقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾(٥) يعنى ومن لم يشربه [فإنه منى] (٦).

---

(١) سورة قريش الآية (٤).

(٢) سورة المائدة الآية (٥).

(٣) سورة المائدة الآية (٩٦).

(٤) سورة المائدة الآية (٩٣).

(٥) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٦) الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٨٨.

- وإذا تتبعنا التفاسير نجد فى بعضها هذا الاتجاه إلى التفسير الموضوعى، ولو من بعض الوجوه، أقرأ مثلاً تفسير ابن كثير (رحمه الله) فأجده يجمع كثيراً من الآيات التى ضرب فيها المثل، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[1] قال رحمه الله.. مانصّه «فأخبر أنه لايستصغر شيئاً يضرب به مثلاً، ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لايستنكف عن خلقها كذلك لايستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[2]. وقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾[5]. ثم قال: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾[6]. الآية، كما قال: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٦).

(٢) سورة الحج الآية (٧٣).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤١).

(٤) سورة إبراهيم الآيات (٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧).

(٥) سورة النحل الآية (٧٥).

(٦) سورة النحل الآية (٧٦).

فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾[١]. الآية، وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾[٢]. الآية، قال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾[٣]. وفى القرآن أمثال كثيرة[٤]. أ. هـ.

– ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعى كتاب [التبيان فى أقسام القرآن] للإمام ابن القيم المتوفى (٧٥١ هـ)، و [مجاز القرآن] لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى (٢١٠ هـ)، و [مفردات القرآن] للراغب الأصفهانى المتوفى (٥٠٣ هـ) و [الناسخ والمنسوخ] لأبى جعفر النحاس، وغيرهم، فى موضوعات متعددة، نحو [أسباب النزول] للواحدى.. الخ.

– وإذا أخذنا حركة الاهتمام بكتاب الله تعالى فى أوسع ميادينها وآفاقها، نجد مئات التفاسير للقرآن الكريم فى القديم والحديث، مختلفة المشارب، متنوعة المذاهب تتفاوت فى الطول والقصر بين الإطناب والإيجاز، ومنها ماهو بين هذا وذاك.

– ومنها مااعتمد على النقل والرواية، ومنها ما اعتمد على الرأى والدراية، ومنها ماجمع بينهما.

– منها ماتحرر من المذهبية، ومنها ماظهر عليه طابع خاص كلامى أو فقهى أو صوفى، بل منها ماخرج عن حدود اللغة وأصول الشرع كتفاسير الباطنية.

– وظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرى من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس.. وذلك مثل المؤلفات فى [أحكام القرآن] أو فى [علوم القرآن] بصفة عامة، أو فى فرع أو نوع منها، مثل [إعجاز القرآن] أو [مجاز القرآن] أو القراءات ومايتعلق بها، أو أصول

---

(١) سورة الروم الآية (٢٨).

(٢) سورة الزمر الآية (٢٩).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٣).

(٤) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٦٤ –

التفسير.. إلى غير ذلك من شتّى أنواع العلوم التى تنتسب إلى القرآن وتقصد إلى خدمته.

– وفى عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية وإن شئت قلت: لون جديد من التفسير للقرآن الكريم وهو : [التفسير الموضوعى] الذى نحن بصدد الحديث عنه، وذلك حسب الموضوعات التى اشتمل عليها القرآن، وليس تفسيراً بالمعنى الإصطلاحى المألوف، لأنه لايتناول جميع آيات القرآن، بل هو جمع للآيات الواردة فى الموضوع الواحد فى مختلف سور القرآن الكريم، ثم تصنيفها والاستنباط منها أو التعقيب عليها..

– وقد ظهر حديثاً كتاب [الوحى المحمدى] للسيد، محمد رشيد رضا، حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن، وفصّلها فى ثمانية مقاصد استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به، ورأينا هذا الاتجاه فى رسالتين للشيخ/ محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، وهما: [القرآن والقتال] و [القرآن والمرأة].

– ورأينا هذا الاتجاه أكثر فى كتب [العقّاد] مثل: [المرأة فى القرآن الكريم] و [والإنسان فى القرآن الكريم] وكذلك كتاب [الفلسفة القرآنية].

– وللمغفور له الشيخ/ عبدالله دراز، كتابه القيّم [دستور الأخلاق فى القرآن] الذى ألّفه بالفرنسية وحصل به على درجة الدكتوراة من السربون، وترجمه أخيراً إلى العربية الدكتور/ عبدالصبور شاهين.

– ومن هذا اللون بعض كتب الأستاذ/ محمد عزة دروزة مثل [الدستور القرآنى فى شئون الحياة] و [سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن] و [القرآن والضمان الإجتماعى].

– ومن ذلك كتاب الأستاذ/ محمد شديد [التربية فى القرآن الكريم] – كذلك سلسلة تفسير د/ محمد البهى لمجموعة من سور القرآن حاول أن يفسرها تفسيراً موضوعياً: والدكتور/ محمد أحمد القاسم ألف كتاباً مختصراً عن التفسير الموضوعى، وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعاً أو أكثر من موضوعات القرآن الكريم.

أهمية التفسير الموضوعى

أولاً: إن تجدد حاجات المجتمعات وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لايمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم.

وذلك أن الباحث المسلم عندما يجابه مشكلة فى الحياة، أو تقدّم له نظرية مستحدثة فى علم النفس، أو علم الاجتماع، أو فى علوم الحضارة الإنسانية، أو العلوم الفلكية، أو العلوم الطبيعية أو نظرية فى الاقتصاد.. فإنه لايستطيع أن يجد لكل هذه النظريات المستجدة نصوصاً من ايات الذكر الحكيم تناقش مثل هذه القضية المطروحة وتبين حكم الله تعالى فيها، بل يلجأ الباحث عندئذ إلى معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية فى هذا الاتحاه ويجمع الأفكار الرئيسية فى هذا المجال، بحيث تتكوّن لديه ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم فى هذا الصدد، وبمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حلّ هذه المشكلة أو يتوِّم هذه النظرية.

إن نصوص القرآن الكريم محددة والقضايا التى تتناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً. أما المشاكل الإنسانية وآفاق المعرفة فغير محددة مادامت الحياة مستمرة على هذه الكرة الأرضية، ولايمكن أن نجابه هذه المشكلات بظواهر النصوص المحددة. بل نجد المرونة والسعة فى الخطوط الأساسية التى تعرض لها آيات التنزيل الحكيم.

ومن خلال علل النصوص وهداياتها العامة ودلالاتها وظلالها نستطيع أن نصل إلى أنوار كاشفة ترسم لنا الطريق وتحدد لنا المعالم لتقويم كل مستحدث جديد.

لذا لايمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم أو بأسلوب (التفسير الموضوعى).

إن جمع أطراف موضوع مامن خلال نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة والإحاطة بدلالاتها يمكّن الباحث من القيام بدور اجتهادى للتوصّل إلى أفكار وقواعد عامة جديدة، وعلى ضوء هذه القواعد والهدايات المستمدّة من مقاصد النصوص الشريفة يستطيع الباحث أن يدرك معالجة الإسلام لهذه المعضلات والمشكلات.

ثانياً: إن تخصيص موضوع بالبحث والدراسة وجمع أطرافه والاطلاع على أسباب النزول للآيات المتعلقة به، وتحديدالمرحلة التى نزلت الآيات الكريمة تعالج بعض جوانبه، وتوجيه ماظاهره التعارض، كل ذلك يهيّء للموضوع جوّاً علمياً لدراسة هذا الموضوع بعمق وشمولية تُثرى المعلومات حوله وتبلور قضاياه وتبرز معالمه.

ومثل هذا العمق ومثل هذا التوسع لإبراز معالم الموضوع لايتيسر للباحث فى أى نوع من أنواع التفاسير سواء التحليلى، أو الإجمالى، أو المقارن، بل التفسير الموضوعى هو الأسلوب الأمثل فى بحث مثل هذه الأمور.

ثالثاً: عن طريق التفسير الموضوعى يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذى لاتنقضى عجائبه.

فكلما جدّت على الساحة معطيات جديدة لتطور الفكر البشرى، يعايشها المفسّر ويحيط بدقائقها وحقائقها ثم يلجأ إلى القرآن الكريم وإلى السنّة النبوية الشريفة ليستنطق النصوص الشريفة ويميط اللثام عن وجوه جديدة من الهدايات القرآنية.

ويجد أهل الاختصاص فى كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال وأن فى القرآن من الكفاية والغناء عن كل شئ:

﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

(٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١].

رابعاً: تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها: لقد نالت بعض العلوم القرآنية حظاً وافراً من جهود العلماء وصُنِّفت فيها المصنفات الكثيرة مثل العلوم المتعلِّقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهيّة لآيات الأحكام، إلاّ أن علوماً جديدة برزت تحتاج إلى تأهيل قواعدها على ضوء القرآن الكريم مثل (الإعجاز العلمى)، فقد برز هذا العلم وكثرت الكتابات فيه إلا أنه يحتاج إلى ضبطه بقواعد علمية مستمدّة من هدايات القرآن الكريم لتجنّب الإفراط والتفريط فى إدخال الآيات مجال البحث والمتعلقة بالعلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان.

وكذلك علم (أصول التربية القرآنية) فبعد بروز المدارس الاجتماعية ومدارس علم النفس فى الغرب، وغزوها للأمم والشعوب، ومحاولة إقامة صرح التعليم والتربية حسب مناهجها، رأى المفكرون المسلمون أن من الضرورة بمكان استخلاص مبادئ هذا العلم من هدايات القرآن الكريم ولا زالت الكتابات فى هذا الجانب قليلة جداً، إذ تحتاج مثل هذه العلوم إلى علماء راسخين فى علوم الشريعة، إلى جانب استيعابهم لثقافة العصر ومناهج المدارس الحديثة فى الغرب والشرق، إلى جانب ملَكة قوية فى الإبداع والاستنباط، ليقوم هذا العلم على أسس راسخة.

ومثل هذا (أصول علم الاقتصاد الإسلامى) و (أصول الإعلام الإسلامى).

إن كثيراً من العلوم تلعب دوراً هاماً فى حياتنا المعاصرة، ولا زالت معالم هذه العلوم غير واضحة الصلة بهدايات القرآن، ولايمكن أن نجد نصوصاً محدّدة من القرآن الكريم أو السنّة النبوية تناولتها، وإنما نستشفّ

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٥٠ - ٥١).

أصولها من خلال روح النصوص الكريمة وهدايات القرآن الكريم والسوابق القضائية والفقهية لسلف هذه الأمة. ولا وسيلة لوضع أسس هذه العلوم وبيان ضوابطها إلا من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي.

كما أن هنالك دراسات إسلامية ضخمة قامت ولكن لم تكن مناهج الباحثين فيها وثيقة الصلة بالهدايات القرآنية.

فعلم التاريخ البشرى أخذ منهجاً فى سرد الوقائع والأحداث من غير تعرّض لسنن الله فى المجتمعات الإنسانية من حيث الرقى والتقدم أو الانحطاط والتخلف علماً أن هدايات القرآن الكريم قد أبرزت هذه السنن بشكل دقيق عند عرض قصص الأمم السابقة مع أنبيائها.

ولقد كانت محاولة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه محاولة جادة وجيدة، إلا أننا لم نجد من تابع هذا العلم. ومن الجدير أن تقام دراسات قرآنية حول هذا الموضوع تحت عنوان: (علم الحضارة القرآنية).

بل إن هنالك جوانب من الدراسات قامت حول الأحكام التشريعية وتفسير آيات الأحكام إلا أننا لانجد مؤلفاً خاصاً كُتب حول إبراز مزايا التشريع الإسلامى وحِكَمه.

فعلى الرغم مما كتبه بعض العلماء فى ثنايا كتبهم حول الإعجاز التشريعى للقرآن كما فعل الشيخ عبدالعظيم الزرقانى فى (مناهل العرفان) والشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه (المعجزة الكبرى)، إلا أن الحاجة ماسة للكتابة حول فلسفة التشريع الإسلامى فى جميع مجالات الحياة وإبراز محاسنه على ضوء الآيات القرآنية.

إن المنهج الذى يغطّى هذه المجـــالات ويؤصّل هذه العلوم ويضع الأسس والضوابط لها هو منهج التفسير الموضوعى للآيات القرآنية.

من هنا كانت أهمية هذا النوع من التفسير.

***

(د) الفرق بين التفسير الموضوعى وانواع التفاسير الاخرى:

١) الفرق بين التفسير الموضوعى والتفسيرالإجمالى:

علمنا أن التفسير الموضوعى عبارة عن: جمع الآيات القرآنية التى تتحدث عن موضوع واحد، والإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد فى القرآن الكريم، بهدف الوصول إلى حقيقة واحدة تفيد الإنسان والمجتمع، مع ترتيب تلك الآيات على حسب النزول ما أمكن ذلك.

أما التفسير الإجمالى: فهو تفسير القرآن الكريم على حسب ترتيب تلاوته، والتعرض لآياته آية آية فى شرح مبسط يمكن أن يفهمه المتخصص وغيره، وتكون الغاية إيصال المعنى إلى الأفهام من أقصر طريق، وإبراز ما تهدف إليه الآيات من مقاصد وحكم سامية، وتكون صياغته فى ألفاظ فى متناول الجمهور ولا تعلو على أفهامهم، ولا مانع لتقريب المعنى إلى أفهام المخاطبين بالاستعانة بحديث نبوى شريف، أو أثر عن السلف الصالح أو حادثة تأريخية، أو قصة قرآنية، أو ذكر سبب النزول.

ومن الأمثلة لهذا النوع:

١) تفسير الأستاذ محمد فريد وجدى.

٢) تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى.

٢) الفرق بين انتفسير الموضوعى والتفسير التحليلى:

أما التفسير الموضوعى فكما علمنا سابقاً.

وأما التفسير التحليلى: فهو أن يقصد المفسر إلى الآيات القرآنية – حسب ترتيبها في التلاوة وكما هى مدونة في المصحف الشريف – ثم يفسرها بتحليل وتفصيل، كاشفاً عن كل ما يريد منها من معان وأوجه، فيحلل اللفظ من جهة اللغة العربية وأوجه استعمالاته وما يراد منها مما يناسب المقام، ويبين ما في الآية من الفصاحة والبيان وأوجه الإعجاز،

ومناسبة الآية للآية والسورة للسورة وبيان سبب النزول إن وجد، ثم بيان المعنى ومقاصد الشريعة من وراء هذا النص القرآنى، وما يستخلص من النص من فوائد وعبر وأحكام، مستعيناً على ذلك بما ورد من نص قرآنى أو سنة نبوية أو قول مأثور عن الصحابة أو التابعين، واضعاً ذلك فى أسلوب يناسب المخاطبين من متخصصين أو غيرهم، ويدخل تحت التفسير التحليلى ماهو معروف بالتفسير بالمأثور أو بالرأى.

ومن أنواع التفاسير التى عُنيت بما أثر فى القرآن نفسه أو بما جاء فى السنة النبوية أو أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان:

١) تفسير ابن جرير الطبرى (م سنة ٣١٠) (جامع البيان في تفسير القرآن الكريم).

٢) تفسير ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ): (تفسير القرآن العظيم).

والتفسير بالرأى منه المحمود ومنه المذموم: فما روعى فيه الضوابط التى وضعها العلماء، والتى لا يحق لأحد أن يمس قدسية تفسير كتاب الله تعالى إلا وهو ملم بها: فهذا هو التفسير المحمود، وما لم يراع فيه تلك الضوابط: فهو المذموم.

والتفاسير تحت هذا النوع متعددة الجوانب والأهداف، إذ أن كل مفسر برز فى جانب معين تغلب عليه هذه الناحية فى تفسيره، وإن كان الناظر فى كتابه لا يعدم فوائد جليلة فى الفنون المختلفة.

١) فهناك تفسير الفخر الرازى (م سنة ٦٠٦هـ): (مفاتيح الغيب) الذى حوى من كل الفنون، ولكنه تغلب عليه الناحية العقلية الفلسفية، والكلام على العقيدة الإسلامية كما يراها أهل السنة والجماعة.

٢) وهناك تفسير القرطبى (م سنة ٦٧١هـ): (الجامع لأحكام القرآن) حوى فنوناً كثيرة ولكنه تغلب عليه ناحية مذهبية فقهية هى الانتصار للمذهب المالكى.

٣) وتفسير الجصاص (م سنة ٣٧٠هـ) انتصر فيه للمذهب الحنفي.

٤) وبعضها قد خلص لسرد المكتشفات العلمية الحديثة، وأنبرى صاحبها لتحميل النص القرآنى مالا يحتمله بحال من الأحوال.

كتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم) وتفسير الأستاذ حنفى أحمد لبعض الآيات الكونية وتنزيلها على آيات القرآن الكريم، فى كتابه [التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن الكريم].

٥) وهناك التفسير المذهبى الذى جهد صاحبه فيه لبث عقيدته فى أثناء التفسير، بل نزل النص القرآنى على مستوى عقيدته وما تشربته نفسه فى هذا المجال، وفسره على هذا - كتفسير السلمى (م سنة ٤١٢هـ) (حقائق التفسير).

وتفسير الزمخشرى (م سنة ٥٣٨هـ): (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل).

٦) ومن أنواع التفاسير أنواع حاولت أن تبرز من القرآن الناحية الأدبية الاجتماعية، حيث نظرت إلى المشاكل الاجتماعية التى أصابت الأمة الإسلامية، ووضعت لها الحلول السليمة كما جاء فى كتاب رب العالمين.

ومن هذه التفاسير: تفسير الأستاذ سيد قطب (فى ظلال القرآن) وتفسير الشيخ رشيد رضا (تفسير المنار)، وتفسير الشيخ .. المراغى (تفسير المراغى).

٣) الفرق بين التفسير الموضوعى والتفسير المقارن:

أما التفسير الموضوعى فكما سبق شرحه.

وأما التفسير المقارن: فهو أن يعمد الباحث إلى بعض الآيات القرآنية أو إلى سورة معينة، ويستكشف آراء المفسرين فيها، ويوازن بين ما جاء فى

كل كتاب، ومسلك كل فى تفسيره الآيات أو السورة موضوع البحث. ثم يقارن بين ماورد فيها، وأن كلاً قد تأثر بالفن الذى غلب عليه. فهذا قد أكثر من تحليل الألفاظ، وهذا فى الإعراب، وهذا فى البلاغة، وهذا فى الفقه، وهذا فى سرد الحوادث والقصص، وهذا فى المعقول، وهذا فى المنقول، وهذا فى الكونيات، وهذا فى مذهبه الصوفى ... إلخ.

وبالجملة. فهو عبارة عن مقارنة نصوص كتب التفسير فى موضوع واحد، بعضها ببعض، بهدف معرفة منهج كل مفسر فى كتابه والوجهة التى يتجبها فى فهمه للقرآن الكريم.

طريقة البحث فى التفسير الموضوعى:

للباحث فى هذا النوع من التفسير طريقتان:

أولاهما: أن يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فهى تدور حول مركز ركيز يسمى بالغرض سواء أكان عاماً أ م خاصاً:

فنقول مثلا: سورة البقرة: الهدف منها تحديد الطريق القويم لمن أراد أن يسلك نفسه مسلك المتقين، ثم تفسر الموضوعات التى وردت فى السورة على هذا الهدف.

ونقول مثلا: سورة آل عمران: هدفها تحديد معالم الألوهية الحقة، وإثبات أن الله واحد لا شريك له. وهكذا فى كل سور القرآن.

ومما يعيننا على هذا النوع من نوعى التفسير الموضوعى:

١) كتاب (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) للبقاعى (م سنة ٨٨٥ هـ) وهو كتاب فريد، حيث أدمج كل موضوعات السورة تحت غرض واحد تدور عليه آيات السورة الواحدة.

٢) كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز، وهو كتاب لا يستغنى

إجمالاً عنه باحث، وقد تكلم فيه عن سورة البقرة، ونظمها فى عقد فريد يظهر النظم الإلهى، ذى الترتيب المحدد بمقدار معين.

ثانيتهما: أن نجمع الآيات ذات الهدف المشترك، ونرتبها علي حسب النزول – ما أمكن ذلك – مع الوقوف على أسباب النزول – إن وجد – ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، ونزنها بميزان العلم الصحيح، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد فى القرآن الكريم، بقصد الوصول إلى الغاية الموجوة من وراء هذا البحث القرآنى، وإفادة المجتمع الإسلامى منه.

والطريقة الثانية هى المعمول بها فى مجال البحوث العلمية الموضوعية، وإذا ما أطلقت كلمة: (تفسير موضوعى) فلا يفهم منه إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه، وأول مايجب على الباحث.

ما يجب على الباحث مراعاته لدى التفسير الموضوعى:

١) أن يجمع الآيات القرآنية التى تخدم موضوعه، مستعيناً على ذلك بحفظه وبالمصحف الشريف، وببعض الكتب التى عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد، أو التى تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم – مثل كتاب (المفردات) للراغب الأصفهاني (م سنة ٥٠٢هـ). و (معجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية. و «تفصيل آيات القرآن الكريم» لجول لابوم ويليه (المستدرك) لإدوارمونتيه: تعريب الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. و«المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» للإستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

٢) ثم يرتب هذه الآيات حسب النزول – ما أكن – ما نزل فى مكة أولاً ثم مانزل فى المدينة ثانياً – وما نزل أول العهدين قبل ما أنزل آخرهما.

٣) إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض، موقناً أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف تناقض، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين

الآيات بعضها وبعض، لاختلاف الجهة من الزمان أو المكان أو الحقيقة والمجاز أو اختلاف جهتى الفعل أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ونحو ذلك.

٤) تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة فى إيراد الآيات والغرض من هذا التشريع الإلهى، والغاية من وراء تنفيذ الأمر واجتناب النهى، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية وأقوال السلف الصالح، وإيراد أسباب النزول إن وجدت، وشرح قصة من قصص الأنبياء والأمم السالفة إن وردت في الآيات محل الشرح، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع.

٥) إخراج الموضوع فى صورة متكاملة تامة للبناء والإحكام، بمراعاة شروط البحث العلمى، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القرآن التى هى أقوم، طارحاً وراءه كلّ عقيدة فاسدة أو مؤثرات خارجية قد تغطى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنيه، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامى[1].

---

(١) انظر التفسير الموضوعى للقرآن الكريم الدكتور أحمد السيد الكومى/ والدكتور محمد القاسم دار الهدى للطباعة الطبعة الأولى الدكتور/ محمد القاسم و د/ أحمد سيد الكومى من ص ١٢ – ١٩. ودراسات فى التفسير الموضوعى د/ زاهر بن عواض الألمعى، مطابع الفرزدق بالرياض الطبعة الأولى ومباحث فى التفسير الموضوعى د/مصطفى مسلم دار القلم دمشق الطبعة الأولى.

ألوان التفسير الموضوعى

من خلال الاستعراض التاريخى لنشوء علم التفسير والمؤلفات فيه نستطيع أن نلحظ ثلاثة أنواع من ألوان التفسير الموضوعى:

اللون الأول:

أن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التى ترد فيها ـ أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.

وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية:

فكلمات: الأمة، الصدقة، الجهاد، الكتاب، الذين فى قلوبهم مرض، المنافقون، الزكاة، أهل الكتاب، الربا، نجدها تأخذ وجوهاً فى الاستعمال والدلالة.

فالمتبع لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم فى استخدام مادة الكلمة ودلالاتها.

ومن المعلوم أن كتب غريب القرآن، وكتب الأشباه والنظائر قد تضمنت هذا اللون من التفسير، وهى العمدة فى مثل هذه الأبحاث.

إلا أن المؤلفات القديمة من هذا اللون بقيت فى دائرة دلالة الكلمة فى موضعها، ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها فى مختلف السور، فبقى تفسيرهم للكلمة فى دائرة الدلالة اللفظية.

أما المعاصرون الذين كتبوا فى هذا اللون فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها فى مختلف المواضع فكان أشبه مايكون باللون الثانى من التفسير الموضوعى.

وفيما يلى ننقل نموذجاً على هذا اللون من التفسير الموضوعى من كتاب الدامغانى:

نموذج من كتاب: (إصلاح الوجوه كالنظائر)، للدامغانى:

قال الدامغانى تحت مادة((خ ي ر)[1].

«خ ي ر على ثمانية أوجه:

المال، الإيمان، الإسلام، أفضل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

فوجه منها الخير بمعنى المال، قوله سبحانه فى سورة البقرة: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾[2] يعنى مالاً. كقوله تعالى فيها: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[3] وكقوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُم﴾[4] أى لا تنفقوا مالاً وقوله تعالى فيها: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾[5] يعنى من مال، وقوله تعالى فى سورة (ص): ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾[6] يعنى حب المال، وكقوله تعالى فى سورة النور: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[7] يعنى مالاً.

الثانى: الخير يعنى الإيمان. قوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ﴾[8] يعنى لو علم الله فيهم إيماناً، كقوله تعالى

---

(١) إصلاح الوجوه والنظائر للدمغانى: ١٦٧ - ١٦٩ - دار العلم للملايين.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٠.

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٧٢.

(٦) سورة ص الآيـة ٣٢.

(٧) سورة النور الآية ٣٣.

(٨) سورة الانفال الآية ٢٣.

فيها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾(١) يعنى إيماناً، كقوله تعالى فى سورة هود: ﴿وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ﴾(٢) يعنى إيماناً.

الثالث: الخير يعنى الإسلام. قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(٣) يعنى الإسلام، نظيرها فى سورة (ق): ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾(٤) يعنى الإسلام نزلت فى الوليد بن المغيرة منع ابن أخيه أن يسلم، نظيرها فى سورة ﴿ن﴾(٥).

الرابع: خير يعنى أفضل. قوله تعالى فى سورة المؤمنون: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾(٦) يعنى أفضل الراحمين، كقوله تعالى فى سورة يونس: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(٧) أى أفضل الحاكمين، ونحوه قوله تعالى فى سورة الزخرف ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾(٨) يقول أفضل من هذا.

الخامس: الخير يعنى العافية. قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٩) يعنى بعافية.

---

(١) سورة الأنفال جزء من الآية ٧٠.

(٢) سورة هود جزء من الآية ٣١.

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ١٠٥.

(٤) سورة ق جزء من الآية ٢٥.

(٥) سورة ن الآية ١٢.

(٦) سورة المؤمنون ١١٨.

(٧) سورة يونس جزء من الآية ١٠٩.

(٨) سورة الزخرف جزء من الآية ٥٢.

(٩) سورة الأنعام ١٧.

السادس: الخير يعنى الأجر. قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾(١) يعنى لكم فيها أجر. يعنى البُدْن.

السابع: الخير يعنى الطعام. قوله تعالى فى سورة القصص: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢) يعنى الطعام.

الثامن: الخير يعنى به الظفر والغنيمة والطعن فى القتال قوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ وردَ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾(٣) يعنى ظفراً وغنيمة».

ونلاحظ أن المؤلف لم يربط بين أصل الكلمة واستعمالاتها وسياق الآيات التى وردت فيها الكلمة: ليبنى عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيهاً قرآنياً معيناً .. وإنما بقيت الكلمة حيث وردت فى نطاق الدلالة اللفظية المفردة.

***

نموذج من كتاب (المفردات فى غريب القرآن)،

للراغب الأصفهانى، المتوفى سنة ٥٠٢هـ فى كلمة (أمّة):

والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً، وجمعها أمم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾(٤) أى كل نوع منها على طريقة قد سخّرها الله عليها بالطبع. فهى بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُرْفة(٥)، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على

(١) سورة الحج جزء من الآية ٣٦.

(٢) سورة القصص جزء من الآية ٢٤.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٥.

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٣٨.

(٥) السُرفة: بضم السين وسكون الراء وفتح الفاء، دودة القز.

قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطبائع التى تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[١] أى صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة فى الضلال والكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٢] أى فى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[٣] أى جماعة يتخيّرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾[٤] أى على دين مجتمع.

قال الشاعر: وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع.

وقوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[٥] أى حين. وقُرِئ بعد أَمَهٍ[٦]: أى نسيان. وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[٧] أى قائماً مقام جماعة فى عبادة الله، نحو قولهم: فلان فى نفسه قبيلة.

وروى أنه يُحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمةً وحده[٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[٩] أى جماعة.

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٢١٣.

(٢) سورة هود جزء من الآية ١١٨.

(٣) سورة آل عمران جزء من الآية ١٠٤.

(٤) سورة الزخرف جزء من الآية ٢٢.

(٥) سورة يوسف جزء من الآية ٤٥.

(٦) هى قراءة الحسن، انظر: القراءات الشاذة لعبدالفتاح القاضى: ٥٧.

(٧) سورة النحل جزء من الآية ١٢٠.

(٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة: ١٤٣/٢.

(٩) سورة آل عمران جزء من الآية ١١٣.

وجعلها الزجاج ههنا للاستقامة، وقال تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار[١].

ثم انتقل إلى لفظة (أمّ) ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة (الإمام) ودلالاتها، ثم إلى كلمة (الأمّ) بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف (أمّا).

وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التى استُخدمت فيها كلمة (أمّة) وإنما تعرّض لها فى مواطنها، ولم يفصل القول فى عناصر تكوين دلالات هذه اللفظة، ولا مقومات استمرارها ودورها.

وقارن ذلك بما كتبه الدكتور أحمد حسن فرحات حول مصطلح الأمة ودلالتها اللغوية والفكرية والشرعية.

اللون الثاني:

تحديد موضوع ما يلحظ الباحث تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة فى العرض والتحليل والمناقشة والتعليق.

فيتتبّع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التى تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينسّق بين عناصره، ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم فى عرض أفكار الموضوع. ويحاول أن يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كل ما يذهب إليه، ويتحدث عنه مع ربط ذلك كله بواقع الناس ومشاكلهم ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها.

ويتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية فى تفسير الآيات فلا يذكر القراءات، ووجوه الإعراب والنكات البلاغية إلا بمقدار ما تُلقى أضواء على أفكار الموضوع الأساسية، ويعرض ما يتحدث عنه بأسلوب جذّاب

---

(١) انظر: المفردات للراغب: ٢٧ – ٢٨.

لتوضيح مرامى الآيات ومقاصدها والحكمة الإلهية فى عرض أفكار الموضوع بأساليب معينة واختيار ألفاظ محددة لها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعى هو المشهور فى عرف أهل الاختصاص، وإذا أطلق اسم (التفسير الموضوعى) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه.

ولقد كثرت المؤلفات قديماً وحديثاً فى هذا اللون من التفسير الموضوعى.

فما كُتب: إعجاز القرآن.

والناسخ والمنسوخ فى القرآن.

وأحكام القرآن.

وأمثال القرآن.

ومجاز القرآن ... قديماً إلا أمثلة ناطقة على أهمية هذا اللون من التفسير عند السلف الصالح من علماء هذه الأمة.

وكذلك الموضوعات المختلفة المعاصرة: المتعلقة بمجالات المعرفة المختلفة حيث ربطها الباحثون بالقرآن الكريم ونظروا بمنظاره إلى هذه المجالات وكيفية البحث عنها، سواء كانت هذه المجالات مما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان من أرض وسماوات وكواكب ونجوم وبحار ومحيطات وجبال وأنهار ونبات وحيوان، أو كانت مما يتعلق بالإنسان خلقه وتكوينه وعواطفه وغرائزه ومشاعره ونفسه وعقله، وأخلاقه وسموه وتسفله، أو بالحياة الاجتماعية التى يحياها الإنسان فى مجتمعه بدءاً بالعلاقات الأسرية والاجتماعية فى اليوم والعشيرة، والعلاقات الدولية والأمور الاقتصادية والسياسية، وأنظمة السلم والحرب والدعوة إلى الله، وأخذ العبر والعظات من سير الأقوام والأمم الماضية.

وما يتعلق كذلك بأمور الغيب من البعث بعد الموت والحشر والحساب والجنة والنار، وصنوف النعيم في دار السعادة للمتقين، وصنوف الشقاء للتعساء في دار الجحيم.

ولا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات، بل كلما جدّت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم ما يشبع فكره اقتناعاً، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن.

اللون الثالث من التفسير الموضوعي:

وهذا اللون شبيه باللون الثاني إلا أن دائرة هذا اللون أضيق من دائرة سابقه. حيث يبحث في هذا اللون عن الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة.

وطريقة البحث في هذا اللون هو: أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم ينظر إلى ترتيب نزول السورة من بين السور المكية أو المدنية، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة.

وسيجد الباحث أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية. فمن المعلوم أن السور المكية قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية الثلاثة بشكل مفصلٍ: الألوهية، الرسالة، البعث بعد الموت، لذا يمكن أن يتناول الباحث في كل سورة مكية أحد الجوانب الثلاثة من العقيدة، كما اشتمل كثير منها على الحث على أمهات الأخلاق والتنفير من مرذولها.

ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية المفسرين القدامى بل جاء في ثنايا تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخّي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما

فعل الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، وكما فعل البقاعى فى نظم الدرر، وعبد الحميد الفراهى فى كتابه نظام القرآن.

أما فى العصر الحديث فقد كان سيد قطب مولعاً بعرض أهداف وأساسيات كل سورة، قبل البدء فى تفسيرها، وبيان شخصية كل سورة وملامحها المتميزة عن بقية السور. والأساليب المتبعة فى عرض أفكارها. فيعتبر كتابه (فى ظلال القرآن) نموذجاً جيداً وبخاصة مقدمة تفسيره لكل سورة.

كما كتب غيره ممن جاء بعده مستفيداً من منهجه، كما فعل إبراهيم زيد الكيلانى فى كتابه (تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام)، وكتابه (معركة النبوة مع المشركين) أو: قضية الرسالة كما تعرضها سورة الأنعام وبينّها القرآن الكريم.

أما ما كتبه د. محمد البهى فى رسائله المسماة بالتفسير الموضوعى لسور القرآن الكريم فلا أعتبره من التفسير الموضوعى وإنما هو تفسير إجمالى للآيات فى السورة كما لم يحدّد موضوع كل سورة فسّرها، وإنما جاء بكلام إنشائى للمعنى الإجمالى للآيات.

إجمال لما عرض إليه القرآن من موضوعات

القرآن الكريم دستور الإنسانية من لدن رسالة سيدنا محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة، فهو ناسخ لما نزل من الكتب قبل ذلك، مهيمن على ما جاءت به ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(١). وهو بعد ذلك لا ينسخه كتاب ولا ينقضه قاموس، وهو فى الوقت نفسه رسالة عامة لجميع الناس قاصيهم ودانيهم، أبيضهم وأسودهم:

---

(١) سورة المائدة جزء من الآية ٤٨.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[١]. بل إنه تشريع لكل من الإنس والجن.

وكتاب مهمته تلك، ورسالته هذه، منسقة الأطراف، ممتدة الأزمان لا شك يكون مع تحديد صحفه وحصر جمله متعرضاً لكل موضوع يهم البشر فى عقيدتهم، ويرسم لهم طريق السعادة فى سلوكهم سواء فى ذلك ما يهدى إلى الخالق، وما يوجه إلى البحث عن أسرار الكون، وما يؤدى إلى تقوية العلاقة بين الخالق والمخلوق، أو إلى حسن الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ثم هو كذلك يوضح لهؤلاء الذين أرسل إليهم الحكمة من خلقهم كما يبين لهم ماذا يؤول إليه أمرهم.

وهو إذ ينشد لهم طريقاً إلى البحث عن أسرار الكون والكشف عن غامض هذا الوجود، لابد أن يكشف لهم عن نوافذ ذلك السر حتى يتسرب منها أشعة ضوئها، تستهدى بها نفوسهم، وتشرئب لها أعناق نفر منهم، فتسترعى عقولهم إلى السير فى تلك الجادة حتى تكشف ما أودع فى تلك الخلائق من قوى تظهر بمرور الأيام، وينتفعون بخلقها وثمارها على مدى الأزمان والأعوام.

نقول: كتاب كذلك رسالته، وعلى هذا المنوال هدايته، وهذه الذات الالهية مصدره ومنبعه لابد أن يكون ملماً بجميع الموضوعات التى بها يؤدى تلك المهمة الكبرى، وهذه المسئوليه العظمى مفصلا بعض التفصيل لهذه الموضوعات، ومجملا كثير منها على حسب ما تقتضيه تلك المهمات إجمالا وما تستلزمه تلك الحالات تفصيلا.

ولذلك تراه يعرض لكثير من الموضوعات نذكر على سبيل الإجمال بعضاً منها فنقول: تعرض القرآن الكريم لما يأتى:

---

(١) سورة سبأ جزء من الآية ٢٨.

أولاً: تعرض للألوهية فى وضعها الحقيقى وجلّى عنها ما أسدلته عليها الأوهام من أستار، وحجبت ضوءها عن أن يصل إلى الفطر الإنسانية فى دور سذاجتها حتى لبست الحق بالباطل، وأبرزت الزور فى صورة ينخدع بها كثير من الناس. فجاء القرآن مخاطباً العقل فى إثبات تلك الألوهية بإرسال الأضواء العقلية على الأهداف المنضوية أعلاماً للألوهية، وأزال ما يحيط بهذه الأعلام من ضباب وهو فى عرضه لذلك يبلغ المقصود من طريق ميسر قريب، ويفتح الباب أمام العقول بواضح البرهان غير مقيم فى ذلك الطريق عقبات من اصطلاحات علمية، ولا يثير فى جو تلك الهداية غباراً من أوهام المضللين.

ثانياً: ومن جملة ما تعرض له القرآن تلك الحياة الأخرى وقد صورها بظاهر نصوصه تصويراً يجعلها نتيجة حتمية تستوجبها صفة العدالة لتلك الذات الإلهية صاحبة الهيمنة الكلية على الكون بأسره، وهى بتلك الهيمنة تكون بعيدة عن اللهو والعبث مجافية للظلم محققة للعدل، وحيث تكون كذلك فهى لا تسوى بين محسن ومسىء وصالح وطالح ومحق ومبطل وضال ومهتدى، لذلك يقول فى مخاطبته مصوراً تلك الحياة: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم كيف تحكمون﴾(١) ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٢) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾(٣).

---

(١) سورة ن الآيتان ٣٥، ٣٦.

(٢) سورة ص الآية ٢٨.

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥، ١١٦.

ثالثاً: ومن ذلك ماتعرض له القرآن فى شأن هؤلاء الرسل الذين اصطفاهم الله تعالى من بين خلقه يحملون وحيه ويبلغون رسالاته، وهم إذا اصطفاهم الله تعالى ذلك الاصطفاه القدوة الحسنة لحسن معدنهم وطيب أصولهم؛ لأن تحمل الأعباء لمثل تلك المهمة إنما يكون لمن بلغ من المكانة شأواً واسعاً، ومن بلغ فى الذروة أكملها، وحيث كانوا مبلغين عن الله تعالى داعين إلى شرائعه فقد جعل الله تعالى طاعتهم من طاعته ومخالفتهم مستوجبة غضبه ومؤذنة بحربه، وحيث نصبوا أنفسهم للهداية قولا وضربوا المثل العليا عملا لا يتأتى منهم المعصية ولا تصدر منهم حوبة، ولا يثار فى جو سمائهم غبار من إثم، ولذلك تحسن بهم القدوة، وتكمل بتبعيتهم أفراد البشرية، وهم وإن جاءوا متفرقين فى العصور فهم شجرة واحدة ذات أصل واحد، وإن إنتشرت فروعها وتفرقت أغصانها، ولذلك وجب الإيمان بجميعهم دون تفرقة بينهم ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(١) ومن فرق بينهم كان هو الكافر حقا.

رابعاً: ومن ذلك ما جاء به ذلك الصنف الذين هم واسطة بين الله والناس، قد جعلهم الله تعالى خلقاً آخر ليس من عالم المادة والعناصر، يقومون بوحى الله إلى الرسل، كما يرعون البشر فى أمور معاشهم يحفظونهم فى تصرفاتهم، ويسطرون لهم أعمالهم، ويسجلون عليهم أفعالهم يتعاقبون فيهم ليلا ونهاراً عن اليمين والشمال يختلفون فى منازلهم، يتميزون فى مكانتهم، فهم علويون وسفليون، وأرضيون وسمائيون، وكروبيون. منهم الرؤساء ومنهم المرؤسون، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

خامساً: ما جاء به القرآن من تشريعات للفرد والمجتمع، فقد حرم على الناس دماءهم فيما بينهم، وصان عليهم عقولهم وأطرافهم، ووضع لها

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٥.

الديات جزاء لهم، وشرع لذلك القصاص حياة لهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾(١). ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٢). ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾(٣).

وحرم على الناس أعراضهم وحذرهم أن تنتهك فيما بينهم، ولم يبحها إلا لأزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، صيانة لها عن الاختلاط، وحفظاً لأنسابهم عن الضياع، ووضع لذلك الحدود الزاجرة، والعقوبات الرادعة، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤).

ونهانا عن أكل أموال الناس بيننا بالباطل عن طريق الغش والخداع والغصب والإكراه، وحيل الربا، وأنواع الاستغلال الحرام فقال: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٥).

وقد أبدلنا الله تعالى عن ذلك البيع والشراء وجعل ذلك عن تراضٍ فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾(٦) وأمر بإخراج الزكاة وتوزيعها

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ١٧٨.

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٩.

(٣) سورة المائدة جزء من الآية ٤٥.

(٤) سورة النور الآيتان ٢، ٣.

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٨.

(٦) سورة البقرة جزء من الآية ٢٧٥.

على أصحاب الحاجات، وأرباب الفاقات فقال: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١) لينزع الحقد والغل والحسد من نفوس الفقراء على الأغنياء، ويسود الأمن والطمأنينة والاستقرار والرخاء فى المجتمعات، وحتى لا تجمع الثروة فى يد بعض الأفراد، وحتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾(٢) وقال: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(٣).

وحثنا على القرض والصدقات وإنفاق المال فى وجوه البر والخيرات فقال ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾(٤)، ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾(٥).

سادساً: كذلك جاء القرآن الكريم فى المعاملات الاجتماعية بما يتفق مع شئوننا الخاصة ومصالحنا العامة، ويحفظ على الأمة كيانها، ويقوى بنيانها، ويديم سيها قوتها، ويحفظ اقتصادها، ويحقق لها رفاهيتها، ونظامها، ويسعدها بوحدتها، وتماسكها، ويجعلها خير أمة قوة ومنعة وأمناً وعدلا. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٠.

(٢) سورة التوبة الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة التوبة جزء من الآية ١٠٣.

(٤) سورة البقرة جزء من الآية ٢٤٥.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦١.

رَبِّكُمْ ﴾[١]. ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾[٢]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾[٣]. ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا ﴾[٤]. ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾[٥]. إلى غير ذلك من الآيات.

سابعاً: ومن ذلك ما جاء به القرآن الكريم من أكرم الخلال، وأكمل الخصال، وأسمى السجايا وأحسن الأفعال.

جاء يأمرنا بالعفو والصفح وكظم الغيظ وأداء الأمانة وإقامة العدل، وتنفيذ العهد، والوفاء بالعقد، والإصلاح بين الخلق، والصبر وحب الخير، وصلة الأرحام، وبر الوالدين وحسن الجوار والإستئذان، وإفشاء السلام، وغض الأبصار عن الحرام، والعطف والإحسان، والتعاون والتناصح، والصدق فى القول والإخلاص فى الدين والعمل.

ونهانا عن الإيذاء والظلم والغيبة والنميمة والتجسس على العورات، وظن السوء بالمؤمنين والمؤمنات، ورمى المحصنات الغافلات، والبغى والنفاق والغش والكذب والكبر والمنكر والعدوان والحسد والحقد والقتل والربا والزنا وشهادة الزور ولعب الميسر واللهو الحرام، والإسراف والتقصير وشرب الخمر. وغير ذلك مما لا يخفى على قارىء القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٦]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾[٧]. ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ١٩٨.

(٢) سورة الجمعة جزء من الآية ١٠.

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٢.

(٤) سورة البقرة جزء من الآية ١٦٨.

(٥) سورة الحديد جزء من الآية ٢٥.

(٦) سورة آل عمران جزء من الآية ١٣٤.

(٧) سورة النساء جزء من الآية ٥٨.

عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾[١]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[٢]. ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[٣]. ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾[٤]. ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾[٥]. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾[٦]. ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾[٧]. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾[٨]. ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾[٩]. ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[١٠]. ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾[١١] ﴿ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾[١٢]. ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾[١٣]... إلى غير ذلك من الآيات.

ثامناً: ما جاء فى القرآن الكريم خاصاً بالعبادات من صلاة، وصيام وحج وزكاة.

---

(١) سورة النحل جزء من الآية ٩١.

(٢) سورة المائدة جزء من الآية ١.

(٣) سورة الأنفال جزء من الآية ١.

(٤) سورة النساء جزء من الآية ١١٤.

(٥) سورة المؤمنون جزء من الآية ٦١.

(٦) سورة النساء جزء من الآية ١.

(٧) سورة النساء جزء من الآية ٣٦.

(٨) سورة النور جزء من الآية ٢٧.

(٩) سورة النور جزء من الآية ٣٠.

(١٠) سورة الحديد جزء من الآية ٧.

(١١) سورة المائدة الآية ٢.

(١٢) سورة النساء جزء من الآية ١٤٦.

(١٣) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٦.

فقد شرع القرآن الكريم منها للناس ما كان فى الغالب الكثير معقول المعنى، بين الحكمة، مفهوم الغاية، جلى المرمى، يتفق مع نشأتهم وخلقهم، ويتناسب مع استعدادهم وفطرهم، ويليق ببيئتهم وأحوالهم، ويدخل تحت قدرهم واستطاعتهم فلا مشقة ولا إرهاق، ولا تعجيز ولا إعنات، ولكن سهولة ويسر وسماحة ورفق﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(١)، ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾(٢)، ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾(٣).

تاسعاً: موقف القرآن من أهل الكتاب:

فقد ناظر القرآن الكريم علماء الدين من أهل الكتاب الماضين فعاب عليهم تحريفهم لكتبهم، وتبديلهم لها بما عندهم، وتأويلهم إياها بما لا يعتقدون أنه الحق فى دينهم، وتغييرهم ما جاء فيها بما يتفق مع رغباتهم وشهواتهم، فباعوا آخرتهم بدنيا غيرهم فى عرض قليل، وثمن زهيد، فخلطوا بين حقها وأباطيلهم ونبذوها وراء ظهورهم، وضيعوا ما استحفظوا عليه من كتاب ربهم وكانوا عليه شهداء، وأفسدوا عقائدهم فجعلوا لله أنداداً، واتخذوا من دونه أرباباً﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾(٤)، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٥)، ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٦)، ﴿أَتَأْمُرُونَ

(١) سورة آل عمران جزء من الآية ٩٧.

(٢) سورة الروم الآية ٣٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٤) سورة البينة جزء من الآية ٥.

(٥) سورة آل عمران الآية ٧١.

(٦) سورة المائدة الآية ٦٢.

النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(١).. إلى غير ذلك من الآيات التى يعلمها من تلى القرآن الكريم حق تلاوته.

عاشراً: وبالجملة قد أباح القرآن الكريم الطيبات من الرزق وحرم الخبائث، وأباح زينة الحياة الدنيا، وحرم الفواحش ماظهر منها وما بطن، وهذب الطباع، وزكى الأرواح، وسن الأحكام، وبين الحلال والحرام، وفصلَّ آية الحق، وأبان معالم الصدق، وخط للسعادة طرقاً وهيأ لها سبلا، لا يضل من سلكها، ولا يشقى من ارتادها، أقام الدليل والبرهان المفحم، وفك رقاب البشر من قيود الشهوات، وأنزلها منازل السادات، وكرمها على سائر المخلوقات، وكشف عن العظات البالغة، والحكم النافعة، ترى فيه الأمثال التى تقرب المعقول من المحس، تخضع لسلطانها وبيانها العقول وأن لها من صحة المعنى وصدق التعبير، وتنوع الأسلوب، وحسن البيان، ولطف الإشارة وإصابة الغرض، والوصول إلى الهدف، مالا يقدر عليه إلا الحكيم الخبير.

وما أعظم وصف رسول الله ﷺ للقرآن الكريم فيما أخرجه الترمذى عن علىّ رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت: يارسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبارك وتعالى، فيه نبأ من قبلكم، وخبر مابعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه..»(٢) الحديث: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٤.

(٢) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ باب فى فضل القرآن ص ٢١٨.

الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾(١).

هذا بعض ما عنى به القرآن من موضوعات تتغلغل فى صميم الحياة وتصلح دستوراً عاماً فى كل زمان ومكان، وتبرز للناس سر خلود القرآن وإعجازه وأنه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(٢).

ولا شك أن القرآن الكريم حفل بموضوعات تحدث عنها فى عديد من سوره وسار الحديث عنها من قبيل التفسير الموضوعي من ذلك، ظاهرة التكرار التى جاءت فى ثنايا القرآن، ومن ذلك الحديث عن القرآن الكريم نفسه، ولما كان الانس والجن يمثلان الثقلين جرى الحديث عنهم فى كثير من آيات القرآن الكريم فكان خلق الانسان معلماً من معالمه، وكان عالم الجان سمّى الانسان وقسيمه فى التحدث عنه. ولا شك أن للآيات الكونية فى القرآن الكريم مجالاً رحباً اعتنى القرآن بذكر ذلك كله كما اعتنى بعالم البحار، وما فيها من لألاء ومرجان، وجرى لسفنٍ تشبه الأعلام، ولما كان الفناء نهاية كل مخلوق كان للبعث والحساب والجزاء ومشاهد يوم القيامة والجنة والنار كان لذلك كله أهمية كبرى فى كتاب الله تعالى، وكان كل موضوع من الموضوعات سالفة الذكر كفيلاً لأن يكون للتفسير الموضوعى نصيباً فيه ومكاناً منه.

«وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٣)»

---

(١) سورة يونس الأيتان ٥٧، ٥٨.

(٢) مقدمة تفسير القرطبى ٤/١ ط دار الكتب «الأولى» والآية من سورة فصلت ٤٢.

(٣) سورة النحل جزء من الآية ٨٩.

منهج القرآن الكريم فى عرض موضوعاته

امتاز القرآن الكريم فى عرضه لموضوعاته بطريقة لم يسبق إليها فلا يستطيع أن يسلكها سالك أو ينتهجها ناهج، فهو فى عرضه يتخذ له أسلوباً يختص به، أعجز الإنس والجن عن معارضته، فتراه حين يعرضها يأتى بوجوه متعددة وأساليب متنوعة وأفانين متجددة، يراعى المقام فى كل موقف من مواقفه، ويطابق جميع مقتضيات الحال فى كل عبارة من عباراته، فله فى كل مقام مقال، وفى كل موضوع مجال، فمرة يكون خبراً ومرة إنشاءاً وتارة إظهاراً وأخرى إضماراً. يأتى بجملة إسمية كما يأتى بها فعلية، تتلون بين التكلم والغيبة والخطاب كما تتلون بين الماضى والحاضر والاستقبال.

تتصور بصورة الإنكار كما تتصور بصورة التمنى والاستفهام، وتكون على وجه الجزم كما تكون على وجه الرجاء.

طرق فى الأداء لا عهد للبشر بها فى أبلغ كلام، ولا مثيل لها فى أنصع بيان، غاية فى البلاغة ليس لها نهاية، ونهاية فى الفصاحة لا يجاوز الفصحاء مبتداها.

ثم هو فيما يعرضه من موضوعات شتى لا يهمل جانب النظر ولا يغض من شأنه، بل يحث عليه ويدعو إليه، ويتحاكم إلى العقول فى كشف الحق وبيان الصدق، يشفع حكمه ببيان حكمته، وتوجيه شرعته، ثم يدع للسامع الحرية وحسن الاختيار فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

وإن تعجب فعجب عرضه للموضوع الواحد ذى المعنى المتحد والهدف المشترك فإنك تجده مع تفرقه فى القرآن الكريم فى أماكن عدة ومع تباعد أوقات نزوله وتباين أزمان وصوله، ليس بين آياته مفارقة ولا تلفيق ولا تشويه ولا تناقض، بل هى وحدة واحدة مترابطة متناسقة تكون لك صورة واحدة فى أحسن تقويم، وتعطيك منظراً متآلفاً فى أبدع تنظيم، وتصور لك دمية متناسقة الإعضاء، مترابطة الأجزاء، متكاملة البناء، جيدة السبك،

قوية المعنى، متينة النظم، لا تناكـر بين معانيها فى العقول والأفهام، ولا تباين بين مباينها فى الأسماع والآذان، بل يكمل بعضها بعضاً ويأخذ بعضها بحجز بعض.

كل جزء يستدعى الآخر معه، وكل لفظ يقع من الثانى موقعه.

وبالجملة: فالقرآن الكريم فى عرضه لموضوعاته فريد فى بابه.

وإليك بعض الأمثلة فى طريقة العرض لتكون نبراساً يستضاء به فى منهج القرآن لعرضه لباقى موضوعاته:

وهاهى موضوعات الكتاب ومباحثه تترى وتتابع أمام كل قارىء فيجد فيها ومن خلالها ما رسمناه بإيزاء التفسير الموضوعى.

الموضوع الأول: ظاهرة التكرار فى القرآن الكريم.

الموضوع الثانى: الفرق بين الرحمن والرحيم والرحمة وما يتبعه.

الموضوع الثالث: القرآن الكريم وما يتعلق به.

الموضوع الرابع: خلق الإنسان وعظمة الله فيه.

الموضوع الخامس: عالم الجن.

الموضوع السادس: ربوبيته تعالى للمشارق والمغارب وعالم البحار.

الموضوع السابع: الفناء والبعث.

الموضوع الثامن: من مشاهد يوم القيامة حساب وجزاء.

الموضوع التاسع: حديث القرآن عن النار.

الموضوع العاشر: حديث القرآن عن الجنة فى أضواء الآيات التى فى آخر سورة الرحمن.

والله من وراء القصد،

المبحث الأول

١) ظاهرة التكرار:

إن حديثى عن ظاهرة التكرار التى كانت من أبرز الجوانب فى سورة الرحمن وفى غيرها من بعض سور القرآن الكريم أتناولها من جانبين، جهد الطاقة، فى القرآن بعامة، وفى سورة الرحمن بخاصة.

وحديثى فى غير سورة الرحمن عن هذه الظاهرة ليس على سبيل الاستقصاء والحصر وإنما من باب التجانس والربط بين هذه الظاهرة التى تخللت سورة الرحمن، وعلى سبيل المثال، غيرها من السور.

وقعت فى القرآن الكريم صور من التكرار اللفظى لبعض الجمل، أو الكلمات أو الأحداث.. كالقصص، ونحوها - وبعض هذا التكرار، يمر دون أن يجد منه القارىء أو السامع شيئا يلفته اليه، اذ يقع التكرار على نحو مألوف للأذن، على ما جرت به الأساليب البيانية فى اللغة وذلك كأن يتكرر اللفظ أو الجملة لغرض التوكيد - كقوله تعالى ﴿ كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين (٥) لترون الجحيم (٦) ﴾[١].

وكقوله تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) ﴾[٢] فمثل هذا التكرار لاجابة حاسة السمع بجديد لم تألفه الأذن من اعادة الجملة أو بعض أجزائها، بصورتها كامنة أو بتغيير بعض حروفها أو حركاتها. فذلك - مما وقع كثيرا فى اساليب الخطاب، فى لغتنا العربية. وقد يجيء التكرار فى القرآن على صورة غير مألوفة فى سلسلة تنتظم السورة كلها، وتأخذ بها من جميع أطرافها. كما فى سورة «القمر»، وفى سورة «الرحمن» التى نحن بصددها والتى هى موضوع المبحث، وسورة «المرسلات» .. فلقد تكررت مقاطع خاصة فى هذه السور الثلاث، مرات،

---

(١) سورة التكاثر الآيات من ٣:٦.

(٢) سورة الحاقة الآيات من ١:٣.

وبصورة واحدة، دون تحوير أو تبديل فيها.

ففي سورة «الرحمن» تكرر قوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) احدى وثلاثين مرة، وكان هذا المقطع آية مستقلة من بين آيات السورة، التى تبلغ ثمانيا وسبعين آية.

وفى سورة «المرسلات» تكرر قوله تعالى: (ويل يومئذ للمكذبين) احدى عشرة مرة وأعتبر هذا المقطع أية بذاتها من بين آيات السورة، وهى خمسون آية.

وفى سورة «القمر» أيضا حدث هذا التكرار فى قوله تعالى «فكيف كان عذابى ونذر» .

«أهل الأهواء ومرضى القلوب وموقفهم من التكرار ورد فريتهم»

ولقد كان هذا التكرار على تلك الصورة المرددة مدخلا يدخل منه أصحاب الأهواء ومرضى القلوب - على كتاب الله ليخوضوا فيه ويتخرصوا على نظمه، وليطعنوا فى بلاغته بهذا التكرار المتتابع، وليقولوا إنه بهذا التكرار قد أدخل الاضطراب على الأسلوب... وجعله ثقيلا على اللسان والسمع معا... وعلى هذا فان أسلوب القرآن ليس على المستوى الرفيع من أساليب البلاغة، وأن هذا الخلط الذى وقع فيه إنما هو أثر من آثار الأحوال النفسية التى كانت تنتاب «محمدا» فتخرج به عن وعيه !! وتلك رميات طائشة، وأحكام منقوضة لم تصدر عن رأى وفهم. ولم تجىء من جهة لها فى هذا الأمر قدم، أولها فيه وزن وحساب. إن الذين يقولون مثل هذا القول أو يحكونه عن غيرهم، هم أعاجم، أو أشباه أعاجم، لم يذوقوا البلاغة العربية ولم يتصلوا بأسرارها - ولو أنهم رزقوا شيئا من هذا، لما طاوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ولردهم الحياء أن يقولوا قولا لم يقع فى حساب «قريش» وهى تتصيد التهم والمفتريات على القرآن الكريم، حتى لقد بلغ بها الأمر أنها لو وجدت زورا من القول لقالته فيه، ورمته به.. ولكن الزور

نفسه أعياها أن تمسك به فى وجه هذا الحق المشرق، الذى لا يأتيه الباطل من ين يديه ولا من خلفه.

مصداقا لقول الله تعالى ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[2].

واذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول، وهى مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنها فكيف يساغ هذا القول من أعاجم أو شبه أعاجم؟ أن ذلك هو الضلال البعيد، وبعد..

فما هذا التكرار الذى وقع فى القرآن؟ وما مقام هذا التكرار ووزنه فى معايير .. البلاغة والبيان؟

التكرار فى القرآن:

ان التكرار فى القرآن هو إعجاز من مظاهر إعجازه، ووجه جديد من وجوه البلاغة لم ينطق به قبل القرآن لسان، فيجد فيه تلك الطلاوة، والحلاوة على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم، وذلك أن كل كلام يتكرر، الشأن فيه أنه يثقل ويسمج، ويسقط، أما التكرار الذى وقع فى القرآن، فانه كان فى المواضع التى جاء فيها، نغما جديدا، من أنغام الحسن الرائع: أضيف إلى تلك الأنغام السارية فى القرآن كله ... اقرأ هذه المقاطع أولا .. «فبأى آلاء ربكما تكذبان» «ويل يومئذ للمكذبين» .. (فكيف كان عذابى ونذر) اقرأ المقطع الأول، أو الآية الأولى وهى التى تكررت. احدى وثلاثين مرة فى سورة «الرحمن» ورددها مرات متتابعة، من غير فاصل يفصل بينها ماذا تجد؟ أتحس ثقلا على السمع؟ أتجد اضطرابا فى اللسان؟ ان كنت موسيقيا فليس لى معك حديث فى هذا الأمر فأنت خبير به عليم، وما عليك إلا أن

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٤.

تدندن بالآية الكريمة، وتحرك لسانك بحروفها، حرفا، حرفا .. كما تحرك أصابعك على أوتار العود .. وسينتهى بك ذلك إلى أن تجد نفسك فى نشوة نغم علوى سماوى لم يقع لأذنك من قبل، وإن تكن من أصحاب الموسيقى فرتل الآية الكريمة ترتيلا قرآنيا. مرة، ومرة، ومرات واملأ فمك بكلماتها وافتح أذنيك لرنينها .. وسترى أنك تنطق بلحن .. موسيقى يفيض رحمة. وينبض جلالا وقوة .. يهتف بالنفوس الشاردة أن ترجع إلى ربها، وبالقلوب الضالة أن تفر إلى خالقها .. وإلا فالويل والثبور.

واقرأ الآية الثانية .. (ويل يومئذ للمكذبين) واصنع معها صنيعك مع الآية الأولى تجد فيها ما وجدت فى سابقتها من تساوى النغم، وتجاوب الكلمات وتجاذب الحروف ... فلا خلخلة ولا اضطراب، ولا ثقل .. ولكن تعاضد وتساند .. ، واتساق، وتعانق. بين الحروف والكلمات وأحسبك قد وقعت على ما تكشف لك من اختلاف بين النغم الموسيقى هنا، والنغم الموسيقى هناك .. حيث اختلف المقام. فكان الكل مقام مقال، أو لحن. (ويل يومئذ للمكذبين) ليس فى هذا المقطع كله نبرة حنان ولا حرف لين .. انه بناء من صخر وجلمد. اجتمعت حروفه على تلك الصورة فكانت قذيفة منطلقة. أو شهابا منقضا .. يقع على رؤس المكذبين الضالين .. واصنع بالآية الثالثة صنيعك بأختيها السابقتين .. انك تجد المعنى واحدا .. (فكيف كان عذابى ونذر) تماسك بين الحروف لا اضطراب. ولا ثقل .. ثم هى كيان واحد .. هدير الرعد .. ودمدمة الصواعق .. ثم سكون كسكون القبور !! ثم ماذا؟ وهل قلنا فى هذه الآيات الثلاث كل ما ينبغى أن يقال؟ وفى تصورى – أن الضوء الذى سلط على هذه الآيات كان على جانب ضيق من جوانبها الفسيحة التى لا حدود لها، والتى لو درنا حولها الزمن كله ما بلغنا لها مدى، ولا انتهينا منها الى غاية .. اقرأ الآيات الثلاث معا .. على هذا الترتيب السابق، الأولى. فالثانية. فالثالثة .. هل وجدت شيئا من الجمع بينها على تلك الصورة؟ اقرأها مرة أخرى انك تجد أمرا عجيبا، وتدبيرا

حكيما، الآية الأولى سؤال، (فبأى آلاء ربكما تكذبان)؟ والآية الثانية جواب عن هذا السؤال (ويل يومئذ للمكذبين) والآية الثالثة سؤال وجواب معا (فكيف كان عذابى ونذر) فالسؤال فى الآية الأولى، يتوعد المكذبين بآيات الله ونعمه .. ويدعوهم إلى الايمان والعمل الصالح. وفى الآية الثانية، ويل وعذاب وبلاء - يلقى المكذبين الذين كذبوا بآلاء الله .. وفى الأية الثالثة، بيان للحال التى تكشف عنها البلاء والويل والعذاب الذى أحاط بالمكذبين والضالين، فأذاقهم عذاب السعير، والآيات الثلاث لم تقع فى القرآن على هذا الترتيب،.. وانما كل واحدة منها آية فى سورة. فالأولى كما عرفت فى سورة «الرحمن» والثانية فى سورة «المرسلات» والثالثة فى سورة «القمر».

وسورة «الرحمن» اختلف فيها، بمعنى - هل هى مدنية أو مكية؟ والراجح أنها مكية والسورتان الأخريان مكيتان بلا خوف، وقد يكون هذا التخريج الذى سيق على هذا الوجه لهذه الآيات، ربما كان بعيدا عن الواقع.. قائما على الشطط والتعسف فى التأويل .. وذلك للفواصل البعيدة التى تفصل بين السور الثلاث، زمانا، ومكانا، وان تقاربت سورتا القمر والرحمن كما هو واضح فى سور القرآن، ثم لهذه الفواصل التى تفصل الآيات الثلاث من سورها وترتيبها هذا الترتيب، وذلك أمر لا ينكر. ولكن ذكر على حسب ما اتضح لى عرضا، والداعى لذلك. هو الاحساس بما اشتمل عليه القرآن من أسرار، فوقع هذا الخاطر كما سبق على غير انتظار، أو تدبير فذكر تصورا على أنه خاطرا مرسلا: لا رأيا محكما وقد ينقدح من الخاطر المرسل مالا ينقدح من الرأى المحكم، وقد كان حديثى عن هذه الآيات المكررة حديثا خاصا بها، من حيث إنها فى ذاتها نغم موسيقى، يلذ السمع، ولا يثقل على اللسان وان تكرر عشرات فى صورة مفيدة.

ولقد رأيت كيف كان هذا، وكيف صدقتك التجربة، فيما حدثتك عنه من شأنها على هذا الوجه. ولكن هذه الآيات لم تجىء منقطعة هكذا عن غيرها ولا مسوقة هذا المساق المنفصل. بل هى آية فى سورة، فاذا نظرت اليها

مكررة قلت انهن آيات فى سورة. وأنت اذ تقرأ هذه السور الثلاث تجد لهذه الآيات فى سورها موقعا غير الموقع الذى وجدته حين قرأتها وحدها بعيدة عن الجو الذى يحيط بها. فيما بين يديها وما خلفها من آيات وهنا يتجلى لك اعجاز القرآن، ويبدو لك من هذه الآيات فى روعة نظمها وحسن نغمها مالم يبد لك من قبل.

ولا أريد أن آخذ عليك الطريق الى كتاب الله الكريم لتتلو فيه هذه السور فتقرأ السورة كلها، وتتأمل وضع الآية المكررة فيها وتتحسس فى ما يدخل عليك من هذا التكرار، من روعة وقهر وسطوة.

ولكن هذا لا يردنى عن أن أسبقك الى كتاب الله، فأقتطف منه بعضا من كل سورة من تلك السور لنرتلها معا، ثم تعود أنت فتنفرد بنفسك وترتل ما شاء الله أن ترتل. لنقرأ مطلع سورة «الرحمن» ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١١ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(١).

أنظر كيف يطلع هذا المطلع على تلك الصورة الرائعة الفريدة من النظم. فأنت بين خمس آيات تلاحمت، وتماسكت دون أن يقوم بينها حرف عطف. ان مابينها من إلف يجعلها فى غنى عن أن يستجلب لها عاطف يعطف بعضها على بعض ثم أنظر كيف بنيت فواصل السورة من أول أمرها

(١) سورة الرحمن الآيات من ١:٢٥.

على النون قبلها ألف ممدوده هي نفس الفاصلة التي قامت عليها الآية المكررة (فبأي آلاء ربكما تكذبان) أنظر مرة أخرى الى هذا التدبير الحكيم الذى تطلع به عليك هذه المقدمة من الفواصل المتتابعة المتماثلة مع فاصلة الآية المكررة الميزان - الميزان - الميزان - للأنام .. الأكمام .. الريحان. ثم بعد هذا كله تجيء الفاصله (تكذبان) حيث لم تدخل الآية المكررة فى السورة الا بعد اثنتى عشرة فاصلة فى اثنتى عشرة آية. كلها من نغم الفاصلة المكررة، وعلى وزنها، وهذا من شأنه أن يقيم الأذن على هذا النغم ويربطها به، فاذا تكررت لفظة بعد ذلك لم تجد الطريق الى السمع مسدودا عليها، بل ان الأذن تنفتح لها وتدعوها اليها، وتجذبها نحوها. وانظر مرة ثالثة فلقد سبق هذا التكرار المنتظر بتكرار يمهد له، ويعد السمع واللسان لاستقباله وذلك بأن تكررت كلمة (الميزان) ثلاث مرات فى ثلاث آيات متتابعة دون أن تفصل بينها آيات أخرى، ولا شك أن هذا تمهيد بليغ للتكرار الذى سيجيء بعد هذا مباشرة، (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1] وفى سورة المرسلات يجيء مطلعها هكذا ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾[2].

هذه أربع عشرة آية من أول السورة. لم تذكر بينها الآية المكررة. ثم بعدها مباشرة تجيء هذه الآية وتتتابع هكذا ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ

---

(١) سورة ق الآية ٣٦.

(٢) سورة المرسلات الآيات من ١:١٤.

نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾(١).

وهكذا تمضى الآية الى آخر السورة على هذا النسق العجيب من النظم، فعلى رأس كل أيتين أو ثلاث آيات، أو أربع أو خمس، تجىء الآية المكررة وكأنها خاتمة المقطع فى مقاطع «السيمفونية» الموسيقية. وأنت ترى أن هذه السورة الكريمة لم تتحد فيها فواصل الآيات كما رأينا ذلك فى سورة «الرحمن» مما كان له أثره العظيم فى تجاذب الآيات وتعانق فواصلها ولكن الذى فات هذه السورة من اتحاد الفاصلة أستعيض عنه بتقسيم السورة الى مقاطع، كل مقطع منها يمثل وحدة من النغم في توازن الآيات وتماثل الفواصل، فكان هذا العمل المحكم عاملا حاسما فى اقرار الآية المكررة بين آيات السورة فى وضع مطمئن مكين، ومن التدبير الذى قامت عليه هذه السورة أن آياتها الأولى وهى أربع عشرة آية لم تذكر فيها الآية المكررة - هذه الآيات لم تجىء على نسق واحد من النظم، ولا على وحدة واحدة من الفواصل .. بل جاءت على مقاطع كل مقطع منها يمثل حالا من أحوال النظم. على نحو ماستكون عليه صورة النظم بعد أن تدخل عليه الآية المكررة، حين جاء على مقاطع، كل مقطع منها يمثل وحدة من وحدات النغم الموسيقى للسورة كلها فسبحان من هذا كلامه.

وسورة القمر جاءت على نظم عجيب فريد، توازن فى الآيات ووحدة

---

(١) سورة المرسلات الآيات من ١٥:٢٨.

فى الفاصلة، فلقد جاءت الآيات كلها على وزن يكاد يكون واحدا، أشبه بشطر البيت من الشعر.

وجاءت الفواصل كلها على صورة واحدة، أشبه بالقافية فى الشعر، حرف الروى فيها هو الراء، مسبوقة بحرفين متحركين قبلها، أنظر ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١).

فهذا التوازن بين الآيات – وان لم يكن على صورة الشعر فى تعادل التفعلات بين صدر البيت وعجزه – قد جعل النغم الموسيقى ممسكا بها جميعا فى لحن واحد متساوى فى الايقاع قويا متدفقا كتدفق السيل، حتى يقع على «القرار» فيستقر عنده ويسكن اليه، وانظر – أى قرار يحمل هذا البحر المتدفق ويحويه فى صدره. انه حرف واحد هو حرف (الراء) وهو أقوى حرف فى حروف اللغة العربية، وأشدها تماسكا فاذا أوقف عليه بالسكون انبعج فى رخامة، ولين، وصار أشبه بالوادى العميق الرحب بين

---

(١) سورة القمر الآيات من ١: ١٧.

يدى جبل تنهمر عيونه، وتتدفق سهوله، وانظر أيضا. فانك لترى أن الآية المكررة هنا «فكيف كان عذابى ونذر» لم تدخل على السورة الا بعد أن جاء منها خمس عشرة آية. وترى أيضا ما أشرت إليه من توازن الآيات، ووحدة الفواصل وتمضى السورة على هذا النغم، إلى آخرها. حتى تعانق الآية الأخيرة سورة «الرحمن» التى عرفت أمرها من قبل، وما فيها من تكرار الآية «فبأى آلاء ربكما تكذبان» احدى وثلاثين مرة.

وسورة «القمر» هذه على ما جاءت عليه من هذا التوازن فى الآيات وهذا التوافق فى الفواصل تعتبر مقدمة طبيعية لسورة «الرحمن» وانتقالا من نغم عاصف هادر الى نغم ملاطف موادع. حيث تبدأ سورة «القمر» مزمجرة مدمدمة، ثم تختم بهذا الختام الرضى الودود ..» ان المتقين فى جنات ونهر، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾[1] وبهذا يمكن أن يوصل بين السورتين كأنهما سورة واحدة «الرحمن .. علم القرآن، خلق الانسان، علمه البيان».

هذا مثل للتكرار الذى جاء فى القرآن، والذى نظر اليه بعض الناس نظرا مقلوبا، فرأوه اختلالا فى النظم، واضطرابا فى الأسلوب، واسفافا فى البيان، على حين أنه مذهب من القول لم يكن فى مقدور العرب أن يرنوا اليه، وضرب من البلاغة حاوله البلغاء فوقفوا دونه، فلما جاء به القرآن على هذا الوجه. رأوا فيه وجه الاعجاز سافرا، فخشعوا له وخروا ساجدين تحت قدميه: وماذا يكون منهم غير الخشوع والسجود فى هذا المقام، واذا هم لم يخشعوا ويسجدوا لهذا الجلال وهذا الاعجاز، فلأى جلال واعجاز يخشعون ويسجدون؟

---

(١) سورة القمر الآية ٥٥.

لقد تحداهم القرآن بالنظم السمح السهل المألوف فعجزوا عن مطاولته عجزا أستيئاس وإستسلام. وتحداهم بالجزل الفخم من النظم فأعياهم أن يرتقوا هذا المرتقى وأن يطلعوا هذا المطلع. وأقاموا على ماهم فيه من يأس وإستسلام، ونسج لهم نسجا جمع بين السمح السهل والفخم الجزل فزادتهم تلك الصورة من النظم حيرة وحسرة، ثم لقيهم بهذا النظم الفريد العجيب، فنسج لهم من الآية الواحدة سورة يعيد فيها الآية ويكررها بلفظها .. شأن الألكن العاجز .. تتكسر الكلمة على فمه وتتكرر، وإذا بهذا الكلام المكرر المعاد هو الفصاحة كلها، حواها من أطرافها وإذا هو الحسن كله، جمعه من جميع وجوهه، ﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (٢١) ﴾[١].

علماء السلف وظاهرة التكرار

هذا وقد كانت هذه الظاهرة القرآنية - ظاهرة التكرار: موضع نظر كثير من علماء السلف وكان لكل منهم رأيه الذى استراح له، واطمأن اليه فى حكمة هذا التكرار، وفى أثره البلاغى فى نظم القرآن واعجازه.

يقول الزركشى: ان عادة العرب فى خطاباتها اذا اهتمت بشىء ارادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء اليه - كررته توكيدا وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه - أو الاجتهاد فى الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء «وانما نزل القرآن بلغاتهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم فى عجزهم عن المعارضة» ثم يقول «وعلى ذلك يحمل ما ورد من تكرار المواعظ الوعد والوعيد فى القرآن - لأن الانسان مجبول من الطبائع المختلفة، ولكنها داعية الى الشهوات، ولا يقمع ذلك الا تكرار المواعظ والقوارع قال تعالى - ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾[٢]

---

(١) سورة الأنشقاق الآيتان ٢٠، ٢١.

(٢) سورة القمر جزء من الآية ١٧.

قال فى الكشاف، سهلناه للإدّكار والاتعاظ بأن نسجناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد[١].

ثم يقول الزركشى (متحدثا عن التكرار وأثره: وفائدته العظمى التقرير، وقد قيل الكلام اذا تكرر تقرر، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن السبب الذى لأجله كرر الأقاصيص والأخبار فى القرآن فقال﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[٣].

وكنت آمل أن يكشف لنا الزركشى عن هذا المعنى الذى تحدث عنه فى شأن التكرار ووزنه فى الكلام فيعرض سَورا من التكرار القرآنى، ويجلى روعة هذا التكرار، وما كان له من أثر فى تقرير المعنى وتوكيده دون أن يجور على النظم القرآنى ويأخذ من اتساقه وتجاوب كلماته ومقاطعه. ولكن الزركشى وقف بنا عند رأيه فى أن التكرار القرآنى هو أسلوب من أساليب البيان العربى، وأن القرآن جرى فى هذا على ما كان للعرب من أساليب البيان العربى وأن القرآن جرى فى هذا على ما كان للعرب من أساليب التكرار فى مواقف التوكيد، والدعاء، والتقرير.

وذلك فى جُسَيمات الأمور، وعظائمها .. والقرآن الكريم وان سلك هذا المسلك المألوف فى التكرار إلا أنه خرج به عما كان يلحقه عادة من قلق النظم، واضطراب الأسلوب، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام، فيبدو وجة الكلام جافيا كالحا، وهذا كما قلت اعجاز آخر من اعجاز القرآن اذ أقام من الأسلوب القلق المضطرب، المفكك أسلوبا متساوقا، متجانسا، متماسكا فى

---

(١) انظر كتاب حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل حـ ٤ ص ٣٤٦.

(٢) سورة القصص الآية ٥١.

(٣) سورة طه الآية ١١٣.

أروع نظم وأحكم بيان[1] وفي مجلس خاص من مجالس الشريف المرتضى يشرح فيه ظاهرة التكرار في القرآن ويعرض آراء العلماء فيها فيرد بعضا، ويقبل بعضا ويجرح رأيا، ويعدل آخر. ثم يدلي برأيه الذى ارتضاه لتفسير هذه الظاهرة.

يقول المرتضى في معرض التكرار الذى جاء في سورة «الكافرون»: إن سأل سائل فقال: ما وجه التكرار في سورة الكافرون؟، وما الذى حسن إعادة النفي لكونه عابدا ما يعبدون؟ وكونهم عابدين ما يعبد؟

وذكر ذلك مرة واحدة يغني، ثم يجيء برأى ابن قتيبه جوابا على هذا السؤال وبالطعن الذى وجه إلى هذا الرأى .. ثم يقول: وعن هذا السؤال ثلاثة أجوبة كل واحد منها أوضح مما ذكره ابن قتيبه:

أولها: ما حكى عن أبي العباس ثعلب أنه قال: إنما حسن التكرار لأن تحت كل لفظة معنى ليس هو تحت الأخرى، وتلخيص الكلام (قل ياأيها الكافرون لآ أعبد ما تعبدون) الساعة وفي هذا الحال - (ولا أنتم عابدون ما أعبد) في هذه الحال أيضا، فاختص منه - أى من النبي - ومنهم - أى من الكافرين - بالحال: وقال فيما بعد (ولا أنا عابد ماعبدتم) في المستقبل (ولآ أنتم عابدون ما أعبد) فيما تستقبلون، فاختلفت المعاني، وحسن التكرار لاختلافها، ثم يعلق على هذا الجواب بقوله: «يجب أن تكون الصورة مختصة بمن المعلوم في حالة أنه لا يؤمن؟ وقد ذكر (مقاتل) وغيره أنها .. نزلت في أبي جهل والمستهزئين ولم يؤمن من الذين نزلت فيهم أحد. وهم العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، وعدى بن قيس».

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن جـ ٣ ص ١٠ التكرار على وجه التأكيد للزركشي.

وبعد أن يعرض المرتضى الجوابين الآخرين عن التكرار فى سورة «قل ياأيها الكافرون» يعرض للتكرار الذى وقع فى سورة «الرحمن» فيقول: وأما التكرار فى سورة الرحمن فإنما حسن للتقرير بالنعم المعددة، فكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها، ووبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره:

ألم أحسن إليك بأن خولتك الأموال؟ ألم أحسن إليك بأن خلصتك من المكاره؟ ألم أحسن إليك بأن فعلت بك كذا وكذا؟ فيحسن منه التكرير لإختلاف ما يقرره به، وهذا كثير فى كلام العرب وأشعارهم:

قال مهلهل بن ربيعه يرثى أخاه كليبا:

على أن ليس عدلا من كليب .. إذا طرد اليتيم عن الجزور

على أن ليس عدلا من كليب .. إذا ما ضيم جيران المجير

على أن ليس عدلا من كليب .. إذا رجف العضاة من الدبور

وقد تكرر هذا اللفظ ثمانى مرات فى ثمانى أبيات ثم ذكر رثاء ليلى الأخيلية فى توبة ابن الحمير وقد كررت.

«نعم لعمرو المرء أبكى لفقده»

أربعة مرات فى أربع أبيات « المعانى التى عددتها على نحو ماذكرته، وقال الحارث بن عباد: يرثى إبنه ويناهب لطلب ثأره من قاتله المهلهل بن ربيعة.

قربا مربط النعامة منى .. لقامت حرب وائل عن جبال

وكرر قوله «قربا مربط النعامة منى» فى أبيات كثيرة من القصيدة للمعنى الذى ذكر)[١].

(١) انتهى بتصرف من كتاب: أمالى المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد حـ ١ ص ١٢٠. للشريف المرتضى العلوى.

وهذا هو الجواب عن التكرار فى سورة المرسلات فى قوله تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) وهنا سؤال يلوح فى الأفق لابد من ذكره وهو: فإن قال قائل إذا كان الذى حَسَّنَ التكرار فى سورة الرحمن ماعدده من آلائه ونعمه، فقد عدد فى ذلك ما ليس بنعمة، وهو قوله تعالى (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) وقوله: (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) فكيف يحسن أن يقول بعقب هذا (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وليس هذا من الآلاء والنعم؟ قلت: الوجه فى ذلك أن فعل العقاب وإن لم يكن نعمة، فذكره ووصفه، والإنذار به من أكبر النعم لأن فى ذلك زجرا عما يستحق به العقاب، وبعثا على ما يستحق به الثواب، فإنما أشار بقوله: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) بعد ذكر جهنم والعذاب فيها - إلى نعمته بوصفها - أى جهنم - والإنذار بعقابها - وهذا مما لا شبهة فى كونه نعمة؟؟ هذه هى سبيل التكرار فى القرآن - لا يجىء متكلفا، ولا يصدر عن عجز عن تناول اللفظ الذى يصلح المعنى عليه، وإنما يجىء حين يجىء ليخدم المعنى، ولا يخل بتساوق النظم. بل يمد النغم الموسيقى بلون جديد يزداد به النغم روعة وقوة، ولكن لسائل أن يسأل: أما كان من الممكن أن يجىء القرآن بألفاظ مختلفة لهذا المعنى الذى حمله اللفظ الذى تكرر؟

وألم يكن فى اللغة مرادف أو مرادفات لقوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان)؟ أو لقوله (ويل يومئذ للمكذبين) ..؟

إن ذلك لو حدث لخفف من حدة هذا اللون الصارخ فى التكرار؟

والجواب على هذا أن القرآن لو أراد أن يعدل عن هذا الأسلوب الذى أراده على تلك الصورة لوجد أكثر من اتجاه يتجه إليه، ليجىء باللفظ الذى يؤدى المعنى المراد، ولأقام السورة على نظم غير هذا النظم، ولأخرجها على نسق غير ذلك النسق مع احتفاظها بالمعنى المؤدى بها على صورتها التى جاءت بها، سواء أكان ذلك فى سورة «الرحمن» أم فى سورة «المرسلات» أم

في غيرهما من المواضع التى وقع فيها التكرار .. ولكن هذا الأسلوب الذى جاءت عليه الألفاظ التى تكررت كان عن قصد، وعن تدبير يبدو لى منه - فيما أرى فوائد متعدده.

فوائد التكرار

أولاً: إيقاظ المشاعر، وإلفات العقول بهذا الخروج على المألوف من الخطاب وذلك لما يقتضيه الموقف من يقظة ووعى، وحذر من أن يفلت من بين يدى الإنسان ما ينبغى أن يلقى به هذا الموقف من استعداد نفسى وعقلى، حتى ينتفع بما فيه من عبرة وعظة: ولو جاء عرض هذا الموقف بأسلوب مألوف فلربما غفل عنه كثير من الناس، ولربما التفت اليه من التفت منهم بنفس فاترة، وعقل شارد، وسورة «الرحمن» التى تكرر فيها لفظ (فبأى آلاء ربكما تكذبان) معرض متكامل لنعم الله، ولقدرة الله، ولرحمة الله ولجلال الله وعظمته فإذا طوف بالانسان فى هذا المعرض، ولم يكن معه الدليل الذى يشير له إلى كل ما ضم عليه هذا المعرض من خير وينبهه إلى ما ينبغى أن يتزود به من هذا الخير فلربما طاف ما طاف ثم خرج صفر اليدين .. لم يحمل من المعروضات إلا صورا وخيالات لا تلبث أن تزول، فكان قوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) هو الدليل الذى يصحب قارىء السورة أو سامعها من أولها إلى آخرها .. كلما عرضت آية من آيات الله، أو تجلت نعمة من نعمه، طلع عليه هذا الدليل يقول له هذا القول الكريم (فبأى آلاء ربكما تكذبان) دون أن يتغير وجهه، أو صوته حتى يكون ذلك آلف لقارىء السورة أو سامعها. فإنه طوال هذه الرحلة لا يتغير عليه وجه الدليل ولا صوته، وفى ذلك ما فيه من تأثير نفسى واطمئنان قلبى .. لا يجده المرء لو طلع عليه فى كل خطوة من رحلته تلك، وجه جديد، وصارخ جديد، وكذلك الشأن فى مواقف الوعيد التى جاءت فى سورة «المرسلات» وما يطلع وراء كل موقف من صارخ يصرخ (ويل يومئذ للمكذبين) فإن امتداد هذا الصوت من أول

السورة إلى آخرها دون أن يتغير وجه الصارخ، أو تختلف نبراته، فيه تمكين قوى لهذا الصوت أن يزلزل النفوس ويملأ القلوب فزعا وولعا من هذه المواقف التى تعرضها الآيات، فيفر منها إلى أى وجه يباعد بينه وبينها، ولو أن صوت هذا الصارخ يتغير من موقف إلى موقف لما كان لهذا الصوت ذلك الوقع الشديد من التأثير على النفس، ولو وجد السامع لكل صوت حالا تنقله من حالته التى هو فيها وهذه الخلخلة تذهب بكثير من الأثر النفسى للصوت الواحد الممتد، وتجعله قطعا ممزقة يجد المرء فى خلالها شيئا من الراحة والأمن. وإن استقبل بعدها أشد الأصوات إزعاجا وإرعادا، وكذلك أيضا التكرار الذى جاء فى سورة «القمر» فهو زجر بعد زجر، وعذاب فوق عذاب - فهذه المثلات التى نزلت بالضالين المكذبين لرسل الله، وما ساق الله إليهم فيها من مهلكات، هى أو مثلها نذير للضالين المكذبين بمحمد ﷺ وهى ليست ببعيدة منهم إذ قد أصابت إخوة لهم من قبل (كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر) فهذا السؤال الذى يقع مكررا فى أعقاب هذه المثلات التى أصابت قوم نوح وعاد وثمود ليس متوجها إلى أولئك الذين أبيدوا وأهلكوا وإنما هو إلى أولئك المعاندين المكذبين بمحمد ﷺ، فلينظروا فى مخلفات هؤلاء الأقوام وليأخذوا الجواب منها، وهناك يجدون الجواب حاضرا: - طوفان يأخذ كل شىء، وريح تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية، وصيحة تتمزق منها الاجساد، فإذا الناس كهشيم محتظر.

ثانياً: إن تفرد القرآن بهذا اللون من الأسلوب مع احتفاظه بمستواه الذى عرف له من روعة النظم، وجماله واتساق نغمه - هو شهادة قائمة تشهد للقرآن بالإعجاز - فالمعروف عن التكرار أنه إذا وقع فى كلام الناس نزل بالكلام عن درجة البلاغة، وأخل بمقتضيات الفصاحة، وكسى الكلام برودة وسماجة، ولم يقع التكرار فى الأدب العربى إلا فى ندرة ، وفى الشعر خاصة لأن الوزن والقافية يعملان عملهما فى تلطيف غثاثة التكرار أو

تخفيف ثقله أما إذا وقع التكرار فى النثر - خطابة أو كتابة فإنه يسقط الكلام، ويذهب به فلا يحسب فى الأدب، ولا يضاف إليه - ومن عجيب أمر القرآن فى هذا، أنه جعل التكرار الذى جاء به فى سورة «الرحمن» وفى سورة «القمر» وفى سورة «المرسلات» جعله آية مستقلة: تعقيبا على آية سابقة، فكأنها بالنسبة للآية التى قبلها المصراع الثانى للبيت من الشعر، أو الفاصلة فى الآية، على حين أن الذى تكرر فى الشعر كان يجىء دائما صدرا للبيت ومصراعا أولا له: وذلك لتخفى القافية هذا العيب الناجم عن التكرار ولو أن التكرار كان فى الشطر الثانى من الأبيات التى وقع فيها التكرار لفسد النظم واضطرب فانظر كيف جاء التكرار فى القرآن متخيّرا المواطن التى تجنبها العرب فرارا من الثقل، وخوفا من السقوط فلم يجيئوا به فى النثر وجاءوا به فى الشعر، وفى الشطر الأول من البيت.

وجاء القرآن به فى غير ثوب شعرى، وفى غير الصدر من الآية فكان ذلك إعجازا من القرآن، إذ قام النثر فى التأثير بما لم يقم به الشعر كما احتمل نظمه هذا التكرار من غير أن يستعين على تخفيفه بوزن الشعر وقافيته، فجاء أخف وقعا وألطف مدخلا على الأذن من الشعر بجميع ما فيه من ألوان النغم والموسيقى.

ثالثاً: إن هذا التكرار فى ذاته يخدم غرضا أصيلا من أغراض الدعوه وهو تثبيت القلوب على الحق، وإقامتها على الشريعة التى تحملها تلك الدعوة فالتكرار من شأنه أن يعمق جذور الفكرة التى تحملها العبارة المكررة، ويمكن لها من كيان الإنسان ويقيم منها خاطرا ملحا يتردد فى صدره ويهمس فى ضميره وقد يعلو همسه حتى يكون صراخا أو هتافا أو دويا، أنظر فى الأساليب للدعاية اليوم - إنها تقوم على هذا الأسلوب الذى عرف له قدره وأثره فى التمكين لفكرة، أو التوجيه لرأى أو مذهب - فإذا أرادت دولة أن تدعو لسياسة معينة، أو تنصر رأيا خاصا لجأت إلى هذا الأسلوب.

ففتحت أفواهها كلها، وأبواقها جميعها صباح مساء تبدى القول وتعيده، عشرات المرات ومئاتها ومع أن «البضاعة» التى تدعو لها وتنادى عليها كثيرا ما تكون بضاعة كاسدة، أو فاسدة، والأصوات المنطلقة بالدعاية لها، كثيرا ما تكون أصواتا كاذبة منافقة، ومع هذا فإن هذا الاسلوب يحقق دائما بعض النتائج التى يهدف اليها، وإن كانت نتائج مؤقتة لا يكتب لها البقاء طويلا.

فكيف إذا كانت الدعوة قائمة على الحق والخير، والدعاة الذين يدعون لها لا يريدون إلا وجه الحق والخير.

إن أسلوب التكرار هنا يثمر أطيب الثمرات، ويأتى بأعظم الآثار.

والذى ينظر إلى التكرار يجد أنه له وقع عظيم على الأثر النفسى للإنسان وموقعه من القلب، وأنه تدبير حكيم فى مقام الدعوة لإصلاح النفوس وإحياء القلوب فهذا مقصد أصيل من مقاصد التكرار فى القرآن.

إن داعية التكرار قائمة فى المواقف التى يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر، فى الحياة الروحية والنفسية فتقتضى الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغى له من الحضور النفسى والعقلى، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه لهذا الموقف، والدعوة له والهتاف به، والتكرار كما قلت أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه، نجده فى الآذان حيث يدعى الناس الى أهم أمر من أمور الإسلام، وهو الصلاة، فيؤذن فيهم مؤذن الحق: حى على الصلاة، حى على الصلاة - حى على الفلاح، حى على الفلاح، ولما كان التكرار ذا أثر قوى فى مقام التذكير بالله، والإنابة إليه كان الرسول الكريم ﷺ إذا حدث بحديث أعاده على سامعيه ثلاث مرات، كما روى ذلك البخارى وغيره من أصحاب الصحاح، كذلك كان شأن النبى ﷺ مع نفسه - فكان صلوات الله وسلامه عليه إذا أهمه أمر لهج به، وحرك به لسانه، وألقى به على سمعه مرات كثيرة.

فقد روى عن أبى ذر ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة - فقام بأية يرددها وهى: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)(١).

وكذلك كان يفعل صحابة رسول الله ﷺ فى المواقف التى يشعرون إيذاءها بالرهبة والقهر فإذا حضرهم فيها من كلام الله تعالى شىء أمسكوا ليلة أو بعض ليلة يرددونه على ألسنتهم فقد روى أن أبا الضحى ﷺ قام ليلة بالآية الكريمة (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون)(٢).

وروى عن ميمون ﷺ أنه قام ليلة بالآية الكريمة (وامتازوا اليوم أيها المجرمون)(٣).

وعلى هذا فإن التكرار فى القرآن قد كان أسلوبا من أساليب التمكين للدعوة الإسلامية، وترسيخ الأصول الأخلاقية التى تدعو إليها: الى ما كان فيه من تحدٍ معجز بهذا الأسلوب الذى يتجنبه البلغاء، ويخشون الدنو منه، حيث كان داعية من دواعى سقوط الأسلوب، واضطرابه وفساده(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه كذا فى الدر المنثور حـ ٢ ص ٣٥٠ والآية من سورة المائدة رقم ١١٨.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد والطبرانى كذا فى الدر المنثور حـ ٦ ص ٣٥ والآية من سورة الجاثية الآية رقم ٢١.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم كذا فى الدر المنثور حـ ٥ ص ٢٦٧ والآية من سورة يس رقم ٥٩.

(٤) من كتاب اعجاز القرآن حـ ١ ص ٣٧١ لعبد الكريم الخطيب.

المبحث الثانى

الفرق بين «الرحمن» و «الرحيم» و «الرحمة» وما يتبعه

الرحمة تعريفها: رقة تقتضى الإحسان للمرحوم. وقد تستعمل تارة فى الرقة المجردة، وتارة فى الإحسان المجرد عن الرقة نحو: رحم الله فلانا. وإذا وصف به البارى تعالى فليس يراد به إلا الإحسان المجرد. دون الرقة، وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وأفضال ومن الآدميين. رقة وتعطف وقوله ﷺ فيما روى عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى (لما خلق الرحم قال تعالى: أنا الرحمن – وأنت الرحم – شققت – اسمك من اسمى فمن وصلك وصلته – ومن قطعك قطعته)[١].

ويرُوى بتته:

وذلك اشارة إلى ما تقدم وهو أن الرحمة منطوية على معنيين. الرقة والإحسان فركب تعالى فى طباع الناس الرقة، وتفرد بالإحسان، ولا يطلق «الرحمن» إلا على الله تعالى، لا مطلقاً ولامضافاً، وقولهم: رحمن اليمامة لمسيلمة الكذاب فباب من تعنتهم فى كفرهم، ولا يصح الرحمن إلا له تعالى، إذ هو الذى وسع كل شىء رحمة وعلما.

والرحيم: يستعمل فى غيره، وهو الذى كثرت رحمته. وقيل: الرحمن. عام والرحيم خاص، فالرحمن العاطف بالرزق للمؤمنين، والكافرين، والرحيم خاص بالمؤمنين.

وقيل: رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة، وقيل: رحمن المعاش – ورحيم المعاد **وقيل:** رحمن الأغنياء، ورحيم الفقراء، وقيل: رحمن الأصحاء، ورحيم المرضى

---

(١) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ١ – باب: ما جاء فى قطيعة الرحم ص ٣٣ وأخرجه بنحوه البخارى فى صحيحه جـ ٦ كتاب التفسير باب «تفسير سورة الذين كفروا» ص. ١٦٧

وقيل: رحمن المصطفين، ورحيم العاصين، وقيل: - رحمن الاشباح، ورحيم الأرواح.

وقيل: رحمن بالنعماء، ورحيم بالآلاء، وقيل: الرحمن: الذى الرحمة وصفه والرحيم: الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾(١) وقال أيضا ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) - ولم يجيء - رحمن بعباده ولا رحمن بالمؤمنين - مع ما فى الرحمن - الذى هو على زنة فعلان - ألا ترى أنهم يقولون غضبان للمتلىء غضبا - وندمان - وحيران - وشران - ولهفان لمن ملىء بذلك - فبناء «فعلان» للسعة والشمول. ولهذا يقرن استواءه على عرشه بهذا الاسم كثيرا. كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(٣) وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾(٤) فاستوى على عرشه باسم الرحمن. لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم - كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(٥). وفى الصحيح عن أبى هريرة ﷺ يرفعه: (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب. فهو موضوع على العرش. رحمتى تغلب على غضبى .. وفى لفظ (سبقت رحمتى على غضبى «وفى لفظة ..» «فهو عنده وضعه على العرش»)(٦).

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٣.

(٢) سورة التوبة الآية ١١٧.

(٣) سورة طه الآية ٥.

(٤) سورة الفرقان الآية ٥٩.

(٥) سورة الاعراف الآية ١٥٦.

(٦) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٤ باب بدء الخلق ص ١٢٩ واخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب التوبة - باب - سعة رحمة الله تعالى ص ٥٩٥.

فتأمل إختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمن ووضعه عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) وقوله تعالى (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى لا يغلقه عنك التعطيل والتجسيم -

واعلم أن صفات الجلال أخص باسم الله، وصفات الإحسان. والوجود والبر والحنان. والرأفة واللطف. أخص باسم الرحمن - وكرره فى الفاتحة إيذانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته، والرحمن سبب واصل بين الله وبين عباده بها أرسل اليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه وبها رزقهم، وعافاهم. هذا ماقيل فى شأن «الرحمة» و «الرحمن» و «الرحيم» ..

معانى الرحمة فى القرآن:

ويجدر بى وأنا بصدد الحديث، عن الرحمة. أن أذكر تجلياتها فى القرآن الكريم أقول:

قد وردت معانيها فى القرآن على عشرين وجها:

١) تعبد بيا من سر القرآن الكريم - قال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

٢) بمعنى سيد الرسل قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[(٢)] وروى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال «انما أنا رحمة مهداة»[(٣)].

---

(١) سورة الأسراء الآية ٨٢.

(٢) سورة الانبياء الآية ١٠٧.

(٣) أخرجه الحاكم كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٤٣٦.

٣) قصد بها توفيق الطاعة والإحسان .. قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾(١).

٤) أريد بها نبوة المرسلين، قال تعالى﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾(٢).

٥) قصد بها الإسلام والايمان، قال تعالى ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾(٣).

٦) أريد بها نعمة العرفان، قال تعالى﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾(٤).

٧) جاءت بمعنى العصمة، من العصيان، قال تعالى﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾(٥).

٨) جاءت بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان، قال جل شأنه﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾(٦).

٩) جاءت بمعنى نزول قطرات الغيث أى المطر، قال تعالى ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾(٧).

١٠) قصد بها العافية من الإبتلاء والإمتحان، يقول تعالى﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾(٨).

١١) جاءت بمعنى النجاة من عذاب النيران، قال تعالى﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾(٩).

---

(١) سورة آلعمران الآية ١٥٩.

(٢) سورة الزخرف الآية ٣٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٥.

(٤) سورة هود الآية ٢٨.

(٥) سورة هود الآية ٤٣.

(٦) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

(٧) سورة الشورى الآية ٢٨.

(٨) سورة الزمر الآية ٣٨.

(٩) سورة النور الآية ١٤.

١٢) أريد بها النصرة، على أهل العدوان، قال تعالى﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾(١).

١٣) قصد بها الألفة والموافقة بين أهل الايمان، قال تعالى﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾(٢).

١٤) جاءت بمعنى قصد به الكتاب المنزل على موسى بن عمران كليم الله - قال تعالى ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾(٣).

١٥) قصد بها الثناء على إبراهيم خليل الله، والولدان، قال تعالى﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾(٤).

١٦) قصد بها أجابة دعوى زكريا إلى الله المنان، قال تعالى﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾(٥).

١٧) جاءت بمعنى العفو عن ذوى العصيان، قال تعالى﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾(٦).

١٨) جاءت بمعنى فتح أبواب الروح والريحان، قال تعالى﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾(٧).

١٩) قصد بها دار السلام والأمان - أعنى الجنة، قال تعالى﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٨).

---

(١) سورة الأحزاب الآية ١٧.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٧.

(٣) سورة هود الآية ١٧.

(٤) سورة هود الآية ٧٣.

(٥) سورة مريم الآية ٢.

(٦) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٧) سورة فاطر الآية ٢.

(٨) سورة الأعراف الآية ٥٦.

٢٠) جاءت بمعنى صفة الرحيم «الرحمن» قال تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[(١)].

وورد فى الخبر: (إن الله تعالى. خلق الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وقدر الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، وكتب الرحمة على نفسه قبل الأرزاق بأربعة آلاف سنة، ولهذا قال سبقت رحمتى غضبى وعفوى عقابى)[(٢)].

هل تقع الرحمة من غير الله ..؟

فإن قيل هل لغير الله رحمة أم لا؟ قلت: الحق أن الرحمة ليست إلا لله ثم بتقدير أن يكون لغير الله رحمة، إلا أن رحمة الله أكمل من رحمة غيره، فههنا مقامان.

المقام الأول: فى بيان أن لا رحمة إلا لله، والذى يدل عليه، وجوه،

الأول: أن الجود هو افاضة ما ينبغى لا لغرض، فكل أحد غير الله فهو إنما يعطى .. ليأخذ عوضا إلا أن العوض أقسام، منها

١) جسمانية مثل أن يعطى دينارا ليأخذ مقابلا.

٢) روحانية وهى أقسام.

أحدهــا – أن يعطى المال لطلب الخدمة.

ثانيهــا – أن يعطى المال لطلب الإعانة.

ثالثهــا – أن يعطى المال لطلب الثناء الجميل.

رابعهــا – أن يعطى المال لطلب الثواب الجزيل.

خامسها – أن يعطى المال ليدفع الرقة الجنسية عن القلب.

سادسها – أن يعطى المال ليزيل حب المال عن قلبه.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٤.

(٢) انظر كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٣ الكتاب الخامس ص ٥٣ للفيروز آبادى.

وكل هذه الأقسام أعواض روحانية، وبالجملة فكل من أعطى فانما يعطى ليفوز بواسطة ذلك العطاء، بنوع من أنواع الكمال فيكون ذلك فى الحقيقة معاوضة ولا يكون جودا ولا هبة، ولا عطية، أما الحق سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل أن يعطى ليستفيد كمالا، فكان الجواد المطلق، والراحم المطلق، هو الله سبحانه.

الحجة الثانية: أن كل من سواه فهو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته فكل رحمة تصدر من غير الله فهى انما دخلت فى الوجود بإيجاد الله ، فيكون الراحم فى الحقيقة هو الله تعالى،

الحجة الثالثة: إن الإنسان يمكنه الفعل والترك، فيمتنع رجحان الفعل على الترك الا عند حصول داعية جازمة فى القلب - فعند عدم حصول تلك الداعية يمتنع صدور الرحمة منه، وعند حصولها يجب صدور الرحمة منه فيكون الراحم، هو الذى خلق تلك الداعية فى ذلك القلب، وما ذاك إلا لله سبحانه، فيكون الراحم فى الحقيقة هو الله.

الحجة الرابعة: هب أن فلانا يعطى الحنطة، ولكن مالم يحصل للمعدة الهضم للطعام، لم يحصل الانتفاع بتلك الحنطة، أو هب أنه وهب البستان فمالم تحصل القوة الباصرة فى العين، لم يحصل الانتفاع بذلك البستان، بل الحق أن خالق تلك الحنطة، بذلك البستان، هو الله، تعالى والممكن من الانتفاع به. هو الله تعالى، والحافظ له من أنواع الآفات والمخافات حتى يحصل الانتفاع بتلك الأشياء، هو الله تعالى فوجب أن يقال المنعم والراحم فى الحقيقة، هو الله تعالى.

المقام الثانى:

فى بيان تقدير أن تحصل الرحمة من غير الله إلا أن رحمة الله أكمل وأعظم وبيانه من وجوه -

الأول: أن الانعام يوجب زيادة حال المنعم عليه. بالنسبة إلى المنعم، فاذا حصل التواضع بالنسبة إلى حضرته تعالى فذلك أحرى من حصول هذه الحالة بالنسبة إلى بعض الخلق.

الثاني: أن الله إذا أنعم عليك نعمة طلب عندها منك عملا يتوسل به إلى استحقاق نعم الآخرة، فكأنه يقال: يأمرك بأن تكتسب لنفسك سعادة الأبد، وأما غير الله فاذا أنعم عليك بنعمة أمرك بالاشتغال بخدمته والإنصراف إلى تحصيل مقصوده، ولا شك أن الحالة الأولى أشرف.

الثالث: أن المنعم عليه يصير كالعبد للمنعم، وعبودية الله أولى من عبودية غير الله.

الرابع: أن السلطان إذا أنعم عليك فهو غير عالم بتفاصيل أحوالك، فقد يقع عليك حال ما تكون غنيا عن انعامه، وقد يقطع عنك انعامه حال ماتكون محتاجا إلى انعامه، وأيضا فهو غير قادر على الإنعام فى كل الدرجات وبجميع المرادات، أما الحق سبحانه فانه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات فإذا ظهرت بك حاجة عرفها وإن طلبت منه شيئا قدر على تحصيله فكان ذلك أفضل.

الخامس: أن الإنعام يوجب المنة وقبول المنة من الحق. أفضل من قبولها من الخلق فثبت بما ذكر أن الرحمن الرحيم هو الله تعالى وبتقدير أن يحصل رحمن آخر فرحمة الله أكمل وأفضل وأعلى وأجل[١].

هل لفظ الرحمن مشتق من غيره؟ او علم براسه؟

وفى هذا الصدد أبين آراء العلماء فى هذا المقام فأقول:

---

(١) بتصرف من «رسالة فى الاستعاذة والبسملة والفاتحة» صـ ٢٩ مخطوطة بدار الكتب.

اختلف السلف فى لفظة «الرحمن» هل هى مشتقة أو غير مشتقة، فقيل: إنه لا إشتقاق لها بل هى من الأسماء المختصة به سبحانه واستدل أصحاب هذا القول بأنها لو كانت مشتقة من الرحمة لاتصلت بذكر المرحوم فجاز أن يقال: الله رحمن بعباده كما يقال: رحيم بعباده.

وذهب الجمهور: إلى أنها صفة للمبالغة مشتقة من الرحمة ومعناها ذو الرحمة الذى لا نظير له فيها ولا شبيه، وهى لا تثنى ولا تجمع كما يثنى الرحيم ويجمع، ومما يدل على أنها مشتقة ما روى عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة (لما خلق الله الرحم قال: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها إسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[1].

واشتقاق اللفظة لا يمنع أن تتخذ علما على الله عز ذكره، لا يشاركه فيه غيره، علما على ذاته، مثلها مثل لفظة الجلالة «الله» وقد يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[2] .. أى أيا من الاسمين العظيمين وقد يدل عليه أيضا قوله عز شأنه (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)[3].

وكأنهم لم يكونوا يعرفون هذا الإسم للذات العلية قبل سماعهم له فى القرآن الكريم، وسواء أكان لفظ الرحمن اسما موضوعا لرب الكائنات، أم وصفا له مشتقا للمبالغة من الرحمه، فانه مختص به لا يجوز أن يسمى أو يوصف به غيره، ولم يعادل القرآن باسم «الله» اسما أو صفة سواه على

---

(١) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٦ - باب: ما جاء فى قطيعة الرحم ص ٣٣ وأخرجه بنحوه البخارى فى صحيحه جـ ٦ كتاب التفسير باب «تفسير سورة الذين كفروا» ص ١٦٧.

(٢) سورة الاسراء الآية ١١٠.

(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠.

نحو ما تصور ذلك الآية الأولى آنفة الذكر. وهو يقابل فى القرآن الصفات الدالة على قدرة الله وشدة انتقامه الذى يصبه على العصاة قساة القلوب، من مثل القوى، القهار، الجبار، شديد العذاب، شديد العقاب وتكررت هذه الصفات فى كل جانب من جوانب القرآن، بصفات الرحمة والعفو والمغفرة للتائبين النادمين ولا أبالغ اذا قلت: إن صفة الرحمة، وما يتصل بها من الألفاظ الدالة عليها تعد أبرز صفات الله فى الذكر الحكيم، ومعروف أن كل سورة من سور القرآن تفتتح بالبسملة أى (**بسم الله الرحمن الرحيم**) وقد وضعت الرحمة والمغفرة دائما بجوار العذاب والعقاب، وينبغى أن نعرف أن العقاب والعذاب لا يأتيان لذاتهما وإنما لتخويف العاصى، حتى ينجو بنفسه ويستأصل منها جذور الشر والعصيان.

وقد ترددت صفات الرحمة ومشتقاتها فى الذكر الحكيم مئات المرات فى حين لم يذكر أن الله عزيز ذو انتقام إلا فى أربع آيات.

١) قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُوانتِقَامٍ ﴾(١).

٢) قوله تعالى﴿ وَمَنْ عاد فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾(٢).

٣) قوله تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾(٣).

٤) قوله تعالى﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾(٤).

وينوه القرآن مرارا برحمة الله وأنها تعم الناس بل تعم الأشياء جميعا من مثل قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران جزء من الآية ٤.

(٢) سورة المائدة جزء من الآية ٩٥.

(٣) سورة ابراهيم جزء من الآية ٤٧.

(٤) سورة الزمر جزء من الآية ٣٧.

(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ٥٤.

وقوله تعالى ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(١)

ودعا القرآن دعوة قوية إلى أن لا ييأس أحد من رحمة الله مهما تكن معصيته ومهما تكن جنايته وذنبه، على نحو ما نقرأ فى قوله تعالى ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾(٢).

وفى كل ذلك ما يبطل دعوى خصوم الإسلام من أن صفات الله فى القرآن تغلب عليها الشدة والقسوة ومحبة الانتقام، فالصحيح أنها تغلب عليها الرحمة والرأفة والمودة والمحبة وقد أسند الله حبه لعباده المؤمنين فى أكثر من عشرين آية من مثل قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) وقوله تعالى ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾(٤) .. وبذلك كان الاسلام دين رحمة ومحبة ورأفة بالعباد، لا دين جبروت وقسوة وانتقام شديد كما يصفه أعداؤه، كبرت كلمة تخرج من أفواههم – إن يقولون إلا بهتانا عظيماً وزورا كبيرا.

وهذا المعنى أيضا تجليه السنة المطهرة وتوضحه فعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب عنده موضوع على العرش رحمتى تغلب غضبى)(٥).

---

(١) سورة الأعراف جزء من الآية ١٥٦.

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٣) سورة آل عمران الآية ٣١.

(٤) سورة المائدة جزء من الآية ٥٤.

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٤ باب بدء الخلق ص ١٢٩... وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب التوبة – باب – سعة رحمة الله تعالى ص ٥٩٥.

وتدل كلمة «الرحمن» بصيغتها على زنة «فعلان» أنها محيطة بالخلق شاملة لهم إذ تأتى صيغة (فعلان) دائما للدلالة على السعة والشمول مثل «غضبان» للممتلىء غضبا وندمان للمتلىء ندما.

وقال أبو على الفارسى: «الرحمن» اسم عام فى جميع أنواع الرحمة لا يختص بها إلا الله، والرحمة من الإنسان عطف وحنو، ومن الله، إنعام وافضال وإحسان - كأنه جل شأنه أودع فى طباع الناس الرقة وتفرد هو بالإحسان والإنعام.

وقال الغزالى: «الرحمن» العطوف على العباد بالإيجاد، أولا، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانيا، والإسعاد فى الآخرة ثالثا، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم، «يوم القيامة» رابعا[١] وقد وضع الاسم الكريم علما على هذه السورة (سورة الرحمن) ومفتتحا لها لاشتمالها على نعم الله الدنيوية والأخروية ولتعدادها اياها وإتصال ذلك مباشرة بصفات الرحمن، وما يقترن بها من الإحسان واللطف والرأفة والبر والإنعام وكأنها الأسباب الواصلة بين الله ذى الجلال وبين عباده، من أجلها خلق الإنسان ومكن له فى الأرض أسباب الرزق، وسخر له الكون وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ومن أجلها وضع له ما يهديه إلى العمل الصالح، وإلى سعادته فى دنياه وآخرته، والسورة تبسط ذلك بسطا واسعا، بما تصور من نعم الله وآلائه. ووجوه إحسانه، وكأن كل نعمة إنما هى رحمة مهداة إلى الناس جميعا..

شبهة وابطالها:

قالت القدرية: كيف يكون رحمانا رحيما من خلق الخلق للنار ولعذاب الأبد؟ وكيف يكون رحمانا رحيما من يخلق الكفر فى الكافر ويعذبه عليه؟ وكيف يكون رحمانا رحيما من أمر بالإيمان ثم صد ومنع عنه؟

---

(١) انظر سورة الرحمن وسور قصار - عرض ودراسة ص ٣٤ د/ شوقى ضيف.

وقالت الجبرية: أعظم أنواع النعمة والرحمة هو الإيمان، فلو لم يكن الإيمان – من الله بل كان من العبد، لكان اسم الرحمن الرحيم، بالعبد أولى منه بالله.

والجواب عن هاتين الشبهتين أن أقول للقدرية:

هو «الرحمن الرحيم» لأنه أوجد من العدم، وخلق الخلق لينعموا بالتعرف عليه، وهم الذين اكتسبوا السيئات فاستحقوا العذاب عدلا، وقد خلق الكفر كما خلق الإيمان، والعبد هو المكتسب للكفر أو الإيمان، ولا يوصف الله بالقسوة لخلقه الكفر، اذ لا يتميز الخير إلا عند وجود الشر، والرحمن الرحيم – لا يمنع أحدا من الدخول فى الإيمان، بل أمر العبيد به ودعاهم إليه، وهم الذين رفضوا بميلهم قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(١).

والرد على الجبرية أقول فيه:

إن نعمة الإيمان من أعظم النعم، والله هو الخالق، لنعمة الإيمان ولغيرها من النعم وسائر المخلوقات، والعبد حين يختار الإيمان، يكون قد اهتدى باكتسابه إلى أعظم نعمة، ودور الخالق للنعمة أعظم بكثير من دور المكتسب لها بخلاف خلق النقمة، فإن دور المكتسب لها أخطر من دور الخالق الذى خلقها وحذر منها، فهو سبحانه، «رحمن رحيم» خلق النقمة وحذر منها، وخلق النعمة ودعا اليها.

وقفة مع لفظى «الرحمن» و «الرحيم»:

ومن تتمة البحث فى قضية «الرحمة» أحب أن نتعرف مواقع لفظتى «الرحمن» و «الرحيم» التى وقعت فى القرآن الكريم، والحديث هنا ليس على سبيل الإستقصاء والحصر وإنما مما يستبين به المقام أقول:

---

(١) سورة الصف من الآية (٥).

أما عن لفظ «الرحمن» فقد وقع على النحو التالى:

١) وصفا للذات الالهية فى البسملة.

٢) وبعد وصفها بالربوبية العامة فى قوله تعالى﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾(١).

٣) وبعد تقرير الوحدانية فى قوله تعالى﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾(٢).

٤) وحالاً محل لفظ الجلالة باعتباره مصدرا لكل النعم فى قوله تعالى عن المشركين﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي ﴾(٣).

٥) ومعادلاً للفظ الجلالة فى قوله تعالى﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾(٤).

٦) وملجأ للخائفين. قال تعالى حكاية عن مريم البتول﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾(٥).

وقوله تعالى﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾(٦).

٧) ومقابلا للشيطان باعتبار أن الرحمن هو الخليق بالطاعة له، كما أنه مع كونه رحمانا يصدر منه العذاب عقابا للعصاة قال تعالى﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾(٧).

---

(١) سورة الفاتحة الآيتان ١، ٢.

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣.

(٣) سورة الرعد جزء من الآية ٣٠.

(٤) سورة الإسراء جزء من الآية ١١٠.

(٥) سورة مريم الآية ١٨.

(٦) سورة مريم جزء من الآية ٢٦.

(٧) سورة مريم الآيتان ٤٤، ٤٥.

٨) ومقصدا لكل عابد ومحب قال تعالى﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾(١) وقال تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾(٢).

٩) ومصدرا للقهر والجبروت قال تعالى﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾(٣).

وقال تعالى﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴾(٤).

١٠) وحاكما بين عباده، يناقشهم ويعدهم، ويتوعدهم، قال تعالى﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾(٥).. وقال تعالى﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾(٧) وقال تعالى﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾(٨) – وقال تعالى﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾(٩) – وقال تعالى﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾(١٠).

١١) ومنزلا للقرآن وخالقا للأرض والسموات، قال تعالى﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾(١١).

---

(١) سورة مريم جزء من الآية ٥٨.
(٢) سورة مريم الآية ٩٦.
(٣) سورة مريم الآية ٦٩.
(٤) سورة مريم جزء من الآية ٧٥.
(٥) سورة مريم الآية ٧٨.
(٦) سورة مريم الآية ٨٥.
(٧) سورة مريم الآية ٨٧.
(٨) سورة مريم الآية ٨٨.
(٩) سورة مريم الآيتان ٩١، ٩٢.
(١٠) سورة مريم الآية ٩٣.
(١١) سورة طه الآيتان ٤، ٥.

١٢) وقع ذكر الرحمن مسئولا عنه من الكفار فى قوله تعالى﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ ﴾(١).

١٣) ومجابا به للتعريف بأفعاله حيث قال تعالى﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٢).

ومن هذه المقتطفات يتضح أن ذكر «الرحمن» لا يعنى أنه متهاون فى حقه فهو وصف جامع للرحمة والعظمة، والكبرياء، والسيطرة، قال تعالى﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾(٣) وقال تعالى﴿ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾(٤) وقال تعالى﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾(٥).

وقال تعالى﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾(٦).

وقال تعالى﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾(٧).

وأما لفظ «الرحيم» فقد وقع بعد وصفه سبحانه بأنه تواب ورءوف ورحمن وغفور وعزيز، وبر، وكلها صفات تدل على الشفقة والغلبة، كما قد ورد ذكر الرحيم مستقلا.

قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٨) وقال تعالى﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ

(١) سورة الفرقان جزء من الآية ٦٠.

(٢) سورة الرحمن الآيات من ١:٤.

(٣) سورة طه جزء من الآية ٩٠.

(٤) سورة طه جزء من الآية ١٠٨.

(٥) سورة طه الآية ١٠٩.

(٦) سورة الأنبياء الاية ٤٢.

(٧) سورة الفرقان الآية ٢٦.

(٨) سورة النساء جزء من الآية ٢٩.

رَحِيماً ﴾(١) ووقع وصفا للربوبية قال تعالى﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾(٢) فكلمة الرحمن ترددت فى القرآن كثيرا، وكذا ما يشتق منها وماله صلة بها ففيه: رُحَمَاءُ، وأرحام.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(٣)

والثانى: قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾(٤) كذلك جاء على صيغة «أفعل التفضيل» كما ورد على لسان أيوب عليه السلام:

قال تعالى حكاية عنه﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾(٥).

ولا غرابة فى هذا - فالرحمة مقصد أساسى يدعو القرآن إليها، وكذا السنة المطهرة فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من لا يرحم لا يرحم)(٦) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»(٧) وإذا نظرنا إلى دعوة القرآن الكريم إلى الرحمة نجد أنه لا فرق فى دعوته إلى الرحمة أن تكون بالإنسان أو بالحيوان أو بالطيور، والمهم أن تسود الشعور العام والخاص وأن يحس الجميع بها اعتقادا وقولا وعملا..

---

(١) سورة الأحزاب جزء من الآية ٤٣.

(٢) سورة هود جزء من الآية ٩٠.

(٣) سورة الفتح جزء من الآية ٢٩.

(٤) سورة الأحزاب جزء من الآية ٦.

(٥) سورة الأنبياء آية ٨٣.

(٦) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود كذا فى الترغيب جـ ٣ ص ٢٥٥.

وأخرجه الترمذي بشرح الأحوذى جـ ٦ باب ما جاء فى رحمة الولد ص ٢٨.

(٧) أخرجه أبو داود والترمذى بزيادة وقال حديث حسن صحيح كذا فى الترغيب جـ ٣ ص ٣٥٢.

المبحث الثالث

اول التجليات «علّمَ القرآن» كما جاء فى عروس القرآن:

حول مائدة القرآن نلتقي ضيوفا مباركين، هذا الكتاب الذى وفد علي الدنيا منذ أربعمائة وألف عام: والذى ألقاه «روح القدس» على قلب الرسول محمد .. ﷺ ليكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، ولقد اختلف ناس كثيرون حول هذا القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لمجيئه: وحتي اليوم لايزالون يختلفون.

بيد أن الحقيقة التى لم يختلف فيها أحد ولم يجحدها جاحد ومعه عقله، هى تلك المعجزات العظمى التى حققها القرآن الكريم بما شيد من عالم، وبما رفع من قيم، وبما أضاف إلى الحضارة الإنسانية من أرصدة لا تفنى على طريق الدنيا المسلمة التى أيقظها، وجمع شعاعها، وأخرج حبثها النفيس، وجمعها تحت رايته وإيمانه.

فالإسلام بكل فتوحاته العقلية - والروحية - والحضارية - لا يذكر - إلا ويذكر. قَبْلَ - هذا القرآن الذى كان مَعْقد العزم - وموطن السر - وجمع الطاقة - هذا الكتاب الذى لم يخلف موعده، مع القلة المؤمنه التى كانت ذات يوم بعيد تستخفى بإيمانها وتهرب بحياتها من الشر المتربص بها فى طرقات مكة ومنحنياتها. لقد وعدها .. القرآن يومئذ، أحلاما، تذهل من فرط خيالها الأحلام، لكن لم تكد الأيام تمضى حتى صار الحلم حقيقة والخيال وثيقة، وإذا العقيدة المستخفية المرتجفة تأخذ مكانها فوق الشمس، وإذا الدنيا تدور فى فلكها .. وإذا بها تنجب الدعاة الربانيين والحكام العادلين. والعباقرة - والفلاسفة. والعلماء، ويتفيأ الناس ظلالها أفواجا وزمرا، وتردد ملايين الألسنة - فى عشرات الأقطار - آية ذلك القرآن العجيب والكتاب المبين..

القرآن يناقش خصومه

والناظر فى آيات ذلك الكتاب، يجد أنه فى حوالى مائتين وثلاثين آية - أو تزيد تحدث القرآن فيها عن نفسه - وطرح خلالها كل الاسئلة التى تتعلق به وأجاب عنها:

ما هو؟ من أين جاء؟ ولماذا جاء؟

هل هو سحر؟ هل هو شعر؟ هل هو افك مفترى؟ هل هو أساطير الأولين؟

هل نقض لما سبقه؟ أم هو مصدق الذى بين يديه من الكتاب؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة؟ وهل جاء لقريش وحدها؟ أم هو ذكر للعالمين؟

وما موقفه من الذين ارتابوا فيه؟ والذين خاصموه وولوا عنه مدبرين؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تباعا وأجاب عنها فى وضوح كما جلى بها حقيقته وحكى قصته...

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات:

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(١).

هذا هو القرآن وهذه هى أسرته -

أما هو - (فكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) وأما أسرته فهم .. (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ .. وما أنزل على من سبقه) وإنها لبداية سعيدة وباهرة - ينحى القرآن بها عن نفسه صفة الاقليمية والعنصرية - والطائفية - فجميع

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٢:٥.

الذين لهم إيمان بالله - وبالحق وبالغيب - القرآن كتابهم، وهو إذا لم يأت لينتقض ما سبقه بل جاء يكمل ويتمم والذين يؤمنون به، يؤمنون حتما وضمنا بكل ما سبقه من كتب - أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير، فأولئك يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعض، .. قال تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾(١).

وإذا كانت التوراة والإنجيل - اللذان يتحدث عنهما القرآن - لم يكونا فرية ولا ضلالا إنما كانا رحمة للناس وهدى - فما ظنك بالقرآن الذى جاء يتمم رسالة الكتب السابقة قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(٢).

وهذه - لدى القرآن - حقيقة. لا ينبغى أن تغيب عن المؤمنين بالكتب السابقة اذا كانوا لا يبخسون إيمانهم ولا يحرفون الحقيقة أو ينكرونها - قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾(٣).

بيد أن هناك فريقا سيجمد إيمانه عند أحد الكتب السابقة - وحين يدعى الى الإيمان بهذا القرآن سيكفر ويثنى عطفه - وفيهم يقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾(٤).

والقرآن يرى فى هذا الموقف إنكارا لقضية الإيمان كلها - فمادام هو مصدقا لما بين يديه من الكتب - فلماذا لا يشمله إيمان المؤمنين بها؟ ولماذا لو هو فى هذا الموقف بالذات يناقش كبار اليهود الذين حملوا يومئذ رايه الجحود والعداوة للقرآن.

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٣ وجزء من الآية ٤.

(٢) سورة يونس الآية ٣٧.

(٣) سورة الأنعام جزء من الآية ١١٤.

(٤) سورة البقرة جزء من الآية ٩١.

لماذا يكفرون به وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا؟ لماذا يجحدون اليوم؟

يقولون انه الولاء لإيمانهم وكتابهم وأنبيائهم؟ وعندئذ يجّبه القرآن سريرتهم قائلا لهم ساخرا منهم يقول تعالى﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١] وهو يزيد باطلهم دحضا - وحجتهم ضعفا حين لا ينكرون من الكتب السابقة شيئا ولا ينكر عليها شيئا - بل يجعلها دائما موضع اجلاله وتوقيره - والقرآن يجلى ذلك بوضوح إذ يقول﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾[٢].

وأيضا يقول﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾[٣] ثم هو يدعو المومنين به إلى الإيمان بكل ماسبق من نبى ورسول وكتاب - وهاهو يجلى ذلك فيقول﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[٤] ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله ﷺ فيخبره أن الذين يجحدونهما معا: القرآن والرسول: إنما يستجيبون لجبالات تتملكهم وأحقاد تستحوذ عليهم.

والذى يصدر عن جهل جائر أو تعصب أعمى، أو حقد ملتاث لا يزيده وضوح الحجة وانتصارها إلا صدودا وجحودا، فامض أنت فى طريقك غير عابىء بهم ولا آس عليهم فيصور ذلك القرآن إذ يقول﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٩١.

(٢) سورة هود جزء من الآية ١٧.

(٣) سورة المائدة جزء من الآية ٤٧.

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٦.

(٥) سورة المائدة جزء من الآية ٦٨.

وبنفس النهج الذى ينهجه القرآن فى محاجة أهل الكتاب يواجه من قبل عبدة الأوثان من مشركى مكة وكفارها -

هؤلاء الذين سجل القرآن عليهم ماقالوه بصدد هذا الرسول. محمد ورسالته فيصور ذلك القرآن، ذاكرا سقطاتهم - يقول كاشفا النقاب عنهم - ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾(١) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾(٢) ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(٣) وقالوا كما حكى القرآن:﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾(٤) وقالوا أيضا كما حكى القرآن عنهم﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾(٥) هؤلاء الذين لم يدعوا اتهاما ما ينال من القرآن فى زعمهم إلا قذفوا به، هؤلاء الذين رأوا فى القرآن قدرا جاء يذيع نعى اليتيم ونعي الضلال الذى وجدوا آباءهم عليه عاكفين تدرج القرآن معهم فى سبيل تسفيه أضغاثهم، وتصحيح فهمهم، وتأليف قلوبهم وهو إذ يدرك دور الأنانية التى تحرك الناس، وتحدد الكثير من وجهاتهم - يسأل كفار قريش:

لماذا تخاصمون القرآن؟ أخوفا منه على أصنامكم؟ ويحكم إذن، إنه إذا كان لكم مجد يرتقب، فلن يصلكم به سبب مثلما يصلكم به هذا الفرقان.

يخاطبهم القرآن فيقول﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٦).

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٥.

(٢) سورة فصلت جزء من الآية ٥.

(٣) سورة الفرقان الآية ٥ .

(٤) سورة الأحقاف جزء من الآية ١١.

(٥) سورة النحل جزء من الآية ١٠٣.

(٦) سورة الأنبياء الآية ١٠.

وإذا كانت الأمم لا يخلد أمجادها شيء مثلما يخلد انتشار لسانها ولغتها فهذا الكتاب سبيلكم إلى الخلود - يحدثنا القرآن عن ذلك فيقول ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[(١)] - ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[(٢)] - ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾[(٣)].

على أن هذا القرآن وهو يذكر المشركين بهذا النفع الأدبى الذى سيضيئه عليهم ايمانهم به. لم يكن يريد أن يتلقفهم أو يحملهم على أن ينشؤا علاقاتهم به وفق هذا النفع، وهذا الإعتبار إنما كان يذلل لا غير - بعض الصعاب التى تلقيها غرائزهم فى طريقهم وإلا فهو إذ يمن عليهم بأنه عربى مبين يكشف فى نفس الوقت عن .. التبعات الكبرى التى تترتب على هذا الإعتبار، فيقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[(٤)] ويقول: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[(٥)] ويقول أيضا: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[(٦)] وفى هذا الصدد أيضا يقول القرآن الكريم ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾[(٧)] فهو كتاب عربى مبين يخاطبهم باللغة التى يفهمون، ويدعوهم إلى الله الحق الذى هم به مشركون.

وحين يذهب خصوم القرآن فى عدواته كل مذهب يتعقبهم القرآن ناقضا افكهم، وداحضا باطلهم بأسلوب ايجابى سمح لا يعنى بتفنيد قوانهم لأنهم لا يقولون منطقا يستحق التفنيد - إنما يعنى بكشف [illegible]

(١) سورة يوسف جزء من الآية ٢.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٥.

(٣) سورة الزمر جزء من الآية ٢٨.

(٤) سورة إبراهيم جزء من الآية ٤.

(٥) سورة مريم الآية ٩٧.

(٦) سورة الدخان الآية ٥٨.

(٧) سورة الشعراء الآيتان ١٩٨. ١٩٩.

ومزاياه وتبيان نفعه والقاء مزيدا من الضوء على حقيقته. فهم مثلا يقولون للرسول ﷺ كما يحكى القرآن عنهم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾(١) - فيرد عليهم القرآن مقررا أن ذلك أمر طبيعي ويقول﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾(٢).

وهم حين تفلس حجتهم ويقولون للرسولﷺ ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾(٣) يكشف القرآن عن التواء منهجهم فى التفكير ويبين أن الأزمة التى يعانون منها ليست أزمة القرآن بل هى فى الحقيقة أزمة الإيمان فهم فى ريب بل فى جحود بالحقيقة الكبرى التى جاء القرآن يقررها وينشر عبيرها وماداموا لا يؤمنون بالله الواحد الأحد ولا يرجون لقاءه، فسيظلون هكذا يعمهون - ولو أنهم آمنوا بأن وراء هذه الآيات إلها حكيما عليما ما طالبوا الرسول بتبديلها - ولعرفوا أنه لا يملك هذا الحق بدليل أن الرسول ﷺ ينفى ذلك عنه فيصور القرآن لنا إذ يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٤)

ويؤكد القرآن هذا المعنى لرسول الله ﷺ حتى لا يضيق صدره إذ يراهم يكذبون بالقرآن ويستنكفون عن طاعته - يؤكد القرآن للرسول ﷺ أن نور آياته يغشى أبصارهم ويقتحم قلوبهم الغلف المغلقة وأنهم لا يشكون فى صدقه ولكن أزمتهم الخانقة هى حرصهم على آلهتهم وكفرانهم بالله الحى

---

(١) سورة فصلت جزء من الآية ٥.

(٢) سورة فصلت جزء من الآية ٤٤.

(٣) سورة يونس جزء من الآية ١٥.

(٤) سورة يونس الآيتان ١٥، ١٦.

القيوم وما دام القرآن يهتف بوحدانية الرب فهم عنه معرضون - وهذا المعنى هو ما يسلط القرآن عليه ضوءه الكاشف إذ يقول الله مخاطبا نبيه ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(١) ويقول أيضا ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾(٢) ويبين القرآن للنبى ﷺ أن طريقه هو الطريق المستقيم إذ يقول له ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾(٣).

وحين يلجأ المشركون تارة واليهود تارة أخرى إلى التشكيك فى القرآن. زاعمين أن الله لا ينزل على أحد من الناس وحيا، قائلين ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ يجيبهم القرآن الكريم قائلا: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(٤)

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾(٥).وحين تأخذهم العزة بالإثم ويتعجبون لماذا لم يجد الوحي سوى محمد لينزل عليه ويأتيه بهذا القرآن، يجيبهم ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾(٦) وإذ يأخذهم الغرور الأهوج الكاذب ويظنون أنه لو كان هذا القرآن حقا لهدتهم إلى الإيمان به قلوبهم ولما التف حوله الفقراء والمستضعفون من دونهم يرد عليهم القرآن فى تهكم ذكى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾(٧).

---

(١) سورة الأنعام جزء من الآية ٣٣.

(٢) سورة الإسراء جزء من الآية ٤٦.

(٣) سورة الزخرف الآيات من ٤٣:٤٥.

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٩١.

(٥) سورة يونس جزء من الآية ٣٩.

(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٤.

(٧) سورة الأحقاف الآية ١١.

ويمضى الكفار فى آفكهم يمعنون فى محاولتهم العاجزة المفلسة فيرمون القرآن بكل ما توصى به أحقادهم، فهو فى زعمهم سحر، وتارة شعر، وتارة مفترى، وتارة كهانة، ويدمدم القرآن عليهم بمنطق يخطف أبصارهم ويدك أباطيلهم، وتتابع الآيات فى نشيد قدسى مجلجل فيقول القرآن، بإيذاء هذا ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾[1] - ثم ينهي زمام الحديث فى ختام حاسم حافل موجهاً القول إلى الرسول ﷺ، فيقول ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[2] ويتركهم القرآن يتخبطون فى غيظهم فهم من تحت أضوائه - النابعة كالفراش المخبول، حين يعلن فى عزم أنه لم يشغل نفسه بطرهاتهم، وأنه سيمضى محققا ظفرا بعد ظفر وقائما قلوبا إثر قلوب، وهاد إلى الله وإلى الصراط المستقيم أجيالا من بعدها أجيال، متسلحا بالكلمة المضيئة الهادية أجل بالكلمة وحدها الكلمة التى لا تتكون من أسنة ولا من رماح بل من حروف بسيطة سهلة - فيبين القرآن كاشفا اللثام عن ذلك فيقول:

﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[3] - ﴿ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾[4] - ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[5]- ﴿ الم ﴾[6] -

---

(١) سورة الحاقة الآيات من ٣٨:٥١.

(٢) سورة الحاقة الآية ٥٢.

(٣) سورة يونس الآية ١.

(٤) سورة الشعراء الآيتان ١، ٢ والقصص الآيتان ١، ٢.

(٥) سورة النمل الآية ١.

(٦) سورة البقرة الآية ١ آل عمران الآية ١ السجدة الآية ١ وغيرها فى فواتح بعد السور التى تشبه هذا البدء.

بهذا الكلمات الميسرة فى تركيبها المعجزة فى جوهرها، الفاصلة فى منطقها وحجتها، يمضى القرآن مخلفا وراءه كيد الكائدين له والمتربصين به، جاعلا حسبه أولئك الدين فتحوا لآياته قلوبهم إذ يصفهم بقوله ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾(١) - ولهؤلاء يقدم نفسه وينبؤهم ما هو؟ وكيف يتنزل؟ ولماذا يجىء؟ إنه كما وصفه من أنزله ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢) - ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾(٣) - ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٤) - وبماذا أنزل؟ - ولماذا أنزل؟ - ما موضوعه؟ ما وجهته ورسالته؟ - يجيب القرآن فى إيجاز مبدع شامل عميم ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾(٥) - ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾(٦) - ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(٧) - ولماذا لا تأتى آياته كما يهوى الناس، وساعة يريدون؟ يجيب القرآن فيقول ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾(٨) - ولماذا لم ينزل جملة واحدة؟ فيجيب عن ذلك أيضا - ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾(٩) - ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴾(١٠) - ولماذا لم يفتح جميع القلوب بنوره

---

(١) سورة الأنفال جزء من الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٨

(٣) سورة الشعراء الآيات من ١٩٢ ١٩٤.

(٤) سورة النحل الآية ١٠٢.

(٥) سورة الإسراء الآية ١٠٥.

(٦) سورة طه الآيتان ٢، ٣.

(٧) سورة ابراهيم الآية ١.

(٨) سورة مريم الآية ٦٤.

(٩) سورة الفرقان جزء من الآية ٣٢.

(١٠) سورة الإسراء الآية ١٠٦.

مادام حقا؟ ولماذا لم يطور أفئدة الظالمين؟ فيجيب ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[١] - ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] - ما طبيعة تركيبه ..؟

﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[٣] - ولمن جاء هذا القرآن؟ لقريش وحدها؟ أو للعرب جميعا أو للناس كافة؟ - إنه لهؤلاء جميعا. لقريش ولمن حولها من العرب وللعالمين ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾[٤] - ﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[٥] - ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾[٦] - ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٧] - فليكن إذا للعالمين جميعا للناس كلهم ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾[٨] - ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[٩].

هكذا حدثنا القرآن عن نفسه، هكذا أعطانا طرفا مضيئا من قصته، ومن رحلته، كما أعطانا قبسا من جوهره، وحقيقته. ومن خلال الآيات التى تلوناها، ومن خلال آياته جميعا، نرى كتابا عجيبا وفرقانا عظيما عقد النية، وعزم على تحقيق أسمى غاية، وبلوغ أعظم غرض، ألا وهو إخراج الناس

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٢.

(٢) سورة النمل الآية ٧٧.

(٣) سورة آل عمران جزء من الآية ٧.

(٤) سورة الزخرف جزء من الآية ٤٤.

(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٢.

(٦) سورة ص الآية ٨٧.

(٧) سورة الشعراء الآية ١٩٢.

(٨) سورة الزمر جزء من الآية ٤١.

(٩) سورة الجاثية الآية ٢٠.

من الظلمات إلى النور، عن طريق هدم الخرافة وإعلان سيادة العقل ووصل الإنسان بالرب – ولقد قام هذا الكتاب المبين فى أقل وقت بأعظم عمل وأنجز فى بضع سنوات المهمة التى عقد عزمه على إنجازها، وجعل حملته والمؤمنين به روادا ينتشرون فى الأرض، فى قلوبهم إيمانهم وفى إيمانهم قرآنهم وفى عشرات البلاد والأقطار، نكست أعلام وولت دول، حيث إرتفعت مكانها راية القرآن، وقام عالمه وعلى طول الزمن، منذ أربعمائة وألف سنة، إلى يوم الناس هذا، وإلى أيامهم المقبلة، والقرآن ناشر ضيائه مذيع نداءه يهدى إلى الله الأحد عالما متراحب الأبعاد وخلائقه وافرة الأعداد، كل كلمة من آياته شريعة، وعقيدة، ومشعل خالد الضياء. علي طريق القافلة المؤمنه وقديما وقفت قريش تأتمر فى بأس ويأس بآيات هذا القرآن وهى تتنزل آية آية، وكانوا يمعنون فى الكيد لحامل الراية، محمد رسول الله ﷺ – فيملأون من مكة شكوكا حول الآيات الهاطلة، كالغيث، وعلى أثر هذا كان القرآن يطمئنه ويقول له ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[1].

وحين كان كيدهم يتزاحم حول القرآن كالنذر المخيفة، كان محمد ﷺ يفزع وتأخذه الهموم الجليلة خوفا على ذلك النور أن يتمكن أعداء الله من اطفائه، ولكن القرآن يهدىء روعته، ويقول له فى ثقة وعزة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[2] – ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ⑪ وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ⑫ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ⑬ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾[3] – ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[4] – ويعطيه الله وعدا يجد برد كلماته فى صدره وتضىء إليه كل سكينة نفسه، ويذهب عنه

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٦.

(٢) سورة الأنعام جزء من الاية ١١٥.

(٣) سورة الطارق الآيات من ١١: ١٤.

(٤) سورة القلم الآية ٤٤.

الروع وتجيئه البشرى حين تنزل عليه هذه الآية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(١)،(٢).

عرض وتمحيص:

ما معني كلمة قرآن هذه - التى ينطلق بها اللسان اليوم فى يسر وسهولة؟ ومن أين جاءت؟ وماذا فهم القدامى منها؟ وماذا يمكن أن نفهم نحن منبا اليوم؟

أقول وبالله التوفيق:

تعريف القرآن: وأما لفظة قرآن، فقد اختلف فيها، فقال جماعة: هو اسم علم غير مشتق، خص بكلام الله فهو غير مهموز وبه قرأ ابن كثير، وهو مروى عن الشافعى، أخرج البيهقى والخطيب وغيرهما عنه، انه كان يهمّز قراءة القرآن، ويقول، القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قراءة، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة، والإنجيل،

وقال قوم: منهم الأشعرى: هو مشتق من قرنت الشىء بالشىء إذا ضممت أحدهما إلى الأخر، وسمى به القرآن السور والأيات. والحروف فيه،

وقال الفراء: هو مشتق من القرائن، لأن الآيات منه، يصدق بعضها بعضا، ويشابه بعضها بعضاً وهى قرائن، وعلى القولين هو بلاهمز أيضا ونونه أصلية.

وقال الزجاج: هذا القول سهو والصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمز إلى الساكن قبلها - (واختلف القائلون بأنه مهموز).

فقال قوم منهم اللحيانى: هو مصدر لقرآن - كالرجحان والغفران - سمى به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر،

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

(٢) بتصرف من كتاب كما تحدث القرآن ص ٣.

وقال آخرون منهم الزجاج: هو وصف على، فُعْلان، مشتق من القرء بمعنى الجمع، ومنه قرأت الماء فى الحوض أى جمعته، قال أبو عبيدة وسمى بذلك لأنه جمع السور بعضها إلى بعض وقال الراغب: لا يقال لكل جمع قرآن، ولا لجمع كل كلام قرآن قال: وانما سمى قرآنا، لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة، وقيل: لأنه جمع أنواع العلوم كلها (وحكى قطرب قولا: أنه انما سمى قرآنا لأن القارىء يظهر ويبيّن ما «فيه» أخذا من قول العرب: ما قرأت الناقه سلا قط. أى ما رَمَتْ بولد. أى اسقطت ولدا. أى ما حملت قط، والقرآن يلفظه القارىء من «فيه» ويلقيه. فسمى قرآنا..)[١].

أما دائرة المعارف الإسلامية، فتبدأ بحثها، فى مادة القرآن، بذكر اختلاف المسلمين فى نطق واشتقاق من ومعنى كلمة قرآن، فبعضهم يقول:

القرآن من غير همز، ويذهب إلى أنها كلمة وضعت، كما وضعت كلمة توراة وإنجيل وهو كما ترى قول الشافعى الذى سبق ذكره، ثم تمضى الدائرة فى ذكر بقية الأقوال الخمسة، وتضيف إليها قولا سادسا وهو ماذهب إليه «شفالى» من أن الكلمة عبرية، أو سريانية ومعناها ما يقرأ، وتميل دائرة المعارف مع هذين العالمين إلى رأيهما الذى يقول: بأن «قرأ» بمعنى «تلا» ليست كلمة عربية النسب، ولكنها دخيلة على اللغة)[٢].

وبعد هذا العرض لأقوال القدامى والمحدثين فى أصل هذه الكلمة «قرآن» علينا أن نأخذ معناها الدقيق من القرآن ذاته بتتبعنالها، فماذا نجد؟

يقول الله تعالى ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[٣] ظاهر المعنى هنا التلاوة، والقراءة، أى أن القرآن هو كلام الله الذى يردده الناس، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ

---

(١) من كتاب الاتقان جـ ١ ص ٥٠ للسيوطى.

(٢) انظر كتاب «عن القرآن» ص ٩٢ محمد صبيح – الكتاب الأول.

(٣) سورة القيامة الآيات ١٦: ١٨

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[١].

إلا أن هذه الآيات تضيف توضيحا جديدا وهو: أن القرآن كلام الله الذى يردده الناس، ولا يشترط أن تكون التلاوة فى كتاب مسطور – ويقول تعالى﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾[٢].

ويقول تعالى﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾[٣] – وقوله تعالى﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾[٤] – وقوله أيضا﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٥] – وقوله تعالى﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾[٦] ويقول تعالى﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾[٧] وقوله تعالى﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[٨] – وقوله تعالى﴿ انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾[٩].

---

(١) سورة الإسراء الآيات ٨٨ :٩٣.

(٢) سورة البقرة جزء من الآية ١٨٥.

(٣) سورة الحجر الآية ٨٧.

(٤) سورة طه الآية ٢.

(٥) سورة النمل الآية ٦.

(٦) سورة الأحقاف جزء من الآية ٢٩.

(٧) سورة الواقعة الآيات من ٧٧:٧٩.

(٨) سورة الحشر جزء من الآية ٢١.

(٩) سورة الدهر – الآية ٢٣.

وفى هذه الآيات جميعا وفى كثيرٍ غيرها، مما يجرى استعمال اللفظ فيها، على هذا النحو تدل كلمة «قرآن» على أنه كلام الله، الذى نزل به الوحى على نبيه محمد ﷺ والناظر فى هذه الآيات الكثيرة، التى اقترنت فيها كلمة «القرآن» بفعل «اقرأ» ترد على أولئك المستشرقين الذين يقولون أن هذه الكلمة وضعت من غير إشتقاق مثل كلمة توراة، وإنجيل -

وعلى هذا فأستطيع أن أقرر هنا أن القرآن هو كتاب الله المنزل بلفظه ومعناه على نبيه وخير خلقه محمد ﷺ ليعمل به وليبلغه قومه ليعملوا به، المنقول بالتواتر، المقتضى لليقين بأنه من عند الله، المكتوب فى المصاحف، المحفوظ فى الصدور من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، المتعبد بتلاوته والعمل به، المتحدى به كله وبأقصر سورة منه، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى تكفل الله بحفظه مهما حاول الملحدين صد الناس عنه والتهوين من أمره مهما تقاعد أهله عن القيام بحقه قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

دعوى وردها:

وهنا سؤال نسأله لنكشف اللثام عنه، وهو هل لفظ «قرآن» عربى أو معرب؟ من عجب أن يدعى أصحاب الشطحات من المستشرقين أن كلمة «قرآن» ليست عن أصل عربى وإنما هى معربة عن العبرية أو الحبشية، أو النبطية .. إلى غير ذلك من الفريات التى يحاولون أن يظهروا بها فى الناس وأنهم يعلمون، دقائق العلم وخباياه والحق أنهم إنما يتخرصون تخرصات أشبه بتخرصات الكهان، انها رميات طائشة قد تصيب وقد تخيب أكثر مما تصيب، وأعجب من العجب أن يتلقى كثير منا هذه الأقوال، بل يتلقفوها فى لهفة وحرص، وكأنهم عثروا على ذخيرة من ذخائر العلم، أو مكنون من مكنوناته ظانين أن كشوف العلم لا تجىء إلا من بعيد .. من أوربا أو

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

أمريكا، حتى ولو كان هذا العلم علم العرب ولسان العرب، ودين العرب.

إن ذلك هو الخزى والخسران، ونسأل: هل ضاقت اللغة العربية كلها عن أن تجد كلمة التى تجعلها عنوانا لكتابها المبين؟ وإذا عجزت اللغة العربية عن أن تقدم كلمة واحدة هى رأيتها، والشارة الدالة عليها فكيف تستطيع أن تحمل هذه اللغة معجزة أساسها الكلمة، وتبيانها الكلام، هل يعقل هذا؟

لقد كانت كلمة «قرأ» ومشتقاتها من أكثر الكلمات جريانا على الألسنة، فى الوقت المعاصر للرسالة النبوية الكريمة، وكانت قريش قد بدأت تظهر عناية خاصة بأمر القراءة والكتابة، فلما نزل القرآن تلقاه المسلمون فى صدورهم، وجعلوا يتلونه ويقرءونه مما حفظته صدورهم، وكأن المسلم حيث كان يردد ما حفظ من آيات الله .. قارئا لنفسه، أو مقرئا غيره، وقد أمر النبى ﷺ أن يقرأ على الناس ما ينزل عليه من كلمات الله ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾[1]. أفبعد هذا يستقيم لقائل أن يقول: إن لفظة «القرآن» غير عربية؟ —

إن ذلك القول بأن لفظ القرآن غير عربى أشبه بقول من يقول: إن لسان العرب غير عربى إذ القرآن هو معجزة هذا اللسان، وإذا لفظة «القرآن» هى عنوان هذا القرآن .. ولا نقف عند هذا السخف أكثر من هذه الوقفة لندحض تلك الفرية الداحضة ولنفضح هذا البهتان العظيم.

شخصية القرآن وشواهد صدقه:

وأعنى بشخصية القرآن ما يسمى فى هذا العصر «بطاقة تحقيق الشخصية» التى تكشف عن حقيقة الإنسان وتدل عليه، وشخصية القرآن بهذا المعنى أوضح وأصدق شخصية يعرفها التاريخ إذ قامت عليها شواهد كثيرة تؤكد صحتها، وسلامتها من التحريف، أو التبديل: وذلك.

---

(١) سورة الإسراء جزء من الآية ١٠٦.

أولاً: التاريخ القرآنى الذى يؤكد أن الرسول ﷺ كان يملى على أصحابه ما ينزل عليه من آيات الكتاب أول فأول، وأن أصحابه قد تلقوا مانزل من الوحى فحفظوه فى صدورهم بعد، أو قبل ماكتب كتاب الوحى مانزل منه.

ثانيًا: كان النبى ﷺ والمسلمون يقرؤون فى الصلاة المكتوبة، والنوافل بالليل والنهار كل يوم قدرا كبيرا من القرآن، بل وكثير منهم كان يقرأ كل ما نُزل من القرآن فى يوم أو بعض يوم.

ثالثاً: إن الله سبحانه وتعالى قد وعد بحفظ القرآن من أن يطرأ عليه خلل أو نقص وذلك فى قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] - ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[2].

رابعا: كان اليهود، وهم أهل كتاب، وأصحاب علم ودرس، كانوا يرصدون حركات النبى ﷺ. ويتوفرون على التماس السقطات والزلات فى أصل الوحى، وصلة الرسول بالسماء، وفيما كان ينزل عليه من قرآن .. ولو أنهم وجدوا سقطة لطاروا بها، وملأوا الدنيا تشنيعا وتهويلا، وهم مغتاظون محنقون يحسنون الكيد والدس، ولم يسجل التاريخ تاريخ اليهود أنفسهم، أنهم قالوا فى القرآن الكريم قولا، على كثرة ما كان من القرآن من ذمهم وتقريعهم، وكشف معايبهم، وفضح نواياهم الخبيثة - ثم جاء نصر الله والفتح فأجلاهم الاسلام عن الجزيرة العربية كلها، وكان مجال القول والتشنيع أمامهم فسيحا، ولكن الله أخرسهم، وضرب على ألسنتهم فلم يقولوا فى القرآن كلمة يطعنون بها على «شخصيته» فى صورته التى هو عليها، من يوم أن نزل إلى يوم الناس هذا.

خامسا: الفرق الإسلامية الكثيرة التى قامت منذ صدر الإسلام، وقد اشتد بينها الخلاف وكثر الجدل، وطلب كل فريق وجه الغلب بأى سبيل،

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

(٢) سورة القيامه الآيتان ١٦ ، ١٧.

فكثر لذلك التقول على رسول الله ﷺ كما كثرت مذاهب التأويل لآيات الكتاب، تأويلا يذهب إلى أبعد غايات الكفر والالحاد.. ومع هذا فلم يكن من بين هذه الفرق حتى تلك التى خرجت من الإسلام فى شطحاتها وتأويلاتها - لم يكن لأى منها أن يجرؤ على أن يزيد كلمة أو حرفاً فى أى الكتاب الكريم، فضلا عن أية أو سورة وليس ذلك إلا أن القرآن كان من وضوح الشخصية وتحديد معالمها بحيث لا يمكن أن يجد أحد سبيلا إلى زيادة حرف، فضلا عن كلمة، وفضلا عن آية، وصدق الله العظيم الذى صدق وعده، وحفظ كتابه إذ يقول ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

فإذا جاء بعد هذا من يدخل فى دعوى يدعيها على القرآن استنادا إلى رواية مختلفة، أو خبر مكذوب فإنه يجب أن يرد ردا الكافرين المفترين، إذ مض أصحاب الشأن الذين كان لهم أن يسجلوا على القرآن مثل هذا الإدعاء فى حينه وكان فى يدهم كل وسائل الإذاعة والتسجيل، والتشهير - وأعنى بهم اليهود - ولكنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا - فسقطت بهذا دعوي كل مدع، وافتراء كل مفتر أثيم.

حجة القرآن على أنه منزل من عند الله:

لابد لكل دعوة صحيحة من حجة دامغة وبرهان قاطع يشهدان بصحتها ويلزمان المرسل إليهم بالتصديق بها، ولما كان القرآن خاتم الرسالات السماوية، فقد جاء ومعه حججه الخالدة، وجاء بها على منهاج لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة، وكان ولا يزال هذا المنهاج هو حجته القاطعة ودليله القائم على مر الزمان على صحة دعوته وما يدعو إليه، جاء القرآن معجزا فى بلاغة أسلوبه، وسمو معانيه، وجاء معجزا بما قصه من سير الأنبياء والمرسلين السابقين، التى ماكان يعلمها سوى علماء أهل الكتاب، وجاء معجزا بما تضمن من تشريعات حكيمة، ومثل عليا تتفق مع

---

(١) سورة الحجر الآية ٩.

طبائع البشر فى كل مكان وزمان، تكميلا لفطرتهم، وضمانا لسعادتهم، وجاء معجزا بما حوى من آيات العلم والمعرفة الصحيحة عن الجانب المادى من الكون مما لم يكن للناس علم به قبل نزوله أو بعده، حتى جاء العلم الحديث بوسائل بحثه الدقيق المستنده إلى الخبرة والمشاهدة منذ أكثر من قرنين من الزمان فكشف عن كثير منها، وأماط اللثام عن حقائقها ولم تتعارض حقائقه معها فى شيء ما.

جاء القرآن بهذه المعجزات الخالدة ممثلة فى منهاجه، وتحدى فحول العرب، والناس أجمعين أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، أو ولو بسورة واحدة من مثله، وقال متحديا ولا يزال يتحدى ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] - وقال تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[2].

وقد عجز فحول العربية وأساطين البلاغة من العرب وغيرهم، عن أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه. فكان ذلك - ولا يزال - حجة القرآن القاطعة على أنه كتاب، لم يفترى وأنه منزل من لدن حكيم عليم وأنه كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولما كان القرآن منزلا للناس كافة فى كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزته الكبرى، فى بلاغته وأسلوبه كان لهم من معجزاته الأخرى التى تتضح عن طريق ترجمة معانيه ما يمكنهم من إدراك اعجازه، ويلزمهم الحجة وصدق دعواه اذ يفى نقل المعانى دون النص الأصلى بالغرض المقصود فى هذا الشأن:

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٣، ٢٤.

سبيل القرآن فى نشر دعوته ونماذج لذلك:

أوضح الله تعالى، لرسوله الأمين ﷺ سبيل الدعوة لرسالته كما فعل مثل ذلك مع رسله الكرام من قبل.. فقال تعالى مخاطبا نبيه ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(١) والحكمة هى المقولة الصحيحة المحكمة والدليل الموصل للحق، والموعظة الحسنة: هى التبشير والانذار بالترغيب والترهيب، والجدل الحسن، هو المجادلة باللين والرفق الذى يوقظ القلوب ويحيى النفوس، ويجلى العقل فيزيل عنه ظلمة الشبهات وغشاوتها، قامت دعوة القرآن على هذا النهج القويم من الجدل والموعظة الحسنة فأمر الله تعالى رسوله الكريم، أن يخاطب كل طبقة من الناس بالأسلوب الذى يناسب عقولهم ويوافق طباعهم فيخاطب بالحكمة والدليل طلاب الحق من أرباب العقول الراجحة والبصائر الثاقبة، ويخاطب بالنصح والوعظ الحسن، عامة الناس وأوسطهم من ذوى الفطر السليمة التى لم يخالطها غرض أو عنت ويجادل جدالا – حسنا بالحكمة تارة وبالموعظة أخرى أهل العناد والخصام، الذين اتبعوا الهوى فأضلهم وأعمى أبصارهم وصرفهم عن سواء السبيل، والقرآن فى نشر دعوته يستخدم هذا الإسلوب المنطقى فى الجدل والمناقشة، وفى نظم شائق منقطع النظير، وبيان جامع بليغ يستدرج به قارئه إلى حظيرته من حيث لا يشعر ويغريه بمتابعة القراءة والإسترسال فيها دون – شعور بملل أو سأمة وذلك لفرط مافى معانيه من حلاوة، وما فى مبناه وإسلوبه من طلاوة، وهذه نماذج من القرآن اذكرها لتكون ترجمة عن منهج القرآن فى دعوته إلى دين الله.

(أ) القرآن نور وهدى ورحمة للناس .. يقول تعالى ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ

---

(١) سورة النحل الآية ١٢٥.

الْحَمِيدِ ﴾(١) ويقول تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٢) ويقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٣).

(ب) القرآن يدعو إلى تدبر آياته وإلى النظر والتأمل فى سائر المخلوقات وينهى عن الإعراض عنها ويذم التقليد والمقلدين .. - يقول تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾(٤).

ويقول تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(٥) - ويقول أيضا ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾(٦) - ويقول تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٧) - ويقول تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾(٨) - ويقول أيضا ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾(٩) - ويقول أيضا ﴿ وَكَأَيِّن مِّن

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) سورة الزمر الآيتان ٢٧، ٢٨

(٤) سورة ص الآية ٢٩.

(٥) سورة محمد الآية ٢٤.

(٦) سورة الأعراف الآية ١٨٥.

(٧) سورة الشعراء الآيتان ٧، ٨.

(٨) سورة الزمر الآية ٢١.

(٩) سورة الغاشية الآيات من ١٧: ٢١.

آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[١] - ويقول تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[٢].

(جـ) ويدعو بالحكمة إلى معرفة الله تعالي من معرفة أفعاله، وذلك بعرض آياته فى الآفاق، وفى الأنفس على أنظار العقول، ومطالبتها النظر، والتأمل والتفكير فيها:

يقول تعالى: فى هذا الغرض ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣] - ثم يجادل المشركين.

فيقول بعد ذلك ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٤].

ثم يخلص من هذه المقدمات إلى النتيجة المطلوبة وهى طلب معرفته ومعرفة صفاته الكمالية فيقول بعد ذلك ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٥.

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٤.

(٣) سورة الأنعام الآيات من ٩٥: ٩٩.

(٤) سورة الأنعام الآيتان ١٠٠: ١٠١.

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١).

ولا شك أن فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته، العلم الكامل الذى يحقق السعادة فى الدارين، والعلم بالله يستدعى التفكير والنظر فى خلق السموات والأرض – وذلك هو الأساس الذى قام عليه العلم الحديث – المبنى على التجربة والمشاهدة، ولذلك يقتضينا الإنصاف أن نقول: إن الدعوة الإسلامية دعوة عقلية تقوم على الدليل الحى، والبرهان المنطقى ما فى ذلك شك، فليتدبر هذا الماديون الجاحدون.

(د) ويدعو القرآن إلى الإعتقاد والإيمان بالبعث، فيجادل بدلائل الأنفس والآفاق فيقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾(٢).

ويعظ بالموعظة الحسنة فيقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٣).

---

(١) سورة الأنعام الآيات من ١٠٢:١٠٥.

(٢) سورة يس الآيات من ٧٧: ٨١.

(٣) سورة لقمان الآيتان ٣٣، ٣٤.

ويعظ بالإنذار والتبشير فيقول تعالى ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِّلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾(١).

(هـ) ويشرع من الدين وأصول الحكمة والفضيلة، ومن ذلك تقرير مبدأ المساواة وبيان أن التفاضل بين الناس أساسه التقوى وغير ذلك مما يكمل النوع الإنساني ويرقيه، ويضمن له الأمن والسعادة، يقول تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢) - ويقول تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٣).

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٤) - ويقول تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣)

---

(١) سورة النبأ الآيات من ١٧: ٣٦.

(٢) سورة المزمل جزء من الآية ٢٠.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٤) سورة النحل الآية ٩٠.

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾(١).

ويقول تعالى ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٢) ويقول أيضا ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣) – وبالإجمال يرى القارىء من الأمثلة المتقدمة وهى قليل من كثير من آيات الكتاب الحكيم أن رسالة القرآن تقوم على المطالبة بالنظر والتدبر فيها وتذم التقليد والمقلدين، وتعرض على العقول نظام الخلق وآياته التى هى من صنع الخالق جل وعلا، وتطالبها بالنظر والتأمل والتفكر فيها، وتقيم منها حجتها، ودليلها القاطع على صحة ماتدعو إليه بأساليب شائقة تتفق مع عقول الناس على إختلاف درجاتهم، فهى ولا شك رسالة تستند إلى العقل، وتقوم على الحجة والبرهان بأفضل الأساليب وتجافى التقليد والتلقين فى التدليل على صحتها وصدق ماتدعو إليه ..

أصول الدعوة الإسلامية:

تتلخص رسالة القرآن الكريم فى المقاصد الثلاثة الآتية وهى:

١) الدعوة إلى توحيد الله تعالى وعبادته وحده دون شريك له.

٢) الحث على التصديق بوحى الرسالة المحمدية واتباع ما شرعه الله تعالى

---

(١) سورة الإسراء الآيتان ٢٣ ، ٢٤.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٣) سورة النحل الآيات من ١١٤: ١١٧.

للناس فيها تكميلا لفطرتهم، وتزكية لنفوسهم، وضمانا لسعادتهم العاجلة والآجلة.

٣) الدعوة إلى الإيمان بالبعث وأن الله تعالى كما أنشأ الناس أول مرة فى الحياة الدنيا فإنه سيبعثهم بعد الموت يوم القيامه وعدا عليه حقا إنه لا يخلف الميعاد وأنهم إليه راجعون وعلى أعمالهم يحاسبون.

حكمة التدرج فى إنزال القرآن والتكرار فيه:

أنزل الله تعالى القرآن الكريم منجما - أى على أجزاء متفرقة على حسب الوقائع والأحداث ومقتضيات الأحوال - فى فترة من الزمن تقرب من ثلاثة وعشرين عاما فى زمن تبليغ الرسالة المحمدية، وتقع هذه الفترة من الزمان فى أوائل القرن السابع من الميلاد، وبين هذا الوقت كان العالم كله فى حالة انحلال تام، فالناس يعيشون فى غمرة من الجهل، إرادتهم مسلوبة، وحياتهم مفقودة، وعقولهم عن التفكير محجوبة، والمظالم عامة، والرذائل شاملة، والفوضى دستور الحياة، وآفة الشرك قد أفسدت القلوب حتى أكلت بذور الإيمان، وكان أهل الكتاب فى ذلك الزمان قد نسوا حظا مما ذكروا به، وغرتهم الحياة الدنيا فاشتروا به ثمناً قليلا، واستبدوا بالناس، وسيطروا على عقولهم بالباطل، وكان غير أهل الكتاب بين كافر بخالقه، أو مشرك به فى عبادته، فوقع الناس بسبب كل ذلك فى أسر الذل والعبودية، فتهدمت دعائم الحياة الإجتماعية، وتقوض صرح العمران وذلك لأن زمام العالم كان بيد دولتين عظيمتين تتنازعان السيادة فى العالم هما «الفرس شرقا والروم غربا» وقد وقع بينهما صراع عنيف استمر طويلا فأكل منهما كل طريف وتليد، ولذلك شاء الخالق جل وعلا وهو الرؤوف الرحيم بعباده وجريا على سنته الحكمية، أن ينقذ الناس مما وقعوا فيه فأنزل آخر رسالاته على لسان خاتم أنبيائه ورسله إذ يقول تعالى ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[2]. مبينا تعالى أنها رسالة هدى تهدف إلى غرضين:

أولهما: تزكية النفوس وتطهيرها مما علق بها من معتقدات فاسدة باطلة ومما تكمن فيها من عادات الظلم والطغيان.

ثانيهما: إبدال هذه الحالة السيئة بأخرى صالحة عن طريق بث نور الحق وقواعد الإيمان الصحيح فى نفوس الناس وتعليمهم أصول الحكمة وما شرع لهم من الدين تكميلا لفطرتهم، وضمانا لسعادتهم العاجلة والآجلة، ومن أجل تحقيق هذين الهدفين قامت دعوة القرآن بأساليبها الحكيمة التى تقدم شرحها، تفند أولا المعتقدات الفاسدة، وتبين للمعتقدين بها سوء عاقبتهم، وشر مآلهم، ثم تعمل فى الوقت ذاته على إبدال هذا الحال السيء بآخر صالح تدعم به النفوس - وتثبت فيها أصولا جديدة من الحق والإيمان، حتى تم تطهيرها من أدران الرذائل والشرك. لذلك كانت دعوة القرآن ولا تزال دعوة صدق إلى تحقيق غاية، عجز عقل البشر وحده عن تحقيقها وهى تغيير عادات إتباع الأهواء وإيثار الظلم والطغيان وإبدالها بأخرى من العلم النافع والعمل الصالح الموصل إلى السعادة الحقة.

ولما كانت قواعد تكوين العادات وفق أصول علم النفس التى يعلمها كل من درس هذا العلم تقوم على عاملى التدرج والتكرار، فى ظروف مناسبة مع الترغيب فى قدر مناسب من الزمان، نرى الله تعالى، وهو الذى أحاط

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١.

(٢) سورة الجمعة الآيات من ٢:٤.

بكل شيء علما قد أنزل آى الذكر الحكيم علي مقتضى هذه القواعد التى تتفق مع طبائع النفوس ومع أسمى ماتقصد إليه أصول التربية الصحيحة فأنزل تعالى القرآن منجما ومتدرجا فى ظروف مناسبة للتنزيل فى أكثر من حقبتين من الزمان، وقرن هذا التدرج فى التنزيل بتكرار فى بيان تشريعاته ودلائل مخلوقاته التى تدل على وجوده وصفاته بأساليب حكيمة شائقة، وإلى هذا التدرج والتكرار يشير تعالى بقوله ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١) وبقوله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾(٢) - وبقوله تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾(٣) - ومع ذلك فإن هذا التكرار الوارد فى الكتاب العزيز ليس من قبيل التكرار المقصود به مجرد الاطناب، أو التوسع فى الكلام لأن هذا تأباه بلاغته المعهودة وفصاحته المعترف بها وبناؤه من الكلم الجوامع، وإنما هو تكرار فى جزئيات الأيات لاكلياتها إذ لا تجد مطلقا فى آيتين كاملتين تطابقا فى النص والمعنى، فهو اذن تكرار بليغ يأتى دائما بشىء جديد، وأن التكرار فى ذاته قد يكون أسلوبا من الأساليب البليغة فى كلام العرب حينما يكون مظهرا من مظاهر الإطناب البليغ. وقد تحدث عنه البلاغيون وسأذكر الأن بعض الأمثلة على ذلك فيما يلى:

أمثلة من بلاغة القرآن فى تكراره:

(أ) ذكر الله تعالى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فى اثنتى عشرة آية متفرقة ولكن بنصوص تختلف فى بعض جزئيات مع إضافات

---

(١) سورة هود الآية ١.

(٢) سورة الإسراء ١٠٦.

(٣) سورة الفرقان الآية ٣٢.

(٤) سورة الحجر الآية ٨٥.

جديدة منها قوله تعالى﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾(٤). وقوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١). وقوله تعالى ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾(٢).

(ب) وذكر تعالى بناء السماء في سبع آيات مختلفة، منها قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾(٣) – وقوله تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾(٤) – وقوله تعالى ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾(٥).

(جـ) ووصف تعالى الشمس بأنها مصدر الضياء، والقمر بأنه مصدر النور في آيات ثلاث يكمل بعضها بعضا قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾(٦) – وقال تعالى﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾(٧) – أي الشمس وقال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(٨).

يتضح للقارئ مما تقدم أن نزول القرآن منجما مع ورود التكرار البليغ فيه إنما كان عن قصد، ولحكمة في التبليغ تتفق مع طبائع النفوس البشرية، وتقصد إلى تثبيت أصول رسالته فيها حتى يصبح العلم والعمل

---

(١) سورة النحل الآية ٣.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٣.

(٣) سورة ق الآية ٦.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٢.

(٥) سورة النبأ الآية ١٢.

(٦) سورة نوح الآيتان ١٥، ١٦.

(٧) سورة النبأ الآية ١٣.

(٨) سورة يونس الآية ٥.

بها عادة لا مشقة فيها وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) ويقول تعالى﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(٢) (٣).

فضل القرآن الكريم من السنة المطهرة ونماذج لذلك:

وأبدأ الحديث عن فضل القرآن الكريم من السنة المطهرة بذكر نماذج من القرآن ذاته تدل على أفضليته في ذاته.

يقول الله تعالى ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٤)

- ويقول تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(٥).

ويقول تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٦) - ويقول تعالى أيضا في هذا الصدد ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾(٧) - ويقول تعالى ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾(٨) - ويقول تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن

---

(١) سورة يونس الآية ٥٧.

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(٣) انظر «التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن ص ١٣، حنفى أحمد.

(٤) سورة البقرة الآيتان ١ ,٢.

(٥) سورة الأنعام الآية ١٥٣.

(٦) سورة الإسراء الآية ٩.

(٧) سورة الأنبياء الآية ٥٠.

(٨) سورة ص الآية ٢٩.

يشاء ﴾(١) - ويقول تعالى ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

أما فضل القرآن الكريم من السنة المطهرة. فقد ثبت فى كثير من الأحاديث أسوق منها أيضا بعض الأضواء على القرآن، من ذلك ما روي عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الرب عز وجل: من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)(٣).

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ فيما يروويه عن رب العزة من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)(٤).

والقرآن أفضل الذكر - فعن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال: «إن لله أهلين من الناس فقيل: من هم يارسول الله؟ قال: أهل القرآن وأصحاب الليل»(٥).

وعن أبى أمامة ﷺ قال سمعت - رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤا القرآن فانه يأتى يوم القيامه شفيعا لأهله)(٦).

وعن النواس بن سمعان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به فى الدنيا - تقدمهم سورة

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣.

(٢) سورة الحشر الآية ٢١.

(٣) أخرجه الترمذى كذا فى الترغيب جـ ٢ ص ٥٧٨، وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ - باب ما جاء كيف كانت قراءة النبى ﷺ ص٢٤٤.

(٤) أخرجه البيهيقى فى شعب الإيمان كذا فى كنز العمال جـ ١ باب فى الذكر وفضيلته ص ٣٨٩.

(٥) أخرجه النسائى وابن ماجه والحاكم كذا فى الترغيب جـ ٢ ص ٥٦٣.

(٦) أخرجه احمد فى مسنده ومسلم كذا فى الفتح الكبير جـ ١ ص ٢١٧.

البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما)[١].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الذى يقرأ القرآن وهو به ماهر، مع السفرة الكرام البررة، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»[٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: (ان الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين)[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: (لا حسد إلا فى اثنتين. رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)[٥] [٦].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن فى الصلاة وفضل سورة البقرة ص ٤٥٧.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ص ٢٣٦.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ باب تفسير سورة عبس ص ٢٠٦، وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٢) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب - استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل ص ٤٥١.

(٤) أخرجه مسلم كذا في مختصر شعب الإيمان - الشعبة التاسعة عشر (تعظيم القرآن المجيد) ص ٤٦.

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ باب - اغتباط صاحب القرآن ص ٢٣٦، وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب - من يقوم بالقرآن ويعلمه ص ٤٦٤.

(٦) والمراد بالحسد - الغبطة وهى أن تتمنى أن يكون لك مثل مالغيرك مما يعجبك حاله من غير تعد - وآناء الليل وآناء النهار ساعاته.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب»(١).

وعن الحارث الأعور رضي الله عنه قال: مررت فى المسجد فاذا الناس يخوضون فى الأحاديث - فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ رضي الله عنه، فأخبرته فقال: أَوَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قلت: نعم قال: أما انى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إنها ستكون فتنة، قلت: فما المخرج منها يارسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم مابينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله تعالى، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه - وهو الذى لم تنته الجن إن سمعونه حتى قالوا (انا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به) - من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يأعور)(٢).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة - وذكرهم الله فيمن عنده)(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ألم

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم وقال الحاكم صحيح الأسناد وقال الترمذى حديث حسن صحيح كذا فى الترغيب جـ ٢ ص ٦٠٠ وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ - باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر ص ٢٣١.

(٢) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ باب - ما جاء فى فضل القرآن صفحة ٢١٨.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٥ كتاب - الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار باب - فضل الإجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ص ٥٥٠.

حرف ولكنى أقول: ألف حرف ولام حرف وميم حرف[١].

وعن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال: من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا لو كانت فيكم فما ظنكم بالذى عمل بهذا)[٢].

وعن أبى هريرة - ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال: أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات عظام سمان؟ قلنا نعم، قال فثلاث آيات يقرأ بها أحدكم فى صلاته خير له من ثلاث خلفات سمان)[٣].

وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: خرج النبى ﷺ ونحن فى الصفة فقال: أيكم يحب أن يغدوا كل يوم إلى بطحان، أو قال إلى العقيق بناقتين كوماوين فى غير اثم ولا قطيعة رحم؟ قلنا كلنا يارسول الله يحب ذلك قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله تعالى فهو خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل)[٤].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما أذن الله لشىء ما أذن لعبد يقرأ القرآن فى جوف الليل وأن البِرَّ ليذر على

---

(١) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ باب - ما جاء فيمن قرأ حرفا من القران وماله من الأجر ص ٢٢٩، وأخرجه الحاكم وصححه، وابن مرويه كذا فى الدر المنثور جـ ١ ص ٢٢.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ كتاب - صلاة المسافرين وقصرها - باب - فضل قراءة القرآن فى الصلاة وفضل سورة البقرة ص ٤٥٦.

(٣) أخرجه الترمذى وأبو داود والحاكم وقال الحاكم صحيح الأسناد كذا فى الترغيب جـ ٢ ص ٥٨٤.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ كتاب - صلاة المسافرين وقصرها باب فضل قراءة القرآن فى الصلاة وفضل سورة البقرة ص ٤٥٦.

رأس العبد مادام فى مصلاه وما تقرب العبد إلى الله تعالى بمثل ماخرج منه)[١].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن النبى ﷺ قال: يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)[٢].

هذه أضواء من السنة المطهرة - كشفت لنا مكانة القرآن الكريم عند الله الذى أنزله وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم. فنجد أنه كتاب هداية ورشد، ينظم صلة العبد بربه وبأسرته ومجتمعه وإنه لشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. ومامكن الله تعالى للمسلمين الأولين فى الأرض إلا بعد أن تمكن القرآن الكريم من قلوبهم وسطعت أنواره على جوارحهم فاستجابوا له بجميع حواسهم واستعذبوا بذل الانفس وكل ما ملكوه فى سبيل نشره والدفاع عنه، فأورثهم الله عز الدنيا وعز الآخرة. وهم الآن احوج ما يكونون عودة إلى كتاب الله وسنة نبيهم لنحر الاستعمار ومطامع الصهيونية من بلادهم[٣].

إكرام المؤمن:

عن أبى موس الأشعرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلمة، وحامل القرآن غير الغالى فيه، ولا الجاني عنه وإكرام ذى السلطان المقسط» [٤] وعن عائشة ﷺ. قالت: «أمرنا

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ باب - من لم يتغن بالقرآن ص ٢٣٥.

(٢) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٧ - باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ص ٢٣٢، وأخرجه ابن حيان فى صحيحه جـ ٢ ذكر البيان بأن أخر منزلة القارىء فى الجنة تكون عند أخر أية كان يقرؤها ص ٩٩.

(٣) انظر تنوير الأذهان بما يتيسر تفسيره من القرآن ص ٦ قاسم أحمد عفيفى الدجوى ، الطبعة الأولى.

(٤) أخرجه أبو داود كذا فى الترغيب جـ ١ ص ٤٢٤ كتاب الترغيب فى إكرام العلماء وإجلالهم.

رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» (١) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبى ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول أيهما أكثر أخذا للقرآن فإن أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد» (٢).

شرف القصد:

هذا وينبغى . أن لا يقصد به توصلا إلى أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة، أو إرتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس، أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك، ولا يشوب المقرىء قراءته بطمع فى رزق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء أكان الرزق مالا - أو خدمة - وإن قل - ولو كان على صورة الهدية التى لو رفض قراءته عليه لما أهداها إليه، قال تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً﴾(٤).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (٥).

وعن أنس وحذيفة وكعب رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «من طلب

---

(١) أخرجه الخرائطى فى مكارم الأخلاق كذا فى الفتح الكبير جـ ١ ص ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٢ باب الصلاة على الشهيد ص ١١٤.

(٣) سورة الشورى الآية ٢٠.

(٤) سورة الإسراء الآية ١٨.

(٥) أخرجه ابو داوود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم كذا فى الترغيب جـ ١ ص ١٢٨ كتاب الترهيب من تعلم علم لغير وجه الله تعالى.

العلم ليجارى به السفهاء أو يكاثر به العلماء: أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوء مقعده من النار »[١].

وليحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه وليحذر من كراهة قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين - وهى دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته بل هى حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وحبه لله تعالى الكريم، فإنه لو أراد وجه الله بتعلمه لما كره ذلك - بل قال لنفسه أنا أردت الطاعة بتعليمه وقد حصلت - وقد قصدت بقراءته على غيرى - زيادة علمه فلا عتب عليه - وقد روى عن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال: «ياحملة القرآن أو قال ياحملة العلم اعملوا به فانما العالم من عمل بما علم ووافق علمه عمله - وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقا، يباهى بعضهم بعضا حتى إن الرجل ليغضب على جاره أن يجلس إلى غيره ويدعه - أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك، إلى الله تعالى»[٢].

ما ينبغى أن يكون فى المعلم والمتعلم من محاسن يجب التحلى بها:

أما عن المعلم وما يجب أن يتحلى به من أوصاف، أقول ينبغى للمعلم أن يتخلق بالمحاسن التى ورد الشرع بها، والخصال الحميدة الشيم المرضية التى أرشده الله إليها، من زهده فى الدنيا والتقلل منها. وعدم المبالات بها، وبأهلها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير خروج إلي حد الخلاعة. والحلم والصبر والتنزه عن دنيىء المكاسب وملازمة الورع والخشوع، والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، وإجتناب الضحك

---

(١) أخرجه الترمذى واللفظ له وابن ابى الدنيا والحاكم شاهدا والبيهقى وقال الترمذى حديث غريب كذا فى الترغيب جـ ١ ص ١٢٨.

(٢) أخرجه الدار قطنى وابن عساكر كذا فى كنز العمال جـ ١٠ باب التحذير من علماء السؤ وأفات العلم ص ١٦٤.

والإكثار من المزاح، وملزمة الوظائف الشرعية كالتنظيف بإزالة الأوساخ والشعور، التى ورد الشرع بإزالتها كقص الشارب وتقليم الظفر - وتسريح اللحية، وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة.

وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب، واحتقار غيره وإن كان دونه وينبغى أن يستعمل الأحاديث الواردة فى التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات وأن يراقب الله فى سره وعلانيته ويحافظ على ذلك وأن يكون تعويله فى جميع أموره على الله تعالى.

وهذا الذى ذكر يجب أن يكون فى المتعلم مضافا إليه هذه الأمور:

فمن آداب المتعلم أن يتحمل جفوة الشيخ، وسوء خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ويتأول لأفعاله وأقواله، التى ظاهرها الفساد، تأويلات صحيحة، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق أو عديمة وإن جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر أن الذنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له فى الدنيا والآخره، وأنقى لقلب الشيخ.

إرشاد يجب إتباعه:

ومما يجب اتباعه لدى قارىء القرآن، تعهده له بالمداومة على استذكاره ومدارسته فقد نص الشارع على ذلك فى القرآن نفسه، وفي السنة المطهرة ومن ذلك قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾[١].

وأفضل الذكر ذكر الله بتلاوة القرآن، فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ قال: «تعاهدوا هذا القرآن، فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل من عقلها»[٢] وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) سورة طه الآيات من ١٢٤: ١٢٦.

(٢) أخرجه البخاري فى صحيحه جـ ٦ باب استذكار القرآن وتعاهده ص ٢٣٨ وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت ص ٤٤٦.

«إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقَّلة، إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت» (١) -

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ «عرضت على أجور أمتى، حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت على ذنوب أمتى، فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن، أو آية أو تيها، رجل ثم نسيها»(٢).

وعن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قرأ القرآن ثم نسيه لقى الله عز وجل يوم القيامة وهو أجزم»(٣).

فضل قراءة الجماعة:

إعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة، وأفعال السلف والخلف المتظاهرة فقد صح عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: « ما من قوم يذكرون الله إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده (٤).

وعن معاوية رضي الله عنه أن النبى ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال ما يجلسكم؟ قالوا: «جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ماهدانا للإسلام ومن

---

(١) أخرجه البخارى في صحيحه جـ ٦ باب استذكار القرآن وتعاهده ص ٢٣٧ وأخرجه مسلم بشرح النووي جلد ٢ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل القرآن والأمر بتعهده ص ٤٤٣.

(٢) أخرجه أبو داوود والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه كذا فى الترغيب جـ ٢ ص ٦٠١ وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ ٨ باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن وماله من الأجر ص ٢٢٣.

(٣) أخرجه احمد فى مسنده والدارمي والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان كذا فى الفتح الكبير جـ ٣ ص ١٠٢ وأخرجه أبو داوود كذا فى الترغيب جـ٢ ص ٦٠١.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي مجلد ٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ص ٥٥٠.

علينا به فقال: «أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالي يباهى بكم الملائكة»[١] [٢].

جمع فأوعى:

يقول البعض إن القرآن كتاب تشريع ومعاملات ويقول البعض إنه كتاب تأمل وعبادات وغيرهم يقول إنه كتاب توحيد وإيمان، والبعض يقول إنه كتاب بلاغة وأدب والحقيقة إنه كتاب (جمع فأوعى)، إنك لتجد فيه كل ما تريد أليس معجزة من الله، وإن من بين أوجه إعجازه التى تخرس ألسنة كل مكابر، الإعجاز العلمى.

وهذا الجانب هو ما سأحاول إبرازه لدى القرآن لأنه مثار جدل بين كثيرين اعتقدوا أن القرآن لا يتحمل مثل هذه الأشياء فهو لم ينزل لمثل هذا، وقعدوا بالقرآن عند نقطة جمد تفكيرهم فيها، والحق أن القرآن من الخطأ أن يقال فيه، إنه صالح لكل زمان ومكان لأننا بذلك نخضع القرآن لمجريات الظروف والأحوال، والتحقيق أن أقول: إن القرآن هو المصلح لكل زمان ومكان فما جد ووافق القرآن فهو جدير بالإعتقاد ومالا يوافق القرآن فهو رأى شخصى أو فكرة ليس لها أساس فالتعويل إذا على القرآن. ومن هنا فقد أثبت التقدم الفكرى فى العلوم فى العصر الحديث أن القرآن كتاب علم قد جمع أصول كل العلوم والحكمة وكل ما استحدث من العلم نجد أن القرآن قد وجه النظر إليه أو أشار إليه.

أما من يقولون إن القرآن ليس كتاب علم فقد فاتهم أن أول آية فى القرآن هى الأمر بالقراءة، ثم تكرار الأمر فى الآية اللاحقة وتوجيه النظر إلى علم خلق الإنسان فأول آيات القرآن﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استجابة الاستغفار والاستكثار منه ص ٥٥٢.

(٢) انتهى بتصرف من آداب القرآن ص١١.

الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[١] .. وبعد القراءة نجد الدعوة إلى العلم بالقلم. فالآيات إذاً لم تقتصر على القراءة، بل دعت إلى الكتابة. وقررت أن العلم من الله تشريفا وتكريما للعلم، ونجد أن فى القرآن خمسا وثلاثين آية تأمر بالنظر فيما يتعلم منه الإنسان وأكثر من خمسين آية تدعو إلى النظر وطلب السير فى الأرض والتعلم من مثل قوله تعالى ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾[٢] .. ومثل قوله تعالى ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾[٣].. وكآيات النظر وآيات الدعوة إلى السير مثل قوله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾[٤].. إن هذه الآيات دعوة صريحة للعلم وتوجيه النظر إلى مختلف العلوم، ليس كالقرآن كتاب - كرم العلماء، تقول الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٥] - وجعلهم الله سبحانه بعد الملائكة فى شهادة التوحيد - تقول الآية الكريمة ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾[٦].. ومن يعارض فى أن القرآن كتاب علم فليتدبر آياته ليرى أن ألفاظ العلم قد تكررت فى القرآن أكثر من مائة وستين مرة - وأنه قد حوى ستة وثلاثين ومائتين وستة آلاف آية، منها حوالى خمسين وسبعمائة آية كونية وعلمية والباقى أيات للتشريع والمعامله والعبادات - والعقائد والتكاليف - والتوحيد والتأمل - وقصص الأنبياء السابقين ومن يقول إن الآية الشريفة ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾[٧] .. آية

---

(١) سورة العلق الآيات من ١:٥

(٢) سورة الانعام الآية ٩٩.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٠.

(٥) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٦) سورة آل عمران الآية ١٨.

(٧) سورة الزمر الآية ٦.

معاملة أو تشريع - أو تأمل أو توحيد أو ليست هذه الآية قد ضمت أصول علم الأجنة الذى يقرر أن الجنين بعد نموه يكون محاطا بثلاثة أغشية صماء لا ينفذ منها الماء، ولا الضوء، ولا الحرارة، تعرف باسم: المنبارية، والأميونية، والخوريوينة أولا يسمى مثل هذا الغشاء الأصم فى اللغة العربية (ظلمة) ومن يقول إن الآية الشريفة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(1).

ليست آية علمية قد كررت حقيقة لم تعرف إلا فى السنين الأخيرة وعندما اكتشفت نظرية (لابلا) فى خلق السموات والأرض أعتبر ذلك نصرًا، للعلم فى حين أن القرآن يقررها من عشرات المئات من السنين، والآيات المشابهة مئات قد حوت علوم الطبيعة، والفلك، والجيولوجيا، والتاريخ، والنبات والحيوان، والزراعة، والوراثة، وعلم النفس، والطب الإجتماعى، والصحة والميتافيزيقا، ومالا سبيل إلى حصره .. فهل إذا أوضحنا للعالم غير العربى أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث وسبقها إلى كل متحدث من العلوم. ألا يكون هذا الوجه من إعجاز القرآن كافيا لاقناع رجال الغرب بمعجزة القرآن لاسيما أن حديث العلم هو القول الفصل الذى لا يستطيع أى مكابر أن يجادل معه أو يشك فيه؟ أولا يكون إعجاز القرآن العلمى بذلك هو السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير العرب؟

إن اليوم الذى ننشر فى العالم بلغاته المختلفة ماقد سبق القرآن إلى القول به وأثبته من التقدم العلمى فى مختلف العلوم لهو اليوم الذى نكون فيه قد أدينا .. الرسالة وأبلغنا الدعوة وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب(2).

---

(1) سورة الأنبياء آية ٣٠.

(2) أنظر (القرآن والعلم الحديث) ص٢٢ عبد الرزاق نوفل.

نماذج من الجانب العلمى فى القرآن الكريم:

هذا الذى سأذكره، اشارات يحتاج شرحها إلى مجلدات، وهذا ايجاز ينطوى على اعجاز، فسبحان من أودع فى كتابه هذه الأسرار، وطوى فيه من العجائب ما خلب القلوب - وبهر الأنظار، وحسبى فى هذا المقام أن أشير إلى طرف سبق فيه القرآن العلوم الحديثة.

١- يقول علماء الكيمياء: إن الجسم يتركب من عناصر مختلفة بنسب معينة وهذا ما يسمى عندهم بالأوزان الكيميائية - وهذه النظرية قد سبق إليها القرآن حيث يقول ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(١) ويقول أيضاً: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾(٢).

٢- ويقولون أيضاً: لو زاد أوكسجين الهواء لاضطربت نفوس الأحياء، ولو زادت نسبة نتروجينيه لحل بها الموت، وهذا هو ما أشار اليه القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾(٣).

٣- ويقولون أيضاً: إن أوكسجين الهواء يتناقص فى طبقات الجو مما يعرض الانسان للإختناق ومن أجل هذا يتزود الطيارون بالهواء الصناعى خشية المفاجئات وأقول: قد سبق القرآن إلى تقرير هذا فقال ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾(٤).

٤- ويقول علماء الجغرافيا: إن أصل العالم السديم «الأثير» وهذه النظرية قد سبق إليها القرآن قال تعالى ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾(٥).

---

(١) سورة القمر أية ٤٩.

(٢) سورة الفرقان أية ٢

(٣) سورة الحجر أية ٢١.

(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٥.

(٥) سورة فصلت الآية ١١.

٥- ويقولون: إن العالم كله كتلة واحدة ثم تناثرت وانفصل بعضها عن بعض - وإلى ذلك سبق القرآن قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(١).

٦- ويقولون : إن الأرض منبعجة من الوسط، وهذا هو الذى ذكره القرآن حيث يقول ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(٢).

٧- ويقولون إن الأرض تدور حول الشمس، وليست ثابتة كما يظن الإنسان. وهذا هو ما أشار اليه القرآن اذ يقول ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٣) - وهنا يلزمنى أن أقف عند هذه الآية وقفة قصيرة فقد كان البعض يحملها على يوم القيامة عندما يزول العمران، وتتخرب الأرض، وحجة هؤلاء أن الآية ذكرت فى معرض الحديث عن مشاهد يوم القيامة وهذا لا يتناقض مع الفهم الذى فهمناه من الآية، وقد يعين عليه أن القرآن يخاطب المجتمع الحاضر حين يقول ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾(٤) فهو يخاطب كل من تتأ منه الرؤية فى عالمنا الحالى وهو بعد ذلك يقول (صنع الله الذى أتقن كل شىء) - والاتقان لا يتناسب مع خراب الارض وإنما يتناسب مع تسييرها بسرعة عجيبة تبلغ ثلاثين وثمانمائة وألف كيلو فى الدقيقة الواحدة دون أن يحس بها الانسان، وهذا الفهم لا ينافيه تقدم الحديث عن يوم القيامة فاقتران بدء العالم بنهايته يكشف الابداع ويبرز دلائل القدرة، ويناصر هذا الفهم ما جاء فى ختام السورة ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾(٥).

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠ .

(٢) الأنبياء الآية ٤٤ .

(٣) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٤) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٥) سورة النمل الآية ٩٣ .

٨- يقولون أيضا:

إن من فوائد الرياح أنها تسوق السحب من جهة الى جهة، وهذا هو ما قرره القرآن. قال الله تعالى﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[١] .

٩- ويقول علماء الجيولوجيا فى طبقات الأرض: إن الأرض متزنة بالجبال، ولولاها لمادت ،واضربت، واختل نظامها، والقرآن قد سبق ذلك القول حيث قال﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[٢] - وقوله تعالى﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[٣] .

١٠- ويقول علماء النبات إن الرياح وسيلة من وسائل التلقيح ، والقرآن قد سبق ذلك القول اذ يقول﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾[٤] .

١١- ويقول علماء الذرة: قد تبين اليوم فساد المذهب القديم الذى كان يقرر أن الذرة لا تتجزأ، فقد تمكن العلم الحديث من تفتيتها- وقد قرر القرآن أن هناك ما يصغر عن الذرة قال تعالى﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[٥]

١٢- ويقول علماء الفلك: إن للنجوم السيارة مدارات تجرى فيها دواما ولوتجاوزتها قليلاً لاضطرب العالم- واختل نظامه وقد استدل بهذد النظرية (اسحاق نيوتن) على وجود الله رداً على سؤال لكبار علماء انجلترا - فى هذا الصدد قد أشار القرآن الكريم الى ذلك حيث قال مقسماً الله بها فقال

(١) سورة الروم الآية ٤٨ .

(٢) سورة الانبياء الآية ٣١.

(٣) سورة لقمان الآية ١٠ .

(٤) سورة الحجر الآية ٢٢.

(٥) سورة سبا الآية ٣

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾(١).:- وما أقسم الله بها الا لخطرها وأثرها فى نظام العالم على النحو الذى أراده.

١٣- يقول الباحثون فى العالم العلوى إن المريخ والسيارات الأخرى، بها حيوانات والقرآن قد سبق ذلك بإشارته اللماحة حيث يقول: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ﴾(٢) فأتى بالضمير مثنى يعود على كل من السموات والأرض.

١٤- يقول الباحثون فى الكون إن ناموس الازدواج يجرى فى كل شىء، فالجمادات تتنوع إلى نوعين سالب وموجب، والنباتات والحيوانات تتنوع الى نوعين- ذكر وأنثى والقرآن قد سبق هذا القول فقرر ذلك اذ يقول ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(٣) .

١٥- يقول العلماء المحدثون إن السحب بها نوعان من الكهرباء، أحدهما سالب والآخر موجب، وبهذا أمكن تآلفها وانسجامها- وهذا هوعين ما أشار اليه القرآن ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾(٤).

١٦- ويقولون: اكتشف دارون قانونا جرى عليه الكون هو «البقاء للأصلح» والقرآن قد سبقه فى ذلك حيث قال ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾(٥) .

١٧- انتهى العلماء المحدثون الى أن الإنسان أصله تراب تحول إلى نبات وحيوان ثم دخل فى الجسم ثم صار إنسانا وهذا هو ما قرره القرآن

---

(١) سورة الواقعة الأيتان ٧٥،٧٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٩ .

(٣) سورة الذرايات الآية ٤٩ .

(٤) سورة النور الآية ٤٣ .

(٥) سورة الرعد الآية ١٧ .

من قبل، قال تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(١).

والعجب أن علماء المسلمين القدامى كانوا يختصون آدم وحده بالخلق من التراب وكانوا يرون أبناءه مخلوقين من النطفة- أى المادة المنوية التى أعطوها صفة الموت، وعلى هذا فهموا قوله تعالى ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾(٢) - ولكن العلم الحديث أعطى المادة المنوية صحة الحياة، فلم يبق هناك مفر من إبقاء القرآن على ظاهره، وهو القول بأننا جميعاً من تراب كما تفيده الآية وكما تؤيده بقية الآيات الأخرى،﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾(٣) - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾(٤) - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾(٥).

١٨- أثبت العلم الحديث أن الانسان تتغير مادته وتتجدد عناصره كليا فى فترة زمنية محدودة يصبح بعدها إنسانا جديدا وهذا هو ما أشار إليه القرآن ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾(٦).

١٩- ويقول علماء البصمات: إن الأصابع هى أدق أعضاء الإنسان، ولا يمكن التماثل فيها بين شخصين، ومن أجل هذه الدقة نرى الله عز وجل قد رد على منكرى البعث فقال﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾(٧) - فكأنما المولى يقول لهم: إننا قادرون على اعادة أدق الجوارح، التى

(١) سورة الروم الآية ٢٠ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٥ .

(٣) سورة الكهف الآية ٣٧ .

(٤) سورة الحج الآية ٥ .

(٥) سورة فاطر الآية ١١ .

(٦) سورة ق الآية ١٥ .

(٧) سورة القيامة الآية ٤ .

يتمايزبها الناس بعضهم عن بعض ومن قدر على اعادة أدقها قدر على اعادة مادون ذلك من بقية الأعضاء....

وهكذا يكشف العلم الحديث سر تخصيص البنان بالإعادة والتسوية -

٢٠- يقول المخترعون: قد أمكن تسيير القطارات والطائرات والسيارات وغيرها من وسائل النقل والركوب والقرآن الكريم قد كشف النقاب عن ذلك حيث وعد به عقب وسائل الركوب المعهودة فقال ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[١] .

هذه هى مدرسة القرآن وتلك إشاراتها وتعاليمها، وهى تحضنا على تعلم العلوم الطبيعية وتدعونا إلى فهمها، فكثير من آيات القرآن لا يسهل فهمها إلا على ضوء العلوم الحديثة وإذا كان هناك ميزة للقرآن كما قال الرسول ﷺ(لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه[٢]).

كيف والزمن يشهد كل يوم بأنه من عند الله الحكيم الخبير

لقد شهد أحد القسس للأسلام بهذه فقال القس «لوزان»:

(ليس فى الاكتشافات العلمية الحديثة ولا فى المسائل التى انتهى حلها والتى تحت الحل ما يغاير الحقائق الاسلامية الوضاءة، والسهلة المأخذ، ولهذا فإن التوفيق الذي نبذل كل جهدنا معاشر المسيحيين لأيجاده بين العقل والاعتقاد فى ديننا المسيحى هو سابق موجود فى الديانة الاسلامية[٣]).

---

(١) سورة النحل الآية ٨.

(٢) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٨ باب - ما جاء فى فضل القرآن ص٢١٨.

(٣) أنظر «التربية» فى كتاب الله ص٣٠ لمحمود عبد الوهاب فايد.

إحقاق الحق:

وبعد فلست أثني على القرآن الكريم إلا بما يشهد به التاريخ وتثنى به عليه الأجيال ولست أنحله من الفضائل إلا ما يقوم الدليل عليه.

إن هذا الكتاب الكريم قبس من نور الله - ونفحة من نفحاته - وسر من أسراره ولم تظفر بمثله أمة من الأمم إلا الأمة الأسلامية - ولم تأت به نحلة من النحل إلا الديانة المحمدية وهذا الكتاب ليس مثل كتب الأخلاق التي وضعها الفلاسفة المتقدمون - كجمهورية أفلاطون وأخلاق أرسطو طاليس - وكتاب السياسة له ولا كتب الأخلاق التى وضعها فلاسفة الغرب - وليس مثله أيضاً كتب الديانات السالفة - كالإنجيل والتوراة والزبور - لأن كل أولئك لم تؤثر فى أممها أثره فى أمته - ولم تفعل فى شعوبها فعله فى شعبه وفى سائر الشعوب التى دانت له - لعمرى إن هو إلا الإكسير الذى يبحث عنه الفلاسفة وعلماء الكيمياء - إن قصارى هذا الإكسير أن يحيل النحاس ذهباً - أما القرآن فهو يحيل النفس الإنسانية الخبيثة إلى نفس طاهرة علوية - وليس يفعل ذلك فى فرد بل فى شعوب وأمم - ويبدل من الجهل علماً - ومن الرذيلة فضيلة - ويجعل الشعب الذى لا يصلح للإجتماع ولا لأن يعيش أفراده بعضهم مع بعض شعباً إجتماعياً - من خير الشعوب الإجتماعية - وينصبهم على الدنيا سادة - ومعلمين ومهذبين - وساسة عادلين - وليس يفعل ذلك فى الزمن الطويل - وعلى الطريق المعروف الطبيعى بل هو يفعله فى الزمن القصير المدى الذى لا يكفى لتهذيب فرد - بل له أمة بأسرها - مثله فى ذلك ما يتخيله علماء الكيمياء من فعل إكسير الذهب الذى يحيل النحاس إلى ذهب وشيكاً سريعاً وهو لا يستحيل إلى ذهب بفعل الطبيعة إلا فى آلاف السنين وهو مدفون تحت الارض تصهره حرارة قوية فى باطنها - واية ذلك أن العرب كانوا قوماً متوحشين فى جزيرتهم يأكل بعضهم بعضا كالوحوش الكاسرة والذئاب الهائمة - كانت الحرب تقوم بين القبيلة والقبيلة فتمكث عشرات السنين حتى تباد القبيلتان -

وكان لا يأمن الرجل أن يسير فى طرق الجزيرة إلا بحلف - أو جوار - أو فى شهر حرام - حتى كأن الجزيرة أتون يأكل من فيها - ولا يصلح للقرار عليه - وكأن العرب مع ذلك على أخلاق فظة وعادات قبيحة فكانوا يئدون البنات - ويهتكون الحرمات ويعبدون الأصنام - وتستعبدهم الأوهام وتملكهم الخرافات - فأرسل الله محمداً ﷺ بذلك الكتاب الكريم الذى قال الله فيه ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾(١) - فقص طباعهم الوبيلة - وأبطل عاداتهم المحكمة وصهر نفوسهم فأزال خبثها ورزائلها - وعادت نفوسا كريمة - لا تعلق بها رزيلة ولا توشبها فاحشة - وأرسل هؤلاء البدو الجفاة على العالم القديم المتعفن البالى يعلمونه ويهذبونه - ويثقفونه ويحكمونه فيقيمون عدل الله فى أرضه وقسطاسه فى خلقه وهذه معجزة إجتماعية لم يشهد لمثلها التاريخ - إن المرء قد يعجزه أن يهذب ابنه وهو حريص علي ذلك، مشتغل به - ساهرٌ عليه - وربما عجز بعض فلاسفة الأخلاق والاجتماع أن يصلح أسرته - وأن يسوس بيته فتنشز عليه زوجه ويشذ عنه ولده - وتأبى عليه أخلاق ورثوها، أن تلين فى يده - وعادات اكتسبوها أن تستحيل كما يريد.

أما محمد بن عبد الله ﷺ فقد قام فى الدنيا وحيداً فريداً الناس كلهم فريق - وهو وحده فريق - لا ناصر ينصره - ولا ولى فى الأرض يؤيده وليس بيده من أسباب القوة والغلب والسيطرة والسلطان شيء - ولم يكن بيده إلا آيات من ذلك الكتاب - تتنزل من السماء مفرقة - ويرسلها الله منجمة - ما هذه الآيات؟ وما هذه السور؟ أى قوة تجثم وراءها؟ وأى قدرة تستتر خلفها؟ وأى سر من أسرار الكون تحمله فى ضميرها؟ إنها تحمل أعم قوة فى الوجود حتى كأنها القدر - وتشتمل على سر خفى لا يعلم من أمره إلا أنه فوق القوى والقدر - فما أرادت من الوجود شيئاً إلا كان كلمح

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣.

البصر قالت للطباع الوحشية النافرة حولى فحالت - وللقلوب المتحجرة لينى فلانت - وللرذائل النفسية زولى فزالت - ولهذا المجتمع البدو ى الذى كان شراً كله - كن خيراً كلك فكان، وكانوا قوماً متعادين متباغضين، فزالت العداوة والبغضاء ، وكانت قلوبهم مختلفة - وأهواؤهم متنافرة ، فألف بين هذه القلوب وجمع هذه الأهواء مصداق ذلك قوله تعالى﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) كانوا قوماً يعدو بعضهم على بعض فأصبحوا يدفعون العدوان عن العالم، وكانوا قوماً من شذاذ الإنسانية فأصبحوا قاعدة، وكان لا يستفيد منهم الوجود إلا شراً .. فأصبحوا أجدى الناس فائدة وكانوا أعداء لأنفسهم وللإنسانية فأصبحوا أحب الناس للناس - وأرأف الأمم بالأمم - وأعدل الشعوب بين الشعوب وكل ذلك فى عمر قصير - وزمن وجيز - يقصر عن أن تواضى فيه نفس واحدة.

كان «رستم» إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: (أكل عمر كبدى يعلم الكلاب الآداب)(٢) ليأكل الغيظ كبدك ما شاء - ولتتحقق الضغينة محقا فقد قضى الله ولاراد لما قضى، أن يتعلم هؤلاء الآداب والسياسة والإجتماع والفضائل والأخلاق والعلوم والفنون - وأذن أن تقلب طباعهم - وتحول أخلاقهم - ويكونوا سادة الدنيا - وزينة الأرض - وجمال العالم - بما أحكم لهم من أسباب - وما أنزل إليهم من آيات الكتاب - هكذا فعل القرآن فى القديم - وهكذا يفعل فى الحديث لو عنى الناس به اليوم كما عنى به أسلافهم بالأمس - ولو عكفوا على درسه والبحث فيه - واستخراج العبر منه - ولو تخلقوا بأخلاقه وتربوا على آدابه - واستيقنوا بيقينه - ومكنوا لإيمانه حتى يستولى على نفوسهم. فلا تنبعث الجوارح إلا على مقتضى هذا الإيمان لو كان هذا الكتاب عند أمة غيرنا لجعلوه ورد

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٣.

(٢) أنظر (نقض مطاعن فى القرآن) ص١٣٢.

الناسك، وكتاب المتشرع، وصحيفة الأخلاقى - وقانون الإجتماعى - وأداب السياسى ونموذج البيانى.

ولكان كل شى عندهم ، فيستدلون به على كل شىء - ولكنه مُنِىَ بنا فلم نعرف له قدره. كما يجب ولم نحفل به كما ينبغى - والشىء لا يعطيك خره إلا على قدر إحتفالك به وإجلالك اياه ومعرفتك بقدره - واستبصارك بخيره.

أضاعونى وأى فتى اضاعو * ليوم كريهة وسداد ثغر

كان سلفنا الصالح يعلمون ما فى القرآن من خير، وكانوا يرونه هاديا مرشداً إذ توفروا عليه، ولذلك كان هجيرهم القراءة فيه، والتدبر لمعانيه، وكانوا يكرهون أن يشغلهم عنه شاغل حتى حديث رسول الله ﷺ.

فعن قرظة بن كعب ﷺ قال : لما سيرنا عمر ﷺ إلى العراق فمشى معنا عمر وقال: أتدرون لم شيعتكم - قالوا نعم، مكرمة لنا - قال؟ ومع ذلك فإنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل - فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم جردوا القرآن - وأولوا الرواية عن رسول ﷺ، وأنا شريككم - فلما قدم قرظة قالوا حدثنا فقال: نهانا عمر[١]).

قرأت الأمم الأخرى تاريخ القرآن ومبدأ الاسلام وعرفت للقرآن فضله فى إنباض المسلمين وعلم علماء الاجتماع منهم ورجال السياسة ورجال التبشير أن المسلمين لو عادوا إلى الاستيقان به والتخلق بأخلاقه والتأدب بادآبه، وتحليل حلاله، وتحريم حرامه لعاد إليهم مجدهم الأول - فسلطوا عليه المبشرين وصنائع المبشرين لينالوا منه - وينفروا عنه ويرموه بكل كريهة ليبعد أبناء المسلمين عنه، فيبعد عنهم الخير، بقدر بعدهم عنه - هذا هو السر فيما تراه من حملات لا تتناهى على القرآن الكريم ألا قد بلغت

---

(١) أخرجه ابن سعد كذا فى كنزل العمال جـ٢ - باب - فضائل القرآن مطلقاً - من مسند عمر ص١٨٣ أفعال.

اللهم فأشهد - ألا قد دللت المسلمين على الثغرة التى ينحدر منها إليهم أعداؤهم ليتقوها - اللهم فأشهد - ألا قد دللتهم على سر عظمتهم - وسبب مجدهم ليسلكوا السبيل إليه - اللهم فأشهد - ألا قد أزحت الستار عن أعدائهم فأريتهم اياهم، وخناجرهم مغمدة في صدرهم - وأيديهم ملوثة بدمائهم، وأفواههم فاغرة إليهم - وأضراسهم وأنيابهم تنهش فى لحومهم وأكبادهم - اللهم فأشهد ألا قد بلغت اللهم فأشهد.

ماذا وراء هذا النظم؟

هذا - وقد كان سياق النظم - فى ظاهر الأمر - يقضى بأن يقدم خلق الإنسان على تعلم القراءة والقرآن، فيقال مثلاً: «الرحمن» خلق الإنسان.. علمه القرآن..

لأن الخلق للإنسان متقدم على تعلمه القراءة والقرآن.. هكذا ما يبدو فى مستوي النظر الإنسانى، وما يجرى عليه منطق البشر فى ترتيب الأحداث ولكن النظم القرآنى لا يوزن بميزان البشر للكلام فهذا كلام الله وكلام الله صفة من صفاته والفرق بين كلام الله، وكلام البشر، كالفرق بين صفات الله وصفات عباده ولا تصح المقايسة بحال أبداً بين الخالق والمخلوق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فماذا إذاً وراء هذا النظم الذى جاء عليه القرآن؟

والجواب: والله أعلم: أن وراء هذا النظم كثير من الأسرار، لا يحيط بها العقل ولا يحصيها، إنه كلمات الله. وكما لا تنفد كلمات الله، كذلك لا ينفد معنى أية كلمة من كلماته - مصداق ذلك قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾(١) - وقوله تعالى﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾(٢).

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان الآية ٢٧.

وإنما هى أسرار تنكشف حالا بعد حال على مسرح العقول، وعلى امتداد الأزمان والآباد.. والذى يبدو لى من هذا النظم والله أعلم. أن القراءة كما يتجلى لى واضحاً أنها قراءة فى صحف الوجود وفى الكتب وعلى رأسها الكتاب الكريم، هى التى تكشف للإنسان الطريق إلى الله وتدله على مالله سبحانه من كمال وجلال ومن تفرد بالخلق والأمر.

والتعرف على الله هو الغاية من خلق الإنسان على تلك الصورة التى امتاز بها عن عالم المخلوقات كلها، والتى استقل من أجلها بحمل الأمانة - أمانة التكليف - التى عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

فلمعرفة الله سبحانه وتعالى، تلك المعرفة القائمة على وعى وإدراك، وعلى حساب وتقدير كان خلق الإنسان. فمعرفة الله تعالى هى العلة، وخلق الإنسان ليقوم بهذه المعرفة له والمعلول لهذه العلة.

والعلة مقدمة على معلولها، ولهذا قدم قوله تعالى ﴿ علم القرآن ﴾ على قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإنسَانَ﴾[1] فليس خلق الانسان جاريا على خلق غيره من المخلوقات التى خلق الله تعالى، فكل ما خلق منها كان لحكمة ومقصد.. وإنما خلق الإنسان قد تفرد بأمر خاص بخلقه، وهو أن يعبد الله، عن معرفة الله، وعن ادراك لجلاله وعظمته وليس يشارك الانسان فى هذا الأمر إلا الجن، الذين كلفوا هذا التكليف كما يقول سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[2] وإذا كانت جميع المخلوقات قائمة فى مقام العبادة لله والولاء

---

(١) سورة الرحمن الآية ٢، ٣.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

لجلاله. والخضوع لعظمته كما يقول تبارك اسمه﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١).

أقول: إذا كانت جميع المخلوقات قائمة فى مقام العبادة لله والتسبيح بحمده، فإنها مصخرة لهذا تسخيراً لا تملك معه عقلاً، ولا إدراكاً، ولا إرادة تنزع بها إلى الخروج عن طاعة الله. كما يفعل الإنسان. والجن اللذين لهم عقل وادراك وارادة ومنزع. ولهذا كان فى الإنسان المؤمن والكافر. وكان فى الجن المؤمن والكافر، أما ماعدا هذين المخلوقين مما خلق الله فهو على الولاء والتسليم المطلقين وعلى وجه واحد. وفى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف.

ما يستحب الدعاء به عند الانتهاء من تلاوة شئ من القرآن:

وفى نهاية الحديث عن القرآن الكريم - وتعليمه الذى يعتبر بحق مصدر هداية للناس جميعا يجدر بنا أن نتعلم من هدى الرسول ﷺ، ما كان يفعله عند انتهائه من قراءة شئ من القرآن لنرى ماذا كان يقول كان من أدعيته المروية عنه ﷺ. الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة مارواه عبد الله بن مسعود ﷺ ورفع الحديث أن النبى ﷺ كان يقول "اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماضى فى حكمك عدل فى قضاؤك، أسالك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور بصرى وجلاً حزنى وذهاب همى وغمى قال الصحابة رضى الله عنهم ينبغى لنا أن نتعلم هذه الكلمات: قال: أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن"(١)

(١) سورة التغابن الآية ١.

(١) أخرجه الامام أحمد كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص٢٦٩

المبحث الرابع

خلق الانسان ومراحل خلقه ودفع شبهات المفترين عليه

تمهيد

إذا تصادف أن مر الانسان على مزرعة شاسعة فى مكان مقفر، ووجد أنه قد ضرب حولها سور حديدي يمنع عنها غوائل المعتدى وأن هذا السور قد زين بما ترتاح اليه الأعين من نباتات ومتسلقات وخلف السور قد زرعت مصدات الريح ومانعات الهبوب وللمزرعة باب جميل وممر مناسب، على جانبيه مقاعد وفيرة لراحة الداخل وأماكن لقضاء حاجته من أكل وشراب، ثم تتسع بعد ذلك المزرعة فترى أشجارها المختلفة الاصناف قد شُذِّبَتْ، وأزهارها المتعددة الاشكال قد نسقت، وترعها وقنواتها شقت بما يحقق الغرض منها، وفى وسطها بناء للسكن قد حسن وانتظم ما بداخله وقد زود بكل ما يحتاج اليه المرء. فهل يسند خلق ذلك إلى مصادفة؟ وأن هذه المزرعة وهذا البناء انما وجدا من عدم أو أنها والمكان الخرب سيان - كذلك الحال فى عجائب الحياة

فى الأحياء اذا ألقينا نظرة عابرة متأملة على كائن حى، لانملك الا أن نسبح للخالق الذى يثبت وجوده مما نراه فى عجائب الحياة - الإنسان والحيوان - والنبات - والعجب كله الذى يثير الدهشة يتجلى فى الانسان.

الإنسان والأديان :

وأبدأ الحديث عن الانسان بنظرة سريعة حول ما قالته الكتب السماوية فى الانسان هذا الكائن الذى تفرد بحمل الأمانة لنرى التصوير الكامل للانسان أين يكون ؟

الإنسان والتوراة :

تقول التوراة فى خلق الانسان (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا على سمك البحر وعلى طير السماء ـ وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض فخلق الله الإنسان على صورته .... على صورة الله خلقه ... ذكرا وأنثى خلقهم[1] وباركهم الله) فالإنسان كما تقول التوراة، مخلوق على صورة الله وهو مسلط على كل مافى الأرض تسلط تدبير وتسخير، وسيادة، وهو مبارك من الله، وانظر كيف تكرر القول بخلق الإنسان على صورة الله أربع مرات : (قال الله نعمل الإنسان على صورتنا ـ كشبهنا ـ فخلق الله الانسان على صورته ـ على صورة الله خلقه) هذا التكرار توكيد للمعنى المراد هنا، وهو أن الانسان مخلوق على صورة الخالق حقيقة لا مجازا وليس معنى خلق الانسان على صورة الله، أنه إله آخر مع الله، أو أنه صورة أخرى لله، ولكن المراد بهذا الوصف، هو تكريم الإنسان وأن الإله قد نفخ فيه من روحه، وأودع فيه من صفات الخالق قبسات من العلم والارادة وغيرها من الصفات التى اختص بها الإنسان، وهى التى فى حقيقتها وكمالها ـ لله وحده ولهذا كان الإنسان جديرا بأن يكون خليفة الله فى الأرض وأن تسجد له الملائكة فى السماء.

(١) من سفر التكوين الاصحاح الاول ص ٦ برقم ٢٦.

الانسان والانجيل :

ويحدثنا الانجيل عن الانسان بأنه (ابن الله) والناس أبناؤه، يقول السيد المسيح : (طوبى لصانعى السلام ... انهم أبناء الله يدعون) والصلاة التى يرفعها الناس الى الخالق تستفتح في الانجيل بهذا النداء العجيب (أبانا الذى فى السماء، ليتقدس اسمك، وليأت ملكوتك) بل ان الانجيل ليرى الانسان على قمة هذا الوجود فيقول الانجيل على لسان السيد المسيح : (أليس مكتوبا فى ناموسكم : أنا قلت إنكم آلهة)[1] وتكرر فى الإنجيل كلمات - الأبناء، والأب، أبناء الله والأب السماوى فى كثير من الآيات وينبغى أن لا يفهم من ذلك أبوة وبنوة على الحقيقة انما هى ابوة رحمة وابوة حنان وابداع وإنما هى بنوة حب وولاء واحتياج.

الانسان والقرآن :

واذا نظرنا فى القرآن الكريم فاننا نجده يضع الإنسان على رأس المخلوقات جميعا لما اختصه الله به من فضل وتكريم. أنظر إلى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[3] .

فالانسان فى القرآن كائن يحتل مكانة رفيعة عند الله - قد خلقه فى

---

(١) انظر انجيل (متى) الاصحاح الخامس ص ١٤ برقم ٩ والاصحاح السادس ص ٢٢ برقم ١٠ وكذا فى الاصحاح الخامس سطر ٣ برقم ٩ الكتاب المقدس طبعة الجمعية التوراة الامريكية.

(٢) سورة الاسراء الآية ٧٠.

(٣) سورة الانفطار الآيات من ٦ :٨ .

أحسن تقويم وسخر له مافى السموات والأرض وهذا هو ما تبرزه الآية واضحاً جلياً فى قوله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾(٢) .

ويذكرنا الله بنعمة اذ يقول ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾(٣).

والقرآن يخاطب إنسانا عاقلا رشيدا، وإنه لكى يؤكد ماعند الخالق جل وعلا فى رحمة وفضل وتكريم للإنسان ولم يجعل ذلك أيضا عن علاقة كعلاقة الأب بابنائه كما يقول الإنجيل، وانما ذلك عن فضل من مصدر الفضل، وإحسان ممن بيده الإحسان وتكريم ممن يرد إليه كل شئ وذلك المعنى الذى ذهب اليه القرآن، هو الذى ينبغى أن يؤول إليه ماجاء فى التوراة وماورد فى الإنجيل. ولكن هذا الذى جاء به القرآن فى الصلة بين الانسان وربه. آكد وألزم، لأنه قد يشبه الشئ الشئ. ولايكون بينهما رابطة من روابط الحب أو الائتلاف. ولأنه قد يقع بين الآباء والأبناء ما يقتضى النفرة أو التقاطع فى بعض الأحيان، ولكن الصلة التى لا تنفصل أبدا. هى الصلة بين الخالق وما أبدع من مخلوقات. هى صلة فى مكان الإعزاز والتكريم، إنه لن يقع بين الخالق ومخلوقاته. الا ما يقع بين الفنان وبين أبدع الآيات من فنه وما نفخ فيه من روحه، ولله المثل الأعلى !!

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ الإنسان قد تكرر فى خمسة

---

(١) سورة ابراهيم الآيتان من ٣٢ : ٣٤.

(٢) سورة النحل الآية ١٤.

وستين موضعا نتدبر سياقها جميعا. فنطمئن إلى الدلالة المميزة للإنسانية.

ونبدأ بسورة «العلق» أول منازل من كتاب الإسلام. وفيها يمكن أن نجلى الملامح العامة للإنسان وقد تكرر ذكره فى هذه السورة الاولى ثلاث مرات :ـ

احداها : تلفت الى آية خلقه من علق.

الثانية : تشير الى اختصاصه بالعلم.

الثالثة : تنبه الى مايتورط فيه من طغيان حين يتمادى به الغرور فيرى أنه استغنى عن خالقه وهذا هو ما يصوره لنا أول خطاب من السماء للأرض فى قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ۝٨ ﴾(١). هذه السمات المجملة للإنسان. كما بدت فى السورة الأولى من القرآن.

ثم تتابعت الآيات من بعد ذلك تزيدها جلاءا وبيانا، بما تضيف اليها من اضاءة كاشفة لدقيق الملامح وخفى النوازع، وقد تكررت الإشارة إلى خلق الانسان من علق أو من نطفة ثم علقة، فى آيات كثيرة، وآيات خلق الإنسان جاءت كلها فى سياق العظة والإعتبار لافتة إلى أطوار الجنين البشرى التى يدركها الناس بأيسر ملاحظة وانتباه، ويبدوا من الايات العمد الواضحة الى الاستدلال بها على القدرة الالهية على البعث .. من ذلك قوله تعالى ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾(٢). ـ وقوله تعالى ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ

---

(١) سورة العلق الآيات من ١ : ٨.

(٢) سورة الطارق الآيات من ٥ -٨.

﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾[١].

- وقوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[٢]. وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[٣]. وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[٤]. وأيضا قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾[٥].

واذا كان الأسلوب العلمى فى التشريح والإحياء، لا يتعلق بمثل الكفر أو الشكر والايمان، والخصومة والابتلاء، والغرور. فإن طبيعة النص القرآنى من حيث هو كتاب هدى ودين تقتضى توجيه كل لفظ وآية الى مناط الهداية والإعتبار، ولمثل هذه الغاية يحرص كتاب الاسلام على تذكير الإنسان بهوانه وضعفه فيلفته الى خلقه من تراب، أو من طين أو من نطفة. أو من علقة ثم من نطفة أو من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ولا شئ من هذا يحتاج فيه الإنسان إلى دراسة علمية ليدركه. كبحا لجماح غروره كي لا يتجاوز قدره فيطغى ويتكبر. والانسان مظنة أن يتمادى به الطغيان والغرور الى حد الكفر بخالقه ويقف منه سبحانه موقف خصم مبين وهذا هو ما صوره القرآن بقوله ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾[٦].

(١) سورة عبس الآيات من ١٧ : ٢٢.

(٢) سورة الانسان الآيتان ٢-٣.

(٣) سورة يس الايات من ٧٧ : ٧٩.

(٤) سورة القيامة الآيات من ٣٧ : ٤٠.

(٥) سورة الكهف الآية ٣٧.

(٦) سورة النحل الآية ٤.

وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾(١). ـ وقوله أيضا ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾(٢).

وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾(٣).

. ومن شأن الانسان أن ينسى ربه في حال النعمة والقوة فأما إذا مسه الضر فإنه يذكر خالقه فى ضراعة وابتهال، يتجلى ذلك فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا ﴾(٥). ـ وقوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾(٦) وعلى هذا نجد أيضا قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾(٧). ـ وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾(٨). ـ وقوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾(٩).

---

(١) سورة النساء الآية ٢٨.

(٢) سورة مريم الآية ٦٧.

(٣) سورة الانفطار الآيات من ٦ : ٨.

(٤) سورة يونس الآية ١٢.

(٥) سورة الاسراء الآية ٦٧.

(٦) سورة هود الآية ١٠.

(٧) سورة الاسراء الآية ١١.

(٨) سورة الاسراء الآية ٨٣.

(٩) سورة الزمر الآية ٨.

وحول هذا المعنى أيضا قول الحق ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١). ـ وأيضا قول الحق ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾(٢). وذلك هو مزيد تفصيل وبيان لما فى آية الوحى الأولى ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾(٣). والانسان فى القرآن الكريم هو الذى خص بالعلم لأن من خلقه اراد له ذلك ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(٤). ـ والانسان هو الذى خص بالبيان ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾(٥). وبما تهيأ له من وسائل التعقل والتبصر. والتمييز بين الخير والشر وذلك كله من جوهر انسانيته. وبها يحمل الأمانة. ويحتمل تبعات التكليف .. ومسئولية الثواب والعقاب مصداق ذلك قول الحق تبارك وتعالى ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾(٦). وعلى هذا النسق يقول القرآن ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾(٧). ويقول أيضا ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾(٨).

---

(١) سورة الزمر الآية ٤٩.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٨.

(٣) سورة العلق الآيتان ٦ ـ ٧.

(٤) سورة العلق الآية ٥.

(٥) سورة الرحمن الآيتان ٣ . ٤.

(٦) سورة النجم الآيات من ٣٩ ـ ٤١.

(٧) سورة القيامة الآية ٣٦.

(٨) سورة الاسراء الآيتان ١٣ . ١٤.

- ثم ان الانسان هو الذى يحتمل الوصية. مصداق ذلك فى كتاب الله {وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[١].

وأيضا ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[٢].

- وهموم المكابدة واقتحام العقبة لتحقيق وجوده الانسانى وأداء ما عليه ومسئوليته الاجتماعية توضيح ذلك فى قوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ④ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾[٣] ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ⑪ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾[٤].

﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾[٥]. كما أنه الذى يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية تبيين ذلك فى كتاب الله ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ㉗ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ㉘ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾[٦].

- وأيضا قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾[٧].

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٨.

(٢) سورة لقمان الآية ١٢.

(٣) سورة البلد الآيتان ٤ .٥.

(٤) سورة البلد الايتان من ١١ : ١٢.

(٥) سورة العصر الآيات ١:٣.

(٦) سورة الفرقان الايات من ٢٧/٢٩.

(٧) سورة ق الآية ١٦.

ـ وايضا قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾(١). ـ والابتلاء منوط بالانسان لأنه هو المخلوق الذى له الاستعداد لذلك دون غيره ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾(٢).

ويظن الانسان ما عاش كادحا لمصيره ومحتملا هموم المكابدة وتجربة الابتلاء حتى يحين الاجل فيمشى .. فما أعجب قصة هذا الانسان فى رحلته العابرة ما بين الحياة والموت؟ هل تعدو أن تكون فى مجملها الا كما وصفها البيان القرآنى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ ٥ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾(٣).

وقصة الانسان تستدعى منا التأمل من بدايتها الى نهايتها.

خليفة الله فى ارضه :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٤). ـ تبدأ قصة الإنسان بخلق آدم أب البشرية والقرآن الكريم يشير الى أنه تعالى «قد خلقنا اطواراً» كما يلفت الى مرحلة زمنية، لم يكن

---

(١) سورة الحشر الآية ١٦.

(٢) سورة الانسان الاية ٢

(٣) سورة التين الايات من ٤ : ٦

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠.

الإنسان فيها شيئا مذكورا : ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾(١).

- ومن بدء الخليقة اصطفى الانسان الأول للخلافة فى الأرض ولست أدرى ما إذا كانت الأديان التي سبقت الاسلام قد نزلت بهذا الإصطفاء وانما قصارى ما أعلمه هو ماجاء فى كتاب الاسلام من اعلان خلافة آدم فى الأرض، فإن لم يكن هذا الإعلان غير مسبوق إليه فى دين قبله، فلعل البشرية لم تكن قد بلغت من الرشد المرحلة التى تهيؤها لوعى هذه الخلافة، وإدراك خطر جلالها. وتبعات أمانتها وان امتد عهدها موغلا فى أعماق الزمن السحيق إلى عصر النشأة الأولى أو بتعبير أدق كان آدم أبو البشرية موعوداً بها من قبل ان يخلق، فى اللحظة التى أذنت الكون باستقبال هذا الطور الجديد من الخلق - فى مستهل العهد المدنى، نزلت سورة البقرة، وفيها ذكر لاعلان خلافة آدم فى الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

- والآية ومعها آيات خلق آدم، صريحة فى أنه مسبوق بأنواع اخرى غير بشرية منيا هذه الملائكة التى لا ندرى كنهها. ولا يأذن لنا العلم فى أن نخوض فيها - وهى من الميتافيزيقية التى أخرجها العلم الحديث من مجاله - وكذلك لا يأذن لنا الدين أن نقول فيها بأكثر مما تلاه علينا كتاب ديننا ومنه نعرف أن الملائكة طور سابق على خلق ادم، وقد عاشت فى عالمها الذى لا

---

(١) سورة الانسان الآية ١.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٠.

يحيط به ادراكنا خاضعة لنواميس غير التى يخضع لها نوعنا الآدمى، تسيرها الارادة العليا على وجه التسخير فتأتمر بها فى خضوع واذعان، دون أن تبتلى بحرية ارادة واختيار ودون أن تهيئها طبيعتها لعلم أو خلق كسبى بل دون أن تدرك ضرورة ما، لوجود طور جديد من المخلوقات، ليس له مثل خضوعها وتواضعها وطهرها وهى المذعنة للتسخير المطلق والكون يسير - قبل هذا الآدمى فى سلام والملائكة فيهم رسل ربهم (لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) ولنا أن نفترض دون تعسف أن المرحلة التى سبقت وجود آدم مباشرة كانت مؤذنه بتحول وشيك ظهرت مبادرته الأولى حين تلقت الملائكة النبأ الالهى المؤذن بخلق آدم خليفة فى الأرض فبدأت تفكر فى العلل والأسباب، على غير المعهود فى طبيعتهامن الاذعان والتسليم وقيامها بأمر الله دون تفكير أو مراجعة، ويؤنسنا فى هذا الافتراض. أن القرآن على كثرة ما تحدث عن الملائكة كان موقفها فيه من خلق آدم وخلقه فى الأرض. هو الموقف الوحيد الذى مارست فيه الملائكة حق السؤال والجدل؟ وفيما عدا هذا الموقف. يأتى حديث القرآن فيصرفنا عمدا عن البحث فى كنهها وجوهرها ويذكرها رسلا مسخرين ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١] ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٢]. ويصفهم أيضا قول القرآن ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة التحريم الآية ٦.

(٢) سورة الزمر الآية ٧٥.

(٣) سورة النحل الآية ٤٩.

حتى اذا قال لهم سبحانه ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ استباحوا أن يسألوه تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(١).

وقد عادت الملائكة بعد كلمات من الله الى ألوف وضعها من الطاعة والامتثال والاذعان، لم يشذ عنها الا إبليس فباء باللعنة ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

ويسوقنا هذا الإفتراض الى تصور المرحلة السابقة مباشرة علي الطور الآدمي، شبيهة بمراحل الإرهاص والتهيؤ التى تعرفها الحياة، ويثبتها العلم البيولوجى والتاريخ الحضارى، اذ يلمح دائما قبيل كل طور أو عصر جديد ببوادر التحول المرتقب، وفيها تلوح على الطور الأسبق بعض سمات وملامح من الطور الجديد، ففى هذا الموقف الذى وقفته الملائكة من قول الله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) ما يشبه أن يكون بادرة - مؤذنة بجديد اذ أن الإنسان وحده هو الذي انفرد دون الكائنات بخاصية التفكير والجدل ومسئولية الإختيار، وماعهدنا الملائكة فيما تلى علينا القرآن من أمرها تتجه إلى مثل ذلك السلوك المجافى لخلقتها وطبيعتها وهو السلوك الذى لا نلبث أن نراه خاصية مميزة للطور الآدمى الجديد، ولقد كانت محنة «إبليس» أثر الوقوع الحدث الجديد علي الطور السابق لآدم والذى لم يتهيأ لغير الطاعة والتسخير كما كان اصراره على المعصية ايذانا بالصراع المحتوم بين الخير والشر وبيانا للهوة السحيقة الفاصلة بين عصر الطاعة المطلقة والتسخير

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤.

التام وبين ما ينذر به الاختيار من امعان فى التمرد وانحراف الى الشر والظلال، والآدمية ليست ملائكية ولا إبليسية.

وليست جبرية تسليم وطاعة تسخير. ولا هى محض شر. وشهوة تمرد واصرار على الضلال وإنما هى تحقيق للذات عن تمييز ووعى وارادة. هى تجربة الابتلاء، يتعرض فيها آدم للغواية فيغوى، ثم يؤرقه ضميره وتحاسبه النفس اللوامة، فيندم ويتوب.. ويمضى ليمارس خلافته في الارض، فلا تكون حياته كلها، من بدء خلقه الى آخر وجوده، إلا معركة متصلة بين الخير والشر، يحتمل فيها تبعة عمله ومسئولية اختياره وعصمة الملائكة عن اجبار، دون خيرية البشر، عن اختيار وكل خير من الانسان مجد لا تحظى به الملائكة المسخرة .. وأى شر تنسخه التوبة ويكفر عنه حساب النفس اللوامة أو هذه هى الآدمية السوية التى استحقت الخلافة فى الأرض وحين يشذ بعض أفرادها عن هذه الآدمية السوية فيقترف الشر شهوة ومتعة دون أن يردعه ضمير أو يؤرقه قلق، فان هذا الشذوذ يخرج بمثل ذلك الشرير عن طبيعة الآدمية ويمسخه شيطانا مريدا، من صنف ابليس أصل الشر، من هنا لم يكن نيما توقعت الملائكة لآدم، من افساد فى الأرض وسفك الدماء ما يبرر حرمانه من الخلافة فيها، دون الملائكة التى تسبح بحمد الله وتقدس له. فالابتلاء يقتضى أن تكون أمام آدم شرور تغويه لكى تمتحن طاقته وتصهر معدنه ـ وأمانة الإنسان. تعنى أن يواجه التجربة ويخوض المعركة بين الخير والشر، ليكون خيره له وشره عليه ـ وهو ماخلق ليعيش فى أفق الملائكة التى تسبح بحمد الخالق وتقدس له وإنما خلق ليعيش حياته على هذه الأرض ويمارس خلافته فيها، والخير المحض لا يبرر الخلافة أن كان جبريا بغير ارادة واختيار[1].

---

(١) بتصرف من (مقال فى الانسان) ص ١٥ د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ

خلق فسوى :

بعد الحديث غن قصة آدم وخلافته فى الارض وجعل ابنائه عمارا مصلحين لهذا الكوكب الذى نعيش عليه .. يهمنى بالضرورة أن أسلط الأضواء على نعم الله المبثوثة فى هذا المخلوق الذى كان عن الله خليفة له فى الأرض. وأن الحديث عن نعم الله فى الإنسان يطول. إلا أن الطريقة التى نكشف بها هذه الأضواء من باب قول الله تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١)- وحتى نتفهم جيدا هذا المعنى الذى تضمنته هذه الآيات الكريمة من مثل قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾(٢)وقوله تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾(٣)-وقوله تعالى ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٤).

وإننى أضع علامات استفهام حتى اذا تأمل الإنسان فيها ليجد لها جوابا أو تحليلا فإنه يعود بفكره الى جواب واحد وهو : «إنه الله» ونسأل أنفسنا مرات ومرات لنستلهم العظة والعبرة من خلال هذه التساؤلات فأقول

من الذى دبر هذا الانسان ذلك التدبير المحكم وهو جنين فى بطن أمه فى موضع لايد تناله. ولا بصر يدركه. ولا حيلة له فى التماس الغذاء؟ ومن الذى أجرى اليه من دم أمه ما يغذيه كما يغذى الماء النبات؟ حتى اذا أكمل خلقك، وقوى أديمك على مباشرة الهواء، وبصرك على ملاقاة الضياء، وعظامك على مباشرة الأيدى، والتقلب فى الغبراء، هاج الطلق بأمك، فركضك الرحم من مكانك كأنه لم يضمك قط، .. فيابعد مابين ذلك القبول حين وضعت نطفة، وبين هذا الدفع والطرد، فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجته؟ ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت، ثم فتح لك ذلك الباب حتى خرجت

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.

(٢) سورة الاعلى الآية ٢.

(٣) سورة السجدة الآية ٧.

(٤) سورة النمل الآية ٨٨.

منه كلمح البصر، لم يخنقك ضيقه، ولم يحبسك صعوبة طريقك فيه؟ فمن الذى أوحى اليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد، وأوحى اليه أن يتسع لك حتى تخرج منه سليما؟ ومن الذى حول ذلك الدم الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك الى لبن تحمله فى خزانتين على صدرها، ومن الذى رققه وصفاه، وأطاب طعمه، وحسن لونه، وأحكم طبخه، أعدل احكام لا بالحار المؤذى، ولا بالبارد الردئ، ولا المر، ولا المالح، ولا الكريه الرائحة، جمع لك فيه بين الشراب والغذاء .. ومن الذى جعل فى رأسه حلمه بمقدار صغر فمك، ثم ثقب لك فى رأسها ثقبا لطيفا لم يوسعه فتختنق باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة، حتى اذا قوى بدنك واتسعت أمعاؤك واحتجت الى غذاء يشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك، وضع فيك آلة القطع والطحن، فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعتك رحمة بأمك وأعطاكها أيام أكلك رحمة بك. ثم انظر كيف أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا وذلك من رحمته بك، وجعل العقل والفهم يتنقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا. واعتبر ذلك بالطفل اذا سبى صغيرا من بلده ومن بين أبويه ولا عقل له فانه لا يؤله ذلك وكلما كان أقرب الى العقل كان أشق وأصعب ثم لو ولدت عاقلا كحالك فى كبرك تنغصت عليك حياتك لأنك ترى نفسك ضعيفا معصبا بالخرق مربطابالقمط عاجزا عما يحاوله الكبير ثم لم يكن يوجد لك من اللطافة والوقع في القلب ما يوجد للمولود الطفل بل يكون أنكد خلق الله وأثقلهم فكان دخولك هذا العالم وأنت غبى لا تعقل شيئا ولا تعلم مافيه أهله، محض الحكمة والرحمة بك فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ثم يتزايد فيك العقل والمعرفة حتى تألف الاشياء وتتمرن عليها، فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد ويوافيك بكل شئ من المنافع وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه؟ ثم أعطاك الأظافر وقت حاجتك اليها لتعين الأصابع وتقويها، فان أكثر العمل برؤوس الأصابع مع مافيها من منفعة حك الجسم وكشط الأذى، ثم جملك بالشعر زينة ووقاية

من الحر والبرد، وجمل وجه الذكر باللحية وقارا وهيبة وفصلا له عن سن الصبا. وفرقا بينه وبين الاناث وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقي وجهها على حالته ونضارته ليكون أهيج للشهوة، وأكمل للذة الاستمتاع، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد فمن الذى أعطى الذكر الذكورة والأنثى الأنوثة، ثم ارجع إلى نفسك وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للمنفعة الميهأة لها، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والعطاء والمحاربة والدفع، والرجلان لحمل البدن، والسعى، والركوب، وانتصاب القامة، والعينان للاهتداء، والجمال، والزينة، ورؤية عجائب السموات والأرض. والفم للغذاء، والكلام، والجمال، والأنف للنفس واخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه واللسان للبيان والترجمة عنك، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها اليك. واللسان يبلغ عنك والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه .. طبخا آخر غير الذى تولته من خارج لا تستطيعه أنت ولا تقدر عليه، فهو يوقد عليه نارا تذيب الحصى. وهى فى ألطف موضع منك لا تحرق، من الذى صنع لك ذلك كله؟ ومن الذى وزع صفو الغذاء على كل عضو وعظم، وعصب ولحم وشعر وظفر، وجعل المنازل والأبواب لادخال ما ينفعك واخراج ما يضرك وجعل الخزائن المختلفة تحفظ مادة حياتك؟ فهذه خزانة للطعام، وهذه خزانة للحرارة، وهذه خزائن للسوداء، وهذه خزائن للصفراء فمن الذى تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير؟ ثم انظر الى الحواس التي منبا تشرف علي الأشياء كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء، ولم تجعل فى الأعضاءالتي تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض للآفات، ولم يجعلها فى وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء، فكأن الرأس صومعتها، ثم تأمل كيف جعل الحواس خمسا فى مقابلة المحسوسات الخمس : فجعل البصر فى مقابلة المبصرات والسمع فى مقابلة الأصوات والشم فى مقابلة أنواع الروائح، والذوق فى مقابلة الكيفيات

للمذوقات، واللمس فى مقابلة الملموسات، ولما كان ماعداها يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة..

وتأمل كيف أعينت هذه الحواس بمخلوقات منفصلة عنها.

فأعينت حاسة البصر بالضياء ولولاه لم يتمتع الناظر ببصره، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات فى الجو ثم يلقيها الى الأذن فتحولها ثم تنقلها الى القوة السامعة، وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف، يحمل الروائح ثم يؤديها إليها .. فيدركها، وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم. ولذا لم يكن له طعم لئلا يحيل تلك الطعوم الى طعمه ولا يحصل به مقصود، وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج الى شئ من خارج لأنها تدركها بالاجتماع والملامسة، ثم تأمل ذلك الصوت الخارج من الحلق كيف هيأ له آلاته وأعد له معداته، تجد الحكمة البادرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى الى الحلق واللسان والشفتين والاسنان، فيسمع له مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر، ويحدث بسببه الحرف وينشأ عن ذلك الاختلاف فى تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كله، أمره ونهيه، وخبره واستخباره، نظمه ونثره، مضحكه والمبكى، والمؤنسى والمطمع، والمحزن والقابض. إنشأ الله ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر فترى اللسان جارحة واحدة وكذلك الحلق والأضراس والشفتين والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض تسقى بماء واحد ويفضل الله بعضها على بعض فى الأكل - وقد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار. والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه، والعضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصبة والشفتين والأسنان والتى تصوغ الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الانسان ثم تأمل

اختلاف هذه النغمات، وتباين هذه الاصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والاسنان ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾(١) وتأمل كيف أودع هذه الآلات مآرب اخرى ففى الحناجر مسلك النسيم الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم، وفى اللسان التمييز بين الطعوم وفيه معونة على اساغة الطعام حتى سهل مسلكه فى الحلق وفى الأسنان تقطيع الطعام وإسناد الشفتين وامساكهما عن الاسترخاء، وعدم تشويه الصورة وغطاء للفم يفتحهما متى شاء، ويغلقهما متى شاء وتأمل الدماغ كيف أعطاه الله خلقه؟ خلقه بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الاعراض وتحفظه عن الإضطراب، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوزة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة التى تصل اليه فتتلقاها تلك البيضة عنه كالخوزة على رأس المحارب - ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للموذيات، ثم كسيت الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى، فمن الذى حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير وجعله خزانة أودع فيها - من المنافع والقوى ما أودع. ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها وجعلها معدل الحواس والادراك؟

ومن الذى جعل الأجفان كالغشاء والأستار كالاشراج، والاهداب كالرفوف عليها اذا فتحت؟ ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة وجعل لكل طبقة منفعة وفائدة لو اختلت طبقة منها لاختل البصر؟ ومن الذى شقهما فى الوجه أحسن شق وجعلهما مرآة للقلب وحارسا للبدن، وراشدا يرسله كالجند فى مهماته فلا يتعب ولا يعى على كثرة ظعنه وطول سفره؟ ومن الذى أودع النور الباصر فيه فى قدر حجم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل طبقاته الكثيرة؟

---

(١) سورة الروم أية ٢٢.

ومن الذى جعلهما فى أعلى الوجة كالحارس على الربوة العالية؟ ومن الذى حجب الملك فى الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة وأقام جند الجوارح فى خدمته؟ فمنها رسوله. ومنها بريده ومنها ترجمانه ومنها اعوانه فلو شاهدته فى محل ملكه والمراسيم صادرة عنه وواردة، والعساكر فى خدمته والبُرُد تتردد بينه وبين رعيته لرأيته وله شأنٌ عجيب ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(١).

- وقل لى بربك من الذى جعل فى الحلق منفذا للصوت والنفس وآخر للطعام والشراب، وجعل بينهما حاجزا؟ ومن الذى جعل لمجرى النفس صمامة تغطيه كلما ابتلع الانسان طعاماً، أو شرابا؟ ولو وصل الطعام من منفذ النفس الى الرئة لهلك الحيوان، ومن الذى جعل الرئة مروحة للقلب لا تنى ولا تفتر؟ ومن الذى جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى دائما فتفسد علي الانسان عيشه، وتمنع الناس من مجالسة بعضهم بعضا؟ ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من الصعب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة؟ فلو كانت لحما غضا لانطبخت ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء وعمل هو ألطف من عمل المعدة؟ ومن جعل داخل الاذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت فينتهى الى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء؟ ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظهما من الذوبان؟ وماء الأذنين مرا يحفظهما من الذباب والهواء وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها غيرها؟ ومن الذى جعل باب الخلاء فى الانسان فى أستر موضع؟ كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلى فى أستر موضع الدار! ومن جعل الأسنان للانسان حدادا لقطع الطعام؟ والاضراس عراضا لرضه وطحنه؟ - ومن سلب الشعور

---

(١) سورة الذاريات الآيات ٢٠، ٢١.

والاظافر التى فى الآدمى، الاحساس لانها قد تطول وتدعو الحاجة الى أخذها ولو أعطاها الحس لألمته ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر لانه لو اشعر لتعذر على الانسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الاعمال التى تباشر بالكف. ثم تأمل حكمة الله فى حفظ الإنسان ونسيانه ولولا الحفظ لدخل عليه الخلل فى أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما اسمع ولا ما ارب ولا ذكر من أحسن اليه ومن أساء اليه. ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان. فلولا النسيان ماسلا شيئا ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة - ولا مات له حزن، ولا بطل له حقد ولا تمتع بشئ من الدنيا مع تذكر الآفات، ولا رجا غفلة عن عدو ولا نعمة من حاسد فتأمل حكمة الله فى الحفظ والنسيان. مع اختلافهما وتضادهما وجعل له فى كل منهما ضربا من المصلحة وتأمل كيف أعطى الله الخلق من علوم معاشهم ودنياهم بقدر حاجتهم كعلم الطب والحساب والزراعة وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الأبنية وصنعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد بها وتركيب الأدوية وصنعة الأطعمة والحيل فى صيد الوحوش والطير ودواب الماء، والتصرف فى وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك ثم منعهم علم ما سوى ذلك مما ليس فى شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ماكان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومساقط الأوراق، وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم مافوق السماوات وما تحت الثرى ومافى لجج البحار وأقطار العالم وما يكنه فى صدورهم وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد الى سائر ما عزب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه (١).

---

(١) أنظر (أيات الله فى الأفاق) ص ١٠٧. محمد أحمد [illegible]

اطوار نمو الجنين ورأى العلم فى ذلك !!

بعد القاء الضوء على ابراز عظمة الله عز وجل التى اكتنفت الإنسان وأحاطت به يقتضينا البحث فى الإنسان، أن ألقى الضوء على الجانب العلمى فى هندسة هذا الإنسان ومراحل تكوينه وهو جنين فى بطن أمه حتى تكون الصلة وثيقة بين العلم والدين فماذا قال علماء فن التشريح أو وظائف الأعضاء؟

قالوا وهم يذكرون أطوار نمو الجنين بالمقياس الزمنى.

أولاً: فى آخر الاسبوع الثانى يتكون الأمنيون والحوصلة السرية والحبل الظهرى والميزاب النخاعى والقلب.

ثانيا: فى مبدأ الاسبوع الثالث يظهر القوس الأول البلعومى ولطخ الفقرات الأولية والانبعاج الفمى. والدورة الأولى وفى منتهاه تظهر الحوصلة السجقية وأجسام ولف الأوليه وتلتحم الأزرار الفكية السفلى - ويظهر الكبد وتتكون القسى الثلاثة البلعومية الأخيرة.

ثالثا: فى الاسبوع الرابع تصل الحوصلة السرية الى تمام نموها وتظهر ازرار الطرف الذنبى وازرار الاطراف العليا والسفلى والفتحة الشرجية والجيب التناسلى البولى وينفصل القلب الى يمينى ويسارى وتظهر العقد الشوكية والجذور المقدمة النخاعية والحفر السمعية والرئتان والبنكرياس.

رابعاً: فى الاسبوع الخامس تصير الحوصلة السجقية وعائية فى جميع امتدادها وتظهر اثار اليدين والقدمين الأولية وتنقسم الاورطى الاولى الى أورطى أصلى وشريان رئوى وتظهر قناة موللر، والغدة التناسلية .. وتتعظم الترقوة . ويظهر غضروف ميكل ويتعظم الفك السفلى.

خامسا: فى الاسبوع السادس تنتهى الوظيفة الفسيولوجية التي كانت

تؤديها الحويصلة السرية - وتزول الشقوق البلعومية - وتظهر العضلات ويصير العمود الفقرى والجمجمة والاضلاع غضروفية - وتظهر الجذور الخلفية النخاعية وأغشية المراكز العصبية والكليتان. والمثانة واللسان والحنجرة والغدة الدرقية والجرثومات السنية والحدية والقنوات التناسلية.

سادسا: فى الاسبوع السابع تظهر فيه النقط العظمية التى للاضلاع وعظم اللوح وجسم العضد. والعجز والقصبة والحنك والفك العلوى.

سابعا: فى الاسبوع الثامن يتميز العضد من الساعد والفخذ من الساق وتظهر الميازيب بين الأصابع ومحفظة البلورية والغشاء الحدقى ويتم انفصال البطينات القلبية ويبتدئ تكون حاجز الأدينات وتظهر الغدد اللعابية وكذا الغدد التى فوق الكلى والطحال وتصير الحنجرة غضروفية وكذا جميع أجسام الفقرات وتظهر نقط تعظم جسم الكبد، والزند والشظية والحرقنية ويتم التحام نصف القبوة الحنكية العظمية.

ثامنا: فى الاسبوع التاسع يظهر الجسم المضلع - والتامور ويتميز كل من المبيض والخصية - ويتكون الميزاب التناسلى وتظهر النقط العظمية الأولية التى لأجسام الفقرات وقسيبا ونقطة الجبهى، والميكعة والوجنى ونقط عظام رسغ اليدين والقدمين والسلاميات ويتم التحام القبوة الحنكية وتظهر الحوصلة المرارية.

تاسعا: فى الشهر الثالث تتكون المشيمة الجنينية ويزول الطرف الذنبى وتتميز الأعضاء التناسلية الظاهرة فى الذكر والأنثى وتنقسم الفتحة البولية التناسلية الى جزءين وتلتحم الفقرة الغضروفية فى القسم الظهرى. وتظهر النقط العظمية الأولية التي لكل من العظم المؤخرى، والوتدى والظفرى وعظام الأنف والجزء القشرى الصدغى والنقط الحجابية التى للفك العلوى

والورك وتتكون الخصيتان وقنطرة فارول وفرجة سلفيوس .. وتتكون الاظافر والشعر والغدة الثديية ولسان المزمار وتنضم الخصية الى قناة «ولف» وأجسام ولف وتظهر البروستاتا.

عاشرا: فى الشهر الرابع ـ يتم التحام القس الفقرية الغضروفية ويتكون النقط العظمية التى لجسم الفقرات الأولية العجزية ـ والعانة وتتعظم المطرقة والسندال ويظهر الجسم المندمل والصفيحة الحلزونية الغشائية التى للقوقعة وغضروف بوق استكيوس والدائرة الطبلية ويظهر شحم المنسوج الخلوى تحت الجلد واللوزتان ـ ويتسند الميزان التناسلى ويتكون الصفن والقلفة.

الحادى عشر: فى الشهر السادس ـ تظهر النقط العظمية التى للتنوات المستعرضة التى للفقرة السابعة العنقية ـ والنقط الجانبية التى للثانية العجزية والنقط العظمية التى لجسم القص والقصبة ـ ويظهر النصفان الكرويان اللذان للدماغ وحلمات الأدمة والغدد الدهنية وتتخلص الحافة السائبة التى للظفر من الطبقة القرنية التى للجلد وتظهر لطخ «ببير» وتصير جذر الرحم ذات سمك.

ثانى عشر: فى الشهر السابع تظهر النقط العظمية الاضافية للفقرة الأولى العجزية والجانبية التى للثانية والمتوسطة التى للرابعة ـ والنقط العظمية التى للقطعة الأولى من جسم القص والنقطة العظمية التى للترقى ويزول غضروف ميكل ـ وتظهر اللفائف المخيه وحبال رايل وتنفصل الحديات التوأمية الأربع ويزول الغشاء الحدقى وتدخل الخصية فى المستطيلة العمدية البرثيونية.

ثالث عشر: فى الشهر الثامن تظهر النقط العظمية الاضافية الجانبية والمتوسطة التى للفقرة الثانية العجزية والجانبية التى للرابعة.

رابع عشر: فى الشهر التاسع ـ تظهر النقط العظمية الجانبية التى

للفقرة الخامسة العجزية ونقط القرين المتوسطة التى للمصفاة ونقط جسم لعظم اللامى. ونقط فرونة الكبيرة ثم النقط العظمية التى لكل من القطعة الثانية والثالثة اللتين لعظم القص والنقطة العظمية التى للطرف السفلى الذي لعظم الفخذ ويتعظم محور القوقعة والصفيحة الحلزونية وتنفتح الأجفان وتنزل الخصيتان فى الصفن[١].

غذاء الجنين فى الرحم :

هذا ويقتضى منى البحث فى الإنسان وهو فى رحم أمه أن أذكر طريقة تغذيه والمادة التى يتغذى منها :

اقول :

ويتغذى الجنين مدة الحياة الرحمية من مادة «جليكوجينية» شبيهة بمادة الكبد توجد فى المشيمة وفى خلايا البشرة الجلدية المخاطية وهذه المادة تستمر الى آخر الشهر الرابع الذى فيه تظهر المادة الجليكوجينيه فى الكبد بعد تمام نموه ثم تزول ـ حينئذ يمكن اعتبار المشيمة عضو تغذية وعضو تنفسه لأنها هى التى تكسب الدم الذى صار غير صالح لاستدامة الحياة أوصافا حيوية جديدة لتغذية الجنين وتكوين أعضائه ومنسوجاته وبعضهم تصور خطأ أن الجنين يتغذى ويتنفس كالسمك من السائل الأمنيوس لكن التحاليل الكيماوية التى عملت فى هذا السائل أبانت من جهة أنه لا يحتوى على مواد مغذية بل يحتوى على مواد فضلية كالبولينا وحمض البوليك وأملاح أخرى والصفراء أحيانا وأبانت من جهة أخرى أنه لا يحتوى على أكسجين ولا على حمض كربونيك وحينئذ لا يكون هذا السائل معد للتغذية ولا للتنفس، اذ التنفس يتم بواسطة المشيمة وانما تكون وظيفته

---

(١) من كتاب . البيان فى أصل تكوين الانسان ص ٧٨ مؤلفه حمد بك الحسينى ـ وكذا كتاب الله والعلم الحديث ص ٤٤ طبعة مؤسسة دار الشعب.

ميكانيكية محضة وهى وقاية الجنين والمؤثرات الخارجة التى تطرأ على الأم فى حركاتها المتنوعة(١).

طول الجنين ووزنه فى الازمان المختلفة :

من المعلوم أن حركة نمو الجنين فى الأيام التى تعقب الاخصاب تكون سريعة جدا لأن بعضهم شاهد فى بعض الطيور فى آخر أول يوم من التفريخ أن وزن ـ الجنين صار أكبر مما كان عليه فى أول اليوم المذكور بتسعين مرة وأما نموه فى اليوم الواحد والعشرين من مبدأ التفريخ فيكون جزء من ستة من وزنه.

وهذه الظاهرة تحصل أيضا فى الانسان والحيوانات الثديية بحيث يصعب على المجرب دراسة ظواهر نمو الجنين فيها فى أزمان الحمل الأولى ويخفى عليه علمها والوقوف على حقائقها. واذا نظر الى البويضة عند وصولها الى الرحم يرى أن حجمها لا يصل الى مللى واحد من المتر. وبعد مكثها فى الرحم من اليوم المتمم للعشرين يوما الى الثلاثين يشاهد أن الجنين اكتسب نموا عظيما بأن صار طوله نحو سنتى واحد من المتر وفى آخر الخامس يكون طوله سنتيا واحد او نصف سنتى من المتر ويكون رأسه متميزا عن جسمه ويكون طوله قدر نصف الجنين فيبلغ نصف سنتى وربع سنتى من المتر ثم يبلغ طول الجنين بعد ستة أسابيع سنتين اثنين من المتر تقريبا.

وفى هذا الحين يمكن انفصاله من متعلقاته والحبل السرى يكون طوله فى هذا الزمن سنتيا واحدا من المتر ـ والجنين الذى يبلغ ثمانية أسابيع يكون طوله ستة وثلاثين ملياً من المتر. فاذا بلغ عشرة أسابيع كان طوله خمسة وأربعين مللیا من المتر وكان وزنه خمسين جراما تقريبا وهى سبعة

---

(١) انظر (البيان) ص ٩٤ لحمد بك الحسينى.

عشر درهما تقريبا فاذا بلغ ثلاثة أشهر بلغ طوله عشر سنتيمترات من المتر وبلغ وزنه ثمانين جراما وهو نحوسبعة وعشرين درهما (بالسين المهملة قبل الباء الموحدة) - واذا بلغ اربعة اشهر كان طوله «ثمانية عشر سنتيا من المتر» ووزنه نحو سبعين درهما (بالمهمله قبل الموحدة) وهى مائتا جرام - واذا بلغ خمسة أشهر كان طوله «خمسة وعشرين سم) وكان وزنه حينئذ «مائة واربعين درهما» وهى أربعمائة جرام. واذا بلغ ستة أشهر كان طوله : «خمسة وثلاثين سنتيا» ووزنه مائتين وأربعين درهما» وهى سبعمائة جرام واذا بلغ سبعة أشهر كان طوله : «أربعين سنتيا من المتر «ووزنه : مائتين وتسعين درهما «بالفوقانية قبل المهملة) الى ثلثمائة درهم وخمسة وعشرين درهما» أى من الف ومائتى جرام أي ألفى جرام وخمسمائة جرام - فاذا بلغ تسعة أشهر كان طوله ثمانية وأربعين سنتيا الى خمسين سنتيا ووزنه : «من تسعمائة وستين درهما الى ألف ومائتين درهم» أى من ثلاثة الاف جرام الى أربعة آلاف جرام وهذه الأطوال والأوزان انما هى على سبيل التقريب باعتبار الحد الوسط للجنين لاعلى سبيل التحديد، تقربه للحد الوسط للمولد وقد تزيد على ما ذكر - وقد تنقص عنه بحسب نمو كل جنين، والا فقد بلغ طول الجنين عند ولادته ستين سنتيا من المتر ووزنه ألف درهم وتسعمائة درهم (بالفوقانية قبل المهملة) وعشرون درهما - وتارة يكون طوله ووزنه اقل من الحد الوسط المذكور لاينمو الطفل بعد الولادة نموا سريعا لأنه في السنة الأولى يزيد طوله من عشرة سنتيات من المتر الي عشرين سنتيا منه - وفي السنة الثانية من ستة سنتيات من المتر الى سبعة سنتيات منه - وفى السنة الثالثة الي الخامسة عشر يزداد نموه بانتظام بحيث إنه يزيد طوله فى كل سنة خمسة وخمسين مليا من المتر ومن السنة الخامسة عشر الى العشرين تكو الزيادة قليلة. وفى الخامسة - والعشرين يتم نموه ويقف بعد ذلك الى الستين فيبتدئ فى النقص منها الى الثمانين[1]..

---

(١) من كتاب البيان ص ١٠٥

عجائب الحياة فى الانسان :

إن قصة هذا الإنسان العجيب الصنع. الدقيق الخلقة ـ يطول البحث فيها والسبب في ذلك هو السر العجيب الذى أودع فيه. والعظمة التى أودعت فيه تذكرنا بالضرورة بعظمة المودع وهو الله عز وجل. وليس هذا من قبيل العبارات الرنانة أو الثرثرة الفارغة. وانما ذلك من قبيل احقاق الحق يجليه العقل، وجلاء العقل إنما يكون وليد المعرفة والعلم، والمقام هنا يستدعى منا ابراز الجوانب العجيبة في هذا الإنسان، وابرازها يكون بمقولات أرباب هذا الفن التابع لعلم التشريح. وعلى سبيل المثال سأورد هنا بعض الجوانب العلمية فى مكونات هذا الإنسان حتى أصل الى الاعجاز الذى ركب فيه فنصل بذلك الى عظمة الله وليس البحث مجاله علم التشريح أو وظائف الاعضاء وانما هو من باب كشف اللثام عن عظمة هذا الإنسان الذى قال فيه ربه : (الذى أحسن كل شئ خلقه) ثم نوه بالانسان فقال ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾(١).

الوضع :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

الوضع :عندما يبلغ الحمل نهايته تفرز غدد الأنثي افرازات كثيرة متعددة الأغراض فمنها ما يساعد على انقباض الرحم وتقلصاته، ومنها ما

---

(١) سورة السجدة الآية ٧.

(٢) سورة النحل الآية ٧٨.

يسهل عملية انزلاق الجنين ومنها ما يعمل عل مساعدة المولود فى أن يكون نزوله بالوضع الطبيعى، وباعتبار أن الثدى غدة كذلك فهو يفرز فى نهاية الحمل وبدء الوضع سائلا أبيض مائلا الى الاصفرار.. ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقى الطفل من عدوى الأمراض ـ وفى اليوم التالى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين، ومن تدبير المدبر الأعظم أن يزداد مقدر اللبن الذى يفرزه الثدى يوما بعد يوم، حتى يصل الى حوالى لترين ونصف لتر فى اليوم بعد سنة بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولي على بضع أوقيات،ولا يقف الاعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل، بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير نسب مكوناته وتتركز مواده، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات فى أول الأمر. ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبة النشويات والسكريات والدهنيات فترة بعد أخرى. بل يوما بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو، وعملية استخلاص اللبن فى الثدى عملية عجيبة تثبت وجود الخالق وتدلل على قدرته.

جهاز الرضاعة :

الثدى أوعية شبكية كثيرة العدد، دقيقة الحجم، تتميز عن غيرها من الأوعيةالدموية بكثرة مرور الدم نيها. كثرة ملحوظة ـ هذه الأوعية تحيط بفجوات متسعة مبطنة بالخلايات ـ صانعة اللبن، الذى تستخلصه من الدم المار بالأوعية ويخرج اللبن من هذه الفجوات الى مستودعات يبلغ عددها خمسة عشر أو عشرين. مكانها تحت دائرة حلمة الثدى، وتضيق قنوات هذه المستودعات كلما قربت من سطح الحلمة حتى تصبح فتحات ضيقة بهذا العدد، توزع اللبن بها توزيعا عادلا .. ويكون بذلك فى حالة ميسرة لرضاعة الطفل، وكما أسلفتُ يأخذ الرضيع حاجته من اللبن الذى يتغير من وقت لآخر، وكلما زادت تراكيز مكوناته، كلما سبيب ذلك نموه، وتأخذ تبعا لذلك

الأسنان تظهر لتهيئة الطفل لأن يتناول الطعام. والأسنان نفسها تعتبر اية من آيات وجود الله فهى تختلف من قواطع فى وسط الفم وقرب فتحته لقطع الطعام الى أنياب بجانبها للمعاونة فى تمزيقه ثم اضراس صغيرة فكبيرة على كل جانب لهرس وطحن الطعام.

وقد حاول العلماء جاهدين عند محاولة صنع الأسنان أن يستنبطوا نظاما آخر ويغيروا من وضع الأسنان، فاعترفوا بقدرة الخالق، عندما قرروا أن أبدع وأكمل نظام يمكن للأسنان أن تكون عليه. هو النظام الطبيعى فلذلك صنعوا أطقم الأسنان على نسق الأسنان الطبيعية - شكلها وموضعها وترتيبها.

الهضم:

عندما يحجب الطفل عن الرضاعة ويبدأ فى الأكل تظهر الآيات البينات على قدرة الله وعظمته بما يشاهد من جليل الصنع على تبيئة الانسان بما يحقق له حفظ حياته،فنجد فى فم الانسان فتحتى الأنف الداخلية، وفتحة التنفس فى أول القصبة الهوائية، وفتحة البلعوم. أول القناة الهضمية ويقول العلم : أن آية ذرة من غبار تضل طريقها وتصل الى القصبة الهوائية لابد أن تطرده، وما السعال الا محاولة لطرد غبار وصل الى القصبة الهوائية، وأى ذرة من الغبار تقتحم القصبة الهوائية تفضى الى الموت فكيف تدخل اذن البلعة الغذائية الى فتحة القناة الهضمية ولا تدخل فى فتحة القصبة الهوائية برغم تلاصق فتحتيهما؟ تدفع اللهاة الى أعلى عند البلع ويسد لسان المزمار طريق التنفس حتى تدخل البلعة الغذائية - ولم يحدث أن أخطأ لسان المزمار، ذلك الجندى المجهول. فى نظام المرور الكائن فى فتحة الفم اطلاقا، فاذا تصورنا كم فما على وجه الحياة وكم جنديا يحرس تلك الفتحات فى كل ثانية بل فى كل لمحة، وكم مرة تفتح هذه الفتحات وتقفل لآمنا بأن الله موجود فى كل مكان وكل حين ولقلنا كما قال

أحد العلماء فى شرح طريق مرور البلعة الغذائية، هنا آية حية تنطق بوجود الله - ويتم هضم الغذاء - أى تحويله من مواد صلبة معقدة الى أخرى سائلة سهلة الامتصاص بعمليات دقيقة غاية الدقة، تقوم خير دليل على وجود الله. فكل ما يأكله الإنسان من صلب جامد وسائل ولزج، ومر وحلو، وثقيل وخفيف، وحريق ولازع - وساخن وبارد، لحوم وخضر، وخبز وفاكهة وزيوت وشحوم، وبقول وأبصال مطبوخ أو غيره كلها تهضم بمواد واحدة وطريقة واحدة - مواد اختلفت تراكيبها وتباينت تراكيزها يتلقاها جسم الانسان أدق معمل كيماوى عرف على وجه البسيطة، فيدفعها فى طريقها المرسوم لتصب عليها الغدد افرازاتها الحمضية وعصارتها ذات التركيز المقدر الذى لو قل قليلا لما هضم الطعام، ولو زاد زيادة طفيفة لاحترق الجسم فسبحان الخالق العظيم تدخل البلعة الغذائية فى الفم فتبدأ أولى مراحل الهضم. وذلك بخلط الغذاء باللعاب الذى تفرزه ست غدد اثنتان على جانبى عظمتى الوجه، وهما النكفيتان - ووزن كل منهما خمسة وعشرون جراما واثنتان تحت الفك الاسفل كل بحجم اللوزة، واثنتان أسفل اللسان من الامام وكل وزنها أربع جرامات - وهذا اللعاب أول مراتب الهضم لاحتوائه على خميرة ويساعد على خفض درجة حرارة الطعام، ان كان ساخنا وكسر حدة برودته ان كان مثلجا، كما أنه عامل أساسى فى معادلة المواد الحريقة وتخفيف أثر التراكيب اللازمة، وتنزلق بعد ذلك البلعة مختلطة باللعاب الى البلعوم فالمرئ ثم المعدة التى تفرز حامض الكوردريك، ذا التركيز الخاص المعد بعناية، فتبلغ درجته من أربعة الى خمسة من الألف. ولو زاد تركيز هذا الحامض على ذلك زيادة طفيفة لحرق أنسجة المعدة حرقا تاما وتتوالى بعد ذلك الافرازات والعاصرات فى مختلف أجزاء الجهاز الهضمى الذى يبلغ طوله تسعة أمتار فهذه عصارات الأمعاء وتلك افرازات الصفراء - والبنكرياس - وغيرها وكلها افرازات تلائم حالة الغذاء الذى وصل اليها. ولم تعرف الا من عشرين سنة وظائف الغدد المسماة بالغدد الصماء. تلك المعامل الكيماوية

الصغيرة التى تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية، والتى تبلغ من قوتها أن جزءا من بليون جزء منها تحدث اثار خطيرة فى الانسان وهى مرتبة بحيث أن افراز كل غدة يكمل افراز الغدة الاخرى وكل ماكان يعرف عن هذه الافرازات أنها معقدة التركيب تعقيدا مدهشا، وأن أى اختلال فى افرازها يسبب تلفا عاما فى الجسم، يبلغ حد الخطورة اذا دام هذا الاختلال وقتا قصيرا.

وكذلك لم يعرف إلا أخيرا أن الغدة النخامية والغدتان فوق الكليتين انما هى مخاغزن ذخيرة تعمل وتنشط عند الحاجة ـ بينما فى الأوقات العادية لا تزيد عن كونها أجهزة عاطلة ـ هذه الغدد وظيفتها الأساسية حفظ التوازن الكيماوى والحيوى فى الجسم إلا أنه عندما يحاط الإنسان بجو بارد تفرز هذه الغدد افرازات تسبب ضيقا فى الأوعية الدموية مما يرتفع بسببه ضغط الدم .. فيتغلب الجسم على الجو البارد المحيط به بالدفء الداخلي الناتج من ارتفاع ضغط الدم ـ وفى حالات الجروح الخطيرة ـ تنعكس كل هذه الغدد فتعمل على خفض ضغط الدم ـ وسرعة تجلطه لايقاف نزف الدم كما أن هذه الغدد تعمل على تخفيض ضغط الدم عند الانفعالات النفسية وحالات التوتر والقلق، ربما تررة العلم من أن للامعاء الدقاق التى بلغ طولها ستة أمتار ونصف متر حركتين لا اراديتين لما يؤيد وجود الله، الحركة الأولى حركة خلط مستمر هدفها مزج الدم بمختلف عصارات الأمعاء وخمائرها مزجا تاما حتى يكون الهضم عاما.

والحركة الثانية : عرض الطعام المهضوم على أكبر مساحة ممكنه فى الأمعاء كى يمس أكبر مسطح فيها فتمتص منه أكبر قدر، ثم يأتى بعد ذلك دور الهضم فى الامعاء الغلاظ التى تفرز آخر أجزاء المواد المهضومة من العضلات والنفايات التى لافائدة منها للإنسان كما أنها كذلك تفرز مادة مخاطية تيسر انزلاق هذه الفضلات الى خارج الجسم، وفى جسم الانسان،

علاوة على هذه المواد الكيماوية المعقدة والمختلفة الانواع، ميكروبات وجراثيم. وبكتيريا، اذا زاد عدد النوع منها عما هو مقدر لها،أوقل عن نوع آخر، أو اختلفت لسببها نسبة هذه الاحياء بعضها البعض لهلك الجسم، وهذه الاحياء تفرز افرازات وتقوم بنفسها بتحويل الغذاء العسر الى يسير، والصعب الى سهل والمعقد الى بسيط، والضار الى نافع، والكيموى الى دم ولتعرف ماهية هذه الأحياء، يكفى أن تعلم أن العلماء قد قدروا عدد الموجود منها بالمعدة بحوالى مائة ألف فى السنتيمتر المكعب الواحد.

ويقول علماء الطب وأساتذة علم الأحياء عن جسم الانسان : أنه يقوم بأعمال تثبت أنه خلق بحكمة ولحكمة وأنه وجد بتقدير. وتنفى عنه شبهة المصادفة فى خلقه ودليلهم على ذلك التحور الذى تقوم به الاجهزة لملاقاة نقص وجد أو لتكملة ضعف طرأ على أحداها.

فقد دلت التجارب التى أجريت والمشاهدات التى درست على أنه اذا - استؤصلت كلية من الجسم مثلا ترتب على ذلك تضخم الكلية الأخرى لامكان قيامها بعمل الكليتين دون أن يكون للانسان دخل فى ذلك. كذلك اذا بتر نصف الغدة الدرقية زاد حجم النصف الثانى، واذا أصاب القلب مرض فى صمامه قلل من قدرته،عمل على أن يزيد سمك جدرانه شيئا فشيئا لتقوى عضلاته على دفع الأذى وكثيرا ما يلاحظ أن القلب فى محاولة اصلاح خلله يأخذ حجمه فى الكبر حتى يصبح أربعة أضعاف ماهو عليه.

ويقول احد العلماء : - أن القلب يفعل ذلك لأن عليه أن يفعله، وفى ذلك يقول الدكتور(رتشر وكابوت) والدكتور (رسل ركسى) فى مؤلف لهما (إن للاعضاء فى الجسم قوة مدخرة يستمد منها عند الحاجة فالمريض بالسل الذى أصيب فى بقعة من الرئة يجد فى جسمه أنسجة تزيد عن حاجته، يستطيع أن يعتمد عليها فى مدة بأسباب الحياة وقد ظل الدكتور (ترودوا) العظيم أربعين عاما على عمله المتواصل المرهق وليس له إلا أجزاء من رئة واحدة[١]..

---

(١) انظر - الله والعلم الحديث ص ٦٢ عبد الرزاق نوفل.

ودلت التجارب على أن بالجسم أجزاء إحتياطية يمكن الاستغناء عن جزء منها عند اصابتها بمرض فقد يقطع من أمعاء الانسان متر من الأمتار السبعة والنصف الموجودة بجسمه دون أن يحس بفقد - كذلك أمكن بتر أجزاء متعددة فى مختلف أجهزة الجسم دون أن يؤثر على حياة الانسان.

ولجسم الانسان قدرة على التشكل لملائمة ظروف طارئة .. فعندما يشرف الحمل على غايته، تتدفق السوائل فى مختلف الأجهزة إلى أنسجة المهبل لتصبح أنسجته رخوة مطاطه وتساعد بذلك على مرور الجنين - وتجعل نزوله منها ممكنا.

فأين كانت هذه السوائل؟ وماهى الإفرازات التى كانت تفرز قبل هذه السوائل؟ وهل يتم ذلك عفوا؟ وهل وجد كل ذلك مصادفة؟

إنها قدرة كائنة فى الإنسان لايد له فيها.

الجلد:

ويغلف الجسم ستار محكم بديع يحجب الأسرار التى تجرى بداخله، هذا الستار هو الجلد، وهو من أدق وأروع الآيات المحكمات الدالة على جليل صنع الخالق فالجلد لا ينفذ منه الماء، ولا الغازات، رغم مسامه التى تساعد على إخراج الماء من داخل الجسم فهو يخرج الماء ولا يسمح بدخوله والجلد معرض لهجمات الميكروبات والجراثيم التى تسبح فى الجو، لذلك يسلح بإفرازات قادرة على قتل تلك الميكروبات أما إذا تغلبت الجراثيم واجتازت منطقة الجلد، فهنا تبدأ عملية حربية مظلمة يعجز الإنسان عن إدراك عظمتها، تدق الأجراس لتنبه كافة أعضاء الجسم عن دخول عدو لها وما هذه الاجراس إلا الآلام التى يحسها الانسان، لتسرع فرق حراس الحدود وتضرب حصاراً شديداً على عدوها المغير، فإما هزمته وطردته خارج الجسم، وإما اندحرت وماتت فتتقدم فرقة أخرى من الصف الثانى فالثالث، وهكذا، وهذه الفرق هى كريات الدم التى يبلغ عددها حوالى ثلاثين الف

مليون كرة دم بيضاء وحمراء فإذا رأيت بشرة حمراء وفيها صديد على الجلد فاعلم أن صديدها ان هو الا فرق ماتت فى سبيل واجبها وأن الإحمرار هو كريات دم فى صراع مع عدو غادر، ومن أهم وظائف الجلد : حفظ الجسم فى درجة ثابتة من الحرارة إذ أن أعصاب الأوعية الدموية فى الجلد تنشطها، عندما يشتد الجو كى تشع منه الحرارة وتفرز غدد العرق مايزيد على لتر من الماء فيخفض درجة حرارة الجو الملاصق للجلد، اما اذا اشتد برد الجو انقبضت الأوعية الدموية .. فتحتفظ بحرارتها ويقل العرق - هذا الجهاز العجيب أعد بعناية وتقدير لتكييف حرارة الجسم فيجعلها على درجة ٣٧ درجة مئوية دواما..

وليس أبلغ مما يقوله الدكتور (ريتشارد كابوت) فى هذا الشأن : لقد أودع الله فى أجسامنا قدرة عظيمة كافية تعين على الصحة، وفطنة لا تنام لها عين، ويحاول الأطباء تقليدها ومعاونتها بالمبضع تارة، وبالدواء أخرى، وهذه القدرة البارعة الجبارة لا تفتأ تشد من أزرنا فى كفاح العلل والأمراض[١] وجلد الإنسان شئ خاص به، فلا يشبه جلد انسان انسانا أبدا، كما أن الجلد نفسه يتجدد، فجلدك الحالى ليس هو جلد العام الماضى فإن تجديدات الجلد مستمرة بنمو الخلايا التى فى الطبقات التى تكون الجلد، فكل عشرين طبقة من الخلايا تكون سطح الجلد وبالرغم مما وصل إليه العلم من نتائج وغرائب فى جسم الانسان، فهناك أسرار مازالت تكتشف لتضع الإنسان موضع العجب والحيرة التى لا يملك بعدها إلا التسليم بوجود الله وقدرته وعظمته.

حاسة السمع فى الانسان :

تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية - ولايعلم إلا الله أين تنتهى، يقول العلم :

---

(١) انظر (الله والعلم الحديث) ص ٦٤. لعبد الرزاق نوفل.

إن الاهتزاز الذى يحدثه الصوت فى الهواء ينقل الى الأذن التى تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقلها إلى التيه داخل الاذن، وهل هناك أغرب مما يقوله (كورتى) إذ يقرر أن التيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة، وأن فى القسم اللولبى وحده، أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس، فما طول القوس منها وحجمه؟ وكيف ركبت هذه الاقواس التى تبلغ عدة آلاف كل منها تركيباخاصا؟ وما الحيز التى وضعت، ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجه، وهذا كله فى التيه الذى لا يكاد يرى، وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة ـ دقة وعظمة تحير الألباب.

حاسة الإبصار فى الإنسان :

مركز حاسة الإبصار «العين» التى تحتوى على مائة وثلاثين مليونا من مستقبلات الضوء. وهى أطراف أعصاب الابصار، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يقيها ليلا ونهارا والذى تعتبر حركته لا إرادية، والذى يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة. كما يكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهداب على العين من ظلال. وحركة الجفن، علاوة على هذه الوقاية، تمنع جفاف العين. أما السائل المحيط بالعين والذى يعرف باسم الدموع، فهو أقوى مطهر، فانظر كيف أن العين قد أحيطت بكل ما يحفظها ويحميها، وتتكون العين من الصلبة.[1] . والقرنية، والمشيمية والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية، ويكفى أن نعلم أن معجزة الابصار هى أن صورة الشئ المنظور تطبع معكوسة على الشبكية وينقل العصب البصرى هذه الصورة المعكوسة الشكل الى المخ فيعيدها المخ إلى العين وقد عكسها مرة أخرى أى عدلها فيراها الناظر معدولة، وغير معكوسة ـ فهل

---

(١) انظر (كتاب الله والعلم الحديث) عبد الرزاق نوفل ص ٦٤.

حدث أن رأى إنسان ما مرة واحدة صورة معكوسة فى تاريخ البشرية الطويل؟..

اذا كان ذلك لم يحدث ولن يحدث فهل بعد ذلك إلى المصادفة من سبيل؟ وهل بعد ذلك آية أبلغ !! تدل على وجود الله؟

حاسة الشم فى الانسان :

وحاسة الشم، تلك الحاسة العجيبة حقا التى مازالت تعتبر بحق عجيبة من العجائب، وغريبة من الغرائب، ومركز هذه الحاسة منطقة محدودة فى الغشاء المخاطى البطن لتجويف الأنف، تسمى منطقة الشم، وهى خالية من الأهداب، وبها عدة خلايا شمية طويلة رقيقة تنقل الأثر الى المخ، وذلك فى جزء بالأنف وهو المدخل الرئيسى للجهاز التنفسى، ذلك الجهاز الذى يتوقف عليه حياة الانسان .. يدخل الهواء في فتحتى الأنف فتقابله شعيرات الأنف التى تعمل جهازا لتكييف الهواء، فتحد من برودته وترفع درجته فيدخل الى الرئتين فى درجة مناسبة من الحرارة، وكلنا يعلم ضرر أخذ النفس من الفم، وكيف أنه يسبب النزلات الشعبية والتهابات الرئة إذ يدخل الهواء باردا دون أن يمر على ما خلق من أجل تكييفه من الشعيرات ـ ومن أعجب ما استطاع العلم أن يوضحه أن الجيوب الأنفية وهى تجاويف مملوءة بالهواء توجد داخل عظام الجمجمة.

الجهاز العظمى فى الانسان :

إهتم القرآن الكريم بالجهاز العظمى للإنسان اهتماما بالغا فقد تكرر فى أكثر من سورة مايفيد أن هذا الجهاز هو الأصل فى تكوين الانسان كما فى الآية الكريمة التى تقول ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[1]. وأن العظام هى التى تحتفظ

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤.

بشخصية الانسان فهى الأساس عند البعث فقد جاء فى القرآن الكريم ما يفيد ذلك اذ يقول تعالى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[١]. ويقول تعالى أيضا ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾[٢]-وهناك آية أخرى تقول ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾[٣] - وجمع العظام يفيد إعادة تكوين الانسان .. إذ قد قرر القرآن الكريم أهمية هذا الجهاز واعتبره الأصل فى الخلق والإعادة، فما موقف العلم الحديث مما قرره القرآن منذ زمن بعيد؟

يقرر العلم الحديث أن الجهاز العظمى فى الإنسان، هو المثل الرائع للبندسة الربانية التى يسجد أمامها لله القادر، ويتكون هذا الجهاز الذى يسمى الهيكل العظمى من مائتين وست عظمات فى الإنسان البالغ، ويتصل بعضها ببعض بالمفاصل التى تحركها العضلات، والحكمة فى جعل الهيكل العظمى مجزءا أوضح من أن تشرح، فيمكن تحريك كل جزء من أجزاء الجسم بيسر وسهولة، وقد قرر العلم أن فقرات العمود الفقرى جعلت بالحجم الذى يمكن الإنسان من الانحناء، وفى الوقت نفسه تحفظ النخاع فى وسطها. وللهيكل العظمى بوظائفه التى يؤديها وعمله، وحكمة اختلاف شكله فى أجزائه وتباين طريقة تكوينه يعتبر آية من أوضح آيات قدرة الله فى خلقه، فهذه العظام مصنع الحياة فى الجسم، اذ إنها تكون الكريات الدموية الحمراء والبيضاء. ولتعرف أهمية ذلك، يجب أن نعلم أن هذه الكرات هى أساس الحياة وأنه فى كل دقيقة من حياة الإنسان يموت فيها مالا يقل

---

(١) سورة يس الآية ٧٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٩ والآية ٩٨.

(٣) سورة القيامة الآية ٣.

عن مائة وثمانين مليونا من الكرات الحمراء، علاوة على مايموت من الكرات البيضاء فى دفاعها عن الجسم ضد الميكروبات الوافدة، وكسل العظام فى إنتاج كرات الدم يسبب فقر الدم الذي لو زاد لأودى بحياة الإنسان، وهذه العظام علاوة على أنها تصنع الحياة فى الجسم بتكوين هذه الكريات فإنها مخزن يحفظ فيها الجسم مايزيد على حاجته من الغذاء، سواء كان ذلك فى داخل العظام نفسها كالمواد الدهنية والزلالية أم على العظام نفسها كالمواد الجيرية. أما ملائمة العظام لما خلقت له، فهذا أمر عجيب، فعظام الجمجمة مثلا التى تحمى المخ نراها أشد صلابة وأكثر سمكا فى الأماكن التى تتعرض للخطر أكثر، وكلما كان العظم لحماية أنسجة أرق وأدق، كان العظم أمتن ومتحورا بما يحافظ على الأنسجة محافظة تامة، فهو يتكون من مادة صلبة خارجية، ومادة هشة رقيقة داخلية لتكون أكثر رقة على ما تحفظه بداخلها من أنسجة.

ولفقرات الظهر غشاء غضروفى يحميها من الكسر عند تصادمها، وشوكة من الخلف لتكون وقاية بارزة لها تتلقى الصدمات فلا تصل للفقرات، وجناحان عن اليمين واليسار لوقايتها من جوانبها، وقد ربطت كلها برباطات عصبية عراض مثبته تسير كأنها قطعة واحدة .. وعند تلاقى عظمة بأخرى يتوائم مكان الاتصال بما يساعد على الحركة فى كل الاتجاهات.

فالعظمة التى نهايتها نتوءة مثلا تقابلها عظمة تبدأ مسحوبة بأقطار متساوية وزاويا متلاقية .. ويقول الدكتور (جودسون هريك) فى محاضرة ألقاها فى معهد التاريخ بنيويورك فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ - إن الدماغ الإنسانى الذى يبلغ وزنه ألفا وأربعمائة جرام. غريب التركيب. بعيد عن كل تصور أو خيال. فلو جمعنا كل مافى العالم من أجهزة التلغراف .. والتليفون والراديو والتليفزيون .واستطعنا أن نحولها جميعا الى قطعة صغيرة بحجم الدماغ فانها لا تبلغ فى تعقيدها درجة دماغ الانسان(١).

---

(١) أنظر (الله والعلم الحديث) ص ٦٩. لعبد الرزاق نوفل

هذا ويقول علم السلالات البشرية : إن للعظام حديثاتنطق به وتحقق التسلسل فى تاريخه بل تدل على مدى ما تعرض له صاحب العظام فى حياته، وكذلك بعد مماته، فالهيكل العظمى للانسان يحدد فى حياته وبعد موته أيضا جنس صاحبه وعمره والسلالة التى إنحدر منها ودرجة الخلط بين أبويه أو جديه إن كان هناك خلط فى سلالته - وتوضح العظام كذلك العمر الذى قضاه صاحبه فى الحياة والأمراض التى إنتابته فيها - وسبب موته، أما عظام الكائن الحى فمن السهولة أن تجيب عن كل ماقد يخطر على بال أى سائل من أوصافه - لقد أصبح للعظام شأن أى شأن فى علوم التشريح والأحياء بل ساعدت العظام علماء الآثار فى كتابة تاريخ الحضارات فى العالم ونشأة البشرية والتطور الذى تم للكائنات. وقد أفاد الجهاز العظمى العلماء المشتغلين لكفاح الجرائم حيث يسرت لهم الوقوف على أسباب الموت وإصابات القتل، وذلك من النظرة العابرة التى يلقونها على عظام الميت.

ويقول علم السلالات : إن معرفة الكائن وتاريخه من عظامه من أسهل الأمور. فمثلا جمجمة الزنجى طويلة متسعة وفجوات العينين متباعدة والذراعان أطول نسبيا من الساقين - ومن السهل جدا الوقوف على سلالة صاحب العظم ان كان ملونا أو غير ملون، ودرجة الخلط فى أصله، وبعد معرفة أصل صاحب الهيكل العظمى، أيمكن الوقوف على جنسه ذكرا كان أم أنثى بعد أن غابت الملامح الظاهرة التى كانت تميز الذكر عن الأنثى؟

يقول العلم الحديث : إن من أسهل الأمور على فاحص العظم الوقوف على الجنس، فان الجمجمة وحدها تحدد الجنس. إذ إن إتساع جمجمة الرجل تزيد عن المرأة بنحو مائتي سنتميتر مكعب، وان حافات عظام الحواجب أقل بروزا فى المرأة، وعظام الحوض فى المرأة أكثر اتساعا عن الرجل، ومن النظرة الأولى الإجمالية للعظم كله نرى أن الهيكل العظمى للمرأة أرق وأرشق من هيكل الرجل - أما أوصاف صاحب العظم تفصيلا،

فإن طوله مثلا يحدده طول عظام الفخذ، فان طول قامة الرجل عبارة عن طول عظمة الفخذ مضروبا فى ١,٨٨ ويزيد على الناتج ٧٢,٨٤٤ سنتيمتر. وهكذا تتحدث العظام عن أصل الشخص ونوعه وجنسه وأوصافه.

أما تحديد السن فانه أسهل إذ إن براعم الأسنان ومراكزها وحلقاتها ودرجة نمو هذه المراكز تحدد السن تحديدا قاطعا كذلك فواصل عظام الرأس وبناء العظام نفسها كلها تحدد العمر الذى عاشه صاحب العظام - وقد اتضح أخيرا أن العظام وحدها دون أعضاء الجسم الأخرى تحافظ على خصائصها دون تغيير آلاف السنين فى قبرها، وبذلك استطاع العلماء تدوين تاريخ القدماء. وكتابة قصص حياتهم وأعمارهم، وقد حلت العظام المشاكل العديدة التى تقوم حول البنوة والوراثة وقرابة الناس بعضهم لبعض.

وهكذا قرر العلم ماقرره القرآن من عشرات المئات من السنين - وكذلك سبق القرآن العلم بمئات السنين فى تقرير حيوية العظام وأهميتها، فى وظائف الإنسان فقد كانت العلوم تعتبر عظام الإنسان إنما هى دعامات صلبة لا حياة فيها، قامت لحفظ توازن الانسان وتركيب باقى مكونات الجسم عليه، فى حين يقرر القرآن أنها أخطر من ذلك وأبعد أثرا تقول الآية الكريمة فى شأن نبى الله زكريا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[١].

فقد نبه القرآن الكريم إلى علاقة العظم بإنتاج الأولاد وبعد هذا يكتشف العلم الحديث مما يحقق قول القرآن - يقول ج - ردا تكليف» : (لقد عم انتشار الأبحاث الطبية فى عصرنا الحالى فأزاح الستار للباحثين عن أسرار حيوية العظام بعد أن كانت تعد أشياء جامدة غير حية)[٢]..

---

(١) سورة مريم الآية ٤.

(٢) انظر - (القرآن والعلم الحديث) ص ١١٤. لعبد الرزاق نوفل

وقد قرر العلم أخيرا أن للعظام وظائف مهمة تتوقف عليها حياة الانسان فهى تحتوى على كل ما يحتاج إليه الجسم من الفسفور والكالسيوم وتنظم عملية توزيعه تنظيما يحفظ ضربات القلب، وحركة العضلات - وكذلك فان العظام تنتج كريات الدم - الحمراء والبيضاء طول حياة الانسان بلا انقطاع. ويكفى أن نعرف أن كل دقيقة يموت ما يقرب من مائة وثمانين مليونا من كرات الدم الحمراء وعلي العظام تعويض ذلك فورا حتى تعرف العبء الملقى على عاتق العظام - وتعتبر العظام مخزنا يحفظ فيه الجسم المواد الغذائية الزائدة عن استهلاكه الى وقت الحاجة - كما قرر العلم حديثا أن حالة العظام تؤثر تأثيرا مباشرا على الجهاز العصبى وأنها لذلك تتدخل تدخلا مباشرا فى قدرة الإنسان على التوالد وإنجاب الأطفال، وهذا ما قاله القرآن الكريم وقد أشير إلى ذلك بما كان من أمر نبى الله زكريا.

الجهاز العصبى فى الانسان :

يتكون هذا الجهاز الذى يسيطر على الجسم سيطرة تامة، من شعيرات دقيقة تمر فى كافة أنحاء الجسم، وتتصل بغيرها أكبر منها، وهذه تتصل بالجهاز المركزى العصبى فاذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ولو كان ذلك لتغير بسيط فى درجة الحرارة بالجو المحيط .. نقلت الشعيرات العصبية هذا الاحساس الى المراكز المنتشرة فى الجسم، وهذه توصل الاحساس الى المخ حيث يمكنه أن يتصرف ، وتبلغ سرعة سريان الاشارات والتنبيهات فى الاعصاب مائة متر فى الثانية - ويعتبر العقل من أغرب وأعجب مايمكن أن يصادف الإنسان فى بحثه.

فيقول «مارك توين» فى ذلك : (إن عقل الإنسان مبني بطريقة لايقدر معها على خلق شئ بالمرة، وهو لا يمكنه إلا إستخدام مواد حصل عليها من الخارج، وهو ليس إلا آلة وهذه الألة تعمل بشكل ليس بفعل الارادة، وليس للعقل سيطرة على نفسه وليس لصاحبه سيطرة عليه)[١].

---

(١) انظر - (الله والعلم الحديث) ص ٧٠. لعبد الرزاق نوفل

حـقـا إن العـقل يعـمل بنشـاط دائم، وبدون توقف فـى كل لحظة من لحظات اليـقظة. أمـا إذا اتفق لك أن قـضـيت ليلك سـاهرا تتـقلب، تأمـر ثم ترجو، ثم تستعطف عـقلك أن يكف عن العمل وأن يتركك تنام؟ - أنت الذى تعتقد أن عقلك خادمك طوع أمرك يفكر فيما تريده علي أن يفكر فيه، ويمتنع حين تأمره بالامتناع. إن اختار أن يعمل فليس ثمة وسيلة لإيقافه لحظة. وان أزكى الناس من يقدر علي إمداد عقله بموضوعات لا تشغله بـالفعل - فلو أن العقل فى حاجة إلى مـساعدة الانسان لا نتظر حـتى يقدم له الانسـان ما يعمله حين يستيقظ هذا الأخير فى الصبـاح - فمن الذى يلهم العقل ويشرف عليه؟ وللانسـان زيادة على ذلك جـهاز عصبى لا إرادى يتحكم فى صـاحبه فـهو الذى يسبب حمرة الخـجل فى وجوهنا، ويصيب أطرافنا بـالبرودة عند الخـوف، أو الفزع وهو الذى يزيد ضربات القلب دون أن يمكن للإنسـان أن يسيطر عليه أو يدفع عنه ... فمن الذى يحركه ويوجهه؟

الجهاز التناسلى فى الإنسان :

هذا الجـهـاز الذى يحـفظ النوع البشـرى، لا يـختلف فى إنسـان عن غيره، ويعمل بطرق معقـدة. ولم تعرف الحيوانات المنوية بأنـها خلايا متـحركة بشرية الا فـي عام ١٧٦٨م، وهـى تشبـه العلق فى حركتهـا ولها رأس مفرطح وعنق قصير وذيل طويل وتتحرك بلولبية ذيلها. وقد قرر العلم: أن الله قد أمد هذه الخلايا بقوة من المقاومة تستطيع بها حفظ النوع البشرى، اذ إنـها فى الأجواء غير الملائمـة تستكن الحيـاة فيـهـا وتفـقد مظاهر نشـاطها، فـاذا ماوجدت الوسط المناسب عادت لها حيويتها ونشاطها، وتستـمر فى حياتها لعدة أيام متوالية فى إنتظار البويضة التى يفرزها مبيض الأنثى وهو جـهاز التناسل فيـهـا، وليؤدى إخـصـابها، ويتم كل ذلك بإلهام الله الموجود، إذ لا دخل لأية قوة كـائنة ماكانت، كيمـاوية، أو حيـوية، أو عقليـة أو إدراكـية فى توجيه الحيوان المنوى إلى بويضة الأنثى.

الجهاز الدورى فى الانسان:

يشمل الجهاز الدورى. الدم الذى يتكون من خمسة وعشرين الى ثلاثين ألف بليون خلية حمراء - وخمسين بليونا خلية بيضاء، وكلها معلقة فى سائل هو : «المصل» الذى يحوى مواد زلالية وأحماض، وسكريات، ودهونا، وفيه زيادة على ذلك أجسام مضادة للميكروبات تظهر عند المرض، والقلب هو عضو عضلى لا حكم للإرادة عليه ينقبض وينبسط بنظام خاص، وهو مكون من أربع حجرات يفصلها حاجز رأسي يجعل كل اثنين منها فى جانب، وتسمى كل من الحجرتين العلويتين «أذينا» والسفليتين «بطينا» - ويفصل الأذين وعن البطين صمام، ولا يزيد حجم القلب عن قبضة اليد ومع ذلك فانه يبذل من النشاط فى خلال أربع وعشرين ساعة ما يكفى لحمل رجل عادى خمسين ومائتين وألف قدما فى الهواء، ولا يزيد وزنه عن عشر أوقيات ومع ذلك فإن نبضه يدفع كمية من الدم تبلغ حوالى ثمانين مليون جالون فى العام، اذ يدفع الدم إثنين وتسعين وسبعمائة الف وستة وثلاثين مليونا، مرة فى العام - وباقي الجهاز الدورى الشرايين، وهى : أوعية مرنة قوية وظيفتها نقل الدم النقى من القلب الي أجزاء الجسم، ماعدا الشريان الرئوى الذى يحمل دما غير نقى، والأوردة : وهي تحمل الدم غير النقي الي القلب ليدفعه الي الرئتين، لينقى ويعود اليه ليوزع علي الجسم، ماعدا أوردة الرئة، والشعيرات، وهى مجموعة دقيقة من الأوعية الدموية، التي يتكون من تجمعها الشرايين والأوردة، وعملية الجهاز الدورى من أسس الحياة فى الانسان، فالدم الفاسد يعود الى القلب بوريديه إلى الأذين الأيمن، وعندما يمتلئ ينقبض فيدفع الدم الى البطين الأيمن، ومنه بانقباضه يندفع الدم الى الرئتين بالشريان الرئوى، وفى الرئتين ينقى الدم بأخذ الاكسجين ويتخلص من غاز ثانى أكسيد الكربون السام، ثم يعود الدم نقيا من الرئتين فى الأوردة الى أذين القلب الأيسر، ومنه إلى البطين الأيسر ثم إلى كافة أجزاء الجسم. وأعجب من هذه العملية، أن للأوردة صمامات خاصة، اذا صعد

الدم منها إلى القلب لا يهبط. ولجميع الاوعية المتصلة بالقلب، صمامات تمنع رجوع الدم فى عكس إتجاه سيره مهما تغير وضع الانسان ومهما تحرك. حتى ولو انقلب وضع المرء. ومن أعجب مايمكن ذكره فى هذا الجهاز أنه لـ بسطت أوعية الدم الخاصة بالانسان لبلغ طولها مائة ألف ميل.

الجهاز الليمفاوى للانسان :

اللمف ويسمى مادة الحياة. عبارة عن سائل قلوى يشبه بلازما الدم فى تركيبه إلا أنه لا يحوى البروتينات الموجودة فى الدم. والخلايا الليمفاوية لا لون لها، وللجهاز اللمف أوعية دقيقة شفافة تتخلل الجلد وتوجد تحته ـ كما توجد عقد ليمفاوية فى مختلف أنحاء الجسم وأكثر ماتكون فى العنق والأمعاء والفخذ، ويقوم هذا الجهاز بأعاجيب كيماوية فى سبيل صيانة حياة الجسم وسلامته، هذا الليمف يساعد الكريات البيضاء فى قتل الميكروبات التى تغذو الجسم، فاذا تغلبت الميكروبات على الكريات البيضاء المدافعة، وبدأت الخطورة فى هذا التغلب حمل الليمف .. الميكروبات الى أقرب عقدة ليمفاوية فى الجسم، حيث تصب عليه العديد من الكريات البيضاء، وحيث يفيض الليمف على هذه الميكروبات، فتكون النتيجة الحتمية إنهزام الميكروبات وكثيرا ما يحس الإنسان إذا أصابه جرح أو تلوث فى مكان ما من جسمه بسريان الألم إلى مكان بعيد أى الى عقدة ليمفاوية، بدأت فى العمل ـ وبذلك يسمى العلماء «الليمف» : (سائل الحياة)، ومن ناحية أخرى يعمل هذا الجهاز لغرض آخر هو حجز الخلايا الهالكة فى معركة الميكروبات، سواء أكانت كريات بيضاء أم جراثيم من أن تسير فى الدم حتى لا تصل هذه السموم إلى القلب فتكون الطامة .. وقد أطلق العلماء على هذه العقد الليمفاوية إسما يتمشى مع هذا الغرض الثانى فأسموها (صناديق نفايات الجسم).

الجهاز العضلى فى الانسان :

يقول الدكتور «ألبرت جيورجى» ـ مدير معهد أبحاث العضلات والحائز لجائزة نوبل.

(إنه لشئ أساسى أن نفهم هذه العجائب المزهلة عن العضلات) ـ ويقول غيره : (إن أفخر ما تعرضه الحياة فى متجرها المملوء بالاعاجيب هى العضلات)[١].

وتحتل العضلات أكثر من نصف الجسم البشرى، وهذه العضلات هى التى تدفع الغذاء من الفم الى القناة الهضمية وهى التى تمتص الهواء لتدفعه الي الرئتين. وهى التى تحول الأكل إلى الحركة ـ أى تحول الطاقة الكيميائية إلى طاقة ميكانيكية، والعضلات هى بداية الحياة إذ أنها تبدأ بدفع الجنين من بطن أمه بحركة عضلات الرحم ثم تستمر تحافظ على الحياة بل تعتبر أساسها إلى أن تتوقف عضلة القلب فتسبب الوفاة، والجهاز العضلى يعتبره العلماء من الأسرار الإلهية اذ لم يستطع العلم أن يكتشف ما يميط اللثام من القوة التى تشرف على هذا الجهاز، وكل مايقوله العلماء إن الجهاز العضلى كأى جهاز أخر فى الإنسان من أسس الحياة، وأن أى حركة بسيطة من حركات العضلات حتى ولو كانت حك الإنسان لأنفه ينتج عنها عمليات أدق وأعقد من تركيب وتفجير القنبلة الهيدروجينية.

جهاز الذوق فى الانسان :

وجهاز الذوق فى الانسان، هو اللسان ويرجع عمله الي مجموعات من الخلايات الذوقية القائمة فى حلمات غشائه المخاطى .. ولتلك الحلمات أشكال مختلفة فمنها : الخيطية، والفطرية، والعدسية، ويعترى الحلمات

---

(١) انظر (الله والعلم الحديث) ص ٥٧.

فروع من العصب اللساني البلعومي والعصب الذوقي، وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية فينتقل الأثر إلي المخ.

وهذا الجهاز موجود في أول الفم حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به، وبه يحس المرء المرارة، والحلاوة، والبرودة، والسخونة، والحامض والملح، واللاذع ونحوه، ويحتوى اللسان على تسعة آلاف من نتؤات الذوق الدقيقة، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب فكم عدد الأعصاب؟ وماحجمها؟ وكيف تعمل منفردة؟ وتتجمع بالإحساس عند المخ؟ وهل فكرت أيها الانسان في ذلك كله، وفي نعم الله التي أسبغها عليك ظاهرة وباطنة؟ وصدق الله العظيم اذا يقول ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(١).. ـ ويقول : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾(٢)..

وبعد فهذا هو الإنسان وهذه نعم الله عليه تجلت فيما ذكر وما يخفى علينا أكثر مما ذكر، وان ماذكر كان القصد منه استجلاء عظمة الله في الإنسان ـ وعلينا إن نسأل أنفسنا فنقول بعد هذا العرض لنعم الله في الإنسان، هل كل هذا خلق مصادفة، وهل في جسم الإنسان ما يعمل دون توجيه والهام من قوة علوية مدبرة حكيمة؟

وهل بقي بعد ذلك في الإنسان ما يؤكد شك أولئك الذين يقولون بالمصادفة، إن كل عضو بل كل عضلة ـ بل كل خلية، بل كل جزء من مكونات الخلية تنطق بعظمة خالقها وتسبح له .. فهل بقي بعد ذلك لقارئ نزعة الى شك؟ ـ ان من يشك في ذلك يجد الجواب يفحمه ويرد عليه معنتا وموبخاً له

---

(١) سورة لقمان الاية ٢٠.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٤.

على تصوره هذا، يقول القرآن الكريم. بصدد ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1]... وما أصدق قول الحق اذ يقول ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]..

إفتراء على الإنسان

يقتضى منى البحث فى الإنسان وخلقه أن أذكر ما يقوله المفترون على الإنسان فى أصل خلقته. وهذا الافتراء يتجلي واضحا فيما عرف بنظرية «داروين» وسأعرض فى هذا المبحث لأساس النظرية وما تنبني عليه من أسس ثم أكر عليها بالبطلان.

حقيقة النظرية :

أما عن حقيقة هذه النظرية فى زعم أنصارها فخلاصتها أن أنصارها يزعمون أن الحياة الأولى للانسان والحيوان والنبات بدأت على ظهر هذه الأرض بجرثومة أو جراثيم تليلة تطورت من حال إلى حال تحت تأثير فواعل طبيعية حتى وصلت الى هذه التنوعات التى نراها وعلى رأسها الإنسان.

وعلى هذا فإن الإنسان عندهم بدأت حياته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت إلى حيوان صغير ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى الى حياة حيوانية بدائية فإلى حيوانات أكبر فأكبر ريشية ومجنحة ثم تحولت الى ذوات فقرات ثم ارتقت إلى حيوان أشبه بالإنسان، ثم كانت نهاية هذا التطور انسانا أول، لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم ثم إنسانا كاملا وهو المشهود اليوم بعقله وتفكيره وإدراكه - ويقولون : إن هذه التحولات والتطورات

---

(١) سورة الانفطار الآيات من ٦ : ٨

(٢) سورة التين الآية ٤.

والترقيات جاءت بعد صراع مرير بين هذه الكائنات وبين عوامل الطبيعة وتقلباتها. وبين نفس هذه الكائنات الحية بعضها مع بعض، عبر آلاف القرون من أجل البقاء، هذه خلاصة نظرية التطور. والإرتقاء التى يزعمونها والتى يطلق عليها اليوم إسم «نظرية داروين».

أسس النظرية :

وبعد هذا العرض الموجز لماهية نظرية «النشوء والارتقاء» يحق على أن أبرز الجوانب والركائز التى بنى عليها مؤسس النظرية حقيقية ماذكره - حتى إذا عمدت لتفنيدها وكشف اللثام عن زيفها يكون ذلك موجها إلى النظرية بمحتوياتها - أما عن أسسها التى ذكرها صاحب النظرية فهى كما رأى أنها تعتمد على أربعة قواعد : -

(١) ناموس تنازع البقاء.

(٢) ناموس الانتخاب الطبيعى

(٣) ناموس المطابقة.

(٤) ناموس الوراثة.

أ- أما عن ناموس تنازع البقاء فمعناه (كما يراه داروين) هو أن كل الكائنات الحية فى تنازع مستمر - وأن البقاء إنما يكون للأكمل والأقوى من المتنازعين أما الأضعف فإنه يتلاشى لأنه غير صالح للحياة - ويضرب «داروين» لذلك مثلا بما معناه : - إذا فرضنا وجود سرب من الأبقار الوحشية تسير فى غابة محددة كعادتها لطلب الغذاء فإذا رأت مرعى تزاحمت عليه، فالقوى منها يفوز بأطايب هذا المرعى فتزداد قوة على قوتها، أما ضعيفها فانه يزداد ضعفا على ضعفه، فبإدمانها على هذا العمل يزداد القوى قوة واكتمالا أما أضعفها فإنه يزداد ضعفا إلى ضعفه، فلا يزال يتناقص حتى يتلاشى فهذا ما يسمونه بناموس تنازع البقاء.

ب ـ أما ناموس الانتخاب الطبيعى فيشرحه «داروين» بما معناه معقبا على ماتقدم فاذا انتقل هذا السرب «من الأبقار» الى مسافة بعيدة ومر بطريق وعرة لا يقوى على اختراقها الا الممتازون منها بالقوة، فلا يصل الى مأمنه إلا الممتازون بالقوة، وهذا يعنى أن نتيجة هذا التنازع كله، بقاء الأصلح للبقاء وهلاك غير الأصلح أو زيادة ضعفه، كأن الطبيعة فى نظر «داروين» تنتخب الأقوى والأكمل فتبقيه وتلاشى الأضعف والأنقص وتبيده ليكون نتيجة ذلك الارتقاء بمعناه الأعم.

حـ ـ أما ناموس المطابقة فمعناه كما يرى «داروين» أن لنوع الأغذية وطرق الوصول إليها دخلا كبيرا فى احداث الإختلافات بين الأنوا ع ـ فمثلا : المعروف عن الأسد الآن أنه حيوان من أكلة اللحوم، مفترس له أنياب حادة وبراثن قوية لاضطراره لتمزيق فريسته بأنيابه وأظفاره فلو أوجدت نوع الأسد آلافا من السنين متوالية فى وسط لا يمكنه من الإفتراس ويجبره على تعاطى الاغذية النباتية لاضطر (بحكم الضرورة) لتعاطيها فتبطل وظيفة أنيابه الحادة وأظفاره الماضية، فتضعف لإهمالها على توالى الأحقاب وتضمر وتوجد فيه آلات أخرى أصلح لمعيشته الجديدة ظاهرا وباطنا كأن يتغير تدريجيا شكل أسنانه، وتطول أمعاؤه لتحاكى أمعاء أكلة الحشائش من الحيوانات إلى غير ذلك من التنوعات، ولو فرض أن تلك النباتات لا تتسنى للأسد إلا بخوض نهر أو بالتسلق على الأشجار، تخلقت فيه على توالى الأحقاب، أعضاء تناسب السباحة والتسلق إلى آخره فهذا ناموس المطابقة أو ناموس التحول كما يسميه البعض.

د ـ أما ناموس الوراثة فمعناه «كما يراه داروين» أن الصفات العرضية التى تحدث فى الآباء بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط المعيشية تنتقل الى الأبناء، فتنشأ تلك الأبناء مختلفة فيما بينها ـ ولا يزال هذا الاختلاف يقوى على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل تلك الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية توهم الرائى لها أنها اختلافات نوعية من

أصل الخلقة وهى فى الحقيقة اختلافات بسيطة فى مبادئها توالت عليها الحقب حتى ازدادت تأصلا فى الكائن الحى ونمت فيه فأدته الى مباينة الأصل الذى نشأ منه تمام المباينة، حتى أن الرائى لهما يظنهما من نوعين مستقلين، وهما من نوع واحد، كما نرى ذلك بين الحمار والحصان فإنهما (على مقتضى مذهب داروين) من نوع واحد، وانما اختلف الحمار عن الحصان هذا الاختلاف تبعا لمقتضيات الوسط الذى عاش فيه الحمار والجهاد المعيشى الشديد الذى بلى به..

هذه هى خلاصة القواعد الأربع التى بنى عليها «داروين» مذهب التطور والنشوء والارتقاء.

الجانب الإلحادى فى نظرية «داروين»:-

بعد بيان حقيقة النظرية وأسسها التى انبنت عليها يطيب لى أن أبرز الجانب الإلحادى فيها وذلك قبل التعرض لمناقشة جوهر النظرية على صعيد العلم والواقع.

لابد لنا من أن نناقش فيها الجانب الإلحادي الذى حمل لؤاه باسمه (ارنست هيكل) و(أوبارين) وقبلهما لارمارك وغيرهم من ماديين وماركسيين استغلوا إهتمام الناس الشديد علميا بهذه النظرية وإقبالهم على الإعتناء بها ودراستها فصاروا يتخذون منها شركا يصطادون بوساطته صغار العقول من البسطاء الذين قل حظهم من الثقافة الدينية فيرمونهم فى هاوية الإلحاد، وذلك عن طريق تفسيرهم لهذه النظرية تفسيرا يدخلون بوساطته (وباسم العلم) فى روع هؤلاء البسطاء المجردين من الحصانه الروحية والدينية.

إن واقع الوجود وطبيعة الكائنات الحية وتطورها وتحول بعضها عن بعض واشتقاق بعضها من البعض الآخر (كما هى قواعد نظرية التطور والارتقاء) من انتخاب طبعى واصطفاء نوعى، يجعل من غير الضرورى الاعتقاد بوجود خالق يتولى ارادة هذا الكون وتنظيمه، لأن المادة (كما

يزعمون) بطبيعتها وخصائصها الملازمة لها تقوم مقام هذا الخالق فى ذلك. فالجناح الالحادى من أنصار هذه النظرية يزعم أن الحياة الاولى جاءت نتيجة تفاعل طبعى بين أجزاء من المادة. هذه المادة التى يزعمون أنها كانت ولم تزل قادرة (بطبيعتها) على إعطاء الحياة ولهذا فهم ينكرون أن تكون الحياة من صنع قوة فوق الطبيعة فهذا الجناح الإلحادى (عندما يتحدث عن مراحل التطور والارتقاء يخرج من حسابه قوة ما، فوق الطبيعة (وهى القوة الالهية) لأن حالة المادة (بزعمهم) لاتحتاج الى هذه القوة فالطبيعة الملازمة للمادة بحركتها الدائبه هي التى تخلق وتبدع. وتنوع وتطور وتصطفى وتبيد.

ولسائل يسأل ويقول : مامفهوم الطبيعة لدى هؤلاء؟ والجواب كما قاله رواد هذه الفكرة :

فسر (لارمارك) الطبيعة بأنها القوة العامة الملازمة للمادة المتنزهة عن الفساد التى لا تفتر عن التأثير فى المواد طرفه عين غير أنها مجردة عن الفعل ومحكومة بقوانين هكذا يقول «لامارك».

ووصف الفيلسوف (ليتريه) الطبيعة بقوله: يظهر لنا أن الأسباب التى أوجدت الكون هى ذاتية فيه غير متميزة وهى التى نسميها نحن بالنواميس الطبيعية [١].

فلا مارك. ومن على مذهبه من الماديين يزعمون أن ظهور الأحياء إلى الوجود قد تم بفعل الطبيعة (مباشرة) وأن تنوع الأحياء إنما حدث بقوة الطبيعة الملازمة للمادة وعلى طريقة النشوء والتحول والارتقاء.

أوهن من بيت العنكبوت :

بعد ذكر خلاصة نظرية داروين وأسسها وماتضمنته من جانب إلحادى، وتحليلاتهم للطبيعة التى أوجدت الأشياء وعلى رأسها الإنسان

---

(١)أنظر الاسلام ونظرية داروين ص ٢٧. لمحمد أحمد باشميل.

يكون الوقت قد حان لكشف اللثام عن هذا الافتراء، والمعول الذى أهدم به أساس هذا البنيان إن كان هناك بنيان، هو رأى العلم، وآراء العلماء.

ان نظرية التطور والارتقاء التى قال بها داروين نظرية غير ثابتة ثبوتا قاطعا (لامن الناحية العلمية ولا من الناحية الحسية وإذا كان داروين قد اعترف (صراحة) بأن الطريقة التى وجدت بها الحياة الأولى على وجه الارض لانزال مجهولة حتى يومنا هذا، فان جهله بالطريقة التى تسلسلت بها الكائنات الحية وتنوعت (كما يزعم) لا يقل عن جهله بالطريقة التى وجدت بها الحياة الأولى على وجه الارض وكيف ومتى وجدت فالمتتبع لما كتبه ونشره داروين عن نظرية التطور والارتقاء. يجد أن داروين لم يبنى هذه النظرية على أسس علمية قاطعة ثابتة لايمكن الرجوع عنها، وإنما بناها على افتراضات وتقديرات وتخمينات تحتمل الخطأ قبل الصواب - فجميع الذين قالوا بنظرية التطور والارتقاء (وعلى رأسهم داروين) يعترفون بأن هذه النظرية هى فرض علمى يعوزه الدليل الحسى بل إن جوهر بحوث علماء التطور والارتقاء جميعا تشير كلها إلى أن أصول هذه النظرية وفروعها هى من باب الافتراض لا القطع، والتقدير لا التأكيد قال الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : واذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور فى العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعا مفروغا منه من أصوله وفروعه، وأكبر أنصاره لايدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته[١]...

وإذا نظرنا إلى العلم فإننا نجد من يهدم بنيان هذه النظرية - وذلك أن كل ما استند عليه لامارك وداروين لاثبات هذه النظرية هو تفسيرات وتقديرات مصدرها الافتراض والتخمين الذى لا يسنده أى واقع شهد به العلم. أو عضده الحس. فى أى عصر من العصور والأزمان، فمنذ أن خلق

---

(١) من كتاب (عقائد المفكرين) ص ٥٦ مذهب التطور.

الله الدنيا حتى يومنا هذا لم يشهد أحد ولم يشعر بحادثة واحدة من حوادث التطور والارتقاء الذى يزعمون. فلم يثبت (بأى وسيلة من الوسائل ولم تخط كلمة واحدة فى أى سفر من الأسفار). تشير الى أن شيئا من هذا قد حدث فعلا. فلم يثبت فى أى عصر من العصور أن عصفورا قد تحول الى ديك، أو أن حمارا قد تطور الى حصان، أو أن قردا قد تحول (كما يزعمون) الى انسان فلو حدث شئ من هذا (فى أى عصر من العصور) لظل مدى الدهر من الأخبار ـ المتواتره ولتكرر حدوثه فى عدة عصور وفى مناسبات مختلفة مادام ناموس التطور والارتقاء حقيقة واقعة كما يزعمون. ولكن الواقع المشاهد (بالتواتر منذ أن خلق الله الارض ومن عليها) وأن جميع أنواع الاحياء باقية على ماهى عليه (من ناحية البيئة والتركيب والطبيعة) منذ أن ظهرت على وجه الأرض، فالإنسان هو الإنسان بكل هيئته وبكامل طبيعته منذ أن نفخ الله فيه الروح، وكذلك الحيوانات (بكامل أنواعها) هى باقية على ماهى عليه فى تكوينها العضلى وحالتها الطبيعية منذ نشأتها الأولى. وهذا واقع لا يستطيع أحد أن يثبت سواه أبدا (لا من الناحية العلمية، ولا من الناحية الواقعية..) ومن ناحية أخرى فان هناك مآخذ قد اخذت على هذه النظرية.

قال الأستاذ محمد فريد وجدى : إن أكبر الاعتراضات على مذهب «داروين» تحصر فى ثلاثة أمور وهى :-

(١) عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان من الأحياء الأرضية من ألوف السنين.

(٢) عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل كأن يوجد «مثلا» حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضا.

(٣) طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء، فإن عمر الأرض كما قالوا : لا يكفى : لإحداث كل مايرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف[١]..

وقال الاستاذ نديم الجسر فى معرض الحديث عن نظرية «داروين» : أما الردود العلمية فهى كثيرة أهمها أن الحيوانات البحرية الدنيا، هى باقية، حتى اليوم على الحالة التى كانت عليها فى ابتداء العالم، ولم نجد أنها تأثرت بناموس الارتقاء ـ وأن طوائف الأحياء الكبرى الدنيا منها والعليا، وجدت منها آثار فى أسفل طبقات الأرض فلو كان ناموس الارتقاء أكيدا لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات، فى أعلى الطبقات، وأننا نجد كثيرا من الأجناس والطوائف قد كانت فى العصور القديمة الأولى أكمل منها اليوم، ونجد فى الطبقات الأرضية بعض حيوانات دنيئة فوق حيوانات عالية جدا[٢]..

كيف يهب الحياة فاقدها :

أما عن الطبيعة التى أشرت سابقا إلى مفهومها فى زعم أنصارها والمتشيعين لها من أنها كان لها التأثير الواضح فى وجود الكائنات ـ وعلى رأسها الإنسان ـ فأقول : كيف يمكن لعاقل يحترم نفسه أن يسلم بأن السافل الناقص العاجز الأخرس الأبكم المجرد من العقل والشعور والإدراك (وهذه منزلة المادة والطبيعة) يستطيع أن يخلق الأعلى القادر العاقل المتكلم الناطق المفكر (وهذه صفات الانسان) ثم يرعاه ويسيره بل ويطوره وينميه ؟؟ فهل يصح فى قضية العقل، أن يكون الخالق المبدع المتصرف أحط من المخلوق، والصانع المبدع أدنى من المصنوع؟؟ هذا ما يقوله الفيلسوف «لا مارك» ويريد منا أن نؤمن به، حيث يزعم أن المادة الخرساء الجامدة الميتة

---

(١) من كتاب (دائرة المعارف) المجلد الرابع ص ٣١.

(٢) من كتاب (قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) ص ٦١ ـ بين داروين والجسر.

(فى ظل الطبيعة العمياء البكماء الميتة) قد صنعت كل كائن حى وأشرفت على تطويره وترقيته ومن ذلك الإنسان العاقل المدرك المفكر فهل تريدون (معشر الملحدين) تناقضا أشنع من هذا ؟؟

إن شيخ الملحدين (لامارك) يتابعه فى ذلك داعية الإلحاد فى المانيا، ويسانده العالم السوفيتى «أوبارين» كل هؤلاء وأمثالهم من دعاة الفكر والالحاد فى الوقت الذى يزعمون فيه أن الطبيعة المنزهة عن الفساد قد حولت خلق كل كائن حى ومكوناتها القوة القاهرة العامة التى لا تعلوها قوة، يعترفون (فى الوقت نفسه) كما قال عمدتهم .. «لا مارك» بأن هذه الطبيعة خاضعة لغيرها ومحكومة بقوانين تتحكم فيها لا تستطيع الخروج عن توجيهها ـ وهكذا يدفع الحرص على إنكار الإله الخالق بهؤلاء الماديين. الى الوقوع فى أشنع أنواع التناقض المفضوح .. فبينما نرى الفيلسوف «لارمارك» يرفع المادة والطبيعة إلى أرقى درجات الكمال فيعطيها صفة القادر على كل شئ المنزه عن كل نقص حينما يقول :انها القوة العامة المنزهة عن الفساد والقادرة على الرعاية الأبدية والخلق والابداع. اذا به يجردها من هذه الصفات فيضعها فى مكانها، ويهوى بها الى منزلتها منزلة العاجز المربوب بين المخلوقات، المحكوم بغيره والمحتاج إلى سواه، حيث يقول : انها (أى المادة) بطبيعتها مجردة عن العقل ومحكومة بقوانين، إن لارمارك، هنا أراد بهذه الفلسفة انكار وجود الاله الخالق ولكنه (فى هذه الفلسفة) قد إعترف من حيث لا يعلم (مرغما) بوجود الله تعالى.. ولا يجوز باى حال من الأحوال. أن يهب الحياة فاقدها ـ لأنه يستحيل (عقلا) أن يضع القانون من لا يعلم شيئا عن القانون، وأن يهب الحياة ويضع نظامها من ليس بحى فى نفسه كما أنه من الصفاقة والوقاحة بمكان، القول بأن المحروم من العقل والإدراك. هو الذى يمنح العقل ويهب الإدراك، وأن الذى لا يشعر بوجود نفسه يضع لغيره قانون الشعور. فالطبيعة (التى تعزون اليها وضع نواميس الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد وشجر) هى

(كما قال «لارمارك» وبقول كل الملحدين حتى هذه اللحظة) مجردة عن العقل والحياة والشعور والادراك.. فبأى منطق يمكن للإنسان العاقل أن يصدقكم حينما تزعمون أن الطبيعة التى هذا شأنها هى التى أوجدت لكل كائن حى فى هذا الكون نظام حياته وقوانين شعوره وإدراكه؟ حقا، إن هذا لهو الهوس الذى لا هوس بعده والتناقض الذى دونه كل تناقض.

كيف نحمى عقائد الشباب من الانحراف.

وأخيراً ينبغى لى أن أجلى حقيقة لابد من كشف اللثام عنها وتبيين منهجها وهى الطريقة التى نسلكها لتجنب الذلل فى مثل هذه الافتراءات ...؟

يطيب لى ولكل منصف أن يبرهن للخائفين على عقائد المسلمين من النظر فى مثل هذه النظرية، أن حماية عقائد المسلمين هؤلاء لا تأتى عن طريق إنطواء المنتسبين للإسلام على أنفسهم وإنعزاليتهم الشديدة التى لاتسمح (بأى حال من الاحوال بالمنظر فى مثل هذه النظرية والتعرف على أى شئ من قواعدها أو معرفة غاياتها ومقاصد واضعيها، وإنما تأتى هذه الحماية عن طريق نظر علماء الاسلام فى مثل هذه النظرية بتعمق وفهم وامعان، ليتمكنوا من حماية الجيل المثقف (الذى لم يعد بالإمكان الحيلولة بينه وبين النظر فى مثل هذه النظرية) مما يمكن أن يتخذه دعاة الالحاد وسيلة للإنحراف بالشباب المثقف التى تكون قراءته (غالبا) لمثل هذه النظريات قراءة سطحية لا يستطيغون معها تجنب مافيها من مزالق مقصودة يضعها فى طريقهم سماسرة الالحاد الذين يفسرون هذه النظرية وفق هوائهم كما يفعل الشيوعيون عندما يتحدثون عن نظرية (داروين)، نحن كمسلمين والحراس على العقيدة. كيف نسلم بأن النوع الإنسانى ينحدر أصله الى القرود. فهل يرضى مؤمن أن يسلم بأن النوع الإنسانى (ومنه الأنبياء والمرسلون) ينحدرون من القردة؟ إن هذا قول غاية فى الفظاعة ولايمكن التسليم به أبدا - إن أهم نقطة فى الموضوع (من الناحية الدينية

ليست فى كيف نسلم أولا نسلم. وكيف نرضى أولا نرضى وانما المهم هو كيف نتأكد بأن الانسان حقا قد تحضر أصله من القردة. فالقول بأن النوع الانسانى يرجع أصله إلى القردة لايزال وسيظل (فى نظرى ونظر كل منصف) وهما من الأوهام أساسه الحدس والتخمين حيث لم يستطع أحد (حتى هذه اللحظة) القول بأن تحضر النوع الإنسانى من القردة هو حقيقة واقعة يقرها العلم. وحتى قطب نظرية التطور والإرتقاء «داروين» (نفسه لايرضى أن يكون قردا من الناحية العقلية. فالمسألة (إذا) لايفصل فيها بالرضى والتسليم أو عدمهما، فهذه أمور لاقيمة لها (فى نظر الدين والعقل والعلم على السواء) عندما يأتى دور وزن الأشياء بميزان الحقائق لنفيها أو اثباتها، فالرضى والتسليم أو عدمهما غالبا مايكون مصدرها العاطفة لا العقل. ومادام أن القول بأن النوع الإنساني قد تحضر من القردة، عندما نضعه فى ميزان الحقائق لايساوى شيئا فإن الذى يلزم علينا أن نفهمه (من الوجهة الدينية والعقلية) ليس الإعلان بأننا لا نسلم ولا نرضى بأن يكون أصلنا (نحن بنى الإنسان) قد تحضر من القردة وإنما الإعلان بأننا حددنا من ذلك القول موقفنا من أية مزاعم ليس لها أى ظل من الحقيقة ـ أما إذا قام الدليل المحسوس القاطع (وهذا بعيد جدا) علي أن النوع الإنسانى قد تحضر أصله من القردة فإنه لا مجال للإنكار أو الاستنكار، لأن ذلك اذا ماحدث فإنما يكون قد حدث بقدرة الله تعالى وارادته. وحينئذ فإنه ليس لأى إنسان أن يقول أنا لا اسلم ولا أرضى بأن يرجع أصلى إلى القرود، لأنه اذا ماقال ذلك فإنما ينكر الحقائق الواقعة ويعترض على الخالق سبحانه وتعالى .

سبحانه وتعالى إذ يقول ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1]

---

(١) سورة التين الآية ٤.

المبحث الخامس

عالم الجـن :

ويقتضينى البحث فى سورة الرحمن كمثال للحديث عن عالم الجن فى إطار التفسير الموضوعى والتى تغدق نعمها على الثقلين الإنس والجن أن نتعرف على هذا العالم الذى هو قرين الإنس طوال سورة الرحمن والمنعم عليه من قبل الله عز وجل وأن الضوء الذى يسلط على هذا العالم أستوحى ظلاله مما ذكره الله فى كتابه والرسول ﷺ فى سنته والعلماء الذين لهم قدم راسخة فى هذا الميدان ، حتى يكون هدينا بعيداً عن الشطط والحدث والتخمين - فهذا المجال أعنى مجال البحث فى عالم الجن يحتاج إلى دقة فى البحث لا سيما إذا كان بحثا كهذا الذى نحن بصدده من تفسير سورة من كتاب الله : خاطب الله فيها الثقلين وأبدأ البحث بالكتابة عن هذا العالم بكلمة سريعة أذكر فيها حقيقتهم أقول :

حقيقة الجـن :

الجن نوع من الأرواح العاقلة المـاردة المطلقة على نحو ما عليه الانسان ولكنهم مجردون عن المادة البشرية، مستترون عن الحواس، لا يرون على طبيعتهم ولا بصورتهم .. الحقيقية ، ولهم قدرة على التشكل[1].

تكليف الجن فى الدنيا وثوابهم وعقابهم فى الآخرة :

وتحت هذا العنوان سأذكر ما قاله العلماء عن تكليف الجن فى الدنيا ودخولهم فى شريعة رسول الله «محمد» ﷺ مع ذكر ما يخالف ذلك وترجيح الرأى الصائب بأدلة أراها تعزز ما رجحه العلماء فى هذا الصدد أقول :

طبقات الجن وأصنافهم:

إن الله عز وجل قد أفرد للجن والحديث عنهم سورة من سور القرآن

---

(١) من كتاب العقائد الإسلامية ، ص : ١٣٣. السيد سابق.

تسمى سورة « الجن » والذى يقرأها ويتدارسها يجد أنها قسمت الجن إلى ثلاث طبقات : صالحين ، ودون الصالحين ، وكفار ، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بنى آدم فإنها ثلاثة : أبرار، ومقتصدون ، وكفار . فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإيذاء المقتصدين، والفاسقون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه وتعالى بنى إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة فى قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾(١).

فهؤلاء الناجون منهم ، ثم ذكر الظالمين وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم، ولما كان الانس أكمل من الجن وأتم عقولا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر . ليس شئ منها للجن وهم : الرسل ، والأنبياء ، والمقربون، فليس فى الجن صنف من هؤلاء. بل حليتهم الصلاح ، وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى :﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾(٢) وبقوله :﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٣) . وقد قال الله تعالى :﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾(٤). وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وما ذهب إليه هذا الفريق من أدلة لا تصلح حجة لمذهبهم إذ أن قوله تعالى :﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ . لا يدل على أن الرجال من كل واحدة من الطائفتين بل إذا كانت الرسل من الانس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن:﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم : ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم فهذا لا يقتضى أن

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٣٠.

(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٩

(٤) سورة النساء الآية ١٦٥..

يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء. ودليل هذا قوله تعالى :﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾(١). وليس فى كل سماء قمر وقوله تعالى :﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾(٢). فالانذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الآخص ، قال تعالى :﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾(٣) . فلهؤلاء نُذُر وليسوا برسل.

قال غير واحد من السلف : الرسل من الانس ، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾(٤)..فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيا ولا إمرأة. وأما تسميته تعالى الجن رجالا فى قوله تعالى :﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾(٥). فلم يطلق عليهم الرجال بل هى تسمية مقيدة بقوله [من الجن] فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم فى الرجال عند الإطلاق كما تقول رجال من حجارة ورجال من خشب ونحوه..

هذا وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن فى النار وقد دل على ذلك القرآن فى غير موضع كقوله تعالى :﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٦) وقوله تعالى :﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾(٧) . فملؤها منه به وبكفار ذريته وقال تعالى :﴿ ادْخُلُوا

---

(١) سورة نوح الآية ١٦.

(٢) سورة الأحقاف الآية ٢٩.

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٢.

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٩.

(٥) سورة الجن الآية ٦.

(٦) سورة السجدة الآية ١٣.

(٧) سورة ص الآية ٨٥ .

فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾(١). وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم :﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ⑭ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ⑮ ﴾(٢). وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾(٣). وقال تعالى:﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ⑭ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ⑮ ﴾(٤). وجنوده ان لم يختصوا بالشياطين فهم داخلون فى عمومه وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم، فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن « محمدا » ﷺ بعث إلى الجن والانس وأنه يجب على الجن طاعته كما يجب على الإنس ، وأما قبل نبينا ﷺ نقوله تعالى :﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾(٥). يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن فى النار، وذلك انما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة، وقد دلت سورة « الرحمن » على تكليفهم بالشرائع كما كلف الانس ولهذا يقول فى أثر كل أية [فبأى آلاء ربكما تكذبان] - ومن الواضح والمؤكد أن المراد بالثقلين فى قوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان الإنس والجن فدل بذلك على أن السورة خطاب للثقلين معا ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردا منهم أعنى من الانس فانهم كانوا يقولون كلما قرأ عليهم ، [فبأى آلاء ربكما تكذبان] لا نكذب بشئ من آلائك ربنا فلك الحمد، ولما كان أبوهم هو أول من دعى الى معصية الله وعلى يده حصل كل كفر

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٨.

(٢) سورة الجن الآيتان ١٤ ، ١٥.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩.

(٤) سورة الشعراء الآيتان ٩٤ ، ٩٥ .

(٥) سورة الأعراف الاية ٣٨.

وفسوق وعصيان فهو الداعى الى النار وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادى (واثبوراه) فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون (واثبوراهم) حتى قيل أن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه ثم يصير إليهم[١] يدل لهذا المعنى ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال :(أول من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبه أو حاجبيه ويسحبها من بعده وذريته من بعده أو من خلفه وهو ينادى ياثبوراه وينادون ياثبوراهم حتى يقفوا على النار فيقول ياثبوراه ويقولون ياثبوراهم فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعو ثبورا كثيرا)[٢]، ثواب الجن وعقابهم والأقوال فى ذلك هذا وقد قال العلماء بصدد هذه القضية أقوالا متباينة منها قولان :

فقيل :(لا ثواب لهم الا النجاة من النار ثم يقول لهم كونوا ترابا مثل البهائم وهو قول أبى حنيفة حكاه ابن حزم وغيره عنه).

وأبدأ هذا الرأى بما روى عن داود بن عمرو الضبى عن ليث بن أبى سليم قال : (ثواب الجن أن يجاروا من النار ثم يقال لهم كونوا ترابا)[٣].

وقال أبو حفص بن شاهين فى كتاب العجائب والغرائب :حدثنا أبو القاسم البغوى حدثنا أبو الربيع الزهرانى عن أبى الزناد قال :اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال الله تعالى لمؤمنى الجن وسائر الأمم كونوا ترابا فحينئذ يقول الكافر: ياليتنى كنت ترابا)[٤]. وهذا هو القول الأول.

---

(١) بتصرف من كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٤١٦ لإبن القيم.

(٢) أخرجه أحمد والبزار كذا فى مجمع الزوائد جـ١٠، باب – فى أهل النار وعلامتها وأول من يكسى حللها – ص ٣٩٢ ، وأخرجه أحمد كذا فى تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٣١١.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا كذا فى الدرر المنثور جـ٦ ص ٣١٠ ، وأخرجه ابن أبى الدنيا كذا فى فتح البارى جـ٦ باب تكليف الجن وثوابهم ص ٣٤٦ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن شاهين فى كتاب العجائب والغرائب. كذا فى الدرر المنثور جـ٦ ص٣١٠، وأخرجه الطبرانى وابن مرجان كذا فى فتح البارى جـ٦ باب

أماالقول الثاني : فيرى أصحابه أنهم يثابون على الطاعة ويعاقبون على المعصية وهو قول ابن أبي ليلى ومالك وذكر ذلك مذهبا للأوزاعي، وأبي يوسف ومحمد ونقل عن الشافعي وأحمد بن حنبل فقالا : نعم لهم ثواب وعليهم عقاب وهو قول أصحابهما وأصحاب مالك وسئل ابن عباس رضي الله عنهما.هل لهم ثواب، وعليهم عقاب ؟ فقال نعم : لهم ثواب وعليهم عقاب.

وقال ابن شاهين : في غرائب السنن. حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا محمد بن صدقة الجبلاني حدثنا أبي حدثنا أبو حياة وهو شريح بن يزيد بن أرطاة بن المنذر قال : سألت ضمرة بن حبيب بن صهيب الزبيدي ، هل للجن ثواب ؟ فقال : نعم . قال أرطاة : ثم نزع ضمرة بهذه الآية:{لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان}[1].

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي حدثنا عيسى بن زياد أن يحيى بن الضريس قال : سمعت يعقوب قال : قال أبو ليلى لهم ثواب يعن للجن فوجدنا تصديق قوله في كتاب الله تعالى :{ولكل درجات مما عملوا}[2].

وقال ابن الصلاح في بعض تعاليقه : حكى عن ابن عبد الحكم صاحبه محمد بن رمضان الزيات المالكي أنه سئل عن الجن هل لهم جزاء في الآخرة على أعمالهم؟ فقال نعم والقرآن يدل على ذلك قال الله تعالى:{ولكل درجات مما عملوا}[3].

وقال أبو الشيخ : حدثنا أبو الوليد حدثنا هيثم عن حرملة قال : سئل ابن وهب وأنا أسمع هل للجن ثواب؟ وعقاب؟ قال ابن وهب قال الله تعالى

---

(١) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ في العظمة كذا في الدر المنثور جـ٦ ص١٤٨.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في الدر المنثور جـ٢ ص ٤٦، وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق أبي يوسف كذا في فتح الباري جـ٦ باب تكليف الجن وثوابهم ص ٣٤٦.

(٣) سورة الأنعام الاية ١٣٢ ، والأحقاف الآية ١٩.

وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين} .:{ولكل درجات مما عملوا }[١].

قال محمد بن رشد أبو الوليد القاضى فى كتاب الجامع للبيان والتحصيل قال : أصبغ وسمعت ابن القاسم يقول : للجن الثواب والعقاب وتلا قول الله تعالى :﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾[٢].

قال ابن رشد استدلال صحيح بين لا أشكال فيه بل هو نص على ذلك والقاسطون فى هذه الآية الجائرون عن الهدى المشركون، بدليل قوله تعالى:{وانا منا الصالحون}. قال يريد المؤمنين .{ ومنا دون ذلك }، قال : يريد غير المؤمنين. وقوله تعالى{ كنا طرائق قددا} أى مختلفين فى الكفر، يهود – ونصارى – ومجوس – وعبدة أوثان.

وقال أبو الشيخ : حدثنا جعفر بن أحمد بن فارس عن أبى سفيان عن غيث بن ثمرة قال : ما خلق الله تعالى من شئ إلا وهو يسمع زفير جهنم غدوة وعشية الا الثقلين اللذين عليهم الحساب والعقاب)[٣].

هل مؤمنوا الجن فى الجنة ؟ :

هذا وقد اختلفت آراء العلماء بالنسبة لدخول مؤمنى الجن الجنة على أربعة أقوال وانى سأوردها هنا مرجحا ما يستحق الترجيح معرجا على الرأى المرجوح بالرد عليه أقول قد اختلف العلماء فى مؤمنى الجن هل يدخلون الجنة؟ على أربعة أقوال :

---

(١) أخرجه ابو الشيخ فى العظمة كذا فى الدر المنثور جـ٣ ص ٤١ ، وكذا هو فى فتح البارى جـ٦ باب تكليف الجن وثوابهم ص ٣٤٦. والآية من سورة فصلت رقم (٢٥).

(٢) سورة الجن الآيتان ١٤ ، ١٥.

(٣) أخرجه أبوالشيخ فى العظمة كذا فى الدر المنثور جـ٥ ص ٦٤.

وأخرجه أبو الشيخ فى العظمة كذا فى فتح البارى جـ٦ باب تكليف الجن وثوابهم ص ٣٤٦.

القول الأول : انهم يدخلون الجنة وعليه جمهور العلماء وحكاه ابن حزم في الملل عن ابن أبي ليلى وابي يوسف وجمهور الناس. قال وبه نقول.

القول الثاني : انهم لا يدخلونها بل يكونون فى ربضها يراهم الانس من حيث لا يرونهم وهذا القول مأثور عن مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد حكاه ابن تيميه فى جواب ابن مرى وهو خلاف ما حكاه ابن حزم عن أبي يوسف.

القول الثالث : انهم على الأعراف .

القول الرابع : التوقف .

هذه هى آراء العلماء فى دخول مؤمنى الجن الجنة. وأنا أرجح الرأى الأول بأدلة سأذكرها، بعد أن أذكر ما استند اليه أصحاب الآراء الآخرى ثم أكر عليها بالبطلان.

أما القائلون بأن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة، بل يكونون فى ربضها وهذا هو الرأى الثانى كما اتضح لنا من خلال العرض فقد استدلوا بقوله تعالى حكاية عن الجن قالوا لقومهم :﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) - ووجه استدلالهم من الآية انهم قالوا أنلم يذكروا دخول الجنة فدل على أنهم لا يدخلونها لأن المقام مقام تبجح. والرد على هذا الرأى وما تضمنه من دليل يتضمن عدة وجوه :-

الوجه الاول: أنه لا يلزم من سكوتهم أو عدم علمهم بدخول الجنة نقيضه.

الوجه الثانى : أن الله أخبر أنهم ولوا الى قومهم منذرين فالمقام مقام انذار لا مقام بشارة.

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٣١.

الوجه الثالث : أن هذه العبارة لا تقتضى نفى دخول الجنة بدليل ما أخبر به الله تعالى عن الرسل المتقدمة أنهم كانوا ينذرون قومهم العذاب ولا يذكرون لهم دخول الجنة كماأخبر عن نوح عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾(١)- وهود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢)- وشعيب: عليه السلام : ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾(٣) ، وكذلك غيرهم وقد أجمع المسلمون على أن مؤمنهم يدخل الجنة.

الوجه الرابع : ان ذلك يستلزم دخول الجنة لأن من غفر ذنبه وأجير عن عذاب الله تعالى وهو مكلف بشرائع الرسل فانه يدخل الجنة.

وأما أصحاب القول الثالث والقائل : بأن مؤمنى الجن يكونون على الأعراف فقد ... استندوا إلى حديث ساقه الحافظ أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن الكنجرودى فى أماليه فقال : حدثنا أبو الفضل نصر بن محمد العطار أحمد بن الحسين بن الأزهر بمصر حدثنا يوسف بن يزيد القراطيسى حدثنا الوليد بن موسى حدثنا منبه عن عثمان عن عروة بن خريم عن الحسن عن أنس عن النبى ﷺ قال: مؤمنى الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألنا عن ثوابهم وعن مؤمنيهم فقال: على الأعراف وليسوا فى الجنة. فقيل ما الأعراف ؟ قال : حائط الجنة تجرى منه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار). وهذا الحديث الذى استند إليه قد قال فيه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى تغمده الله تعالى برحمته هذا منكر جدا.

أما عن القول الأول والقائل بأن مؤمنى الجن يكونون فى الجنة فأنا أميل إليه وأرجحه بوجوه متعددة

---

(١) سورة هود الآية ٢٦.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٣٥.

(٣) سورة هود الآية ٨٤.

الوجه الأول :العمومات الواردة فى آيات القرآن التى تتصل بهذا المعنى من ذلك قوله تعالى :﴿ وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾[١]. وقوله:﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[٢]. ومثل ذلك ما روى عن أبى الدرداء ﷺ عن النبى ﷺ قال:(من شهد أن لا إله إلا الله خالصا دخل الجنة)[٣]. ووجه الإستدلال من ذلك أنهم يخاطبون بعمومات الوعيد بالإجماع فكذلك يكونون مخاطبين بعمومات الوعد بطريق الأولى. ومن الحجج الساطعة فى هذا قوله تعالى فى سورة (الرحمن) { ولمن خاف مقام ربه جنتان} إلى آخر السورة . والخطاب فى هذه الآيات للجن والإنس على السواء فأمتن عليهم سبحانه بجزاء هو الجنة ووصفها وشوقهم إليها فدل ذلك على أنهم ينالون ماأمتن عليهم به إذا آمنوا. وقد جاء فى الحديث المروى عن جابر ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال النبى ﷺ : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم كنت كلما أتيت على قوله تعالى :{ فبأى آلاء ربكما تكذبان} قالوا : لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[٤] .

الوجه الثانى : ما أستدل به ابن حزم من قوله تعالى { أعدت للمتقين} وبقوله تعالى { حاكيا عنهم ومصدقا لمن قال ذلك منهم } :﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ﴾[٥] .

---

(١) سورة ق الآية ٣١.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣.

(٣) أخرجه ابن مردويه كذا فى الدر المنثور جـ٦ ص ١٤٦ .

(٤) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٩ باب تفسير سورة الرحمن ص ١٧٧. - وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة جـ٢ باب اسلام الجن ، ص ١٦.

(٥) سورة الجن الآية ١٣.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾(١).

قال ابن حزم : هذه الصفة التى ذكرت فى الآيات نعم للجن والانس عموما لا تجوز البتة أن يخص منها أحد النوعين ومن المحال الممتنع أن يكون الله تعالى يخبرنا بخبر عام وهو لا يريد إلا بعض ما أخبرنا به ثم لا يبين ذلك - هو ضد البيان الذى ضمنه الله تعالى لنا . فكيف وقد نص على أنهم من جملة المؤمنين الذين يدخلون الجنة ولابد.

الوجه الثالث :روى ابن المنذر وابن أبى حاتم فى تفسيرهما عن مبشر بن اسماعيل قال : تذاكرنا عند ضمرة بن حبيب : أيدخل الجن الجنة ؟ قال نعم وتصديق ذلك فى كتاب الله { لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان} الجن للجنيات والانس للإنسيات. قال الجمهور فدل على تأتى الطمث من الجن لأن طمث الحور العين انما يكون فى الجنة.

الوجه الرابع : من الوجوه التى تؤيد الرأى الأول ماروى عن اسحاق ابن أحمد عن عبد الله بن عمران عن معاوية عن عبد الواحد بن عبيد عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهم - قال:الخلق أربعة ، فخلق فى الجنة كلهم، وخلق فى النار كلهم، وخلقان فى الجنة والنار، فأما الذين فى الجنة كلهم فهم الملائكة، وأما الذين فى النار كلهم فالشياطين، وأما الذين فى الجنة والنار فالانس والجن لهم الثواب وعليهم العقاب»(٢).

هذه هى الأدلة التى رجحت بها الرأى الأول، ولا يعترض على هذا الرأى بما قاله البعض : قد أوعد الله تعالى من قال من الملائكة أنه اله من دونه ومع هذا لسوا فى الجنة . فالجواب من وجوه :

---

(١) سورة البينة الآيتان ٧ ، ٨.

(٢) أخرجه إبوالشيخ فى العظمة كذا فى الدر المنثور جـ٣ ص ٤٦.

الوجه الأول : ان المراد بذلك ابليس لعنه الله (قال ابن جرير) فى قوله تعالى :﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾(١) . فهذا القول لم يقله إلا إبليس لعنه الله ، دعا إلى عبادة نفسه، فنزلت هذه الأية فيه يعنى ابليس (وقال قتادة): هى خاصة بعدو الله ابليس لعنه الله . لما قال ما قال لعنه الله وحوله شيطانا رجيما قال فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين. حكى ذلك عنهما الطبرى.

الوجه الثانى : ان ذلك وان سلمنا ارادة العموم منه فهذا لا يقع من الملائكة - عليهم السلام - بل هو شرط والشرط لا يلزم وقوعه ، وهو نظير قوله تعالى :﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾(٢). والجن يوجد منهم الكافر ويدخل النار.

الوجه الثالث : ان الملائكة وان كانوا لا يجازون بالجنه إلا أنهم يجازون بنعيم يناسبهم على أصح قول العلماء)(٣).

هذه هى خلاصة ماقيل حول قضيه ثواب الجن وعقابهم ذكرتها فى ثنايا الحديث عن تكليف الجن فى الدنيا كالانس ولذلك فانى أذكر الأدلة الكثيرة التى تدل على أن الجن مكلفون بالشرائع كالانس سواء بسواء.

هل الجن مكلفون كالإنس سواء بسواء ؟:

أقول : اختلف الناس، هل هم مكلفون بالأمر والنهى؟ أم هم مضطرون على أفعالهم؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعرى فى كتاب « المقالات» له فقال :-

اختلف الناس فى الجن . هل هم مكلفون أو مضطرون ؟ فقال قائلون

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٩.

(٢) سورة الزمر الآية ٦٥.

(٣) أنظر : أكام المرجان - الباب الرابع والعشرون فى بيان دخول مؤمنى الجن الجنة ص ٥٧. للشبلى الحنفى - تصحيح وتعليق/ عبد الله محمد الصديق الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ.

من « المعتزلة» وغيرهم : هن مأمورون وقد أمروا ونهوا وهم مختارون، وزعم زاعمون وهم « الحشوية» أنهم مضطرون ، قلت : الصواب الذى عليه جمهور أهل الإسلام : أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر.

١) قال تعالى :﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(١). فأخبر تعالى أن منهم من حق عليه القول أى وجب عليه العذاب وأنه خاضر، ولا يكون ذلك الا فى أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم ثم قال بعد ذلك { ولكل درجات مما عملوا } أى فى الخير والشر يوفونا ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم وهذا ظاهر جدا فى ثوابهم وعقابهم وأن مسيئهم كما يستحق العذاب باساءته فمحسنهم يستحق الجنة بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا ، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع متعبدين بها فى الدنيا ولذلك استحقوا الدرجة بأعمالهم فى الآخرة فى الخير والشر.

٢) وقال تعالى :﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(٢). ومعنى الآية .. أن الله قيض للمشركين – أى سبب لهم قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب. وقيل عكس هذا، والمقصود أن قوله تعالى {وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ }أى وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والانس. ففى هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهى بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٨.

(٢) سورة فصلت الآية ٢٥.

٣) وقال تعالى :﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾(١). وهذا صريح فى تكليفهم ، فإن هذا القول يقال للجن فى يوم القيامة فيذكر الانس استمتاع بعضهم ببعض فى الدنيا وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والانس من طاعتهم اياهم فى معصية الله وعبادتهم لهم دون الله ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم فانهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم ويسبحون لهم بأسمائهم ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة ، وقد جمع العابدين والمعبودين..﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝ ﴾(٢). فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده، وكثير منهم ملبوس عليه فهو يعبد الشيطان ولا يشعر، ولهذا يقولون فى يوم القيامة { ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا} قال الله تعالى :{ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله } فهذا خطاب للصنفين وهو صريح فى اشتراكهم فى التكليف – كما هو صريح فى اشتراكهم فى العذاب وهو كثير فى القرآن.

٤) وقال تعالى :﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾(٣) . فلما اعترفوا بأنهم

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٨.

(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٣٠.

كانوا كافرين وشهدوا على أنفسهم بالكفر دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم.

٥) ومما يدل على تكليفهم أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾[1] .... فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

الوجه الأول: إن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه.

الوجه الثاني: إنهم ولوا إلى قومهم منذرين. والانذار هو الاعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه فعلم أنهم منذرون، لهم النار أن عصوا الرسول.

الوجه الثالث: إنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه. وأنه يهدى إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون «بموسى» وبالكتاب المنزل عليه وأن القرآن مصدق له وأنه هاد إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذى تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال مافيه، والتكليف انما يستلزم العلم والقدرة.

الوجه الرابع: إنهم قالوا لقومهم (ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به) وهذا صريح فى أنهم مكلفون مأمورون باجابة الرسول وهى تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

---

(١) سورة الأحقاف الآيات من ٢٩ : ٣٢.

الوجه الخامس : أنهم قالوا (يغفر لكم من ذنوبكم) والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

الوجه السادس: أنهم قالوا (من ذنوبكم) والذنب مخالفة الأمر.

الوجه السابع : أنهم قالوا (ويجركم من عذاب أليم) وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعٍ الله لم يجره من العذاب الأليم، وهذا صريح في تكليفهم بالشريعة الإسلامية.

الوجه الثامن : أنهم قالوا (ومن لا يجب داعي الله) وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن اجابة داعي الله منهم، وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى، كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن ، والآية لا تستلزم ولكن قوله تعالى { يا معشر والجن الإنس} الآية السابقة الذكر يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ . والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضا - وعلى هذا فيكون اختصاصه النبي ﷺ ، بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاص بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة وأيضا قال تعالى عن نبيه سليمان :﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾(١). وهذا محض التكليف.

٦) ومما يدل على تكليفهم أيضا: ما صح عن الرسول ﷺ فيما رواه علقمة - رضي الله عنه - قال قلت لابن مسعود- رضي الله عنه -: هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن أحد منكم، قال: ما صحبه أحد. ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ، ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشعاب فقلنا استطير أو أغتيل فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا اذ هو جاء من قبل حراء فقلنا يارسول الله : فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات

---

(١) سورة سبأ الآية ١٢.

بها قوم : قال أتاني داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم فسألوه الزاد فقال : لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرةٍ ، علف لدوابكم فقال رسول الله ﷺ فلا تستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم)[١].

ولو لم يكن فى هذا إلا قوله تعالى :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[٢]. وقد أخبر أنه يعذب به كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل.

٧) ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة « الرحمن» فإنه سبحانه وتعالى : ذكر خلق النوعين فى قوله تعالى {خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار} - ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم وانكار تكذيبهم بالآية وترغيبهم فى وعده وتخويفهم من وعيده وتهديدهم بقوله تعالى {سنفرغ لكم أية الثقلان} وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمهم بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذوا بالنواصى ، والأقدام . ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم وهذا كله صريح فى أنهم هم المكلفون المأمورون المثابون المعاقبون.

٨) ومما يدل على تكليفهم أيضا ما روى من حديث محمد بن المنذر عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم كنت كلما أتيت على آية (فبأى آلاء

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد ٢ ، كتاب الصلاة باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ص ٩٠ ، وأخرجه الترمذى بشرح الأحوزى حـ٩ ، باب تفسير سورة الأحقاف ص١٤١. والبعرة واحدة البعر وهى رجيع الخف والظلف كذا فى لسان العرب جـ١ ص ٣١٢ وانظر فى هذا المقام فتح المنعم شرح صحيح مسلم د/موسى شاهين جـ٤ ص ٣٣١ مطبعة الفجر الجديد.

(٢) سورة الاسراء الآية ١٥.

ربكما تكذبان) قالوا : لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[١].

وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب وعلمهم أنهم مقصودون به وقوله تعالى فى هذه السورة { سنفرغ لكم آية الثقلان}[٢] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع قال قتادة : معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها ومجئ الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه وتعالى لا يشغله شئ عن شئ، والفراغ فى اللغة على وجهين. فراغ من الشغل، لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء وأيضا فان قوله تعالى { يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان . فبأى آلاء ربكما تكذبان. يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران}[٣] صريح فى مخاطبة الثقلين « الانس والجن » فتحديه لهم فى الدنيا كما هو منطوق الآية وارسال الشواظ والنحاس عليهم فى الآخرة صريح فى تكليفهم كالانس اذ أن التحدى الذى يناط بالعذاب فى الآخرة لا يكون إلا ممن هو مكلف بذلك. إذ كيف يتحدى ويعاقب من ليس أهلا للتكليف ؟.

٩) ومما يدل على أنهم مكلفون أيضا كالانس قوله تعالى { فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)[٤] فأضاف الذنوب الى الثقلين وهذا دليل على أنهما سويا فى التكليف، فاذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها وحشرهم يوم القيامه للثواب والعقاب علم أن محسنهم فى الجنه كما أن مسيئهم فى النار وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم :﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾[٥]. وبهذه الآية احتج البخارى ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفى هو نقصان الثواب، والرهق : الزيادة فى العقوبة على ما عمل، فلا ينقص من حسناته

---

(١) أخرجه الترمذى بشرح الأحوزى جـ٩ ، باب تفسير سورة الرحمن، ص ١٧٧ ، وأخرجه البيهقى فى دلائل النبوة جـ٢ باب إسلام الجن ، ص ١٦.

(٢) سورة الرحمن الآية ٣١.

(٣) سورة الرحمن الآيات من ٣٣ :

(٤) سورة الرحمن الآية ٣٩.

(٥) سورة الجن الآية ١٣

ولا يزداد فى سيئاته، ونظير هذا قوله تعالى :﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾(١). أى لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته، وأيضا فقد قال تعالى { ولمن خاف مقام ربه جنتان. فبأى آلاء ربكما تكذبان}. وذكر مافى الجنتين الى قوله تعالى { لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان} وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنه من وجوه :

الأول : أن لفظة [من] فى الآية من صيغ العموم فنتناول كل خائف».

الثانى : أنه رتب الجـــزاء المذكـور على خـوف مـقـامـه فـدل على استحـقاقه بـــه.

الثالث : قوله عقيب هذا الوعد (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

الرابع : أنه ذكر فـى وصف نسـائهم أنهـن لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان .

وهذا والله أعلم أنه لم يطمث نساء الانس إنس قبلهم. ولا نساء الجن جن قبلهم - ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا(٣١) ﴾(٢) .

وأمثال هذه من العمومات . وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون فى العموم كما أن كافرهم يدخل فى الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم فى ايات الوعد أولى من دخول كافرهم فى آيات الوعيد. فان الوعد

---

(١) سورة طه الآية ١١٢.

(٢) سورة الكهف الآيتان ٣٠ ، ٣١ .

فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهى تغلب غضبه ، وأيضا فان دخول عاصيهم النار انما كان لمخالفة أمر الله فاذا اطاع الله أدخل الجنة ، وأيضا فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه. وأيضا فقد ثبت أنهم اذا أجابوا داعى الله غفر لهم وأجارهم من عذابه وكل من غفر له دخل الجنة ولابد، وليس فائدة المغفرة الا الفوز بالجنة والنجاة من النار. وأيضا فانه قد ثبت أن الرسول ﷺ مبعوث اليهم وأنهم مكلفون باتباعه وأن مطيعهم الله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾[١] . وقد أخبر سبحانه وتعالى عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم، أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون :﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑦ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑧ ﴾[٢]. فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم نقد وعده بالجنة – وقد ثبت فى حق مؤمنيهم الايمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم ، فتعين دخولهم الجنة.

١٠) ومما يدل على أنهم مكلفون أيضا بشريعة محمد ﷺ : ماروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وتربتها طهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة ، وبعثت الى الناس عامة وكان النبى يبعث الى قومه خاصة)[٣].

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩.

(٢) سورة غافر الآيتان ٧ ، ٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ١ – باب التيمم – ص ٩١.

قال ابن عقيـل : الجـن داخلـون فى مـسمى الناس لغة. وقال الراغـب : النـاس جـمـاعـة حـيوان ذى فكر ورؤية والجن لهم فكر ورؤية ، والناس من ناس ينوس اذا تحـرك . وقـال الجـوهرى الناس قـد يكونون من الانس ومن الجن.

١١) وأيضا مما يدل على تكليفهم ما روى عن ابن عباس «رضى الله عنهمـا» عن النبىﷺ قـال : (بعـثت الى الأحـمـر والأسـود)[1] - واخـتلف العلمـاء فى المعنى : المراد من الأحمر والأسود هنا فقيل هم العرب والعجم لأن الغالب على العجم الحمرة والبياض، وعلى العرب الأدمة والسواد، وقيل : أراد الانس والجن ، وقيل : أراد الأحمر والأبيض مطلقا فان العرب تقول إمرأة حمراء أى بيضاء ويؤيد قول من قال انهم الجن ان اطلاق السواد على الجن صحيح باعتبار مشابهتهم للأرواح ، والأرواح يقال لها أسودة واطلاق الاسودة على الجن ليس بغريب فقد روى عن ابن شـهاب قال أخبرنى أبو عثمان بن سلمة الخزاعى وكان رجلا من أهل الشام أنه سمع عبد الله بن مسعود ﷺ يقول إن رسول اللهﷺ قال لأصحابه وهو بمكة من أحب منكم أن يحضر أمر الجن فليفعل فلم يحضره أحد منهم غيرى فانطلقنا حتى اذا كنا بأعلى مكة خط برجله خطاً ثم أمرني أن أجلس فيه ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه حتى ما أسمع صوته ، ثم انطلقوا فطفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقى منهم رهط وفرغ رسول اللهﷺ مع الفجر فبرز، ثم أتانى فقال : ما فعل الرهط فقلت هم أولئك يارسول الله فأخذ عظما وروثا فأعطاهم زادا ثم نهى أن يستطيب أحد بعظم أو روث[2]. والشاهد من هذا الحديث قوله : (فغشيته

---

(١) أخرجه ابن مردويه - كذا فى الدر المنثور - جـ٥ ص ٢٣٧.

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة، جـ٢ باب ذكر إسلام الجن وما ظهر فى ذلك من أيات المصطفى صلى الله عليه وسلم - ص ١٤.

أسوده حالت بيني وبينه) فاطلاق الاسود الذى ورد فى الحديث الذى سبق على الجن غير بعيد، وهذا مما فضل به على الأنبياء أنه بعث الى الخلق كافة « الجن والانس» ، وغيره لم يرسل الا بلسان قومهﷺ وعلى سائر الأنبياء، وكذلك نقل ابن حزم وكثيرا ما تذكر العلماء فى تصانيفهم كونهﷺ مبعوثا الى الثقلين وقال : امام الحرمين في الإرشاد فى الرد على «العيسوبة» وقد علمنا ضرورة أنهﷺ ادعى كونه مبعوثا الى الثقلين وقال الشيخ ابو العباس بن تيميه : أرسل الله محمداﷺ الى جميع الثقلين الانس والجن وأوجب عليهم الايمان به وبما جاء به وطاعته. وأن يحلوا ماأحل الله ورسوله ويحرموا ما حرم الله ورسوله وأن يوجبوا ماأوجب الله ورسوله ، ويحبوا ماأحب الله ورسوله، ويكرهوا ما كره الله ورسوله ، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمدﷺ..من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب الله تعالى كما يستحق أمثاله من الكافرين الذين بعثت اليهم الرسل وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر الطوائف المسلمة. أهل السنة والجماعة وغيرهم.

فاذا تقرر هذا فقد ثبت أنهم كلفون وأنهم منقسمون إلى مسلمين وكفار وصالحين ودون ذلك فيهم فى الموازنة على نحو طبقات الانس المتقدمة إلا أنهم ليس فيهم رسول من جنسهم وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كانت لهم درجة أفضل لذكروها. فقد دل القرآن على انقسامهم إلى ثلاثة أقسام : صالحين ودونهم . وكفار وزاد عليهم الانس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين .. والله أعلم ..

إبتداء خلق الجن :

قال أبو حذيفة اسحاق بن بشر القرشي فى المبتدأ حدثنا عثمان حدثنا الأعمش عن بكير ابن الأخنس عن عبد الرحمن بن سابط القرشى عن

عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : « خلق الله تعالى بنى الجان قبل آدم بألفى سنة »[١] .

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان الجن سكان الأرض والملائكة سكان السماء وهم عمارها لكل سماء ملائكة ولكل أهل سماء صلاة وتسبيح ودعاء فكل أهل سماء فوق سمائهم أشد عبادة وأكثر دعاءً وصلاة وتسبيحا من الذين تحتهم فكانت الملائكة عمار السماء والجن عمار الأرض، وقال بعضهم عمروا الأرض ألفى سنة ، وقال بعضهم أربعين سنة . وقال اسحاق : قال أبو روق عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : خلق الله سوميا أبا الجن، وهو الذى خلق من مارج من نار قال تبارك وتعالى {تمنى قال : أتمنى أن نرى ولا نرى . وأن نغيب فى الثرى . وأن يصير كهلنا شابا فأعطى ذلك ، فهم يرون ولا يرون واذا ماتوا غيبوا فى الثرى ولا يموت كهلهم حتى يعود شابا – يعنى مثل الصبى يرد الى أرزل العمر قال : وخلق الله تعالى آدم فقيل له تمنى قال : فتمنى الجبل فأعطى الجبل.

وقال اسحاق : ان الله تعالى خلق الجن وأمرهم بعمارة الأرض فكانوا يعبدون الله جل ثناؤه حتى طال بهم الأمد فعصوا الله عز وجل وسفكوا الدماء وكان فيهم ملك يقال : يوسف فقتلوه. فأرسل الله تعالى عليهم جند من الملائكة كانوا فى السماء الدنيا. كان يقال لذلك الجند« الجن» فيهم ابليس وهو على أربعة آلاف نهبطوا فأتوا بنى الجان من الأرض وأجلوهم عنها وألحقوهم بجزائر البحر وسكن ابليس والجند الذين كانوا معه الأرض فهان عليهم العمل وأحبوا المكث فيها.

وقال ابن أبى ثابت أو غيره :ان ابليس وجنوده أقاموا فى الأرض قبل آدم أربعين سنة.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم – كذا فى تفسير ابن كثير ، جـ١ ص ٧٠.

وقال مجاهد : ابليس كان على سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض وكان مكتوباً فى الرفيع عند الله تعالى أنه قد سبق فى علمه أنه سيجعل خليفة فى الأرض فوجد ذلك ابليس فقرأه وأبصره دون الملائكة فلما ذكر الله عز وجل للملائكة أمر آدم عليه السلام أخبر ابليس الملائكة أن هذا الخليفة الذى يكون تسجد له الملائكة وأسر ابليس فى نفسه أنه لن يسجد له أبدا. وأخبر الملائكة أن الله تعالى يخلق خليفة يسفك الدماء وأنه سيأمر الملائكة فيسجدون لذلك الخليفة قال:فلما قال الله عز وجل:{إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة } حفظوا ما كان قال لهم إبليس قبل ذلك فقالوا{أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالاتعلمون} .

وقال الضحاك : عن ابن عباس رضي الله عنهما (لما أراد الله عز وجل أن يخلق آدم قال للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة قالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها وذلك أنهم أحبوا المكث فى الأرض واستخفوا العبادة فيها. قال ابن عباس : لم يعلموا الغيب لكنهم اعتبروا أعمال ولد آدم بأعمال الجن فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكت الجن وذلك أنهم قتلوا ملكا لهم يقال له يوسف.

وقال الضحاك أيضا : عن ابن عباس رضي الله عنه : كان الله تعالى بعث اليهم رسولا فأمرهم بطاعته وأن لا يشركوا به شيئا ، وأن لا يقتل بعضهم بعضا. فلما تركوا طاعة الله تعالى وقتلوا قالت الملائكة : أتجعل فيها الآية ... فرد عليهم قولهم وأخبرهم أنهم لم يبلغوا عنصر علم الله تعالى فى آدم عليه السلام فخافت الملائكة أن يكونوا قد عصوا الله تعالى فيما ردوا عليه فلاذوا بالعرش يطوفون به ويستغفرون من ذلك - ويقول الله عز وجل :{ إنى أعلم مالا تعلمون } وأعلم أن آدم هو خليفة الأرض وولده عمارها وسكانها وأنتم عمار السماء.

وفى هذا الرأى نظر ، لأن الرسل لم تكن من الجن بل يكونون من الإنس .

وقال ابن جريج : قال الله تعالى :{ إنى جاعل فى الأرض خليفة} فتكلموا يعنى بما هو كائن من خلق آدم عليه السلام. وقال الله تعالى لهم :{ انى أعلم مالا تعلمون . وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون } فأما الذين كتموا فلما قال الله تعالى : { انى جاعل فى الأرض خليفة } فرجعوا بما قد سمعت يخلق الله تعالى ما شاء فوالله لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أكرم عليه وأعلم منه فلما أسجدهم لآدم قالوا هو أكرم على الله تعالى منا غير أنا أعلم منه فلما أنبأهم بأسمائهم علموا أن آدم عليه السلام أعلم منهم»)(١) ،(٢) .

هل أبليس من الملائكة أو من الجن ؟ :

هذه قضية هامة جديرة بالبحث والدراسة لا سيما وأنا بصدد الحديث عن عالم الجن وخلقهم وخلق آدم وامتناع ابليس من السجود له، وقبل أن أذكر حجج ابليس التى افتعلها فى إبائه عن السجود لآدم ، يحق للقارئ أن يعرف ماهية ابليس والعلماء فى هذه القضيه تشعبت آراؤهم الا أنها تنحصر فى عنصرين. هل هو من الملائكة؟ أم من الجن؟ وقصد القائلين من أنه من الجن العنصر المقابل للإنس، ولكن الذى يدور بخاطرى وسيتجلى من خلال هذا العرض أن الجن الذى يقصد به أو منه خلق ابليس ليس كذلك. وعلى هذا فكما قلت أن هناك رأيان للعلماء رأى يقول :

أنه من الملائكة ، وآخر يقول : انه من الجن ، وأنا أميل الى الرأى القائل بأنه من الملائكة لما استندت اليه من أدلة :

قال أبو الوفى على بن عقيل فى كتاب الإرشاد : ان قيل لك : ابليس كان من الملائكة أو لا ؟ فقل : من الملائكة خلافا لبعض أصحابنا. وبهذا قال أبو بكر عبد العزيز : والدليل على هذا :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٧٤.

(٢) بتصرف من (أكام المرجان) ص ٩ .

١) أن البارى سبحانه وتعالى قال :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾[1] . والاستثناء لا يكون من غير الجنس هذا هو المشهور فى لغة العرب بدلالة أنه لايحسن قول القائل: هاجر المسلمون الا أبا جهل لأن أبا جهل ليس من المسلمين. ولا يحسن أن يقال : من ساكنى المدينه رأيت المسلمين إلا أبا جهل - ولا يعترض على هذا بقول القائل:

وبلدة ليس بها أنيس ... الا اليعافير وإلا العيس

فالمراد باليعافير والعيس من جنس ما يؤنس به وانما استثناهما من الايناس لا من غير ذلك لأنه لم يجر لغير الأنيس ذكر لآدمى ولا جنى ولا غيرذلك.

٢) والذى يدل أيضا على أن ابليس من الملائكة : أنه لو لم يكن منهم لما حسن لومه وسبه بامتناعه. لأن له أن يقول : ماأمرت . وقد كان مناظرا على مادو أقل من هذا فلماعدل الى قوله أنا خير منه : علم أنه انصرف الأمر اليه، ولهذا لو نادى السلطان بحضور الوزراء فامتنع الخفراء لم يحسن لومهم لأنهم لم يدخلوا تحت الأمر بالحضور فان اعترض معترض وقال : لقد خصه الله باسمه فقال : { إِلَّا ابليسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ} أجيب عن هذا الاعتراض بأن الجن نوع من الملائكة يقال لهم الجن كما يقال : الكروبيون ، والروحانيون، والخزنة والزبانية ، وهم كلهم جنس واحد يشتمل على أنواع كالآدميين فهذا عربى وذاك زنجى وذلك عجمى ، فلو قال قائل : أمرت عبيدى كلهم بالطاعه فأطاعوا إلا فلانا فانه كان من الزنج فعصانى ، لم يدل على أن عبده الزنجى لا يشارك عبيده فى الجنسية وأن فارقهم فى النوعية.

٣) والذى يدل أيضا على أن ابليس من الملائكة : ما حكى عن أبى يعلى قال : رأيت فى تعليقات أبى اسحاق بن شاقلا يقول : سمعت الشيخ

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٤.

يعنى أبا بكر وقد سئل عن ابليس أمن الملائكة ؟ فقال : أمر بالسجود فلولا آن ابليس منهم ما كان مأمورا.

قال أبو اسحاق فقلت : أجمعنا على أن الملائكة لا تتناكح ولا لها ذرية وقد كان لابليس ذرية فدل على أنه من غيرها. وظاهر كلام أبى بكر غبد العزيز أنه من جمله الملائكة وقد صرح أبو بكر فى كتاب التفسير . أنه من الملائكة وحكى الإختلاف فيه . وأنه لو لم يكن من الملائكة لخرج عن ان يكون مأمورا بالسجود لأن السجود انصرف الى الملائكة . وقد أجمعنا على انه كان مأمورا به وهو قول الأكثر من المفسرين كابن عباس وغيره، وقول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وسعيد بن المسيب وآخرون. وبه قال جماعة من المتكلمين. قال أبو القاسم الأنصارى وهو مذهب شيخنا أبى الحسن . وظاهر كلام أبى اسحاق انه ليس من الملائكة وأنه من الجن . وبهذا احتج من يقول انه ليس من الملائكة وهو الفريق الثانى . واحتج أيضا صاحب هذا الرأى بظاهر النصوص القرآنيه من مثل قوله تعالى :﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾(١). ووجه احتجاج من يحتج بكلام أبى اسحاق لأنه اعترض على أبى بكر بالدليل وهو قول أبى الحسن البصرى.

قال الحسن البصرى : لم يكن ابليس من الملائكة طرفة عين . قال أبو يعلى : فان قيل فقد قال تعالى { إلا إبليس كان من الجن} قال : قيل هذا اخبار عما كان مستترا فيه من معصية الله عز وجل ومخالفة أمره لأن اشتقاق الجن من الاستتار ومنه قوله فى الجنين (جنين) لاستتاره، فى بطن أمه، ومنه سمى المجنون مجنوناً لأنه قد ستر بالخبال فى عقله وجواب آخر نقله أبو بكر فى كتابه التفسير عن ابن عباس وابن مسعود- رضى الله عنهما - : جعل ابليس على ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال

---

(١) سورة الكهف الآية :

لهم الجن وانما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان ابليس مع ملكه خازنا، وأما ما أحتج به أبو اسحاق من أن ابليس له الشهوة فقد حدثت له الشهوة بعد أن محى من ديوانهم كما حدثت الشهوة فى هاروت وماروت بعد أن أهبطا الى الأرض. وقيل انهما هويا إمرأة وقد كانا ملكين واذا ثبت أنه من الملائكة وأنه محى من ديوانهم لما كان منه من العصيان وكذلك هاروت وماروت . قلت (وقد ذكر الطبرى فى تاريخه قول ابن عباس فقال : حدثنا القاسم بن الحسن حدثنا الحسين بن داود حدثنى حجاج عن ابن جريج قال : قال ابن عباس : كان ابليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازنا على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا . وكان له سلطان الأرض)[١] . وبه عن ابن جريج عن صالح مولى التوأمة وشريك بن أبى نمر أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال : (ان من الملائكة قبيلة من الجن كان ابليس منها وكان يسوس ما بين السماء والأرض)[٢] .

وروى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ جعل ابليس ملك سماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وانما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان ابليس مع ملكه خازنا)[٣].وقال أبوكريب حدثنا بشر بن عمار عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس ﷺ قال :(كان ابليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة قال وكان اسمه الحارث يعنى بالعربية قال : وكان خازنا من خزان الجنة قال وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى قال: وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت قال : وخلق الانسان من طين. فأول من سكن فى الأرض بنو الجن فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ١ ص ٧٧.

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ١ ص ٧٧. وكذا الدر المنثور جـ١ ص ٤٥.

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ٣ ص ٨٩.

بعضا فبعث الله تعالى اليهم ابليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحار وأطراف الجبال. فلما فعل ابليس ذلك اغتر فى نفسه وقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد . قال : فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم يطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه)[1].

قلت : ويدل على قول ابن شاقلا ماروى عن ابن شهاب وأنه سئل عن ابليس قال : ابليس من الجن وهو أبو الجن كما أن آدم من الناس وهو أبو الناس)[2].

إدعاء إبليس الخيرية وإبائه عن السجود . إدعاء باطل :

إن هذه القضية أعنى آباء ابليس وامتناعه عن أن يسجد لأبى البشر آدم عليه السلام قضية جديرة بأن تذكر هنا وذكرها مرتبط تماما بالموضوع الذى سبقها : وهو حقيقة ابليس. والمتصفح لآيات القرآن يجد أن الفرية التى اعتمد عليها ابليس من كونه أفضل من آدم لأنه خلق من نار وآدم خلق من طين. هذه الفرية داحضة من أساسها وذلك لما يعتورها من وجوه سأذكرها كالتدليل على بطلانها.

إعلم .. أن هذه الشبهة التى ذكرها ابليس انما ذكرها على سبيل التعنت والا فامتناعه من السجود لآدم انما كان عن كبر وكفر ومجرد اباء وحسد ومع ذلك فما أبداه من الشبهة فهو داحض لأنه رتب على ذلك انه خير من آدم لكونه خلق من نار وآدم خلق من طين ورتب على هذا أنه لا يحسن منه الخضوع لمن دونه ومن هو خير منه وهذا باطل من وجوه :

وجوه الرد على ابليس فى ادعائه الخيرية :

الأول : أن النار طبعها الفساد واتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب .

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ١ ص ٧٧. وكذا الدر المنثور جـ١ ص ٤٥.

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ١ ص ٧٧.

الثاني : أن النار طبعها الخفة ، والطيش ، والحدة ، والتراب طبعه الرزانه والسكون والثبات .

الثالث : أن التراب يتكون فيه . ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ، ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ومساكنهم والنار لا يكون فيها شئ من ذلك.

الرابع : أن التراب ضرورى للحيوان لا يستغنى عنه البته ولا عما يتكون فيه ومنه والنار يستغنى عنها الحيوان البهيم مطلقا وقد يستغنى عنها الانسان الأيام والشهور فلا تدعوه اليها ضرورة.

الخامس : أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدى ما استودعته فيه اليك مضاعفا، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر.

السادس : أن النار لا تقوم بنفسها بل هى مفتقرة الى محل تقوم به يكون حاملا لها والتراب لا يفتقر الى حامل ، فالتراب أكمل منها لغناه وافتقارها .

السابع : أن النار مفتقرة الى التراب وليس التراب مفتقر اليها فان المحل الذى تقوم به النار لا يكون إلا متكونا أو فيه التراب فهى الفقيرة إلى التراب وهو الغنى عنها.

الثامن : أن المادة الابليسية هى المارج من النار وهو ضعيف تتلاعب به الأهوية فيميل معها كيفما مالت ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره . ولما كانت المادة الآدمية هى التراب وهو قوى لا يذهب مع الهواء أينما ذهب ، قهره وأسره ، ورجع الى ربه فأجتباه واصطفاه وكان الهواء الذى مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال، فزال ، وكان الثبات والرزانه أصلا له فعاد اليه وكان ابليس بالعكس من ذلك فعاد كل منهما الى أصله

عاد آدم إلى أصله الطيب الشريف ، واللعين الى أصله الردى.

التاسع : ان النار وان حصل منها بعض المنفعة والمتاع فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل ، وأما التراب ، فالخيريه والبركة تكمن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره ، وثمرته، فأين أحدهما من الآخر.

العاشر : إن الله تعالى أكثر ذكرها في كتابه وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفراشا. وبساطا. وقرارا أو كفاتاً للأحياء والأموات ودعى عباده الى التفكير فيها والنظر فى آياتها وعجائبها ومأودع فيها ، ولم يذكر النار الافى معرض العقوبة والتخويف والعذاب الا فى موضعين ذكرها فيهما بأن فيها منفعة للناس ومتاعا لهم ولمسافريهم، الأول من ذلك قوله تعالى فى معرض الانعام على خلقه والتذكير بالبعث :﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[1] .

الثانى للذى هو متاع للمسافر وتذكيره بنار الآخرة قوله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) ﴾[2] . فأين هذا من أوصاف الأرض فى القرآن ؟.

الحادي عشر : ان الله تعالى : وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر أنه بارك فيها عموما فقال تعالى :﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

---

(١) سورة يس الآية ٨٠.

(٢) سورة الواقعة الآيات من ٧١ : ٧٣

لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[(١)] . فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فمن ذلك قوله تعالى :﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴿٧١﴾ ﴾[(٢)]. وأما النار فلم يعبر عنها أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهبة للبركات ماحقة لها فأين المبارك فى نفسه ، المبارك فيما وضع فيه ، الى مزيل البركة وما حقها.

الثاني عشر : ان الله تعالى جعل الأرض محلا لبيوته التى يذكر فيها اسمه ويسبح له فيها بالغدو والاصال عموما وبيته الحرام الذى جعله قياما للناس مباركا وهدى للعالمين خصوصا فلو لم يكن فى الأرض الا بيته لكفاها ذلك شرفا وفخرا على النار.

الثالث عشر : ان الله تعالى أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجبال والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يودع فى النار شيئا منها ، فأى روضه وجدت فى النار ؟ أو جنة أو معدن أو صورة أو عين نضاخة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة ؟.

الرابع عشر : ان غايه النار وضعت خادمة لما فى الأرض فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء . فهى تابعه لها خادمه فقط اذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها. واذا احتاجت اليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه.

الخامس عشر : ان اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطين ترابا ممتزجا بماء فأنكره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذى جعل الله تعالى منه كل شئ حيا، والتراب الذى جعله خزانة المنافع

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٧١ .

والنعم ولم يجئ من النار من المنافع وأنواع الأمتعة . فلو تجاوز نظره صورة الطين الى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل ، ثم لو سلم بطريق الفرض والباطل أن النار خير من الطين لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرا من الطين فإن القادر على كل شئ يخلق من المادة المفضولة من هذا خير ممن خلقه من المادة الفاضلة. فالاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر عنها الى كمال الصورة ونهاية الخلقة.

هذه الوجوه التى ذكرت والتى من خلالها نرى أن الطين أفضل من النار ، ربما يتصور من يتصفح هذه الوجوه أن فيها تعسفا وقد يكون له نصيب من الصواب لكنى أقول له دع هذه الوجوه جانبا فان هناك ما هو أقوى من ذلك كله وهو :-

أن القضية ليست مبنية على النار والطين . وإنما هى أسمى من ذلك فهى قضية بنيت على أعلى وأدنى ، أو بعبارة أخرى ، أمر ومأمور. فالآمر هو الله تعالى . والمأمور ابليس والذى أمر ابليس أن يسجد له هو آدم وآدم نفخ فيه من روح الله فناله الشرف من قبل من خلقه ولذلك نرى الله عز وجل يقول لملائكته كما حكى القرآن عنه :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]. فآدم قبل أن تنفخ فيه الروح ماهو إلا حفنة من تراب لكن الشرف الذى ناله من قبيل نفخ الله فيه من روحه فكان لزاما على اللعين أن يمتثل لأمر الله خالقه فالمجال ليس مجال مناقشة وانما هو مجال امتثال وتكليف لكن كما يبدو لنا من خلال هذا العرض ومن بدء أول وجه فيه أن المقام من جانب ابليس مقام تعنت وكبر وحسد اذا فماستند إليه ابليس فرية داحضة .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٢٨ ، ٢٩.

الحكمة من خلق ابليس ؟ :

لسائل يسأل ونحن بصدد الحديث عن ابليس وكيده لابن آدم وادعائه الأفضلية عنه أن يقول :

ما الحكمة من خلق ابليس الذى هو عنوان على الشر ويدعوالى محادة لله ومحاربة تعاليمه ؟

وقد أجاب عن هذا التساؤل بعض العلماء فقال :

١) إنه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التى هى أخبث الذوات وسبب كل شر ، فى مقابلة ذات جبريل التى هى من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهى سبب كل خير فتبارك الله خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته فى خلق الليل والنهار ، والدواء والداء والحياة والموت ، والحسن والقبح ، والخير والشر ، وذلك من أولى الأدلة على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه فانه خلق هذه المتضادات ، وقابل بعضها ببعض وجعلها مجال تصرفه وتدبيره ، فخلو العالم عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

٢) ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار والمنتقم والعدل ، والضار، والشديد العقاب ، والسريع الحساب، وذى البطش الشديد. والخافض ، والرافع ، والمعز، والمذل ، وأن هذه الأسماء والأفعال كمالات لابد من وجود متعادلها، ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء .

٣) ومنها ظهور أسمائه المتضمنة كلأه وعفوه . ومغفرته. وستره. وتجاوزه عن حقه . وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المقتضية الى ظهور آثار هذه الأشياء لتعطلت هذه الحكم والفوائد

وقد أشار النبى ﷺ بقوله :(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم)(١).

٤) ومنها ظهور آثار اسماء الحكمة والخبرة ، فانه الحكيم الخبير الذى يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشئ فى غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه ، وتمام حكمته ، فهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكر له جميع صنعه ، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ، فلو قرر عدم الأسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة، ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذى هو أعظم من الشر الذى فى تلك الأسباب ، وهذا كالشمس ، والمطر، والرياح، التى فيها من المصالح ماهو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

٥) ومنها حصول الطاعات المتنوعة التى لولا خلق إبليس لما حصلت فإن طاعة الجهاد من أحب أنواع الطاعات، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه الطاعة ، وتوابعها من الموالاة لله تعالى والمعاداة فيه. وطاعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومخالفة الهوى وإيثار محبة الله تعالى والتوبة ، والاستغفار. والصبر. والاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ، ويعصمه من كيده وأذاه ، الى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن إدراكها.

للجن أنواع وصور يتشكلون بها:

ربما سأل سائل وقال : ما أصناف الجن ؟ وما صورهم وأشكالهم التى يتشكلون بها حتى يكون للإنسان معرفة بهم فيحصن نفسه من شرورهم ؟

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب بالإستغفار ، ص٩٢ه ، وأخرجه أحمد فى مسنده جـ٥ ص ١٨٧،

والجواب عن ذلك كله يتجلى واضحا فى ثنايا هذا العرض ..

روى عن الحسن بن على بن الأسود العجلى قال : حدثنا أبو شامة حدثنا يزيد بن سفيان أبو فروة الرهاوى حدثنا أبو منيب الحمصى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (خلق الله تعالى الجن ثلاثة أصناف . حيات وعقارب وخشاش الأرض. وصنف كالريح فى الهواء وصنف عليهم الحساب والعقاب، وخلق الله تعالى الانس ثلاثة أصناف ، صنف كالبهائم ثم قال الله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها } وصنف أجسادهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين ، وصنف فى ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله)[١].

ولا شك أن الجن يتطورون ويتشكلون فى صور الانس والبهائم فيتصورون فى صور الحيات والعقارب ، وفى صور الابل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير وفى صور الطير وفى صور بنى آدم كما أتى الشيطان قريشا فى صورة سراقة ابن مالك بن جشعم لما أرادوا الخروج إلى بدر قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢]. وكما روى أنه تصور فى صورة شيخ نجدى لما اجتمعوا بدار الندوة للتشاور فى أمر الرسول ﷺ . هل يقتلوه . أو يحبسوه. أو يخرجوه كما قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن أنعم كذا فى الدر المنثور جـ٣ ص ٤٦ ، وأخرجه ابن أبى الدنيا عن أبى الدرداء ، كذا فى فتح البارى جـ٦ باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ص ٣٤٥.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٨ .

(٣) سورة الأنفال الآية -

وقد روى عن صيفى مولى أبى السائب عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه يرفعه : ان بالمدينة نفرا من الجن قد أسلموا فإذا رأيتم من هذه الهوام شيئا فأذنوه ثلاثا فان بدا لكم فاقتلوه)[١].

قال القاضى أبو يعلى : ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقتهم والانتقال فى الصور بأنفسهم وإنما يجوز أن يعلمهم الله تعالى كلمات وضربا من ضروب الأفعال اذا فعله وتكلم به نقله الله تعالى من صورة الى صورة فيقال : انه قادر على التصوير والتخييل على معنى أنه قادر على قول اذا قاله وفعله نقله الله تعالى عن صورته الى صورة أخرى بجرى العادة. وأما أنه يصور نفسه فذلك محال لأن انتقالها من صورة إلى صورة إنما يكون بنقض البنية. وتفريق الأجزاء وإذا انتقضت بطلت الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة وكيف تنقل نفسها، والقول فى تشكل الملائكة مثل ذلك (قال) والذى روى أن أبليس تصور فى صورة سراقة بن مالك وأن جبريل تمثل فى صورة دحية الكلبى، وقوله تعالى :﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا ﴾[٢]. محمول على ما ذكر وهو أنه أقدره الله تعالى على قول قاله فنقله الله تعالى من صورته الى صورة أخرى (قلت) روى عن أبى خيثمة عن هشيم الشيبانى عن يسير بن عمرو قال : ذكرنا الغيلان عند عمر فقال : إن أحدا لا يستطيع أن يتغير عن صورته التى خلقه الله تعالى عليها ولكن لهم سحرة كسحرتكم فاذا رأيتم ذلك فأذنوا)[٣].

قال أبوبكر محمد بن محمد بن سليمان البافندى : حدثنا أحمد بن بكار بن أبى ميمونه . حدثنا غياث عن حصيف عن مجاهد قال : كان

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد(٥) كتاب - قتل الحيات وغيرها - باب - قتل الحيات وغيرها . ص ٩٣ .

(٢) سورة مريم الآية ١٧.

(٣) أخرجه عبد الرازق فى جامعه وابن أبى شيبه كذا فى كنز العمال جـ٦ باب خلق الجن ص ٨٤

الشيطان لا يزال يتزيا لى إذا قمت الى الصلاة فى صنورة بن عباس قال : فذكرت قول ابن عباس فجعلت عندى سكينا فتزيا لى فحملت عليه فطعنته ، فوقع وله وجبة فلم أره بعد ذلك)(١).

وذكر العتبى أن ابن الزبير قد رأى رجلا طوله شبران على برزعة رحله فقال من أنت ؟ قال أذب قال : ومن أذب ؟ قال رجل من الجن فضربه على رأسه بعود السوط حتي ناص، أى هرب .

هذا وقد قال كثير من الناس :إن الملائكة والجن انما توصف بأنها قادرة على التمثيل والتصور، علي معنى أنها تقدر على تخييل وفعل مايتوهم عنده انتقالها عن صورها فيدرك الراءون ذلك تخييلا ويظنون أن المرئى ملك أوشيطان وانما ذلك خيالات واعتقادات يفعلها الله تعالى عند فعل البشر للناظرين، فأما أن ينتقل أحد من صورته على الحقيقة الى غيرها فذلك محال.

هذا وقد رأت (المعتزلة) أن الجن أجسام رقاق ولرقتها لا نراها وعندهم يجوز أن يكثف الله أجسام الجن فى أزمنة الأنبياء دون غيرها من الأزمنة وأن يقويهم بخلاف ماهم عليه غير أزمانهم.

قال القاضى عبد الجبار: ويدل على ذلك مافى القرآن الكريم من قوله تعالى فى قصة سليمان ابن داود عليهما السلام أنه كشفهم له حتى كان الناس يرونهم وقواهم حتى كانوا يعملون له الأعمال الشاقة من المحاريث والتماثيل والجفان والقدور الراسيات وكونهم مقرنين فى الأصفاد لا يكونون إلا أجساما كثيفة.

قال أبو القاسم الأنصارى فى المقنع فى شرح الإرشاد : واعلم أن الله تعالى باين بين الملائكة والجن والإنس فى الصور والأشكال كما باين

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم كذا فى الدر المنثور جـ٢ ص ١٨٤.

بينهم فى الصفات فمن حصل على بنية الإنسان ظاهرا أو باطنا فهو إنسان . والإنسـان إسم لهذه الجملة التى نشاهدها كما قال الله تعالى :﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾[1] .

قال أهل التفسير : خلقنا فيه الروح والحياة وقال تعالى :﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[2] . وقال تعالى:﴿ قتل الإنسان ما أكفره (١٧) من أي شيء خلقه (١٨) من نطفة خلقه فقدره (١٩) ثم السبيل يسره (٢٠) ثم أماته فأقبره (٢١) ثم إذا شاء أنشره ﴾[3]. وهذه الآية وأمثالها تدل على بطلان قول من قال : الإنسان ، هو الروح ، لأن الروح لم تخلق من الطين ولابد من النطفة وإنها لا تموت على زعم قائلها ولا تقبر ولا تنشر ، فإن قلب الله تعالى الملك إلى بنية الانسان ظاهرا وباطنا . خرج عن (كونه ملكا ، وكذلك لو قلب الشيطان أو الملك الى صورة الانسان ظاهرا صار إنسانا ، ومن مسخ من بنى إسرائيل قردة .هل خرجوا عن كونهم ناسا بالمسخ وقلب الصورة الظاهرة، أنه يخرج على القولين . ومما يدل على أن صورة الملك مخالفة لصورة الانسان قوله تعالى :﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ﴾[4]. أى جعلناه على صورة البشر ظاهرا .

*****

(١) سورة المؤمنون الآية ١٢.

(٢) سورة الإنسان الآية ٢ .

(٣) سورة عبس الآيات من ١٧ : ٢٢.

(٤) سورة الأنعام الآية ٩.

مساكـن الجـن :

وقد يدور بالأذهان سؤال فحواه : قد عرفنا حقيقة الجن وأنواعهم وصورهم التى يتشكلون عليهاأما يحق لنا أن نعرف مساكن الجن حتى نتحرز منها ؟

والجواب على هذا الخاطر يتكشف فى ضوء هذا العرض..

روى عن محمد بن أحمد بن معدان .حدثنا إبراهيم الجوهرى حدثنا عبد الله بن كثير حدثنا كثير بن عبد الله ابن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده عن بلال بن الحارث قال : نزلنا مع رسول اللهﷺ فى بعض أسفاره فخرج لحاجته وكان إذا خرج لحاجته يبعد فأتيته بإداوة من ماء فانطلق فسمعت عنده خصومة رجال ولغطا ما سمعت أحدا من ألسنتهم ، قال اختصم الجن المسلمون والجن المشركون فسألونى أن أسكنهم ، فأسكنت المسلمين الجلس وأسكنت المشركين الغور. قال الراوى عبد الله بن كثير : قلت لكثير ما الجلس ؟ وما الغور؟ قال : الجلس : القرى والجبال . والغور : ما بين الجبال والبحار وهى يقال لها : الجنوب قال كثير : وما رأيت أحدا أصيب بالجلس الا سلم ، ولا أصيب بالغور الا لم يكد يسلم)[1].

قال الزمخشرى : فى ربيع الأبرار : تقول الأعراب ربما نزلنا بجمع كثير ورأينا خياما وناسا ثم فقدناهم من ساعتنا يعتقدون أنهم الجن وأن تلك خيامهم وقبابهم روى مالك فى الموطأ : أنه بلغه أن عمر بن الخطاب أراد الخروج إلى العراق فقال له كعب الأحبار : لا تخرج يا أمير المؤمنين فإن بها تسعة أعشار السحر أو الشر وفيها فسقة الجن وبها الداء العضال.

وقال أبو بكر بن عبيد فى مكايد الشيطان : حدثنا القاسم بن هاشم

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى العظمه والطبرانى فى الكبير - كذا فى الفتح الكبير - جـ١ ص ٥٦ ، وأخرجه الطبرانى فى الكبير كذا فى كنز العمال جـ٦ - باب خلق الجن ص ٨٤ .

حدثنا هشام بن عمار حدثنا عبد العزيز بن الوليد بن أبى السائب القرشى عن أبيه عن يزيد ابن جابر : ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفى سقف بيتهم من الجن من المسلمين اذا وضع غداؤهم نزلوا فتغذوا معهم وإذا وضع عشاؤهم نزلوا فتعشوا معهم يدفع الله بهم عنهم)[١].

وروى عن زيد بن أرقم عن رسولﷺ الله قال : ان هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث)[٢].

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول اللهﷺ قال : (هذه محتضرة فإذا دخل أحدكم الخلاء فليقل باسم الله)[٣]. وروى أيضا عن أنس رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال :(إن هذه الحشوش محتضرة فإذا دخلها أحدكم فليقل : اللهم انى أعوذ بك من الخبث والخبائث)[٤].

وقوله فى الأحاديث محتضرة : معناه : يحضرها الجن ، فإذا قال المخلى : هذا الدعاء إحتجب عن أبصارهم فلا يرون عورته ، والذى يدل على اطلاع الجن على عورات الناس عند إتيان الخلاء ما روى عن على بن أبى طالب رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال :(ستر مابين أعين الجن وعورات أمتى إذا دخل أحدكم الخلاء أن يقول باسم الله)[٥]. وروى عن أنس رضي الله عنه : أن رسول

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم بشرح النووى مجلد (٤) كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب - وأحكامها - ص ٧٠٢ .

(٢) أخرجه ابن حبان فى كتابه الاحسان جـ٢ - ذكر ما يقول المرء عند دخوله الحشاش -باب الإستطابة ص٤٩٠

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه جـ٢ ذكر ما يقول المرء عند التعوذ وعند ارادته دخول الخلاء - باب الاستطابة ص ٤٩٠.

(٤) أخرجه ابن حبان فى صحيحه جـ٢ ذكر الأمر بالاستعاذة بالله جل وعلا من أراد دخوله الخلاء من الخبث والخبائث - باب الاستطابة ص ٤٩١.

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده والترمذى وابن ماجه كذا فى الفتح الكبير جـ٢ ص ١٥٦.

الله ﷺ إذا دخل الخلاء قال : اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث)[١].
وروى أيضا برواية أخرى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول : باسم الله إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث)[٢].

هذا ويغلب وجود الشياطين فى مواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والقمامات ، والشيوخ الذين قرن بهم الشياطين وتكون أحوالهم شيطانيه لا رحمانية يأوون كثيرا إلى هذه الأماكن التى هى مأوى الشياطين وقد جاءت الآثار بالنهى عن الصلاة فيها لأنها مأوى الشياطين ، والفقهاء منهم من علل النهى بكونها منطقة النجاسة ومنهم من قال أنه تعبد لا يعقل معناه ، والصحيح أن العلة فى الحمام وأعطان الإبل ونحو ذلك أنها مأوى الشياطين وفى المقبرة أن ذلك زريعة الى الشرك مع أن المقابر تكون أيضا مأوى الشياطين والمقصود أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعى ولهم أحيانا مكاشفات ولهم تأثيرات يأوون كثيرا إلى مواضع الشياطين التى نهى عن الصلاة فيها لأن الشياطين تنزل عليهم فيها وتخاطبهم ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل فى الأصنام وتكلم عابدى الأصنام وتفتنهم فى بعض المطالب كما تفتن السحرة ، وكما يفتن عباد الأصنام وعباد الأشمس والقمر والكواكب اذا عبدوها بالعبادات التى يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضى بعض حوائجهم إما بقتل بعضهم أو إمراضه ، وإما جلب بعض من يهوونه أو إحضار بعض المال ولكن الضرر الذى يحصل لهم بذلك أعظم من النفع بل قد يكون أضعاف أضعاف النفع .

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (١) كتاب الحيض - باب ما يقال عن دخول الخلاء - ص٦٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبى شيبه كذا فى الكنز جـ٧ باب التخلى وآدابه ص ٢٧.

ما يدعو إليه إبليس إبن آدم ليوسوس له ويفتنه :

وبعد هذا العرض لعالم الجن فى هذه الرحلة غير القصيرة يدعونا المقام أن نعرج بالحديث عن المسالك التى يسلكها إبليس مع ابن آدم حتى يحيد به عن الطريق المستقيم ويفتنه فى دينه أقول :

روى عن هاشم بن القاسم عن أبى عقيل عبد الله الثقفى عن موسى بن المسيب عن مسلم بن أبى الحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم ، قال وقعد له بطريق الهجرة فقال : إنها جور تذر أرضك وسماك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فهاجر وعصاه ، ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال ، فقال : تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال. فعصاه فجاهد، قال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منكم كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنه وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة)[١].

مراتب إبليس التى تتأتى من جهتها الوسوسة :

هذا وتنحصر وسوسة إبليس لابن آدم فى مراتب ستة :

فالأولى : مرتبة الكفر والشرك ، ومعاداة الله تعالى ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه ، هذا أول ما يريده من العبد .

والثانية : مرتبة البدعة : وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى لأن ضررها فى الدين أكثر ، قال سفيان الثورى : البدعة أحب إلى إبليس من

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٠٤.

المعصية لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . فإذا عجز عن ذلك إنتقل إلى :

المرتبة الثالثة : وهى الكبائر على اختلاف أنواعها فإذا عجز عن ذلك إنتقل إلى :

المرتبة الرابعة : وهى الصغائر التى اذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها كما قالﷺ فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (إياكم ومحقرات الذنوب . فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض فجاء كل واحد بعود حطب حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتتوا)[1]. فإذا عجز عن ذلك انتقل الى :

المرتبة الخامسة : وهى اشتغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولاعقاب بل عقابها فوات الثواب الذى فات عليه باشتغاله بها فان عجز عن ذلك انتقل إلى :

المرتبة السادسة : وهى أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليستريح إلى الفضله ويفوته ثواب العمل الفاضل.

* هذا وتتجلى فتنة إبليس فى هذه الأمور :

أولا : ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ : (المرأة عورة وأنها إذا خرجت استشرفها الشيطان فلا يكون أبدا أقرب إلى الله تعالى منها إذا كانت فى تعريتها)[2] .

يدل لذلك ما روى عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال : (حب الدنيا رأس[3] الخطيئة والنساء حبال الشيطان) - وروى عن أسامة رضي الله عنه عن النبىﷺ

(١) أخرجه أحمد فى سنده - كذا فى تفسير ابن كثير . جـ٢ ص ٢٠٤.

(٢) أخرجه الترمذى - كذا فى الفتح الكبير جـ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) ذكره رزين - كذا فى الترغيب جـ٣ ص ٤٣٩ عن حذيفة .

قال: (ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء)[١].

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن الشيطان من الرجل فى ثلاثة منازل فى عينيه وفى قلبه وفى ذكره وهو من المرأة فى ثلاثة منازل فى عينيها وفى قلبها وفى عجزها)[٢].

وثانيا : ما روى عن قتادة رضي الله عنه قال : (لما هبط إبليس قال : يارب لقد لعنته فما عمله ؟ قال السحر قال فما قراءته ؟ قال الشعر قال فما كتابته ؟ قال الوشم قال فما طعامه ؟ قال كل ميتة ومالم يذكر اسم الله عليه، قال فما شرابه ؟ قال كل مسكر ، قال فأين مسكنه؟ قال الحمام ، قال فأين محله ؟ قال الأسواق ، قال فما مؤذنه ؟ قال المزمار ، قال فما مصائده ؟ قال النساء)[٣] .

ثالثا : ما روى عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ : (إن للشيطان كحلا ولعوقا . فإذا كحل الإنسان من كحله ثقلت عيناه . وإذا ألعقه من لعوقه درب لسانه بالشر)[٤]. وروى أيضا ماهو بمثابة تفسير لهذا الحديث . ما رواه عاصم الأحول عن الحسن قال من رواية أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: (إن للشيطان ملعقة ومكحلة فملعقته الكذب ومكحلته النوم عند الذكر)[٥].

رابعا : ما روى عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (إن للشيطان مصالى وفخوخا وإن من مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله تعالى .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه -كذا فى الفتح الكبير جـ٣ ص ٨٨.

(٢) أخرجه ابن المنذر - كذا فى الدر المنثور جـ٥ص ٤٠.

(٣) أخرجه عبد الرازق فى المصنف والبيهقى فى شعب الإيمان - كذا فى الدر المنثور جـ١ ص٦٣.

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان - كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٤١١.

(٥) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان - كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٤١١.

والفخر بعطاء الله. والكبر على عباد الله واتباع الهوى فى غير ذات الله)(١).

خامسا : ماروى عن عبد الله بن مسعود ﵁ عن النبى ﷺ قال: (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فيعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان)(٢).

سادسا: ما روى عن عبد الله بن المبارك ﵁ قال : حدثنا عبد الله بن وهب قال : سأل بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إبليس وبداله بأى شئ تغلب بن آدم قال : آخذه عند الغضب والهوى)(٣). ويؤيد ذلك ما روى عن أبى هريرة ﵁ أن رجلا قال للنبى ﷺ : أوصنى قال : لا تغضب . فردد مرارا . قال : لا تغضب)(٤). وروى عن سليمان بن صرد ﵁ قال : (إن رجلين استبا عند النبى ﷺ حتى إحمر وجه أحدهما فقال ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)(٥).

ما يعتصم به من الجن ويستدفع به أذاهم ومواطن ذلك :

ولسائل يسأل يقول : أما وقد عرفنا إبليس ووسوسته وفتنته لابن آدم ألا يحق لنا أن نعرف الدواء الذى نعالج به هذا الداء ؟ أقول :

---

(١) أخرجه ابن عساكر كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٤١٢ .

(٣) أخرجه ابن جرير كذا فى الدر المنثور جـ٤ ص ٩٩.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٨ - كتاب الأدب - باب - الحذر من الغضب لقوله تعالى [والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش] ص ٣٤.

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ - باب - صفة ابليس وجنوده . ص ١٥١. - وأخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) كتاب - البر والصدقة والآداب - باب - فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأى شئ يذهب الغضب ص ٤٦٩.

يطيب للسائل أن يعرف ذلك . وهذا التساؤل أجيب عنه بتوفيق الله تعالى فأقول :

ذكر العلماء فى هذا الصدد أمورا كثيرة قد تصل إلى عشرة يستدفع بها إيذاء الشيطان :

الأول : الإستعاذة بالله تعالى منه قال الله تعالى :﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1] وفى موضع آخر يقول تعالى :﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]. وورد عن سليمان بن صرد ﷺ (أن رجلين استبا عند النبى ﷺ حتى إحمر وجه أحدهما فقال رسول الله ﷺ : إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

الثانى : قراءة المعوذتين . روى عن أبى سعيد ﷺ قال :(كان رسول الله ﷺ متعوذا من الجان وعين الانسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلت أخذ بهما وترك ما سواهما)[3].

الثالث :قراءة آية الكرسى : فقد ورد عن أبى هريرة ﷺ قال : (وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فذكر الحديث فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى ﷺ : صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان)[4].

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٠.

(٣) أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن مردويه والبيهقى كذا فى الدر المنثور جـ٦ ص ٤١٦.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٦ . باب - فضل البقرة ، ص ٢٣١.- وكذا فتح البارى - كتاب فضائل القرآن - باب فضل سورة البقرة - حديث ٥٠١٠ ، جـ٩ ، ص ٥٥

الرابع : قراءة سورة « البقرة » فقد ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تجعلوا بيوتكم قبورا وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايقربه الشيطان)(١).

الخامس : قراءة خاتمة سورة « البقرة » فقد ورد عن أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه قال : قال رسول الله : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليله كفتاه)(٢) ويدل لذلك أيضا ما روى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى بيت ثلاث ليال فلا يقربه شيطان)(٣).

السادس : قراءة أول سورة « حم » المؤمن أعنى سورة « غافر » إلى قوله تعالى (إليه المصير) مع آية الكرسى فقد ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ حم المؤمن إلى قوله تعالى (إليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح . حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح)(٤).

السابع : ترديد لفظ الجلالة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير مائة مرة ، ففيه حفظ وعصمة ، فقد ورد

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد(٢) كتاب - صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة فى البيت ص ١٣٧.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٦ باب فضل البقرة - ص ٢٣١ - وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٢) - كتاب - صلاة المسافرين وقصرها - باب - فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ص ٤٥٨.

(٣) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٨ باب ما جاء فى آخر سورة البقرة ص ١٨٩.

(٤) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٨ باب ما جاء فى آخر سورة البقرة وآية الكرسى ص١٨٢.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتب له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أخذ عملا أكثر)[1].

الثامن : كثرة ذكر الله عز وجل : فقد روى عن الحارث الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إن الله تعالى أمر يحى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد يبطئ بها ، قال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى عليه السلام أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب ، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ فقعدوا على الشرف، فقال إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن :

أولهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى وهذا عملى فأعمل وآده الى فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده فأيكم رضى أن يكون عبده كذلك . وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله تعالى ينصب وجهه بوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت ، وآمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك وكلهم يعجب أو يعجبه ريحها فإن ريح الصائم عند الله أطيب من ريح المسك ، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أمسكوه فأوثقو يديه إلى عنقه وقدموه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه . جـ٤ كتاب بدء الخلق - باب - صفة ابليس وجنوده ص ١٥٣ وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب - الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار - باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء - ص ٥٤٦.

ليضربوا عنقه فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم ، وآمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سرعان حتى أتى على حصن حصين فحصن نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . قال النبى ﷺ وأنا آمركم بخمس ، الله تعالى أمرنى بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن دعا دعوى الجاهلية فإنه من جنى جهنم، فقال رجل يارسول الله وإن صام وصلى قال : وإن صام وصلى فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين ، عباد الله)[1].

التاسع : الوضوء والصلاة . هو من أعظم مايتحرز به لا سيما عند ثوران قوة الغضب، الشهوة فانها نار تغلى فى قلب ابن آدم ، يدل لذلك ما روى عن عطيه العوفى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فاذا غضب أحدكم فليتوضأ)[2].

العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام والطعام . ومخالطة الناس فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم من هذه الأبواب الأربعة ، فعن حذيفة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله عز وجل أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه الى يوم يلقاه)[3].

هذه هى الأمور التى ذكرها العلماء والتى يستدفع بها ويتحفظ بها من شرور الجن وأذاهم، هذا ولسائل يسأل يقول : إذا كنا فى مجال ذكر النعم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى فى تاريخه والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم - كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٣٢٥.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده وأبو داود كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٣١٥.

(٣) اخرجه الحاكم وصححه كذا فى الدر المنثور جـ٥ ص ٤١.

التى أفاضها الله على خلقه ليشكروه فهل هناك نعمة من خلق الجن ؟ أقول: إن فى هذا بيان لفضل الله تعالى على الإنسان حيث بين أنه من أصل كثيف كدر وخلق الجان من أصل لطيف ، وجعل الإنسان أفضل من الجان فإنه إذا نظر إلى أصله علم أنه ما نال الشرف إلا بفضل الله تعالى .. فكيف يكذب بآلاء الله ، ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام قال تعالى : { فبأى آلاء ربكما تكذبان} ولا تكذيب هنا فى هذا المقام المشهور.

تتمـة البحث :

إن البحث فى عالم الجن على النحو الذى سلف يقتضى منا أن نعيش مع حديث الناس الآن وهو التداوى بالقرآن ، وفى الصفحات التالية سوف أتعرض لماقاله العلماء فى هذا المقام حتى نجلى هذه الحقيقة ..

العلاج بالقرآن
حقائق لا أوهام

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة عن العلاج بالقرآن الكريم ، وانقسم المتحدثون إلى مؤيدين ومعارضين .. وإن شئت فقل بين مؤيدين ومنكرين.

وبهدوء تام نتناول هذا الموضوع بالبحث العلمى ، مع واقعية الحديث التى تدفعنا إلى التحرى عن الحقيقة التى يطمئن إليها القلب ، ويرتاح لها العقل.

قرأت وتابعت ماقيل فى هذا الموضوع ورأيت الآن أن من واجبى أن أدلوا بما لدى من حقائق فى هذا المجال سائلا الله أن يوفقنى لذلك ويوفق الجميع للخير والحق :

أولا : الجن وإمكانية دخوله جسد الإنسان :

يقول البعض : إن الجن له طبيعة تختلف عن طبيعة الإنسان ومن هنا يستحيل أن يتلبس الجن بالإنسان.

وللرد على ذلك نقول :

وهل لو كان الجن من طبيعة الإنسان ، أيستطيع أن يتلبس به ؟

إن مخالفة الجن لطبيعة الإنسان هى التى أعطته هذه الخاصية ، لأن الجن مخلوق من نار فهو طاقة حرارية قادرة على الاحتراق ، قادرة على التشكل بقدرة الله ، ولا يفوتنا الآن أن نذكر أن الاحتجاج باختلاف الطبيعة لا يؤثر فى القضية بشئ ، فإن الجن من النار ويعذبون بالنار ، يقول الحق سبحانه وتعالى :﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَن تبعك مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

والإنسان وقد خلق من التراب فهو طيلة يومه ينظف نفسه من التراب، ولو وضعنا رأس الانسان أو وجهه فى الطين (غمسناه فيه) لتألم وحزن، أو قذفناه بحجر (طين ناشف) لجرح وتألم ، فاختلاف الطبيعة ليس باحتجاج لأن الخاصيات يمنحها الله .

ثانيا : لقد ورد بصريح القرآن مس الجن للإنسان والآية لا تحتاج إلى تأويل ، يقول الله – عز وجل –:﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[٢]. أعجب كل العجب من الذين يذهبون بالآية فيحملونها غير معناها ويقول : إن هذا التخبط فى الآخرة وليس لديهم دليل على قولهم .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

يقول الإمام ابن كثير فى الآية السابقة : « أى لا يقومون من قبورهم إلا كما يقوم المصروع حال صرعه فى الدنيا، وتخبط الشيطان له »[١]. وبه قال ابن عباس رضي الله عنه.

وقال الإمام القرطبى فى جامع البيان فى تفسير نفس الأية[٢] : هذه الآية دليل على فساد من أنكر الصرع من جهة الجن .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : قلت لأبى إن أقواما يقولون : إن الجن لا يدخل بدن المصروع ، قال : يابنى يكذبون - وقد ذكره ابن القيم فى كتابه (زاد المعاد) صرع الجن للإنسان .

وقد ثبت الحديث الذى أتت فيه المرأة لرسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنى أصرع فأتكشف[٣].

وحديث آخر عن الأم التى عرضت ابنها على النبى ﷺ وهى تقول : إن ابنى يصاب بما يشبه الجنون، ويرقيه ﷺ فيشفى[٤].

ويقول رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق»[٥]. والآن ماذا يقول المنكرون أمام هذه النصوص القاطعة الدافعة ؟ .

ثالثا : أثر السحر وأعمال السحرة :

يقول البعض : إن السحر انتهى منذ عصر سليمان عليه السلام، ولم يعد للجن أو الإنس دور فى ذلك !!

---

(١) كذا فى تفسير ابن كثير -جـ١ ص ٣٢٦ - طبعة دار إحياء الكتب .

(٢) كذا فى القرطبى م٢ ج٣ ص ٣٥٥ - المسألة الثانية عشرة - طبعة دار إحياء التراث - بيروت.

(٣) كذا فى البخارى ٩٩/١٠ فى المرض - باب من يصرع من الريح وزاد المعاد جـ٤ ص ٦٦.

(٤) أخرجه الإمام أحمد ١٧٠/٤ وكذا زاد المعاد جـ٤ ص ٦٨.

(٥) كذا فى الفتح الكبير جـ١ ص ٣٠٨ عن أنس .

ونحن نقول : ماهو الدليل على ذلك ؟ والنص القرآنى لا يوجد فيه أن السحر انتهى ، بل يفهم منه أنه قائم يستعمله المجرمون للإيذاء والإنتقام والتفريق بين الأزواج.

يقول الحق سبحانه :﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ . . . ﴾(١).

كما أننا نعيش هذه الأيام أحداثا نرى فيها العجب العجاب من أثر السحر على المرضى، سواء تفريق ، أو جنون ، أو خبول، أو ربط الزوج عن زوجته، والعكس ، أو المخيلات التى يرونها أمام أعينهم فى اليقظة وغير ذلك ، وقد نجح العلاج مع كثير من هؤلاء وتم الشفاء والفضل لله وحده ، فالقول بعدم وجود أثر السحر وأعمال الساحرين قول مردود.

رابعا : المنكرون للعلاج :

سبحان الله .. لقد ورد فى القرآن الكريم آيات بينات تثبت أن من معجزات القرآن أنه شفاء ، فنجد من يأول الآيات وآخر من يقول : إن الشفاء معنوى ، ويكثر القول فى محاولات لإخراج النص عن حقيقته أو للإنتقال من الحقيقة إلى المجاز دون حاجة بلاغية تقتضى ذلك .

يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾(٢). ويقول سبحانه وتعالى :﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ . . . . ﴾(٣).

ويقول سبحانه :﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ٨٢

(٣) سورة يونس الآية ٥٧

ءأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ... ﴾(١).

ولقد قام المعالجون الصادقون الحقيقيون بعلاج كثير من الحالات التى يأس منها الطب ، وأذكر وأؤكد أن حالات عجيبة كالشلل والهياج – مايشبه الجنون – والربط ، لم يجد لها الطب البشرى مخرجا وكان شفاؤها فى القرآن .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن أثر السحر ، وكذلك المس على الإنسان الملتزم دينيا القريب من ربه العارف لحقوقه، المؤدى لواجباته ، يكون الأثر عليه أقل من ضعيف الإيمان الذى يبدو عليه الأثر كبير وواضحا، بل إن شفاء النوع الأول يكون أجدى وأسرع والله هو الشافى.

عن أبى سعيد الخدرى ﵁ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : «إنى أشتكى وجع صدرى .. قال : إقرأ القرآن »(٢) .

ويقول ﷺ : « عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن»(٣).

وقال ﷺ : لمن وجد ألما فى جسده :« ضع يدك على الذى يألم من جسدك وقل : بسم الله ثلاثا ، وقل سبع مرات : أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(٤).

★ نصيحة وتحذير :

فى ختام كلمتى ننصح بوضع ضوابط شرعية للمعالجين بالقرآن الكريم ونقترح أن يكون منها :

أولا : أن يكون المعالج حافظا للقرآن الكريم .

---

(١) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٢) أخرجه ابن مردويه . كذا فى الدر المنثور – جـ٣ ، ص ٣٠٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه /١١٤٢، وكذا فى الدر المنثور – جـ٣ ، ص ٣٠٨.

(٤) أخرجه مسلم . كذا فى رياض الصالحين – باب ما يدعى به للمريض ص ٢٧٣.

ثانيا : أن يكون متفقها فيه على الأقل بدرجة أن يفهم معانـى ما يقول

ثالثا : أن يشـهد له إثنان من العلماء أو هيئة علمية تابعة للأزهر بأنه حسن الخلق وسمعته طيبة .

رابعا : أن يكون لدى المعالج الإستعداد للعلاج وليس للشهرة.

خامسا : تكوين رابطة أو نقـابة للمـعـالجين تخـضـع لهـيـمنة الأزهر وبالطبع لديها الأسس العلمية لمارسة هذا العمل .

* ونحذر من فئة زجت بنفسها فى هذا المجال تنالها الأذى من الجن وأساءت لمرضاها وتركت أثراً لدى بعض العامة تخوفاً من الدجل والشعوذة.

الموضوع يحتاج إلى وعى إعلامى كبير وإلى علماء جادين حتى تحدد معالمه، ولا يتهم أهله بالدجل والشعوذة فهذه أكبر المصائب، لأن من الناس من لا يفرق بين العلاج بالقرآن وبين الشعوذة ، ومما يؤسف له أن سمعنا بعض العلماء يردد هذه المقولة دون تحقيق منه للأمر، ودون حضوره ولو جلسة علاج واحدة، وفى ممارستى للعلاج حضر بعض العلماء المنكرين على ذلك ، وكان معى عالم كبير أستاذ فى الطب زوجته مريضة ورأى العجب عند تلاوة القرآن ، وتم علاجها والحمد لله وصلته بى الآن قوية . فعلى كل من ينكر، أن يدرس الموضوع أولا ويتحقق من الأحداث ثانيا.

هذا وبالله التوفيق ،،،

*****

---

(١) أنظر فى هذا المقام : حوار مع السياطين – الجزء الثانى – ص ١٠٠ ، للشيخ محمد الصنايم من علماء الأزهر – دار الفضيلة.

المبحث السادس

من آيات قدرته ربوبيته تعالى

للمشارق والمغارب ومن جليل صنعه عالم البحار

جاءت كلمتا المشرق والمغرب فى القرآن مفردتين فى مثل آية سورة المزمل :﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾(١). وجاءتا مجموعتين فى مثل قوله تعالى :﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾(٢). والمراد مطلع كل يوم ومغربه . ولذلك جاءت الصيغة بالجمع وقيل المراد بهما فى الآية مشرقا الشمس صيفا وشتاءً. ومغرباها – وكأن المراد التثنية مطلعها فى أطول يوم فى السنة وفى أقصر يوم من السنة ، وكذلك المغربان ، ويتناول الطرفان كل ما بينهما، وقيل المشرقان مشرق الفجر ومشرق الشفق والمغربان مغرب الشمس ومغرب الشفق، وقيل بل المشرقان مطلع الفجر ومطلع الشمس، وقيل المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما، ولعل هذا القول أولى الأقوال بالترجيح، لاتصاله بالآية السابقة فى سورة الرحمن ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾(٣)، ولأن دلالة التثنية حينئذ واضحة، والمراد : رب مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما وما بينهما من الموجودات قاطبة، فهو رب الوجود كله القائم عليه وعلى نظامه ، وما يجرى فيه من الليل والنهار، وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، إنه مرسل النور والظلام فى العالم ، يخلط كلا منهما بصاحبه، ثم يفرده آية كبرى من آياته الكونيه ، ونعمه جُلىًّ نعمه ، فالناس لا يسيرون فى عمياء على غير هدى ، بل ما تلبث كل يوم تنير لهم الوجود مصابيح الشمس والقمر التى ينشرها

---

(١) سورة المزمل الاية ٩.

(٢) سورة المعارج الآية ٤٠.

(٣) سورة الرحمن الآية ٥ .

ربهم فى أرجاء الكون ، والتعبير بالرب هنا دون ذكر اسمه الأعظم (الله) للدلالة على أنه ما يزال كل يوم ومع كل مطلع شمس وقمر ومغربيهما يربى الإنسان ، أو يقوم على تربيته والرقى به من حال إلى حال . رقيا ينمو مع كل يوم ومع كل صباح، وكرر ذكر الرب هنا دون سورتى المعارج والمزمل تأكيدا وخصهما هنا بالتأكيد لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم ، ولأن الخطاب فيه مع جنس الإنس والجن بخلاف تينك)[1]. إنها ليست ألوهية جبروت وقهر بل هى ألوهية تربية وتعهد ورحمة ، ألوهية نعم على الإنسان لا تكاد تحصى أو تستقصى ، نعم تسخر له الكون، وتيسر له الانتفاع بعناصره على خير وجه وكأن الكون منقاد إليه بزمامه ، فالشمس والقمر إنما يجريان من أجله لتكتحل عيناه بالنور ويبصر الدنيا من حوله ، وليس ذلك فحسب فإن مع إختلاف مشارق الشمس والقمر ومغاربهما إختلاف الفصول على مدار العام لكى ينتفع الإنسان بكل فصل ، جوه وزروعه و ليجد من الاختلاف فى ذلك متاعا لنفسه ، و حرى بالإنس والجن أن يشكروا هذه النعم المتصلة ولا يكفروها ، نعمة نور القمر وضياء الشمس ونعمة الاختلاف بين المشرق والمغرب ، ونعمة الاختلاف بين الفصول ونعمة الوجود الكونى كله .

وهذه الإشارة إلى المشرق والمغرب التى تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله حيثما توجه وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر فى الآفاق ، فحيث الشروق وحيث الغروب هناك « الله » ربوبيته ومشيئته وسلطانه ونوره ، وتوجيهه ، وهدايته وعلى كل فإن ظلال الإشارة الى الشروق والغروب هى الأولى بالإلتفات ظلال الاتجاه الى المشرق والمغرب والشعور بالله هناك ،والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ومصدر نوره وربوبيته فى الآفاق هنا وهناك والرصيد الذى يؤوب به القلب ، هذا التأمل

---

(١) من كتاب : تسهيل السبيل فى فهم معانى التنزيل – ص ٢٣٣.

المشارق والمغارب والزاد الشعورى الذى تفيض به الجوانح وتزخر به الأرواح ، والمشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس بما يتحقق فيهما من الخير لسكان هذه الأرض جميعا بل من أسباب الحياة التى تنشأ مع الشروق وتغرب كذلك الى الغروب ، ولو اختل أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة، ومن هذه الساحة البعيدة الآفاق يعود النظر إلى الأرض وما فيها من ماء جعله الله بقدر قَدره فى نوعه ، وقدره فى تصريفه ، وقدره فى الإنتفاع به ، وربوبية الله تعالى للمشرقين والمغربين بعض آلائه فى هذا الكون. ومن ثم يجئ التعقيب المعهود فى سورة الرحمن بعد هذه اللفتة القصيرة { فبأى آلاء ربكما تكذبان }.

عظمة الله تتجلـى[1] :

إن عظمة الله سبحانه وتعالى تتجلى فى كل ما سبق من آيات وتزداد اتضاحا للرائى الذى ينظر بالعين المجردة فى إرسال البحرين « العذب والمالح» متجاورين فى مرأى العين ليس بينهما فاصل أو حاجز إلا حاجزاً معنوياً بقدرة الله عز وجل ، وإن البحث فى هذه الآية الكونية يقتضى منا بالضرورة تسليط الضوء على جانبين فيهما :

الجانب الأول : ماذا قال العلماء فى المراد بالبحرين ؟

الجانب الثانى : ما المراد بالبرزخ ؟ أهو حاجز محسوس ؟ أم أنه حاجز معنوى ؟

هذان العنصران هما محورا الحديث فى هذه الآية الكريمة .

---

(١) المناسبة : لما كانت ساحة البحر لجرى المراكب مثل ساحة السماء لسير الكواكب مع ما اقتضى ذكره من تضمن ذكر المشارق والمغارب ، للشتاء الحاصل فيه من الأمطار ما لو خرج على القياس لأفاض البحار فأغرقت البرارى والقفار قال تعالى :(مرج البحرين يلتقيان) – نظم الدرر – جـ ٥ ص ٣٨٣.

أقول وبالله التوفيق : مرج تأتى بمعنيين : أرسل ، وخلط ، يقال مرج الإبل فى المرعى إذا أرسلها فيه ، كما يقال مرج الماء واللبن ، اذا خلطهما(١).

وإذاً فقوله تعالى { مرج البحرين } إما أن يكون بمعنى أرسلهما متجاورين متلازمين لا فصل بين ماءيهما فى مرأى العين ، وإما أن يكون بمعنى خلطهما فهما يلتقيان.

والمعنى الأول أولى لذكر البرزخ ، الحاجز بينهما ، فى الآية :

تأويلات وشطحات :

ذكر العلماء ، آراء كثيرة فى المراد بالبحرين فقالوا : هما بحر السماء وبحر الأرض بحجة أن اللؤلؤ يخرج من ماء السماء ويتولد من أصداف البحر ، أو بحر فارس والبحر المتوسط، أو بحر المشرق والمغرب المذكوران بالتثنية فى الآية السابقة.

وقيل : البحر الملح والنهر العذب.

وقيل : البحران طريق الخير وطريق الشر ، وعلى هذا الرأى فيراد بالبرزخ التوفيق الذى بينهما .

وقيل : هما الطاعة والمعصية والبرزخ العصمة (ولا يبغيان) فى كل ذلك لا يؤثر أحد البحرين فى الآخر.

وقيل : هما الدنيا والآخرة والبرزخ القبر من وقت الموت إلى القيامة.

وقيل : الحياة والموت . والبرزخ الأجل .

وقيل : الحجة والشبهة. والبرزخ القطر الدقيق .

---

(١) انظر : مختار الصحاح ص ٦٢٠ – والمصباح المنير جـ٢ ص ٧٧٩.

وقيل : إن المراد بالبحرين فى الآية الكريمة : أنه تعالى خلق فى الأرض بحارا تحيط بهما الأرض وببعض جزائرها يحيط بها الماء . وخلق بحرا محيطا بالأرض وعليه الأرض، وأحاط عذبه الهواء ، كما قال بذلك علماء الهيئة ، وهذه البحار التى في الأرض لها صلة بالبحر المحيط ثم إنهما لا يبغيان على الأرض ولا يغطيانها بفضل الله تعالى لتكون الأرض بارزة ليتخذها الإنسان مكانا، وعند النظر الى أمر الأرض يحار الطبيعيون فإن عندهم يكون موضع الأرض فى المنطقة المركزية ويكون الماء محيطا بالأرض، فإن قيل لهم : لماذا بقيت الأرض كما هى ولم ترسب ، قالوا : بانجذاب البحار الى بعض جوانب الأرض، فإن قلنا لهم : وما الذى جذبه ؟ فالمنصف يقول : بمشيئة الله وقدرته ، وغير المنصف يرجعه إلى أسباب أخرى .

وهذه الآراء التى ذكرت لم يصادفها التوفيق ولم تجر مع نسق الآية التى تتحدث عن آية كونية ، والتى كانت سورة الرحمن معرضا لها، والتى تلمس وتحس فى ثنايا السورة ونسقها ، ومثل هذه التأويلات يناقضها ما سيأتى من آيات كونية تأتى ، كخروج اللؤلؤ والمرجان ، وجرى السفن على سطح الماء ، فهل هذا يتناسب مع الآراء التى ذكرت فى المراد بالبحرين ؟ وعلى هذا فانى أؤيد رأى القائلين بأن المراد بالبحرين هما . العذب الفرات والآخر الملح الأجاج لأنه يتمشى مع السياق القرآنى هنا . وفى قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾[1]. والقرآن يفسر بعضه بعضا .

وتقسيم الماء على هذا النحو فى الكرة الأرضية لم يأت مصادفة ولا جزافا فهو مقدر تقديرا عجيبا .. الماء الملح يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣.

ويتصل بعضه ببعض ويشغل اليابس الربع ، وهذا القدر الواسع من الماء الملح هو اللازم بدقة لتطهير جوالأرض وحفظها دائما صالحا للحياة وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فان الهواء باق دون تلوث فى الواقع ودون تغيير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة بين الماء (أى المحيط) ومن هذه الكتلة الضخمة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهى التى تعود فتسقط أمطارا يتكون منها الماء العذب فى جميع أشكاله وأعظمها، والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا والعوالم الفلكية الأخرى هو الذى ينشئ المطر الذى تتكون منه قوة الماء العذب، وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة من نبات وحيوان وانسان ، وتصب جميع الأنهار تقريبا فى البحار، وهى التى تنقل اليها أملاح الأرض فلا تغير طبيعة البحار ، ولا تطغى عليها ، ومستوى سطوح الأنهار أعلا، فى العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه ولا يغمر مجاريها بمائه الملح فيحولها عن وظيفتها ويبقى على طبيعتها وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله فلا يبغيان.

هذا ومثل التعسف فى الآراء التى ذكرت فى المراد بالبحرين رأى «الشيعة » القائل : بأن المراد بالبحرين هما على كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء ﷺوأن البرزخ الذى بينهما هو النبى ﷺ. وأن اللؤلؤ والمرجان اللذين يخرجان منهما الحسن والحسين.

وقد روى هذا التأويل منسوبا الى سلمان الفارسى وسعيد بن جبير، وسفيان الثورى ، ويعلق الإمام الطبرسى ، وهو من أئمة الشيعة فى تفسيره بقوله : ولا غرو أن يكونا بحرين لسعة فضلهما وكثرة خيرهما فإن البحر إنما سمى بحر لسعته[1].

---

(١) كذا من مجمع البيان فى تفسير القرآن جـ٢٦ ، ص ٩١.

ويعقب الإمام الألوسى (فى تفسيره) يعقب على هذا بقوله :

والذى أراه أن هذا – إن صح – ليس من التفسير فى شئ بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات . ثم يقول : وكل من «على وفاطمة» عندى أعظم من البحر المحيط علما وفضلا وكذا كل من «الحسن والحسين» أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حد الحسبان)[١] .

وللصوفية – كما للشيعة – تأويلات خاصة وشطحات فى عبارات القرآن الكريم وكلماته ، لا تستقيم على مفاهيم اللغة العربية ولا تتقيد بمواصفاتها بين أهلها، وهى اللغة التى نزل بها القرآن الكريم وخوطب بها العرب على ما عهدوه من لغتهم فى وضوحها وصراحتها دون أن يكون وراء ذلك شئ لم تعتده العرب فى مخاطباتهم فى منظوم كلامهم ومنثوره.

ومن تأويلات الصوفية البعيدة ، ما جاء من تأويلهم لقوله تعالى :﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[٢]. قالوا : إن القرية هى الجسد الإنسانى ، وإن المرسلين الإلاثة الى تلك القرية هم ، الروح ، والقلب ، والعقل ، وهذا قول محسوب على قائليه ليس بينه وبين كلام الله نسب من قريب أو بعيد وكل تأويل لكلام الله يخرج به عن سنن الدلالات التى أقام عليها العرب لسانهم وخرّجوا عليه أساليب بيانهم – هو عدوان على كتاب الله وتبديل له – وتحريف للكلم عن مواضعه لا يراد به إلا الكيد لدين الله . ودس المفتريات عليه بتلك التأويلات الفاسدة التى أدخلها على كتاب الله أصحاب الأهواء والبدع – والله سبحانه وتعالى يقول :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣].

---

(١) من كتاب : (روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى) جـ٢٦، ص ٩٢.

(٢) سورة يس الآيتان ١٣ ، ١٤.

(٣) سورة يوسف الآية ٢.

ويقول سبحانه :﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) ﴾(١). ويقول تبارك إسمه :﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾(٢). ويقول جل شأنه :﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾(٣). ويقول سبحانه :﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٤).

فهذه الآيات وأمثالها هى : حراسة القرآن الكريم من أدعياء العلم الباطن الذين يحرفون الكلم عن مواضعه :﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٥).

★ رأى في معنى البرزخ :

يقول صاحب هذا الرأى بعد أن مهد له بقوله تعالى :{ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان } ويقول تعالى :{ وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا } ، ومعناه : أنه تعالى يرسل ماء الأنهار العذب يلتقى بماء البحر الملح عند مصابها دون أن يبغى أحدهما على الآخر لأنه جعل بينهما (برزخا) أى حاجزا (وحجرا محجورا) وفسره بمعنى المانع الذى لا سبيل إلى رفعه. وأصل معناه : المكان المحاط بالحجارة - ويدل ظاهر الآيتين على وجود أشكال إذ كيف يلتقى الماءان وبينهما حاجز وحجر محجور؟

ولم أجد فى التفاسير المختلفة إيضاحا للبرزخ من الحجر المحجور والذى جعله الله تعالى بين ماء الأنهار والبحار، والرأى عندى والله أعلم : أن

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ١٩٣ - ١٩٥.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٨.

(٣) سورة الدخان الآية ٥٨.

(٤) سورة الزخرف الآية ٣.

(٥) سورة آل عمران الآية ٧٨.

الأنهار التى جعل الله تعالى بينها وبين البحار، حاجزا من حجر محجور هى الأنهار التى أنشأها الله تعالى خلال الأرض الراسية المنبسطة الممهدة من السهول والهضاب التى أوجدها حول الجبال بعد إرسائها على الأرض والتى مهد سطحها ليعيش ويستقر عليها الناس وهذه الأرض قد كونها تعالى .. بإلقاء الرواسى، فهى صلبة حجرية أو حجر محجور بطبيعة تكوينها بين البحار ومياه الأنهار ، ومجارى الأنهار فيها منحورة قليلا ومرتفعة عن سطح البحار لكى يجرى الماء فيها فهى بذلك حاجزا وبرزخ بين البحار والأنهار، وعلى هذا الإعتبار فلا يمكن أن يبغى ماء البحر على ماء النهر فى مجراه ويغيره إلى ماء ملح إلا قليلا جدا عند مصبه كما أن ماء النهر لضآلته لا يغير من ماء البحر إلا بمقدار قليل جدا عند مصبه وبالإجمال : إن البرزخ والحجر المحجور الذى جعله تعالى بين مياه البحار ومياه الأنهار فاعل مقصود به على الراجح الأرض من سهول وهضاب التى تجرى فيها الأنهار والتى كتونها تعالى بجانب الجبال وجعلها مرتفعة قليلا على الماء من رواسى أو أجزاء جامدة منقوصة من الجبال ألقيت فى البحار ثم رفعت طباقا رأسية مستوية)[1].

واضح من هذا الرأى الذى ذكر أن صاحبه يعتمد فى تفسيره لمعنى البرزخ على العوامل الطبيعية للأرض من التضاريس التى نراها فيعتمد على ما نراه من أمور حسية بينما العظمة لا تتجلى فى مثل هذا وإنما تجلياتها تكون فى إرسال البحرين متجاورين ثم فصلهما بمانع من قدرة الله عز وجل ففى ذلك تكمن العظمة وتكون القدرة.

ملوحة البحر من نعم الله :

لسائل يسأل ويقول : ما أصل هذه المياه التى نراها؟ وما الحكمة من ملوحتها ؟

---

(١) أنظر : التفسير العلمى للآيات الكونية ، لحنفى أحمد ، ص ٤٣١

والجواب يتجلى من خلال هذا العرض ..

تكلم العلماء معظمهم فى الشئ الذى كان عنه الماء، فمنهم من زعم أن المياه من الإستحالة فطعم كل ماء على قدر تربته، ومنهم من يزعم أن البحر بقية الرطوبة التى جففت أكثرها جوهر النار، وبإحراقه لهذه البقية استحالت إلى الملوحة.

ومنهم من زعم : أن البحار عرق الأرض لما ينالها من إحراق الشمس باتصال دورانها ولهذا قالوا : ليس ببلاد صقلية بحر مالح، وذكروا: أن العلة فى ذلك بعد الشمس عن مساحتها.

وزعم قوم : أن أصل الماء العذوبة واللطافة ، وإنما لطول مكثه جذبت الأرض ما فيها من العذوبة لملوحتها وجذبت الشمس ما فيه من اللطافه بحرارتها فاستحال إلى الغلظة والملوحة ، ولهذا قال « أرسطو» المالح أقل من الماء العذب لأن المالح كدر غليظ والعذب صاف رقيق. ولولا أن الحكمة الإلهية إقتضت ملحه بمخالطة الأرض المحرقة لأنتن وأجن وأفسد ما يكون فيه من الحيوان بل أن الله سبحانه وتعالى خلق البحار ملحاً أجاجا كما أخبر فى كتابه العزيز:﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾(١). على ماهى عليه من الوصف وصلاحا لجوهر الهواء وحفظا لنظام أبدان الحيوان وتعديلا لأمزجتها، ولو كانت حلوة مع طول الزمان والدهر لفسدت وأسنت وفسد بفسادها جوهر الهواء وأنواع المتولدات الثلاث، وكذلك أيهما قل أن يكون فى المعمورة بحر مالح بالشمال أو الجنوب إلا وبالقرب من سواحله جبال محيطات كالحاجز والسياج الحاف به من حوله وغالبها مشجرة، كثيرة الأودية والأمطار وذلك من صلاح الأرض به .. وصلاح متولداتها ولأن جوهر الملح فيه قوة حافظة للأشياء الرطبة من التغير. وهذه الملوحة تلى الدهان كأنها غطاء على مياه

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٣.

كأنها غطاء على مياه البحار تمنعها من الفساد والتحلل . ومن سرعة الانقلاب إلى الهواء كما يتغلب الماء العذب للطافته ولجذب الشمس له بحرارتها)[١].

أليست هذه كلها نعمة تستحق من الثقلين أن يؤدوا شكر الله عليها؟ وصدق الله العظيم إذ يقول { فبأى آلاء ربكما تكذبان}.

عالم البحار[٢] :

يقول الدكتور (هدسون) : أنظر إلى العالم العجيب السابح فى نقطة ماء، وتأمل تلك الأحياء مكبة على عملها، غادية رائحة وأعجب من أجسامها وراقبها وهى تطلب قوتها وتنقض على فريستها ، وتهرب من عدوها ، فلا تتمالك من أن تعرف بأن أشد عواطف الإنسان تحتاج صدر حيوان أصغر من أن يرى والحياة ملء البحار حقا، فإن عدد أصناف الكائنات الحية الموجودة فى البحار أكثر من عدد الموجود على الأرض على وجه الإطلاق وتختلف الكائنات الحية الموجودة فى البحار اختلافا واسعا حتى أنها ما زالت تتزايد فى عدد تصنيفها. فمنها قريص البحر، تلك الكائنات الصغيرة التى يبلغ عدد الموجود منها فى الميل المكعب الواحد نحو رقم يبلغ سبعة عشر عددا أى بلايين البلايين ، ومنها « الدور كال » الذى يبلغ طوله مائة وعشرين قدما. وفيها الأسماك المسالمة الصغيرة والتى تتغذى عليها الكبيرة « ومنها « الكاشلوت » وهو الحوت الذى يطوف المحيط طولا وعرضا ويجول فيه جولات الأسد فى غابته وله أنياب حادة ، وقوى غير متصورة، تمكنه من مهاجمة المراكب بل وتحطيمها، ومن عجائب أحياء البحار « السمك الهلامى، والحيوانات الرخوة ، وللبحر طائر خاص به هو « الصخاب » وهو

---

(١) من كتاب (نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر) ص ٧٢ – الفصل الخامس.لشمس الدين الأنصارى الدمشقى

(٢) المناسبة : ولما ذكر المنة بالبحر. ذكر النعمة بما ينبت فيه كما فعل فى البحر فقال تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) – نظم الدرر جـ٥ ص ٣٨٣.

طائر ضخم الجثة قوى الصوت جدا يبلغ طول جناحيه متى كانا ممدودين خمسة عشر قدما ، ويبقى هذا الطائر ساعات متوالية طائرا ، وقيل : إنه ينام محلقا فى الفضاء، وتتفاوت الأعماق التى فيها هذه الحيوانات ، ولكل عمق أصناف مميزة موحدة، وقد اختلفت تراكيبها ، وأجهزتها، بما يؤكد وجود الله الذى خلق فسوى)[1]. وسأقتصر فى الحديث عن مثالين هنا : هما مناطا البحث وجوهر القضية ألا وهما اللؤلؤ والمرجان.

حقيقة اللؤلؤ والمرجان:

أما عن اللؤلؤ وكيفية تكوينه فقد قال علماء هذا الفن فيه - أعنى فن علم البحار - : يتكون اللؤلؤ من أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية أو المحارية التى تعيش فى الماء العذب أو فى الماء الملح ، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين، وهى تستخرج حتى الآن فى بعض جهات فى أمريكا ، والصين ، وغيرهما ، وأجمل نوع من اللؤلؤ هو ما يتكون فى الحيوانات الرخوة الصدفية التى يعيش في البحار الحارة ، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما ويوجد منهما نحو الثلاثين نوعا وأهم هذه الأنواع ثلاثة :

١) مليجرينا مرجريتيفرا:

وهو الإسم العلمى، وهو حيوان صدفى كبير يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمترا ويصل ثقله إلى نحو عشرة كيلو جرامات ويعيش فى المحيط الهندى ، والبحر الأحمر، وفى بحار الهند وسيلان وفى الأقيانوسية ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة فى كل أربعة حيوانات.

٢) مليجرينا دميانا:

وهو حيوان صدفى أصغر حجما من الأول لأن قطره يصل إلى اثنى

---

(١) أنظر - الله والعلم الحديث ، ص ١١٢- لعبد الرازق نوفل .

عشـر سنتيـمتـرا وثقله لا يزيد عـادة عن مائتى جـرام وهو يعيش فى أغلب البحار الحارة وخصوصا فى البحر الأحمر والخليج الفارسى.

٣) مليجرينا امريكانـا :

وهو حيوان صدفى صغير يعيش فى البحار القريبة لشواطئ استراليا وهو يخالف النوعين السابقين فى أنه يعيش فى مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص، لهذا النوع من الأصداف عضو إسمه « البسوسى» توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد.

واللؤلؤ اللطيف الشكل ، الجميل الماء، (كمايقولون) هو ما يسمى باللؤلؤ (الحر) أوالصافى وهو ذو القيمة التجارية الهائلة وهو ما يطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ، ولا يستخرج أغلبه إلا من الحيوانات البحرية التى سبق ذكرها، وأعلاه ما كان جميل الماء كروى الشكل أو مماثلا للكمثرى فى شكلها، وتختلف ألوانه ، فمنه الأبيض وهو أكثر شيوعا بين الناس، ومنه الرمادى والوردى والأصفر والأخضر، والأحمر ، والأصفر ، والأسود والأزرق، واللؤلؤ الأسود نادر جدا وقيمته التجارية كبيرة، وهناك نوع من اللؤلؤ الحر ذو لمعان جميل ، يفضله بعض الغاوين على غيره وما يجعل للؤلؤ هذه القيمة الإقتصادية المعروفة ، هو لمعانه ، وماؤه ، ولونه ، بمرور الزمن وكثرة الاحتكاك فى استعماله وتأثير العرق « وهو سبب غير أكيد» يذهب اللمعان والماء، أو يتبخر كمية من الماء الذى يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ ، فيقول اذ ذاك - العارفون : إن اللؤلؤ مات ، وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها رغما من وجودها فى نفس الظروف المفروض أنها سبب الموت - وهذا الاختلاف يرجع الى ما سماه الأستاذ« دوبوا» : ضعف اللؤلؤ أو قوته ففى نظر هذا العالم هناك أمزجة مختلفة فى اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية والبعض الآخر لا يتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر وموت اللؤلؤ هو السبب فى أن أغلب لآلئ المصاغ المحفوظ فى

المتاحف ذهب ماؤها واندثر لمعانها، واللؤلؤ الكروى أو القريب منه هو أعلاه ، وهناك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف اللآلئ وهى أقل قيمة من الأولى . وتستعمل فى أنواع المصاغ الذى لا يرى فيه إلا أنصاف اللآلئ كرؤوس الدبابيس وما شابه ذلك(١).

خواص اللؤلؤ:

هذا وقد ذكر العلماء عديدا من الخواص التى تتعلق باللؤلؤ فقالوا .. من خواصه: تفريح القلب ، وبسط النفس ، ومقاومة السم ، وتحسين قيمته وإظهار جماله ولا يظهر لون الزمرد مثل اللؤلؤ ولا يظهر لون اللؤلؤ مثل الزمرد، ويتخذ من طبقات الصدف اللؤلؤى صفائح شبيهة باللؤلؤ تسمى عروق اللؤلؤ ويقال : إن كل صدفة من صدفه طبقة ، كل طبقة ذات وجهين وفيه علم لأرباب الأذواق وأهل التصوف والفلسفة(٢).

خواص المرجان:

فقد قال فيه علماء هذا الفن : إن المرجان من عجائب مخلوقات الله يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب ، وفتحة فمه التى فى أعلى جسمه محاطة بعدد من الزوائد يستخدمها فى غذائه فإذا لمست فريسة هذه الزوائد، وكثيرا ماتكون من الأحياء المائية كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل فى الحال ، والتصقت بها فتنكمش الزوائد وتنحنى نحو الفم حيث تدخل الفريسة الى الداخل بقناة ضيقة تشبه مرئ الإنسان ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية يتم بها إخصاب البويضات، حيث يتكون الجنين الذى يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ويكون حياة منفردة، شأنه فى ذلك

---

(١) انظر : (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم) جـ٢٤، ص ٢٧ .للشيخ طنطاوى جوهرى.

(٢) أنظر : (نخبة الدهر) ، ص ٧٨.

شأن الحيوان الأصلى ، ومن دلائل قدرة الخالق أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هى (التزرر) وتبقى الأزرار الناتجة متحدة مع الأفراد التى تزررت منها وهكذا تتكون شجرة المرجان التى تكون ذات ساق سميك، تأخذ فى الدقة نحو الفروع التى تبلغ غاية الدقة فى نهايتها ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمترا والجزر المرجانية الحية، ذات ألوان مختلفة نراها فى البحار صفراء برتقالية أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهته، والمرجان الأحمر هو المحور الصلبى المتبقى بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان . وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة ، وكان المظنون أن هذه المستعمرات إن هى إلا قمم البراكين المغمورة تحت الماء، وأكثر ماتوجد هذه المستعمرات فى المحيطين الهندى والهادى - حيث ترتفع عن الماء، وتتسع حتى يبلغ من اتساعها أن تستعمر وتؤهل بالسكان - وقد تبقى تحت سطح الماء وبذلك تصبح خطرا يهدد الملاحة ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية ، المعروفة باسم الحاجز المرجانى الكبير الموجود بالشمال الشرقى لاستراليا ويبلغ طول هذه السلسلة ألفا وثلاثمائة ميل وعرضها خمسين ميلا، وهى مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم(١).

تأملات:

هذا هو المرجان الذى نشاهده كمظهر من مظاهر التحلى والجمال لدى نسائنا يضعنه فوق براقعهن صفا واحدا منتظما من أعلى إلى أسفل وتتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان فى الأعلى والذهب فى الأسفل.

فمن ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانه كانت صنع حيوان صغير جدا، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلاف وآلاف كونت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ثم تتكامل إجتماعا وتتلاحق إتساعا وتمتد

---

(١) أنظر : الله والعلم الحديث ، ص ١١٦. لعبد الرازق نوفل .

ذراعاً وباعاً وتتسع انفراجا فى البحر حتى تتكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضا تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان نراها فى المحيط الهندى والمحيط الهادى «الباسفيكي» وكيف نراها على شكل الخاتم؟ ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذى هو أزرق ، وإذا اجتمعت جزائر كونت حلقة أيضا وتعيش الحيوانات فى مائها ساكنة مطمئنة ، آمنه عاديات الدهر، وهيجان المحيط وترى شجر (الشيكولاته) يكسوها وهو جميل بهيج، ولو رأيت شجر المرجان لرأيت له فروع غبراء ، كظباء الصحراء، أو صفراء برتقالية أو حمراء قرنفلية، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تعبث بأغصانها . فأنظر كيف تصبح هى أنفسها نفس الصخرات المكونات للجزائر المرجانية ، وتكون معها جزيرة حجرية ، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى ألف ، إلى عشرة آلاف، إلى مائة ألف جزيرة كالجزائر المعروفة باسم « مالاديف» فهى ألف جزيرة كلها صخرية حجرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هى مساكن بناها الحيوان المرجانى الدقيق الذى سخره الله مع ضعفه ليبنى الجزائر فى البحر ويحفظها لتكون مساكن للحيوان بعد ذلك ، وموطن الأشجار النافعة للإنسان والحيوان، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تنكسر أمواج المحيط على جوانبها الناصعة البياض فتبارك الله أحسن الخالقين.

أليس فى هذا مظهر من مظاهر القدرة تستدعى منا التأمل فى المرجان.

تأمل العظمة فى اللؤلؤ:-

لسائل يسأل:يقول:قد وضعت عيوننا وقلوبنا على مظاهر العظمة التى تتجلى فى المرجان فهل هناك من مظهر فى اللؤلؤ يستدعى منا التأمل؟

أقول : ان تجليات عظمة الله كثيرة ، منها ماهو مشاهد محض. ومنها ماهو مغيب عنا . لأن الله عز وجل أمرنا بأن نعرفه من آثاره قال تعالى: ﴿ فَانظُرُوا إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ الله ﴾[1]. ومن آثار رحمته وإنعامه، هذه العوالم

---

(١) سورة الروم الآية ٥٠ .

التى الحديث بصددها كالمرجان الذى سبق ذكره. واللؤلؤ الذى يستدعى منا أن نلقى عليه نظرة تأملية ، أقول إن الله عز وجل جعل هذه الدنيا مرقاة للعقول الإنسانية ينهض بها إلى معارج الحكمة، فانظر إلى نظام اللؤلؤ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة « مبلورة» أى مشكلة بأشكال منتظمة من كربونات الجير، ثم إن هذا الذى نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب فى جماله وهنا يبتدء العجب فى العلم ، فنقول : اللؤلؤ إذا جير مع كربون - أى جير مع فحم - مادتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات امتصهما المحار فى ماء البحر، فالمحار هو الذى يتغذى بهذه المواد الجيرية، والمواد الفحمية وغيرها، وهذا الغذاء يصطفى منه هاتين المادتين الجير والفحم ، ثم يصيران جسما متحدا واحدا، وهذا الجسم يلمع، لماذا يكون هذا الجمال ؟؟.

ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره فضوء الشمس الآتى لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجيرى الفحمى فيجد هناك ذرات منتظمه تحيط بهذا الجرم صالحة لأن تعكس عنها ذلك النور فيحصل تموج باهر وجميل،فهذا هو جمال اللؤلؤ ، وهو ناشئ من تدبير فى باطن المحار وتدبير فى ضوء الشمس، وتدبير فى هيئة خلق اللؤلؤ فهناك مادة فى جير وفحم، وهناك نظام الذرات المنظم، وهناك شعاع الأنوار كالشمس وهذا يصدقه قوله تعالى :﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾[1]. فظهر هنا فى هذا كما فى غيره لطفه فى صنع اللؤلؤ إذ استخرجه من مواد معروفة عندنا لا بريق فيها ولا لمعان ، فما هو الفحم ؟.

إن هو إلا مادة مظلمة نحرقها فنستدفئ بها،، وبها تجرى القاطرات والسفن فى البحار وبها ندير آلاتنا ونصنع خبزنا وما نريد من الأعمال .

---

(١) سورة يوسف الآية ١٠٠.

ومنه اشتقت مئات الألوان فى الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذى تضاء به الطرقات وغيرها، إن الفحم أو الكربون. هو نفس الماس على شرط أن يكون نقيا، وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده مع الجير، إن الله اشتق من هذه المادة لؤلؤا وماسا كما اشتق العقل فى الانسان من المادة الجامدة، إن الفحم المظلم قد اشتقت منه الأنوار واشتق منه الجمال. فالأنوار معروفة مشاهدة، وهكذا أنواع ألوان الصباغة، وأما الجمال فهو ما نحن بصدده من اللآلئ الجميلة ، جعل الله الجمال هنا من مادتين منبوذتين الفحم والجير ليبين للناس أن كل ماحولهم فيه أسرار لا نهاية لها بل كَمُنَ فى كل مخلوق جمال لا يدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الإنسان مغرورون محجوبون. والعلم هوالذى يوقظهم لأمرين: رقى دنيوى ورقى نفسى.

أما الرقى الدنيوى : فلمثل ما ظهر فى هذا المقام من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبعه. كما قال الله تعالى :.{يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، فبأى آلاء ربكما تكذبان} فجعل ذلك من الآلاء أى النعم .

وذكر لفظ « رب» وإضافته للمخاطبين فقال ربكما أيها الانسان ويا أيها الجان وذلك ليدلنا على أمرين ، تربيته هو سبحانه لهذا اللؤلؤ. وتربيتنا نحن له وهو اللؤلؤ المولد فإن الناس يربونه الآن ، ولعمرك ما ذكره الله وعبر بما فيه من معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين : إلى أن فى ذلك علما تجب دراسته وجوبا كفائيا لرقى العقول ولرقى الصناعات بالتربيه العمليه من نوع الإنسان لهذا اللؤلؤ، وكرر الله لفظة (رب) وراء كل نعمة من النعم فى هذه السورة أعنى صورة الرحمن إيقاظا لنا أن نفكر فى تربية هذه العوالم كلها ونقف على الحقائق، وهذا هو سر « الفاتحة» التى يقرؤها المسلم صباحا ومساءا فيقول :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]. فسورة « الرحمن» التى جمعت ذكر المخلوقات فى الدنيا . والمخلوقات فى الآخرة قد ناطت ذلك كله

---

(١) سورة الفاتحة الآية ١.

بالتربية وأفادت إيضاح سورة الفاتحة وبينت التربية وأنواعها إجمالا فلم تذر شمسا، ولا قمرا، ولا نجما، ولا شجرا، ولا سماءا ،ولا أرضا، ولا فاكهة، ولا نخلا ، ولا حبا، ولا عصفا، ولا إنسانا ولا جانا - ولا شرقا ولا غربا. ولا بحرا، ولا برا ولا برزخا ولا لؤلؤا، ولا مرجانا، ولا نارا ،ولا نحاسا، ولا سفينة فى بحر، ولا جنة ، ولا حور عين،ولا غيرها إلا ذكر بها معبرا عنه بالنعمه وبالتربية ذكرى للمسلمين يعدنا فسيقرؤن هذا القول وأمثاله. ويدخلون فى بحر لجى من العلم والحكمة وهم مجدون.

من عجائب هذا المقام أنك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعيا أم مولدا أم كان صناعيا، ألم تر أن الصناعى إنما هو عبارة عما يكون من مواد عالقة بحراشف السمك وهذه المادة اللازمة يطلى بها الزجاج فالطبيعى من المحار والصناعى مما يرى منه حراشف السمك وهذا يطلى به الزجاج إما من داخل وإما من خارج، وماهو الزجاج؟؟ إن هو إلا رمل متحد مع ماغنسيوم وجير فرجع الأمر إلى الجمال من فحم وجير ورمل فأما المادة التى تلمع على حراشف السمك فإنها خلقت فيه لمنفعة نفسه، ذلك أنه ينعكس بسبب تلك المادة بريق فضى وهاج عن بطنها فبذلك تختفى عن أعين أعدائها لما تلقى على أعين أولئك الأعداء من النور الذى يبهر أبصارهم فلا تتمكن من رؤيتها فلا تقتنصها، فتعجب من مادة جاءت للسمكه وقاية من الأعداء، وللغانيات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء :﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(١) - ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾(٢).

معايشة مع النص :

إن المقام الذى نحن بصدده وهو إخراج اللؤلؤ والمرجان من البحر، يقتضى منا بالضرورة أن نتفهم قول الله تعالى :{يخرج منهما اللؤلؤ

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤.

(٢) سورة الذاريات الآية ٢٠.

والمرجان} وتوضيح ذلك يتجلى فى إجابه على سؤال فحواه، هل يخرج اللؤلؤ والمرجان من الماء العذب أو من الماء الملح أو من كليهما ؟؟

وهذه آراء العلماء اذكرها ثم أرجح المختار منها :

قال العلماء بصدد ذلك :

١) قال الجمهور : إنما يخرجان من الأجاج وفى المواضع التى تقع فيها الأنهار والمياه العذبة فحسن إسناد ذلك اليهما وهذا مشهور عند الغواصين.

٢) قال ابن عباس وعكرمة : تكون هذه الأشياء فى البحر بنزول المطر لأن الصدف وغيره تفتح أفواهها للمطر فلذلك قال (منهما).

٣) وقال أبو عبيدة : إنما يخرج من الملح لكنه قال : (منهما) تجاوزا.

٤) وقال الرمانى : العذب فيها كاللقاح للملح فهو كما يقال : الولد يخرج من الذكر والأنثى.

٥) وقال ابن عطيه وتبعه الزجاج : من حيث هما نوع واحد فخروج هذه الأشياء إنما هى منهما، وإن كانت تختص عند التفضيل المبالغ بأحدهما كما قال تعالى :

﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾[1]. وإنما هو فى إحداهن وهى الدنيا إلى الأرض، وهذا الرأى الأخير يرد عليه اعتراض مؤداه إذا كانا يخرجان من أحدهما فلم قال تعالى{ يخرج منهما}؟؟

أجابوا : بأنهما لما التقيا وصارا كالشئ الواحد قال : { يخرج منهما} ألا تراك تقول خرجت من القرية وأنت لم تخرج إلا من دار من دورها .

هذه هى آراء العلماء وقد تعددت كما رأيت ، والذى يظهر وهو الجدير

---

(١) سورة نوح الأيتان ١٥ ، ١٦.

بالاعتبار أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين لقوله تعالى (يخرج منهما) يؤيد هذا الرأى قول أبى عبد الله الرازى : ما نصه : كلام الله تعالى أولى بالاعتبار من كلام بعض الناس ، ومن أعلم أن اللؤلؤ لا يخرج بأمر الله من الماء العذب الى الماء الملح ، وكيف يمكن الجزم منه والأمور الأرضية الظاهرة خفية عن التجار الذين قطعوا المفاوز وداروا البلاد فكيف لا يخفى أمرها فى قعر البحر ، عليهم ؟)(١).

هذا ويلوح فى الأفق سؤال فحواه : إذا كانت سورة « الرحمن » هى سورة النعم وقد تجلت نعمها لنا ولمسناها - فهل من نعمة نلمسها فى اللؤلؤ والمرجان ؟؟

اقــول :

١) إن الله تعالى حينما خلق الأشياء نوعها فى وجه الاستفاده منها. فمنها الضرورى كالأرض والرزق إذ بهما يحصل التمكن والإطعام . ومنها غير الضرورى كالحبوب ، ومنها ما يكون للزينه كخروج اللؤلؤ والمرجان،، وهذه العناصر من باب النعمه الجسمية، وعلى هذا فقد صدر السورة بالنعمة الروحية وهى تعليم القرآن . وذكر هنا النعمة الجسمية.

٢) إن قضية خلق الإنسان والجان ليس فى ذاتهما من باب النعمة وإنما هما من باب العجائب إلا أن خلق الإنسان فى ذاته نعمة، وعلى هذا فهناك عناصر أربعة وهى : الماء والهواء ، والتراب ، والنار - فالإنسان أصله التراب والماء ، والجان أصله النار ، وهذه الآية التى معنا تبين أن هناك مخلوقا آخر عجيبا وهو الحيوان الذى يعيش فى اللؤلؤ ، أليس فى هذا دليل على أن نعم الله كثيرة فى الآفاق ؟ ولذلك نرى الله عز وجل ذيل الآية الكريمة بما يدل على النعمة فقال تعالى :﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾(٢).

---

(١) أنظر : (البحر المحيط) جـ٨، ص ١٩٢.

(٢) انظر : (الفخر الرازى ، جـ٨ ، ص ١٥).

من آيات القــدرة جرى السفن[١] :

إن الذى يريد أن يتفـهم شيئا من ايحاء هذه الآية الكريمة يحق عليه أن يسـبح فى نظائرها من القرآن حتى يجد مـاذا قال الله تعالى فى هذا الصـدد، إن المتصفح لهذه الآية ونظائرها من آيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى قد ذكر نعمة الفلك والجوارى والسفن موضحا لها ومبينا أفضاله وآلاءه فيها، تارة يذكر أنه سخرها للإنسان كما فى قوله تعالى :﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾[٢]. وتسخيرها أن تجرى على وجهه مع ثقلها - وتارة يذكر أنه سخر البحر لتجرى فيه كما فى قوله تعالى :﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾[٣]. - وتسخير البحر - تذليله - لتطفو عليه السفن - وليحملها الى أقاصى الأرض، وعمم فى المنافع منها إذ قال (ولتبتغوا من فضله) وفضله على الإنسان فيه وفير اذ سخره له كى يحقق مآرب كثيرة ، منها إستخراج الأسماك ، أو الصيد ، ومنها إستخراج اللآلئ ، والمرجان المذكور فى الآية السابقة ، أو الغوص ، ومنها التجارة وكسب الأرباح ، ومنها الإرتحال إلى بلدان نائية بحثا عن وجوه الرزق، ومنها ركوبه للحج أو للجهاد، وقد شبه الله السفن فى البحر بالجبال فى البر للدلالة على أنها مهما إستطالت وعظمت حتى صارت كالجبال الضخمة الشاهقة فإن البحر يحملها بقدرة الله وتيسيره ، نعمة كبيرة على الانسان . وقد صور تتمة هذه النعمة فى قوله تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ

---

(١) المناسبة : لما ذكر سبحانه الخارج من البحر بماء السماء ذكر السائر عليه بالهواء وأشار بتقديم الجار الى أن السائر فى الفلك لا تصريف له وإن ظهر له تصريف فهو لضعفه كلا تصريف فقال تعالى :(وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام). - نظم الدرر ، جـ٥ ص ٣٨٤.

(٢) سورة ابراهيم الآية ٣٢.

(٣) سورة الجاثية الآية ١٢.

رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾[(١)]. ومعنى رواكد : ثوابت لا تجرى فى البحر- ومعنى (يوبقهن) يهلكهن، والله عظم فضله يقول إنه إن يشأ ينزل بالفلك الجوارى إحدى كارثتين إما كارثة سكون الريح ، فترقد على متن البحر ولا تستطيع الحركة والانطلاق ، وإما كارثة العواصف المدمرة فتهلك غرقا بسبب ما اقترف من فيها من الذنوب ومع ذنوبهم وسيئاتهم يذكر العفو، بل إنه يذكر الكارثتين ليبين أنه يتفضل على من يركبونها بدفعهما عنهم فهو يصرف عنها الكوارث ، ويدفعها فى البحر برفق كما قال تعالى :﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[(٢)]. ولعظم هذه النعمة وجلالها بما ذلل فيها من البحر ومياهه والرياح اللينة التى تجرى رخاءا أدخلها فى إقسامه التى أقسم فيها ببعض مخلوقاته ، دلالة على أنها من عظيم آياته إذ قال تعالى :﴿ ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾[(٣)]. والذاريات - الرياح تذر التراب وغيره - أى تدفعه دفعا و (الحاملات وقرا) أى حملا عظيما - هى السحب الحاملة للمطر التى تدفعها الرياح ذات اليمين وذات الشمال محييا بها الأرض بعد موتها (والجاريات) السفن تسوقها الرياح (يسرا) فى سهولة بكل ما تحمل من متاجر. ومن مسافرين بالغة بهم غاياتهم ، أية كبرى من آيات الله ينبغى أن يقابلها الانسان بالشكر على ما أولاه ، وذكر هنا بعض الأسلاف أن الآيات القريبة السالفة فى السورة إشتملت حتى هذه الآية على العناصر الأساسية الأربعة وهى - التراب - والنار - والماء - والهواء.

ففى قوله تعالى { خلق الإنسان من صلصال} إشارة إلى أنه مخلوق

---

(١) سورة الشورى الآيات من ٣٢ - ٣٤.

(١) سورة الإسراء الآية ٦٦.

(١) سورة الذاريات الآيات من ١ : ٣.

من تراب عجيب الشأن وقوله {وخلق الجان من مارج من نار} صريح فى ذكر النار وأنها أصل لمخلوق غيبى مستور عن بنى الإنسان وقوله {يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} إشارة إلى أن الماء أصل لكل شئ حى. عظيم القدرة والقيمة – وقوله { وله الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام } إشارة إلى الهواء، وأن له تأثيرا قويا فى جريان السفن الثقال كأنها الأعلام أو الجبال، وللقرآن الكريم أسرار تستدعى منا النظر فيها لنتفهمها ونتدبرها، فمن أسراره التى تسجلها هناالآية الكريمة فى قوله تعالى {وله الجوارى المنشآت } أن الله تعالى أضاف السفن الجاريات الى ذاته قال (وله) أى ولله لأنها تجرى بقدرته ولا يحفظها فى خضم البحر وشبح الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته فهى له سبحانه وقد كانت وما تزال من أضخم النعم التى مَنّ الله بها على العباد فيسرت لهم من أسباب الحياة بالانتقال والرفاهية والكسب ماهو جدير بأن يذكر ولا ينكر، ومن الملاحظات القيمة التى تحسب للقرآن وتدلناعلى تفننه فى أسلوبه وأن وراء كل لفظ من ألفاظه سر جدير بالبحث فيه. فمن ذلك تسميته هنا فى الآية الكريمة « السفينة » جارية لأن المقام مقام إظهار العظمة ، بينما فى قصة « نوح » عليه السلام أعطاها مصطلحا آخر فقال تعالى:﴿ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[١]. وفى حادثة الطوفان راعى فى تسميتها الأصل فقال تعالى :﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾[٢]. بينما فى آية أخرى يطلق عليها لفظ الجارية فيقول تعالى :﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[٣]. والسر فى هذا التباين فى الأسلوب والذى اختلف فى آية عن أخرى : هو أن القرآن يراعى مقتضى الحال وهذا من بلاغته ، تبيين ذلك أنه أطلق على السفينة «

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٧.

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٥.

(٣) سورة الحاقة الآية ١١.

فلكا» وذلك قبل أن تعمل لأنها لم تجر بعد وفى ذكر الطوفان كان المقام مقام إنجاء فسماها سفينة مأخوذه من سفنت الماء إذا مخرت عبابه وقشرته[١].

فهى تحمل معنى السرعة وفى سورة الحاقة المقام مقام طغيان الماء فسماها جارية لأنها تجرى على وجه الماء ، والآية التى معنا جمعت بين هذه المعانى لا سيما وأن بلاغة القرآن تظهر أكثر حين يعبر الله بصيغة الجمع فى الجوارى والأعلام وبالإفراد فى البحر ، وذلك لأن إفراد البحر يدل على العظمة حيث إنه بحر واحد مترامى الأطراف وقد جمع فى باطنه سفنا كثيرة بخلاف مالو جمع البحر لأدى ذلك أن تكون السفينة فى بحر دون بحر آخر فلا تظهر العظمة.

وتشبيه الجوارى بالأعلام وهى الجبال له من الضخامة والعظمة ماله فلذلك حث العباد على إظهار قدرته ونعمته فقال تعالى { فبأى آلاء ربكما تكذبان}.

*****

(١) مختار الصحاح ، ص ٣٠٢.

المبحث السابع

الفنـاء والبعـث

وأبدأ هذا المبحث بالحديث عن الفناء الذى هو بالضـرورة يؤدى إلى البقاء فى ظلال الآية الكريمة :﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴿٢٧﴾ ﴾(١).

فكل من على الأرض فان هالك ، وهو هلاك وفناء مستقر فى طبيعة الموجودات الممكنة، ونسبة الوجود إليها كنسبة العدم لابد من سبب يرجحه، وهو الله تعالى عله الوجود ومنشؤه ، ويمتنع أن يكون وجود الله ممكنا، لأن الممكن لايقوم الوجود بذاته من ذاته ، وإنما يقوم به من علة خارجة عنه ، مما يعين أن يكون وجود الممكن انسانا وغير إنسان مستفادا من وجود غير ممكن الوجود بل واجب ومنه تستفيد الممكنات جميعا وجودها فهو موجدها ومنشؤها ، وهو الذى يمد لها فى الوجود والبقاء فيحفظها عليها حسب مشيئته حتى يحسرهما عنها ، فتسقط فى الفناء والهلاك ومعنى ذلك أن وجود الإنسان عارض ، فقد وجد ، أوبعبارة أخرى . حدث بعد أن كان معدوما ، وحدوثه أو وجوده إلى حين حسب ما كتب له الله من حياة وبقاء، وهلاكه وفناؤه لا يعنيان العدم المطلق ، فإنه يموت ثم يحيا بعد موته . وإذا قارنا ما صوره الله من ترقية بوجوده فى حياته الدنيا إلى ما صوره من فنائه وإقامته فى البرزخ او القبر وبعثه ثم حياته فى الدار الآخرة لوجدنا تشابها فى الصورتين ، فقد خلق الله الانسان الأول بعد عدم من تراب ثم تحول به صلصالا ثم (سواه ونفخ فيه من روحه) وأخذ يتناول حياته الدنيا، وكذلك ابناؤه أحدثهم بعد عدم من نطفة، تدرج بها حتى تحولت جنينا وتحول

---

(١) المناسبة : بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى نعمه على عباده فى البروالبحر والسماء والأرض أردف ذلك كله بأن كل هذه النعم ستفنى ولا يبقى إلا ذاته الكريمة فقال تعالى (كل من عليها فان) - نظم الدرر ، جـ٥ ص ٣٨٥.

الجنين طفلا ، ونمى الأطفال وكفلت لهم الأسباب الكونية والدينيه الروحية، فاهتدى منهم من اهتدى وضل من ضل ، وسعد من سعد، وشقى من كتب عليه الشقاء وهذا التدرج الدنيوى للإنسان من العدم إلى حجاب التراب والطين والصلصال ونفخ الروح فى آدم وحجاب النطفة والتكون فى أثناء الحمل حتى الولادة فى أبنائه ثم الحياة الدنيوية، يقابله تدرج الإنسان الأخروى من فنائه بعد وجوده الى حجاب القبر أو برزخه وكأنه يعود الى التراب الذى نشأ منه أبوه أو قل : الذى تكونت فيه نشأته الأولى . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النشأة مرارا من مثل قوله تعالى :﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[١] . وقوله تعالى :﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾[٢]. فقد نشأ الإنسان من الأرض ومرت به أطوار حتى هلك وعاد إليها بعد هلاكه ليبدأ نشأته الثانية الخالده وعلى نحو ما تغيب عن الانسان حياته فى حجابه الدنيوى تغيب عنه أيضا حياته فى حجابه الأخروى فلا يدرى من أمرها شيئا طوال حياته الدنيوية.. وقد ورد فى القرآن مايشهد بأن للإنسان حياة فى هذا الحجاب إذ جاء فى قوله تعالى عن شهداء يوم أحد:﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٣]. - وجاء في قوله تعالى عن آل فرعون :﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾[٤] .

وواضح أن الآية تدل على عذابهم فى القبر حتى قيام الساعة ، وروى عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : إن أحدكم إذا مات عرض

---

(١) سورة نوح الآية ١٧.

(٢) سوره هود الآية ٦١.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٦٩.

(٤) سوره غافر الآيتان ٤٥ ، ٤٦.

عليه مقعده بالغداة والعشى . إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة)(١). ...وما يزال الانسان فى هذا الحجاب حتى يقوم البعث .

وجه النعمة فى الفناء:

هذا ولسائل يسأل يقول : **هل فى الفناء نعمة ؟**

والجواب : نعم ان فيه نعمه لأنه يزيل السور القائم بين الإنسان وحياته الأخروية الأبدية وما ينعم به فيها من رضوان الله السرمدى. وأيضا لأنه يتخلص من الحياة الدنيوية وآلامها ويرحل عنها إلى حياة روحية رفيعة . وليس هذا فحسب بل فيه فوائد كثيرة ذكرها العلماء :

١) منها :الحث على العبادة ، وصرف الذم اليسير إلى الطاعة.

٢) ومنها : المنع من الوثوق بما يكون للمرء ، فلا يقول إذا كان فى نعمة إنها لن تذهب فيترك الرجوع الى الله معتمدا على أمثاله وملكه.

٣) ومنها : الأمر بالصبر إن كان فى ضر فلا يكفر بالله معتمدا على أن الأمر ذاهب والضر زائل.

٤) ومنها : ترك اتخاذ الغير معبوداً والزجر عن الإغترار بالقرب من الملوك وترك التقرب إلى الله تعالى ، فإن أمرهم إلى الزوال قريب .

٥) ومنها : حب التوحيد وترك الشرك الظاهر والخفى جميعا لأن الثانى لا يصلح أن يعبد(٢).

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، جـ٢ باب – الميت يعرض المقعد عليه بالغداة والعشى ص ١٢٤ – وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب – الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه واثبات عذاب القبر ص ٢٠٦.

(٢) أنظر : محاسن التأويل جـ١٥ ص ٥٦١١. للقاسمى.

هذا وقد اختلف المفسرون فى معنى كلمة (وجه) المذكورة فى الآية الثانية والمضافة إلى الذات العلية.

١) فقيل الوجه : المقصد - أى يبقى مايقصد به ربك من الأعمال الصالحة ويتصل بهذا المعنى قول من قال : إن الوجه هو الجهة التى أمرنا الله أن نتقرب بها إليه وهى العمل الصالح والله يبقيه للعبد حتى يجزى به ولذلك وصف بالبقاء أو لأنه بقبول الله صار باقيا غير فان لقيام الجزاء عليه مقامه وهو باق .

٢) وقيل : الوجه هو وجه الموجودات الذى يلى جهة الله ، بمعنى أن الموجودات كلها فانية إلا بأعتبار الوجه الذى يتولاه الحق جل وعز .. والمراد شئونه وفيوضه على الكائنات فإنها باقية متصلة، وكأن هذا القول ينظر إلى رأى الصوفيه الذين يؤمنون بوحدة الوجود ذاهبين إلى أنه ليس فى الوجود ذوات مختلفة ، بعضها واجب الوجود، وبعضها ممكنة، يعرض له الوجود والعدم، إنما الموجود كله ذات واحدة لها شئون متعددة وتجليات متجددة.

٣) وقيل : الوجه رضا الله وثوابه كما جاء فى قوله تعالى :﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ ﴾(١) .أى لرضاه . وطلب ثوابه .

وفى كل هذه المعانى لكلمة (وجه) بعد عن سياقها فى الآية مع ما قبلها، وطبيعى لا يراد بها الوجه الحقيقى لما يقتضى ذلك من التشبيه على الله وأنه يماثل المخلوقات وإنما هى مجاز عن ذاته العلية.

يقول الزمخشرى : (الوجه) يعبر به عن الجملة والذات)(٢).

ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم ينقذنى من الهوان ؟؟ يقصدون انسانا ويشهد لهذا المعنى فى الآية ، وأن الوجه هو ذات الله

---

(١) سورة الانسان الآية ٩.

(٢) انظر : تفسير الكشاف جـ٤ ص ٣٥٥.

االقدسية ظاهر قوله :﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[١].

وقوله تعالى :﴿ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾[٢]. وهو الواضح المراد من هذه الآيات جميعا - وإن حاول بعض المفسرين صرف الكلمة فيها الى المعانى التى ذكرت ، و (الجلال) العظمة والمهابة ، و(الإكرام) الفضل التام واللطف ، وفى الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : إنه أهل أن يجله الناس وأن يكرموه عن تشبيهه بخلقه ، وأن يثبتوا له مايليق بشأنه من التعظيم.

ثانيها: إنه يجل ويكرم أهل طاعته.

ثالثها : إنه أهل فى نفسه للإجلال والإكرام . ولا ريب فى أن الإجلال فوق الحمد ويسن فى ركوع الصلاة أن يقول المصلى : سبحان ربى العظيم، وفى القيام يحمده ويثنى عليه فهو يمجده ثم يحمده ، أو هو يجله ويعظمه ثم يكرمه ويحمده ، ويمكن أن يقال إن الإجلال تمجيد وحب وإنعام.

وقيل : إن الجلال إشارة إلى كل صفة هى من باب النفى كقول القائل: الله ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض. ولذلك يقال : جل أن يكون جسما أو جوهرا أو عرضا - والإكرام إشارة إلى كل صفة هى من باب الإثبات مثل : الله قادر عالم حى قيوم . وهذا القول غير دقيق لأن نفى الصفة يتضمن إثبات مقابلها ، أوبعبارة أخرى يتضمن معنى ثبوتيا كما أن إثباتها يتضمن معنى سلبيا فمثلا قول الله تعالى :﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾[٣]. يتضمن كمال علمه وقوله :﴿ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾[٤]. يتضمن كمال حياته ووجوده وقولنا إنه قادر، يتضمن أنه غير عاجز ، وقولنا إنه عادل ، يتضمن

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٥.

(٢) سورة القصص الآية ٨٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

أنه غير ظالم وفى قراءة (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) على أن ذى تابعة لكلمه ربك لا لكلمة وجه ، وفى الحديث عن أنس بن مالك ﷺ عن رسول الله ﷺ قال :(ألظوا بياذا الجلال والإكرام)(١). والإلظاظ لزوم الشئ والمثابرة عليه والإلحاح، أى : ألزموا ذلك فى الدعاء ، ولذلك كان يتردد فيه على لسان الداعين : اللهم ياذا الجلال والاكرام ، وفى ذكر هاتين الصفتين بعد فناء الخلق إشارة إلى أنه جل وعز صاحب العظمة والسلطان وصاحب الافضال والانعام والإحسان فبعد هذا الفناء والعدم يتيح للإنسان حياة جديدة ينشئه فيها نشأة أخرى بعظيم قدرته وبإحسانه ورحمته، نشأة لا يلابسها فساد الموجود وإنحلاله على نحو ما كان الأمر فى النشأةالأولى ، بل يلابسها الخلود والبقاء إلى أبد الآبدين وكأنه يقول لعباده : إننى باق لكم، باق بعظمتى وفضلى فلا تغتموا فإن ماأفضيته عليكم فى دنياكم من آثار جلالى وحبى وإحسانى سيتبعكم فى أخراكم وبذلك نفهم تقريره الثقلين على آلائه إزاء الفناء وما يلحقهما من العدم فإن العدم والفناء سوران فاصلان بين الحياة الدنيوية الزائلة، والحياة الآخروية الخالدة ، وفى إنمحائهما وزوالهما نعمة ظاهرة تتبعها نعمة الجزاء والإثابة بالنعم السرمدية ومن ثم فيعقب الله تعالى على الآية الكريمة بقوله تعالى :{ فبأى آلاء ربكما تكذبان } ولاتكذيب حينئذ.

البعث ومايتبعه :

ضوء كاشف :

يهمنى قبل أن أتحدث عن البعث كقضيه هامة من القضاياالتى تحتاج إلى تفهم عميق وهذا المعنى هو الذى حدى بى أن أجعل للبعث عنواناً مستقلا فى هذا المبحث .

---

(١) أخرجه ابن مردويه كذا فى الدر المنثور جـ٦ ص ١٥٣ - وأخرجه الحافظ ابو يعلى - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٨١. وكذا مسند الامام أحمد عن أبى هرريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر جـ١٤ ص ٢٧٩ - كتاب الدعوات - باب دعوات يستجاب بها الدعاء .

يهمـــنى أن أعطـى القـارئ معايشــة لهـذا الجو قبل الخـوض فيه أقــول :

يبدو أن البشرية على طول ما جاهدت مستبسلة للفرار من فكرة العدم لبثت على مدى الحقب والدهور غير مطمئنه إلى تلك المحاولات القديمة التى التمست بها الأمل فى ألا يكون الموت هوالنهاية الأخيرة لقصة الرنسان . وفى أعماقـها كانت الحيرة تضنيها وهى تحتـال بوسيلة أو بأخرى على التدبير لما تعلقت به من رجاء فى عودة الحياة بعد الموت بمثل تحنيط جثث الموتى وتزويد قبورهم بكل مـاتعلقـوا به من متـاع دنياهم الفـانيـة ، ونحت تماثيل للبشـر الفانين ، تقاوم الفناء تبريرا لصراعها المرير فى رحلة الدنيا وحماية لإرادة البقاء فى الأحياء وما كان أحراها أن تتخلص من ذلك الهم الذى أرقها حين جاءتها رسالة السماء الأولى فمنحتها الأمل المرجو الذى ما تخلت عنه قط منذ بدأت حياتها على هذه الأرض.

لكن بقيـة من الشك والحـيرة ظلت تسـاورها وهى تصـغى إلى وعـد السمـاء فتحرمـها طمـأنينة القلب وراحة العـقل، وإذا كـانت قـد تطلعت إلى مـايمنحـها ، هذه الطمـأنينة فعذرها أن الأمل البعيد كان عزيزا وغـاليا بقـدر ما كان تصور تحققه صعبا وعسيرا.

وتتابعت الأديان تؤكد وجود الحياة الأخرى حتى جاء الإسـلام فلم يعد لإنسـان ينتظر رسـالة جـديدة تضـيف كلمـة إلى مـا جاء به الدين عن الحياة الأخرى.

ومن ثم حرص كـتاب الإسلام على الاسـتجابة إلى مـا ظلت البـشرية تلتمسه من اقتناع بإمكان تحقق أملها البعيد مقدرا ما فى طبيعة الإنسان الرشـيد الواعى من ميل إلى الجدل ومقررا حقـه فى أن يطلب مـايطمئن به قلبه ولو كـان مـتعلقـا بمسـألة غـيبيـة ، وللإنسـان أسـوة فى ابراهـيم عليـه السـلام، وقد تلا علينا القرآن من حديثه :﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ

تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾(١) . ولم يخرج هذا السؤال إيمان إبراهيم - ولا حرمه شرف إصطفائه نبيا وخليلا.

فماذا قدم كتاب الإسلام إلى الإنسان لكى يطمئن قلبه إلى تحقق أمله فى حياة أخرى تجعل لنضاله فى الدنيا قيمة ومعنى ؟؟

أو بتعبير آخر : ماذا قدم الدين فى ختام رسالاته ليريح البشرية مما طالما أضناها من حيرة وقلق وهى تقاوم فكرة العدم وتتشبث بالرجاء فى ألا يكون وجودنا فى الدنيا عبثا ينتهى بضجعة القبر ؟

لقد أثبت كتاب الإسلام ما كان من جدل الأولين حول البعث ودفع الشك فيه بالمنطق الذى يثبته النظر الحر والبصيرة المميزة والتأمل الواعى دون أن يحتاج الإنسان فيه إلى ظروف خاصة أو وسيلة من وسائل المعرفة الخارجية إن أتيحت لعدد من الناس فى بيئة معينة أو عصر خاص فليست بحيث تتاح لكل إنسان على اختلاف المستويات الحضارية والعلمية . وأقرب ما يلفتنا إليه كتاب الإسلام ما نراه فى الواقع المشهود من حياة الأرض بعد موتها وما ننظره بأعيننا من خروج الحى من الميت وخروجه الميت من الحى ، توطئة للإقتناع بأن الحياة بعد الموت ليست من المستحيل العقلى أو المستحيل العادى ، وفى هذا الصدد يضئ كتاب الإسلام قلوبنا بضوئه الكاشف إذ يقول :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢). والآيات فى هذا الصدد كثيرة وكثيرة ولست فى معرض تجلية هذه القضية الآن، إنما أضع هذه الخطوط العريضة التى بمثابة التمهيد لهذه القضية - فإذا شق على الإنسان أن يتصور حياة بعد موت فليتأمل فى الكون حوله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٩ .

يرى شواهد من الواقع الحى فى الأرض - تحيا بعد موت ، وفى الكائنات الحية تخرج مما يبدو لنا هامدا ميتا، لكن هذه الآيات التى إذا اقتنعت الإنسانية المتدينة بها والتى تؤمن بخالقها فقد بقى هناك مجال لما يثيره الملحدون من جدل فى أن الله هو الذى خلق الإنسان أول مرة ولا يسكت القرآن عن هذا بل يقدم برهانه الذى يجلوالريبة ويفحم الفكر ، والسؤال الذى عرضه كتاب الإسلام بصيغة التحدى لكل منكر أو مرتاب هو :﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾(١).

ثم نزلت آية أخرى من القرآن فضربت للناس المثل الصادع وساقت البرهان المفحم :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾(٢).

ولقد مضى على الناس منذ ضرب لهم كتاب الإسلام هذا المثل نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، إرتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق. ماأرتاد وتابع نضاله الباهر العجيب فى كشف الغاز الوجود وأسرار الكون الى أن غزا الفضاء وأوشك أن يهبط على القمر، وما يزال المثل القرآنى يتحدى كل جبروت الغزاة وعبقرية العلماء، ومايزال على الذين غرهم الغرور بما حقق إنسان العصر الحديث من معجزات العلم، أن ينسخوا ذلك المثل، بأن يجتمعوا فيخلقوا ذبابا، أو يستنفذوا شيئا سلبتهم إياه هذه الحشرة الضئيلة إلى ثقلها ذرة من هواء مشبع بمبيد الحشرات وتستطيع مع ذلك أن تسلب مخترع المبيد حياته بلمسة هينة خاطفة تحمل إليه جرثومة داء مميت، وأن الإنسانية مهما علت وتسامت بفكرها وعلمها فلن تستطيع أن تحل هذا

---

(١) سورة الطور الآية ٣٥.

(٢) سورة الحج الآية ٧٣.

اللغز الذى هو خيط بين الموت والحياة، إنه الفناء أولا ثم البعث ثانيا .. ولو حاول الإنسان بعلمه أن يناهض تلك الحقائق ما استطاع لذلك سبيلا فلا أصدق من قول الله تعالى تنزيلا لضرب المثل السابق (ضعف الطالب والمطلوب).

حقيقة البعث :

وسأعرض هنا للبعث من حيث تعريفه اللغوى والشرعى أقول :

البعث في اللغة : مأخوذ من . بعثه وابتعثه : أى أرسله . وبعث الناقة أثارها. وبعث فلانا من منامه . أهبه وهيئه. والبعث الحشر والنشر.

ويقال : تباعثوا بالخير أى تواصوا به ، وبعث الشئ ، وبعثوه – أثاره ويوم البعث – يوم يبعثنا الله تعالى من القبور، وخرج فى البعث : وهم الجنود يبعثون الى الثغور)[1]. وواضح من هذا أن البعث فى لسان الشرع معناه إحياء الموتى ليساقوا إلى موقف الحساب يوم القيامة قال تعالى :﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2]. ويقول تعالى :﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[3].والاستخدام اللغوى لكلمة البعث تنبئ عن أمرين

أولهما : وجود مصدر عام عامل ، يعد المبعوث ويهيؤه الى الجهة التى يبعث به اليها ويحدد الغاية التى يعمل لها.

ثانيهما : وجود مبعوث صالح للبعث ، وأداء المهمة التى من أجلها

---

(١) أنظر : مختار الصحاح ص ٥٧ – والمصباح المنير جـ١ ص ٧٣.

(٢) سورة الحج الآية ٥.

(٣) سورة الحج الآية ٧.

يبعث، تقول : بعثت فلانا إلى كذا من الناس أو إلى الجهات لمهمة محدودة وهذا مايشير إليه قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾(١).وقوله جل شأنه :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(٢).

ولعلنا إذا نظرنا فى الاستخدام الشرعى لكلمة البعث بعد نقلها الى لسان الشارع على المعنى المصطلح عليه وهو بعث الأموات يوم يقوم الناس لرب العالمين، لعلنا إذا نظرنا إلى هذا الإستعمال لرأينا أنه يحمل من الأصل اللغوى (لكلمة البعث) الأمرين الذين أشرت إليهما وهو أن هذا البعث للأجساد لا يكون إلا بدعوة من داع قادر عاقل يبعث الحياة فى هذه الأجساد الهامدة ويهيؤها لتكون صالحة لإجابة الدعوة إلى الجهة التى تبعث إليها وأن هذه الأجساد بعد أن تلبس ثوب الحياة قادرة على أن تبعث إلى موقف الحساب وعلى هذا فقد كان من بلاغة التعبير القرآنى ودلالة إعجازه استخدام كلمة (البعث) فى معناها الشرعى الدال على بعث الحياة فى الأموات يوم النشور ليكون من مدلولها أن هذا البعث ليس متولدا من ذاته إذ لابد من باعث له لأن كلمة البعث تشير إلى باعث ومبعوث كما قلت والمبعوث لا يكون باعثا، ولا يكون مساويا للباعث فى مقامه وإنما هو متحرك مرسل بمحرك ومرسل له ، هذا ويرادف البعث الميعاد والحشر فى المعنى الشرعى ، أما الميعاد فى اللغة فمشتق من العود ، وحقيقته ، العود إلى المكان أو الحال الذى كان الشئ فيه أو عليه فزايله وبان عنه ثم عاد إليه ثم يظل إلى حالته الأولى أو إلى الموضع الذى يصير إليه الانسان بعد الموت)(٣).

أما الحشر : فهو الجمع وسمى يوم القيامه حشرا لأنه مجمع الناس

---

(١) سورة الجمعة الآية ٢.

(٢) سورة النحل الآية ٣٦.

(٣) من مختار الصحاح ص ٤٦٠.

للحساب والجزاء يقول سبحانه وتعالى :﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾(١).

البعث والعقل :

تسلطت فكرة الحياة بعد الموت على العقل الانسانى منذ وجد الإنسان، ومنذ رأى الموت يتخطف الناس من حوله وينال القريب والبعيد منهم ، وأن يد الموت ليست بعيدة عنه وأنها لابد أن تمتد إليه يوما ، بعد هذا اليوم أو قرب، إن الموت هو الذى أثار فى الانسان غريزة التدين ومايتصل بها من البحث عن الإله أو الآلهة، وتشكيل صور من العبادات وإعداد النفس للحياة الآخرة والعمل لحياة طيبة فيها، أو تجنب العذاب، والآلام التى يلقاها العصاة والأشرار هناك ، إن حب الحياة هو الذى خلق فى الإنسان الأول شعوراً بالحياة بعد الموت هذا الحب قد مكن لهذا الشعور، ووصله بحياة الإنسان كلها جيلا بعد جيل ثم مازال هذا الشعور بالإنسان يقيمه ويقعده، ويغدو فى كيانه ويروح حتى اتصل بالعقل واستولى على الجانب القوى منه ، فإذا هو فلسفة وإذا هو عقيدة راسخة ودين مكين ، وقبل : أن تجئ الديانات السماوية ، وقبل أن تقول كلمتها فى الحياة الأخرى قالت الإنسانية كلمتها قالتها بكل صور القول وطرائقه ، قالتها بوجدانها وإدراكها .. قالتها شعرا ونثرا وقالتها شعوذة وفلسفة ، وقد كان الموت ظاهرة دعت إلى إلتفات المجتمعات الأولى من الإنسانية إليه وإعتباره ظاهرة طبيعية ينتقل بعدها الإنسان إلى مرحلة جديدة من حياته فى هذا الوجود، على حسب ما وقع لكل مجتمع من تصورات لتلك الرحلة التى تعقب الموت، لذا فإنى سأعرض فى ثنايا هذا المبحث عن بعض المعتقدات القديمة فى شأن البعث عند الأمم التى آمنت به وعملت له ، ثم تكون هناك وقفة أخرى مع بعض الفلاسفة حتى نستعرض هذه القضية فى مجال العقل بعد أن رأيناها فى مجال الشعور والوجدان .

---

(١) سورة هود الآية ١٠٣.

البعث فى الديانة الفرعونية :

إعتقد الفراعنة أن الخلود لا يكتب إلا للأخيار، وهذا الخلود فى عرفهم عبارة عن فراديس من الجنان يكون فيها هؤلاء ولايحق للإنسان أن يدخل هذه الفراديس إلا عن طريق صاحب المعبر، وصاحب المعبر هذا شيخ طاعن فى السن يقال له (أوزير) هذا الرجل كان يأتى بميزان نو كفتين فيضع قلب الميت الخير فى كفة وريشة فى الكفة التى تقابلها فإذا رجحت كفة القلب كان صاحبها خيرا يحق له أن ينعم فى تلك الفراديس ، وقد كان (أوزير) هذا ، له أعوان على شكل قضاة ومحلفين يقضون معه فى براءة الإنسان أو إدانته.

وبهذا المعنى للعقيدة الفرعونية والتى تعتبر أن الخلود للأخيار دون الأشرار .. بهذا وجد الكهنة حينئذ فرصة للقيام بأعمالهم إذ إنهم أذاعوا بين الناس أن تلك الفراديس لا تنال بالأعمال الصالحة وحدها. بل هناك وسائل وسبل مختلفة تؤدى بصاحبها إلى الخلود وبالطبع فكان هذا من جانب الكهنة مصدر استحواذ عقلى ومادى من جانبهم لهؤلاء، والسبل التى هيأتها الكهنة والتى تؤدى بصاحبها إلى الخلود لها صور مختلفة.

١) أن يوضع فى قبر الميت وسائل الحياة من طعام وشراب ونحو ذلك على شريطة موافقة الكاهن وإلا فمثل هذه الأشياء لا تكون مقبولة لدى (أوزير).

٢) أن توضع فى قبر الميت طلاسم وصور وتعاويذ وما شاكل ذلك بشرط أن يباركها الكاهن بتعاويذه وأدعيته وإلا فلا.

٣) وهناك طريقة ثالثة وهى الطريقة المثلى لدى هؤلاء الكهنة وهى : أن يوضع بجانب الميت كتاب الموتى ، هذا الكتاب عبارة عن قراطيس كتبت فيها أدعية وصلوات ، وتعاويذ من الكهنة ، وهذه الأدعية وما شاكلها من شأنها أن تكسب عطف (أوزير) ومحلفيه وقضاته يوم الحساب فيأمن

صاحبها بقاء الخلود فى الفراديس . وهذا نموذج يضرب لنا مثلا عن الذى كان يكتب فى كتاب الموتى كدفاع عن الميت أمام (أوزير).

((سلام عليك أيها الإله العظيم ، رب الصدق والعدالة، لقد وقفت أمامك يارب ، وجئ بى لكى أشاهد ما لديك من جمال أحمل إليك الصدق، إنى لم أظلم الناس لم أظلم الفقراء، لم أفرض على رجل حر عملاأكثر مما فرض هو على نفسه ولم أهمل ، ولم أرتكب ماتبغضه الآلهة، ولم أكن سببا فى أن يسئ السيد معاملة عبده ولم أمت إنسانا من الجوع .. ولم أبك أحدا، ولم أقتل إنسانا ، ولم أخن أحدا، ولم أنتقص شيئا من مؤنة الهيكل ، ولم أتلف خبز الآلهة، ولم أرتكب عملا شهوانيا داخل أسوار المعبد المقدسة ، ولم أكفر بالآلهة ، ولم أغش فى الميزان ، ولم أنتزع اللبن من أفواه الرضع ، ولم أصطد بالشباك طيور الآلهة، أنا طاهر - أنا طاهر - أنا طاهر)[١] .

إن هذه المعانى الجليلة التى تضمنها هذا الدفاع كان جديراً بها ، أن تقيم الناس فى الحياة على أقوم طرق الحق والخير، كان ذلك شأنها لو أنها كانت سلوكا ، ولم تكن مجرد أقوال مقدسة تخدع الآلهة وتخلب ألبابهم، على أن عمل الكهنة هذا ، على ما فيه من عوج كان بابا من أبواب الأمل والرجاء للعصاه والأثمة فلم يعد الباب إلى النجاة موصدا أمام أحد، ولكن التوسع فى هذا الشأن إلى سوق الإتجار بالضمير وجعل بضاعتهم أقوالا أكثر منها أفعال.

البعث فى الديانة الفارسية :

لقد كانت البلاد الفارسية مسرحا لعديد من الديانات ، شأنها فى ذلك شأن كثير من البلاد التى كانت تشاركها فى الحضارات وكان يتربع على مسرح هذه - الديانات الفكر (الزرادشتى) وهو منسوب إلى زاردشت) وهو

---

(١) أنظر : مشاهد القيامة ، ص ١٤. لسيد قطب .

صاحب هذا المعتقد وكان (زرادشت) وقتها له تأثير فيهم كتأثير نبى من بنى إسرائيل فى اليهود، وكانت عقيدة (زرادشت) عبارة عن أن الإنسان له رساله فى الحياة على ظهر هذه البسيطة وأن قوى الخير والشر أو النور والظلمة، أو (أهورامزدا) و (أهرمان) متصارعان وعلى هذا فالحرب بينهما سجال، ولهما أربع جولات مدى كل جولة ثلاثة آلاف عام على إعتبار أن الإنسان يعيش على ظهر هذه الأرض إثنتى عشرةألف سنة وكان من يريد أن يكتب فى الخالدين فعليه أن ينضم إلى قوى الخير ومهما طالت الحروب فلابد من انتصار قوى الخير على الشر، هذه كانت عقيدة « زرادشت» إلا أن هذه العقيدة كانت تعتبر أن المتعة التى يصل إليها الإنسان الخير متعة روحية على أساس أن الجسد كم مهمل وأنه لا يعدو كونه شبحا تجسدت فيه الروح وعلى هذا فكانت هذه العقيدة تؤمن بإلقاء أجساد الموتى إلى الكلاب والطيور وما إلى ذلك)[1] .

البعث فى الديانة الهندية :

إن فكرة البعث لدى الهنود مختلفة الطرق متعددة المناحى والسر فى هذا ، كثرة الأديان والمذاهب التى كانت فيهم إلا أنها تتفق جميعا على طريقة الاستبطان والتأمل الذاتى : بعبارة أخرى ، على تجويع الجسد وإنهاكه فى الرياضات المختلفة ومن هنا فإن البعث فى الديانة الهندية كان على عداء مع الجسد ، بمعنى أن الأجساد كانت تحرق وأما الروح فقد كانت تتعاورها عقيدة التناسخ ، وهى : انتقال الروح التى مات صاحبها من الجسد التى كانت فيه إلى جسد آخر وهذا التنقل كان بصدده ثلاث فـرق :

فمن قائل : إن الروح تنتقل من صاحبها الذى مات إلى حياة أخرى حيوانية، متباينة ، وغير ذلك.

---

(١) من مشاهد القيامة ، ص ٢١. للشهيد سيد قطب

أما الفريق الثانى : فكان يؤمن بتنقلها من الإنسان إلى الإنسان . أو الحيوان.

أما الفريق الثالث : فكان يقصر الروح الإنسانية على ما يماثلها من الأناسى دون غيرها من الحيوانات الأخرى . وعلى هذا فالثواب والعقاب ليس معناه جنه أو نار.. وإنما التنعيم يكون بمدى ماتنتقل إليه الروح التى مات صاحبها إلى الجسد الذى حلت فيه(١) .

لقد وجد الهندى عزاءه فى عقيدة التناسخ لكن سرعان ماأحس بضيقها وقيدها حول عنقه إذ إنها تربطه بعجلة الموت والولادة . وبهذا فقد تسلطت على الهندى عقيدة التناسخ فكانت مبعث همومه وضجره بالحياة . وفزعه من الموت .. لأنه لا يدرى المهوى الذى يهوى إليه بعد موته ، ولا يعلم الكائن الذى تحل فيه ، فقد يكون حمارا أو كلبا أو دودة فالتمس الهندى وسيلة للفرار من هذا المصير المشئوم وكان أن وجد بعد جهد وعناء وبعد رياضة عنيفة ، وتأملات عميقة ، كان أن وجد (النرفانا).

لسائل يسأل : يقول : **(ما النرفانا ؟)**

والجواب كما صوره معتنقوها أن **النرفانا هى** : عودة روحه إلى المطلق حيث السكون والخمول ، فإذا اقتلع الإنسان بالتزهد كل شهوات نفسه لم يعد هذا الإنسان فردا جزئيا قائما بذاته ، إنه يمكن بهذا أن يتحد فى نعيم أسمى مع روح العالم ، وبهذا الإتحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد، إن فلسفة الهند الدينية فى شأن البعث هو الفناء فى المطلق.. الفناء الذى لا ينال إلا بالمجاهدة والرياضة ، التى لايقدر عليها إلا من ملك زمام نفسه ، ويبعد بها عن مطالب الجسد، وشهواته ، هذا ، ولم يكن الإتصال المطلق بالوجود، هو المدلول الوحيد الذى يفهمه الهنود من

---

(١) من كتاب (الفصل) جـ١ ص ٩٠. لإبن حزم الأندلسى .

ثمة (نرفانا) فإن هذه العقيدة بعد أن عاشت فى واقع التجربة مع المؤمنين بها. تشكلت فى صور متعددة ، ووقعت من نفوسهم مواقع مختلفة فخرجت منها مذاهب وتولدت عنها ديانات لها طقوس ومراسم كثيرة ، كانت هذه الكلمة فى تعاليم (بوذا) تعنى إخماد شهوات الفرد كلها ، وإنكار ذاته ، ومايترتب على ذلك الإنكار للذات ، من ثواب هو الخلاص من الحياة والفناء فى المطلق ثم صار للكلمة بعد هذا عدة مدلولات منها :

١) إنها حالة من السعادة يبلغها الإنسان فى هذه الحياة لا بعد موت باقتلاعه عن شهواته اقتلاعا تاما.

٢) تحرير الفرد من عودته إلى الحياة بعد الموت.

٣) إنعدام شعور الفرد بفرديته.

٤) إتحاد الفرد بالله.

٥) فردوس من السعادة بعد الموت .

وواضح من هذه المدلولات التى ترددت فيها كلمة (النرفانا) أنها لا تعنى حتمية الحياة بعد الموت فى جميع الأحوال ، فهناك اتجاهات تنحو (بالنرفانا) نحو السعادة الروحية فى الحياة الدنيا وحدها. حين يستطيع الفرد التحرر من مطالب الجسد ورغباته . وفى هذه الحالة يجئ الموت . والإنسان مطلق من دواعى الحياة فلا يشعر به ، ولا تنزع به نوازع إلى الحياة ، وهو يستقبل الموت ، أما الحالات التى تتحدث فيها (النرفانا) عن حياة أخرى بعد الموت فهى حياة لا يجد الفرد وجودا لوجوده فيها، إنها أشبه بالعدم .. فالوجود المطلق الذى يغرق فيه الفرد هو عدم مطلق بالنسبه له . إن الفرد فى هذا الوجود لا يجد وجوده ولا يعثر على ذات يقول عنها إنها (أنا) وعلى هذا فإن الإنسان الذى كان يحيا فى هذه الحياة الدنيا ويعرف له (ذاتا) محدودة لها مشاعرها ومدركاتها وتصوراتها ، هذا

الإنسان لن يجد نفسه فى الحياة الموعودة فى (النرفانا) وإذن فلن يبعث هذا الإنسان ولن تكون له عودة بعد الموت .

هذه هى نظرة الأديان المخالفة للإسلام عرضتها هنا لكى أعرج عليها بما قاله ديننا الإسلامى فى قضية البعث ليحق الحق ويبطل الباطل .. لكنى قبل أن أذكر هذه القضية فى الديانة الإسلامية وماقاله كتابنا .

أذكر لمحة يسيرة عن ما قاله بعض الفلاسفة ..

البعث عند ابن سينا :

يقول إبن سينا إن البعث يكون للأرواح دون الأجساد ثم يقيم الحجة على ما ذهب إليه فيقول مستفهما عن ماهية الإنسان ، وحقيقتة حتى يقيم عليه الحجة : ما هذا الإنسان ؟ وما القوة أو القوى المتحكمة فيه والمقيمة لذاته ؟ يجيب قائلا : (والإنسان إذا بدا له أن يتأمل فى الشئ الذى لأجله يقال له (هو) ويقول بنفسه (أنا) يخيل له أن ذلك بدنه وجسده.

(ثم إذا فكر علم أن يده ورجله وأضلاعه وسائر أجزائه الظاهرة لو لم تكن له من بدنه – لم يبطل ذلك المعنى الذى يشيرإليه . ومنه عرف أن هذه الأجزاء غير داخلة فى هذا المعنى منه حتى يبلغ إلى الأعضاء الرئيسية ، الدماغ ، والقلب ، والكبد وما جرى مجراها .. فكثير منها عند مفارقته لا يبطل هذه الحقيقة منه دفعة – بل عسي بعد مدة قليلة أو كثيرة ويبقى القلب والدماغ . أما الدماغ فقد يحتمل أن يفارقه جزء منه ويكون ذلك المعنى أى إحساس الفرد بذاتيته ثابتا منه ، وأما القلب فلا يمكن ذلك فيه فى الوجود ولكن فى التوهم لأنه قد يعلم الانسان أن بنيته التى نتكلم عليها موجودة ، ويجوز ألا يعلم حينئذ أن له قلبا وأنه كيف هو ؟ وماهو ؟ وأين هو ؟ فقد تبين من هذا وصح أن البدن بالكلية غير داخل فى المعنى المعتبر من الإنسان بل عسى أن يكون محلا له ، أو مقوما أو مسكناعلى أنه غيره وخارج الذات عنه

إلا أن الإنسان ألفه أى ألف الجسد وكثر إحساسه له واشتد اتحاده به – وحتى ظن أنه هو . أى أن الإنسان هو البدن ، فشق عليه مفارقته كما يشق عليه مفارقة كثير من الخارجات عنه على سبيل الإلف ، أما فى التحقيق فإن الإنسان أو الشئ المعتبر من الإنسان الذى هو الواقع عليه معنى (أنا) منه فهو ذاته الحقيقية وهو الشئ الذى يعلم منه أنه (هو) – هو النفس ضرورة)[١] .

هذا هو رأى ابن سينا فى البعث وواضح من خلال عرضه أنه يخالف الواقع إذ أن ما اعتمد عليه يناقض ما انعقد عليه الإجماع من أن البعث يكون بالروح والجسد معا ، لذا فأنا أكر عليه بالبطلان من خلال عرض رأى عالم وفقيه من علماء الإسلام حتى يكون فيما ذكره تفويضا لصرح هذا البنيان.

الراغب الأصفهانى ورايه فى البعث :

يقول الراغب الأصفهانى (لم ينكر المعادو النشأة الأخرى إلا جماعة من الطبيعيين أهملوا أفكارهم ، وجهلوا أقدارهم ، وشغلهم عن التفكير فى مبدئهم ومنشأهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات ، وأما من كان سويا ولم يمش مكبا على وجهه وتأمل أجزاء العالم ، علم أن أفضلها ذوات الأرواح وأفضل ذوات الأرواح – ذوات الإرادة والأختيار وأفضل ذوات الإرادة الاختيار الناظر فى العواقب وهوالإنسان فيعلم أن النظر فى العواقب من خاصية الإنسان وأنه سبحانه وتعالى لم يجعل هذه الخاصية له إلا لأمر جعله فى العقبى وإلا كان وجود هذه القوى فيه ، باطلا فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهى إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصبا وهما وحزنا ولا يكون بعدها حال مضبوطة لكان أخس البهائم أحسن حالا من

---

(١) من كتاب – الله والانسان – ص ٢٩٣. لعبد الكريم الخطيب أ. قضية الألوهية بين الفلسفة والدين ، الطبعة الثانية .

الإنسان فيقتضى هذا أن تكون هذه الحكم الإلهية والبدائع الربانية التى أظهرها الله فى الإنسان عبثا كما نبه الله تعالى بقوله :﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(١). فإن إحكام بنية الإنسان مع كثير بدائعها وعجائبها ، ثم نقضها وهدمها ، من غير معنى ، سوى ما تشاركه فيه البهائم من الأكل والشرب والفساد مع مايشبهه من التعب الذى أعتى عنه الحيوان ، سفها - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا(٢) . هذا رأى فقيه من أئمة المسلمين فى حتمية البعث - وقد أقام رأيه على العقل والنقل معا .

البعث فى الإسلام :

تناول القرآن الكريم قضية البعث فى أروع وأوفى ما يكون التناول، والبحث فى قضية من قضايا الحياة بين يدى أرباب الخبرة والتخصص فيها بل إن ذلك لا يعدل شيئاً الى جانب ما جاء به القرآن فى هذا ، من فنون المنطق ومسالك الرأى .. لم يجىء القرآن إلى قضية البعث من جهة واحدة وإنما جاء إليها من جميع الجهات ولم يخاطب عقول الفلاسفة وحدهم ولا العلماء وحدهم ولا العامة وحدهم ، وإنما خاطب هؤلاء. جميعا وقدم لهم جميعا الحجة الدامغة والدليل المفحم والشاهد المبين ، وفى هذا المجال تعددت مواقف القرآن . وتعددت المشاهد والصور التى تشهد لقضية « البعث » وتتحدث عن إمكانها .. ولكى نفهم موقف القرآن من تلك القضية ينبغى أن نعرف أولا موقف المنكرين لها ، أو الشاكين فيها الذين واجههم القرآن وأسقط حجتهم ، والحق أن العرب لم يكونوا على رأى واحد فى البعث فكان منهم من يرى أن هناك بعثا وحياة بعد هذه الحياة ، ولكن هؤلاء ، أفراد قليلون وهم مع قلتهم لم يكونوا يتصورون البعث صورة صحيحة ، بل كان منهم من يرى رأى القائلين بالتناسخ أو شيئا من هذا مماتسرب إلى

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

(٢) أنظر : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، ص ٥٦. للراغب الأصفهانى.

الجزيرة العربية من آراء ومذاهب أما الغالبية العظمى من العرب ، فكانت تنكر البعث ولا تتصور إمكانه بحال أبدا ، وقد حكى القرآن كثيرا من دعاوى الإنكار وحجج المنكرين.

من مقولات المنكرين :

١) يقول سبحانه وتعالى :﴿أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون﴾(١). ويقول سبحانه :﴿ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا﴾(٢). ويقول تعالى :﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾(٣). ويقول تعالى :﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾(٤). ويقول تعالى :﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا﴾(٥). و يقول جل شأنه :﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾(٦). ففى هذه الآيات وأمثالها يكشف القرآن عن التصورات الخاطئة التى كانت تدور فى رؤوس أولئك الماديين الذين ينكرون الحياة بعد الموت ويستبعدون وقوعها بل ويرون هذا الوقوع أمراً مستحيلا.

إن العمى والجهل الذى ضرب على عقول هذا الفريق من الناس هو الذى وقف بهم هذا الموقف العنادى المغلق أمام قضية البعث ، فما استطاعت عقولهم الكليلة القاصرة أن تربط بين الحياة والموت وأن ترى فى خلق الإنسان وفى الصور التى تقلب فيها بين نطفة ومضغة حتى صار هذا الإنسان الحى المدرك لم تستطع هذه العقول السقيمة أن تربط بين هذه

---

(١) سورة الصافات الآية ١٦.

(٢) سورة مريم الآية ٦٦.

(٣) سورة يس الآية ٧٨.

(٤) سورة النحل الآية ٣٨.

(٥) سورة التغابن الآية ٧.

(٦) سورة الأنعام الآية ٢٩.

الحياة المتولدة من موات وبين الحياة التى تبعث من فى القبور.

٢) ويعرض القرآن قضية إنكار البعث فى أسلوب آخر .. إنه لا يجابه المنكرين للبعث بحجتهم أو حججهم التى يسوقونها لاستبعاد حدو ثه بعد أن يصير الإنسان رميما وترابا ، وإنما يحكى فى هذا الأسلوب صوراً من حياتهم القائمة على إنكار البعث دون أن يفضح ادعاءهم او يريهم بطلان دعواهم .

إن القرآن فى هذا اللون من الأسلوب يحدث عن واقع القوم فهم يتعاملون فيمابينهم على إنكار البعث والتهكم على المؤمنين به وهو فى هذا الأسلوب يحكى قولهم مجرد حكاية .. وأنهم إذ يستمعون إلى ما يحكيه القرآن عنهم ليسمعون الصواعق تنخلع لها القلوب وترعد منها الأبدان.. أرأيت إلى القاتل لا توجه إليه تهمة القتل، ولا تسوقه إلى موقف الإتهام ، ولكنك تحدثه عن القتلة والقتلى، وتقص عليه طرفا من أنبائهم ثم تطوف به فى حديثك هذا على ساحات القضاء وترسم له صورا من منطق القضاء فى القصاص ، وكيف يتلقى المجرمون كلمات الإدانة تنطق من فم القضاة فتصفر لها الوجوه وتغيم منها العيون ، وتذهل لهذا العقول ، وتثقل منها الرؤوس، وتتخاذل الأقدام .. أرأيت إلى هذا ؟؟ أنت لا تكاد تنتهى من حديثك هذا مع القاتل حتى تراه وقد جف ريقه وضاق صدره ، واضطرب كيانه ، وأنه لا يكاد يصرخ من أعماقه .. إنى قاتل .. إنى قاتل.. ولو أنك واجهته بجريمته من أول الأمر للقيك مكابرا معاندا .. إنه لمظلوم !! وإنه لبرئ.. وقد تصرف القرآن أروع تصرف وأبلغه ففيه الإرجاف بمنكرى البعث وإلقاء الرعب فى قلوبهم، من غير أن يواجههم بالإتهام والأدلة الدامغة عليه، وتستمع إلى آيات الكتاب فى هذا .. يقول سبحانه وتعالى :﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴾[١]. ويقول جل شأنه :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣١.

أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾[1]. ويقول سبحانه :﴿ وإنَّ كثيراً من النَّاس بلقاء ربهم لكافرون ﴾[2]. ويقول تعالى :﴿ والَّذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾[3]. ويقول تعالى :﴿ أولئك الَّذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا ﴾[4]. ويقول تعالى :﴿ إنَّ الَّذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدُّنيا واطمأنُّوا بها والَّذين هم عن آياتنا غافلون ۝٧ أولئك مأواهم النَّار بما كانوا يكسبون ۝٨ ﴾[5].

وهكذا يجد القارئ للكتاب أو المستمع له عشرات مثل هذه الآيات تلقى على أسماع المنكرين صوراً مفزعة للمصير المشئوم الذى سيصير إليه كل من كفر بلقاء الله ، إن آية من تلك الآيات وأمثالها لم تقل لإنسان أنت منكر للبعث، ولم تقل له ما مصيره ولكنها فى واقع الأمر قد تحدثت إلى كل منكر وأرته مصيرة ، وساقته إليه . فلينظر كل إنسان إلى نفسه وليعرف أين هو من هؤلاء المنكرين أهو على رأيهم ؟ أم هو على رأى آخر ؟ فإن كان على رأى هؤلاء المنكرين فإن عليه أن يفر من هذا الموقف .

٣) ومن تدبير القرآن فى مواجهة دعوى المنكرين أنه يطوف بهم فى ساحة القضاء (الدار الآخرة) ويعرضها عليهم فى صور شتى فيها عذاب وفيها مغفرة، فيها جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وفيها نار وقودها الناس والحجارة . لقد ذكرت الآخرة فى القرآن خمسة عشر ومائة مرة ، ولا شك أن دوران هذه الكلمة فى القرآن بهذه الكثرة دليل على أهمية موضوعها

(١) سورة الفرقان الآية ٣١.

(٢) سورة الروم الآية ٨.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٢٣.

(٤) سورة الكهف الآية ١٠٥.

(٥) سورة يونس الآيتان ٧ - ٨ .

وخطره ، فما التفت القرآن إلي أمر ، واهتم له ، وأشار إليه المرة بعد المرة، وعرضه فى صور شتى وفى صور متعددة إلا على حسب ماله من شأن في بناء العقيدة وكشف عالمها ، يقول الله تعالى :﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾[١]. ويقول تعالى :﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾[٢]. ويقول تعالى :﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾[٣]. ويقول تعالى :﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾[٤]. ويقول جل شأنه :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٥]. ويقول تعالى :﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾[٦]. ويقول سبحانه :﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾[٧]. وعلى هذا التصريف فى الآيات والتنويع فى الصورة ، تجئ مشاهد الآخرة مشهدا بعد آخر فينتظم منها جميعا مشهد البعث فى صورة مجسدة يكاد الإنسان يراها رأى العين قبل أن يجئ اليوم المعلوم .

مع المنكرين وجها لوجه :

والذين أنكروا البعث أو ينكرونه إنما هم أحد فريقين :

فريق لايؤمن بما وراء المادة مطلقا ، فلا يؤمن بالله، ولا بالحياة

---

(١) سورة الحديد الآية ١٨.

(٢) سورة الأعلى الآية ١٦.

(٣) سورة التوبة الآية ٣٨.

(٤) سورة النساء الآية ٧٦.

(٥) سورة آل عمران الآية ٨٥.

(٦) سورة الدخان الآيتان ٤٩ ، ٥٠.

(٧) سورة الملك الآية ٢٧.

الآخرة وهذا الفريق لا حساب له هنا فى قضية البعث : لأن موضوع هذه القضية فرع من القضية العامة وهى (الإيمان).

وفريق يؤمن بالله ، ولكنه لا يتصور إمكان (البعث) وقد حكى القرآن مقولات هؤلاء المنكرين وحججهم :﴿ وقالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾[١] -﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾[٢] -﴿ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾[٣] -﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ⑩ أءذا كنا عظاما نخرة ⑪ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ⑫ ﴾[٤] -﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾[٥] - ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾[٦]- كيف يمكن أن يقوم هذا الكيان الإنسانى ويلبس ثوب الحياة بعد أن تأكله الأرض وتهضمه وهل لهذه العظام النخرة أن يجتمع بعضها إلى بعض وأن تصبح ذلك الإنسان السميع البصير . الناطق العاقل. تلك هى المشكلة التى تملأ رؤوس المنكرين ظلاما وحيرة وفى كل مرة يحكى فيها القرآن قولا من أقوال المنكرين يلقى هذا القول بمايدفعه. ولايدعه يمر دون أن يكشف زيفه ويفضح باطله. ولا أريد أن أعرف الآيات التى حكى فيها القرآن كل مقولات المنكرين ورده عليهم وإفحامه أن أعرض لهم وحسبنا أن نقف عند بعض منها. فى هذا إشارة إلى منهج القرآن ، ولمحة دالة على سلامة موقفه وقوة حجته فى هذه القضية ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم﴾. هذه مقولة من مقولات المنكرين .

---

(١) سورة الصافات الآية ١٦.

(٢) سورة يس الآية ٧٨.

(٣) سورة ق الآية ٣.

(٤) سورة النازعات الآيات من ١٠ - ١٢

(٥) سورة الإسراء الآية ٤٩ ، الآية ٩٨.

(٦) سورة مريم الآية ٦٦.

وقبل أن ننتهى بالرد المفحم لهذه المقولة المنكرة أود أن نقف وقفة قصيرة عند قوله تعالى ، فقد جاءت هذه الجملة فى سياق الدعوة التى يدعيها منكروا البعث فلم يضرب المثل بالعظام البالية ؟؟ ولم لا يطلب المثل من ذاته هو ؟؟ هذا الكائن الحى الناطق ماذا كان قبل أن يكون هكذا ؟؟ إنه لم يك شيئا . كان عدماً مطلقا. أما هذه العظام فهى على أى حال شئ كان له وجود وله حقيقة معروفة فإذا تخلق منه إنسان فليس ذلك أبعد من خلق شئ من لا شئ :﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾[1]. ومع هذا فإن القرآن لم يقف فى دفع هذه الدعاوى عند هذه اللفته البارعة الرائعة فإن كثيرا من الناس تعجز عقولهم عن إنطاق هذه الجملة بهذا المفهوم وإدراك فحواها فجاء إلى المنكرين بصورة محسوسة من مجريات الحياة .. وفى هذه الصورة تتقابل الأضداد وتخرج الأشياء عن طبيعتها إلى الطبيعة المضادة لها فيقول سبحانه :﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾[2]. أنظركم حجة دامغة لهذا الباطل تفضح أهله.

فالحجة الأولى : فى قوله تعالى { قل يحييها الذى أنشأها أول مرة } وقد سبقها قوله تعالى { ونسى خلقه }.

والحجة الثانية : فى قوله جل شأنه (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) فالشجر الذى ينضح ماء يملأ فرعه

---

(١) سورة مريم الآية ٦٧.

(٢) سورة يس الايات من ٧٩ – ٨٣.

وأصله يتحول إلى نار موقده .. الماء يصير نارا أليس هذا التحول فى طبائع الأشياء من الضد إلى الضد. فيه دلالة قاطعة على قدرة الخالق ؟ ألا يقدر من يفعل هذا بالشجر الأخضر أن يجعل من هذه العظام أجساداً حية ؟ (يخرج الحى من الميت) سبحانه .

والحجة الثالثة : فى قوله تعالى [أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم] إلاّ أن صنعه أى شئ لأول مرة هى المشكلة فإذا تم صنع مثله وأمثاله شيئا صار شيئاً هيناً لايكاد يذكر الجهد الذى يبذل له الى جانب الجهود التى بذلت للمصنوع الأول .

إن المخترع يظل السنين الطويلة أمام الأمر الذى يريده. يقلب وجوه الرأى فيه ، ويجرى آلاف التجارب عليه يهدم ويبنى ويزيد وينقص حتى إذا بلغ به الغاية وحقق الغرض كان صنع الألوف منه عملا آليا محضا ، قوالب تملأ، وآلات تدور، ولهذا لم ينتظر القرآن الكريم الجواب من أحد على هذه الحجة فتولاه القرآن بنفسه لأنه لا يمكن أن يكون جواباً غيره ، ولا يقبل عقل مهما لج فى العناد أن يقول غير هذا (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم !! بلى وهو الخلاق العليم) - إنه تسليم مطلق من كل ذى عقل ، ملحد أو مؤمن . أن يقول بلى وهنا تبدو الفرصة مواتية للإستيلاء على هذه القلوب المستسلمة ، فيبعث إليها القرآن أحكاما مطلقة تحدث عن قدرة الخالق وتصرفه كيف يشاء فى هذا الوجود. و(هو الخلاق العليم).. (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).. (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ) ثم بعد أن يغزو القرآن القلوب الغزو المستولى على كل شئ يعود ليملى حكمه عليها لتنقاد له ، وتأخذ به وتحيا فيه (واليه ترجعون) وصورة أخرى (وقالوا أئذا متنا وكنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعثون خلقا جديدا).

هذه هى مشكلة المنكرين الملحدين . كيف تعود إلى الحياة بعد أن تأكلنا الأرض ونصبح رفاتا وجاء الرد حاسما :﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾[1]. وننظر فنرى :

أولا : كان المنكرون يتوقعون أن يجئ الجواب إيجابا أو نفيا : نعم أو لا ، ولكن الجواب لا يجئ نفيا ولا إيجابا وإنما جاء فى صورة بعيدة جدا عن مجال التفكير الذى يدور فى رؤوسهم (قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا أكبر مما يكون فى صدوركم ، هذا هو الجواب !! يدعوهم أن يخرجوا جملة من عالم الأحياء إلى عالم الجمادات (كونوا حجارة أو حديدا)، أو أى شئ يكبر فى صدوركم مسافة البعد بينه وبين الحياة أو شبه الحياة كونوا أبعد شئ عن تصور الحياة فى الشئ الذى تكونونه : كونوا شيئا لا يمت إلى الحياة وأسبابها بنسب قريب أو بعيد !!! هذه دعوة القرآن إليهم، ثم إذا هم صاروا إلى هذه الكائنات المعنة فى الموات فإن السؤال لا يزال قائما فى كيانهم .. (فسيقولون من يعيدنا) ويكون الجواب .. (الذى فطركم أول مرة) (إنها قضية جديدة إذا .. قضية إختلفت فيها طبيعة السائلين وتبدلت حالهم فهم الآن غيرهم من قبل . كانوا أحياءا ينكرون أن تعود مخلفاتهم من عظام ورفات بعد الموت ، إلى الحياة وهم الآن أحياء ، ولكن لا تكون مخلفاتهم مادة من عظام ورفات لتكن حجارة أو حديداً، أو ماهو أكبر من الحجارة والحديد بعيدا عن فطرة الحياة.

ولابد لهذا الحال من سؤال غير ما سئل به عن الحال الأولى

---

(١) [illegible] الآيات من: ٥٠ –٥٢

فسيقولون من يعيدنا .. وتترك القضية الأولى .. (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) تترك هذه القضية فإنها لا شئ بالنسبة للقضية الأخرى، إن بعث العظام وإلباسها لباس الحياة أقرب إلى العقول من أن يكون ذلك للحجارة أو الحديد ونموهما، إن العظام وتراب العظام فيه آثاره من الحياة وفيه ريحها أما الحجارة أو الحديد فليس لهم سابقة معروفة تشير إلى حياة أو تدل على الحياة وتأمل .. لا.. إنه لأكثر من التأمل وأعظم من أن ينتهى عنده العجب والدهشة. ماذا ؟؟ أنظر صنيع القرآن فيما يصور من خلجات النفوس وفيما يسجل من مكنونات الصدور فالمنكرون لبعث العظام والرفات يقولون فى إنكارهم (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) فهم- كما يحكى القرآن عنهم يرون أن فى العظام والرفات بقية حياة ، وأن تجريد هذه الحياة هو موضوع الإنكار ؟؟ (أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى بعد هذا الخلق الذى كان وذهب ، ثم هؤلاء المنكرون إذا تحولت بهم الحال ونظروا فإذا العظام والرفات - ليست عظاما ورفاتا ، وإنما هى حجارة وحديد وما هو أبعد وأمعن فى مجال الموات من الحجارة والحديد.

هؤلاء المنكرون حين تتجسد لهم مخلفات حياتهم فى صورة حجارة وحديد لا يتجه إنكارهم إلى إنكار الخلق الجديد ، لأنه لا الحديد ، ولا الحجارة يكونان فى خلق جديد إذا لبستهم الحياة .. إنها الحياة الأولى لهم - ولهذا ينطقهم القرآن بهذا القول (من يعيدنا ؟؟) إنها إعادة كاملة وعملية خلق جديد لا تتصل بماض أو حاضر ، ولهذا كان جواب القرآن (قل الذى فطركم أول مرة) فكما خلقتم ونشأتم من لا شئ بيد القدرة القادرة فإنكم لو كنتم حجارة أو حديدا بعد أن تضمكم القبور.. فإن يد القدرة هذه قادرة على أن تخلق من تلك الحجارة وهذا الحديد حياة (الذى فطركم أول مرة) قادر على أن يلبسكم الحياة . ولو كنتم حديدا أو حجارة ، أو ماهو أبعد فى تصوركم من الحديد والحجارة مفارقة للحياة.. ولا يقف القرآن عند إنكار المنكرين وحكاية مقولاتهم ودفع هذه المقولات ودحضها ،لا يقف القرآن

فى الدفاع عن قضية البعث عند هذا بل ينشئ دعاوى الإنكار لتكون معرضا للقضية فى جميع صورها الواقعية والمفروضة فى عقول الناس من منكرين ومؤمنين .﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾[1].

فهذه دعوة عامة لمنكرى البعث يشهدون فيها عرضا لهذه القضية ويستمعون فيها إلى الأدلة القائمة على البعث حقيقة واقعة لا مجال لإنكارها . ولا حجة للمنكرين فيها، فهذا الإنسان وها أنتم أيها الناس مم خلقتم ؟؟ ومن أين جئتم ؟؟ أليس من تراب خلقتم ؟؟ ثم لقد دار هذا التراب فى دورات الخلق والتكوين وتقلب فى أطوارها – ترابا – ثم نطفة – ثم علقة – ثم مضغة – ثم جنينا – ثم طفلا – ثم تدرج فى مدارج الحياة من الصبى إلى الشباب إلى الإكتهال. والشيخوخة – هكذا أنتم أيها الناس من تراب وإلى التراب . فهل يقع فى عقل عاقل أن ينكر عودته من هذا التراب .. إلى الحياة مرة أخرى ؟ لقد كان ترابا فصار إنسانا ثم عاد إلى التراب .. فماذا يمنع من أن يصير إنسانا مرة ثانية، هذه صورة ، وصورة أخرى.. الأرض الميتة الهامدة يصيبها الماء فإذا الحياة تموج فى كيانها وإذا نشوة الحياة تهزها من أقطارها وإذا الأجنة تخرج من كل فج فيها ، تتغنى فى بهجة تسر الناظرين ، فمن أخرج من التراب بشرا سويا ؟ ومن أخرج من الأرض

---

(١) سورة الحج الآيات من ٥ – ٧ –.

ثمرا جنيا ؟؟ ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(١).﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾.

ثانيا : ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾(٢). هنا فى هذه الآيات يسأل فرعون عن أحوال الماضين . والمصير الذى صاروا إليه .. (ما بال القرون الأولى ؟) وجواب موسى .. (علمها عند ربى) ثم يأخذ موسى من كلمة ربى بابا يدخل منه إلى فرعون ليحدثه عن عظمة ربه وقدرته (الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) ويلاحظ هنا أن إنزال الماء قد إنفرد به سبحانه وتعالى (وأن إخراج الزرع من عمل الإنسان المباشر، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى) ثم إذا علقت هذه الصورة بذهن السامع جاء أوان القول (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى). لهذا من ذاك سواء بسواء.

ثالثا : ﴿ونزلنا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾(٣) .

---

(١) سورة غافر الآية - ٦٤.

(٢) سورة طه الايات من ٤٩ - ٥٥ .

(٣) سورة ق الايات من ٩ - ١١ .

وهذه ظاهرة من ظواهر الحياة التى تملأ أبصار الناس وتمسك وجودهم فى الحياة، الماء الذى يحيا به الزرع والضرع (فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد) وأى إنسان من الناس لا يخشع لهذه الظاهرة ولا يعترف بآثارها فيه وفى الحياة المتدفقة من حوله ! وهذا الماء يحيا به الموات – وتتحول به الأرض الهامدة إلى حيواة متدفقة فى النبتة الصغيرة والنخلة الباسقة (وأحيينا به بلدة ميتا) وهنا تسنح الفرصة لقضية البعث حين تظهرها هذه المظاهر الحية وقد شهدها الناس فى هذا العرض الرائع الواضح (فأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) كذلك يبعث الموتى . إنهم حياة هامدة ساكنة فى أطواء الأرض وفى ذرات التراب فإذا نفخ فيها الخالق من روحه أخرجت الأرض أثقالها وألقت ما فيها من أموات فإذا هم بشر ينتشرون..

البعث من واقع الحياة:

ويجئ القرآن للبعث بشواهد من التاريخ . إنها شواهد تحدثت عن بعث الأموات أشبه بالبعث المترقب فى يوم القيامة ولم يأت القرآن بشاهد واحد ولم يقتصر على جنس من أجناس الأحياء بل أتى بأكثر من شاهد ، من الإنسان والحيوان والطير.

١) يقول سبحانه وتعالى :﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١).

هذه واقعة من واقعات التاريخ تذكرها الكتب السماوية المقدسة وهى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

تصور الحياة بعد الموت الطويل مائة عام لإنسان وحيوان وجماد ، أيضا ، فقد إحتفظت قدرة القادر بسلامة هذا الطعام ودفعت عنه عاديات الفساد مائة عام ، كما احتفظت بسلامة الإنسان والحيوان ولو امتد الزمن بهذا الإنسان وذاك الحيوان وهذا الطعام ألف عام أو مئات الألوف من الأعوام ما تغير الوضع ولا اختلف الأمر فإن الجسم الحى يفسد ويتحلل بعد أيام أو شهور أو بعد عام ، ولا يمكن أن يظل حيا سليما مائة عام وسيان بعد هذا مائة عام أو مائة ألف عام وكذلك الطعام قد يفسد فى بعض ساعات ، أو فى يوم وليلة ، فهذا بعث لحياة قد ذهبت ولم يبق أثر من آثارها فإذا بعثت الأموات بعد مئات أو آلاف أو ملايين من السنين فلن يكون بعثهم أبعد من هذا البعث أو أغرب .

٢) ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وهذه واقعة أخرى أيضا من واقعات التاريخ الصادقة .. كائن حى تناثر أشلاؤه على رؤوس الجبال ثم يدعى فتجتمع الأشلاء ويعود الكائن حيا كأن لم يكن به شئ وهل ما يقع لأجساد الموتى شئ غير هذا ؟؟ فبعث هذه الأجساد هو صورة مشابهة تماما لبعث هذه الطيور التى تناثرت أجزاؤها وتبعثرت أشلاؤها .

٣) يقول جل شأنه :﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾(٢) . ﴿ وَكَذَٰلِكَ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٢) سورة الكهف الآيات من ١٠ – ١٢.

بَعَثْنَـاهُمْ لِيَتَسَـاءَلُوا بَيْنَهُـمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُـمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًـا أَوْ بَعْض يَوْمٍ ﴾[١]. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[٢].

وقصة أصحاب الكهف مشهورة فى التاريخ وأن نومتهم فى الكهف قد بلغت ثلاثة مائة سنة وتسع سنوات . لا مائة عام (كالذى مر على قرية) فإذا لم يكن فيمن أحياه الله بعد مائة عام مقنع لمكابر فماذا يقول فى هؤلاء الذين بعثوا بعد ثلاث مائة عام وتسعة أعوام ؟؟

أستطيع بعد هذا أن أقول إن القرآن قد كان أبلغ من تولى الدفاع عن قضية من قضايا الرأى فما ترك بعده قولا لقائل ولا ادعاء لمدع ، ولا حجة لملحد أو مكابر فى أمر (البعث) وإمكان وقوعه ولم يتخذ القرآن لهذا أسلوب الجدل والتلاعب بالمنطق والسفسطة بل جاء إلى العقل من كل باب تدخل منه المعرفة الصحيحة التى يشهد لها الحس والواقع وتدعمها الحجة البالغة ، والمنطق الرصين جاء القرآن إلى العقل عن طريق المقايسة والموازنة - إحياء الأرض الميتة بالماء فى مقابلة إحياء الموتى من القبور - وإحياء الموتى من الإنسان والحيوان والطير بعد أن يفقدوا الحياة مائة عام أو أكثر من ثلاث مائة عام .. وقياسا على هذا يكون بعث الأموات أمرا ممكن الوقوع - وإلى جانب هذه الشواهد الحسية يطوف القرآن بمنكرى البعث على مشاهد القيامة ويسوق إليهم أخبارها - وما يلقى الأخيار فيها والأشرار من جزاء كما أشير إلى ذلك من قبل .. وبعيد جدا أن تمر هذه الصورة التى عرض فيها القرآن قضية البعث - بعيد عن أن تمر فى تفكير إنسان - أى إنسان - دون أن تنتقله نقلة كبيرة فى مشاعره وفى مداركه - من قضية البعث - ودون أن ينتهى به الأمر إلى التسليم بإمكان وقوعه ، ولو أخلى نفسه من التعصب للرأى والإصرار عليه .

---

(١) سورة الكهف الآية ١٩.

(٢) سورة الكهف الآية ٢٥.

هذا هو تدبير الإسلام فى شأن البعث .، أبطل حجج منكريه والمتشككين فيه ، وأقام الأدلة الواضحة والشواهد القاطعة على إمكان وقوعه ، ثم أخذ الإسلام بعد هذا يقرر حتمية البعث وأن أدنى نظر فى مجرى الحياة الإنسانية يحتم وقوعه ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾(١).

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾(٢).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾(٣).

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(٤).

هل البعث بالروح والجسد ؟؟ :

إن الشئ الذى لم يشأ القرآن أن يعرض له وأن يدخل مع المجادلين فيه هو كيفية البعث ؟ وهل هو بالروح والجسد أو بالروح دون الجسد ؟؟ فإن القرآن لم يلتفت إلى هذه الجزئية من القضية لأن أمرها لا يقدم ولا يؤخر فى هذه المسألة فإذا ثبت البعث وآمن به من آمن فلا يعنيه بعد هذا أن يقع على أى صورة .. ليكن بالجسد والروح أو ليكن بالروح وحدها فهو على آية حال حياة يجدها الإنسان ويجد فيها وجوده الذى يتعامل به فى الحياة الآخرة فينعم بالنعيم أو يشقى بالعذاب وشأن القرآن دائما فى الأمور التى وراء الطبيعة أن يقف فيها موقفا وسطا يصورها محسوسة حينا ثم

---

(١) سورة طه الآية ١٥.

(٢) سورة النجم الآية ٣١.

(٣) سورة القيامة الآيات من ٣٦ – ٤٠.

(٤) سورة المؤمنون الآية ١١٥.

يصورها غير محسوسة أحيانا وكأنه بهذا إنما يخاطب العقل باللغة التى يحسنها.

فالعقل يؤمن بالمدركات الحسية ويطمئن إليها ولكنه مع ذلك ينزع إلى التجريد فيخرج من مدركات الحس .. مدركات مجردة لا وجود لها .. ولو كانت معطيات العقل كلها من عالم المحسوس لأصيب بالكظة والتخمة ثم لجمد وتبلد .. ولو كانت معطياته كلها من عالم التجريد لما انتفع بشئ من الحياة .. ولا انتفعت الحياة منه بشئ.

من أجل هذا كان شأن القرآن مع العقل إذا تحدث إليه فيما وراء الحس أن يجعل حديثه معه يتردد بين التجسيد والتجريد ، أنظر إلى القرآن فى حديثه عن الله فهو تارة يتحدث عنه كذات مجردة فى مثل قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[1]. وتارة أخرى يتحدث عنه ذاتا غير مجردة فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾[3]. كذلك كان شأن القرآن فى موضوع البعث لم يقل إنه بالروح أو الجسد ولكنه يقف موقفا وسطا فتارة يبدو وكأنه يقول بالبعث الروحى: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾[4]. وتارة يلوح وكأنه يقول بالبعث الجسدى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام الآية - ١٠٣.

(٢) سورة الفتح الآية ١٠.

(٣) سورة الفجر الآية ٢٢.

(٤) سورة الفجر الآيات ٢٧ - ٣٠.

(٥) سورة القيامة الآية ٣.

وفى حال أخرى يجمع بين الأمرين فى موقف واحد :﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(١). ففى الآية الأولى يخاطب القرآن النفس ويجعلها كيانا مستقلا أخذ طريقه إلى موقف الحساب يوم القيامة - ثم تجئ الآية الثانية فتتحدث إلى الإنسان مكتمل المدركات والحواس يبصر ويسمع﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾. هذا ما يمكن أن تتصوره العقول فى حقيقة البعث وإن كنت أرى أن البعث بالروح والجسد مافى ذلك شك، وتصديق هذا من كتاب الله تعالى إذ يقول جل شأنه فى مجال العظمة والقدرة التى تهيمن على الكون ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(٢). فهنا نص صراحة على أن الإعادة كالبدء والبدء كان ذاتا وروحا فإذا كان ذلك كذلك فالإعادة مثل ذلك.

يقول تعالى :﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(٣). وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه لئلا يترتب عليه التفاوت فى قدرة الله بل الكل هين عليه بدءا وإعادة مافى ذلك شك . لكن الشئ الذى أود أن الفت اليه القارئ أن حقيقة البعث ذاتها علمها عند عالم الغيب والشهادة .

إن المسلم غير مطالب أن يبحث عن حقيقة البعث ولا على أيه صورة يقع ؟ ولا فى أى مكان أو فى أي زمان يكون ؟ بل المطالب به هو الإيمان بوقوع البعث وحتميته ، وأن بعد الموت حياة أخرى يجد فيها المرء وجوده كاملا ، سواء أكان هذا الوجود الكامل بجسد وروح أو بروح بلا جسد أو

---

(١) سورة ق الآيتان ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الروم الآية ٢٧.

بجسد بلا روح إن كان يمكن هذا ، فالأمر كله سواء مادام الإنسان سيجد في اليوم الآخر وجوده ويتعرف إلى ذاته . فليكن بعد هذا على أية صورة - ليكن جسدا وروحا وليكن روحا بلا جسد، إنه في ذلك الإنسان الذى يعرف نفسه وتعرفه نفسه .....

هل تبعث الحيوانات ؟ :

وقبل أن أنهى هذا المبحث أرى أن أجيب على سؤال يرد على الخاطر إذا ذكر البعث وهو :

هل تبعث الحيوانات ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل تتجلى واضحة فى ثنايا هذا العرض . يقول الله تعالى :﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(١). فهذه الآية صريحة فى أن الحشر يشمل كل حى من طير وحيوان - حيث لم تفرق الآية بين الإنسان وغيره من الأحياء فكل أصناف الأحياء أمم أمثالنا ، لها ذاتيتها ولها سعيها فى الحياة ، وأمر آخر نجده فى القرآن مظاهرا لهذه القضية : قضية حشر الحيوان وهو تلك الإشارات التى وردت فى القرآن عن الإحياء بعد الموت فكما ذكر القرآن صورا من الحياة - وفى الحياة الدنيا - إلى بعض أناس ماتوا ولبثوا أحوالا طويلة فى عالم الأموات .. وذلك فى مقام الإعجاز والدلالة على قدرة الله تأييدا للرسل وتصديقا لدعوتهم - كذلك ذكر القرآن صورا من إحياء الميت من الحيوان ومن الطير ، فالمسيح عيسى عليه السلام إذا كان من آياته إحياء الموتى من الناس فإن من آياته أيضا بعث الحياة فى الجماد ممايكون على صورة الطير ، يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨.

إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[1].

ومما يلفت النظر فى الآية الكريمة أنها تفرق بين الانسان والطير فلا تجعل من آيات النبى أن يخلق الإنسان خلقا وينشئه إنشاءا وإنما آياته فيه أن يرد إليه الحياة التى فارقته على حين أنه فى غير الإنسان يستقل بخلق الكائن الحى كله جسدا أو روحا، ومما يلفت النظر أيضا أن الآية أنها إذا أضافت إلى النبى خلق الطير جسدا وروحا ، لم تطلق يد النبى فى الإبداع ، وإنما هو مقيد بالصورة التى خلقت عليها الحيوانات ، فهو يترسم الصورة المعروفة للأحياء فيصور من الطين كائنات على هيئتها ثم ينفخ فيها فتكون طيرا بإذن الله، فما كان من معجزة النبى هنا مثلا أن يخلق طائرا بأربعة أرجل ، أو طائرا بلا أجنحة ، والآية فى جانبيها – فى الإنسان أو الطير من عند الله ليس للنبى إلا ماتفضل الله سبحانه وتعالى به عليه – فلم وقفت المعجزة بالنبى فى جانب الإنسان عند بعث الحياة فيه دون تصويره، كما كان ذلك فى شأن الطير ؟ أمر يدعو إلى البحث والتأمل ، والذى يبدو لى أن الإنسان وقد اختص من الله سبحانه بالتكريم ورفع منزلته بين مخلوقاته – وجعله خليفته فى أرضه ، وإذ صوره بيديه كما يقول جل شأنه :﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[2]. وكما يقول سبحانه وتعالى :﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾[3]. ويقول سبحانه وتعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) سورة ص الآية ٧٥.

(٣) سورة غافر الآية ٦٤.

(٤) سورة الانفطار الآيات من ٦ – ٨ .

رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾[٤]. ويقول جل شأنه :﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[١].
ثم إذا كان هذا الإنسان نفخة من روح الله كما يقول سبحانه :﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[٢].

الإنسان – وقد اختصه الله سبحانه وتعالى بكل هذا – لم تشأ حكمته أن يجعل إلى أحد من مخلوقاته أن يخلق هذا الإنسان أو يخلق مثله فهذا خلق قد رفع الله منزلته ، وقالب لم يكن لأحد غير الخالق العظيم أن يخرج مثله أما بعث الحياة فى جسد الإنسان الهامد فهو أشبه بإيقاظ النائم فمعجزة النبى هنا إيقاظ واستدعاء للروح المفارقة للجسد أن يجئ اليه ﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ أختلف فى ,. هل تحشر البهائم ؟؟

القول الأول : فالذى يروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال (موت البهائم حشرها) وروى عنه أيضا أنه قال (حشرها الموت)[٣].

القول الثانى : إن حشر البهائم يكون ببعثها يوم القيامة ، وهذا الرأى أميل إليه وأؤيده من كتاب الله وسنة نبيه إذ يقول الله عز وجل فى معرض الحديث عن يوم القيامة وأشراطها :﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ ﴾[٤]. ثم

---

(١) سورة التين الآية ٤.

(٢) سورة ص الآية ٧٢.

(٣) أنظر : تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٣١.

(٤) سورة التكوير الآيات من ١ : ١٣.

يجئ بجواب الشرط لهذا كله فيقول تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾[١]. فقد وصف كل ما ذكر مما له نفس بالعلم والحضور - وإنما يترتب على ذلك العلم والحضور - الجزاء، أو ليست الوحوش من ذوات النفوس ؟؟

وأما ما ورد من السنة المطهرة في هذا الصدد فهو ما رواه أبو ذر الغفارى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قد رأى شاتين تتناطحان فقال يا أبا ذر هل تدرى فيما تتناطحان قال لا. قال : لكن الله يدرى وسيقضى بينهما)[٢]. وروى أيضا عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ. قال : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقَادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٣].

ويؤيد ذلك المعنى أيضا ما روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة)[٤]. لكن الأمثل أن نقف أمام هذا الأمر عند هذا الحد ونفوض الأمر فيه إلى الله سبحانه وتعالى وحكمته ، ذلك أمر لا مجال للعقل فيه .. والله أعلم .

---

(١) سورة التكوير الآية ١٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٣١.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب - البر والصدقة والأدب - باب تحريم الظلم ص ٤٤٣.

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ١٣١.

المبحث الثامن

من مشاهد يوم القيامة حساب وجزاء

يقول الله تعالى :﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾[(١)].هذا تهديد ووعيد من الله عز وجل للثقلين كما هو واضح من الآية الكريمة ، وهذا التهديد وذاك الوعيد إنمايكون يوم القيامة وما أدراك ما يوم القيامة ؟

من أسماء يوم القيامة :

يوم الحسرة والندامة ، يوم يجد كل عامل عمله أمامه ، يوم الدمدمة ، يوم الزلزلة ، يوم الصاعقة ، يوم الواقعة ، يوم الراجفة ، يوم الرادفة ، يوم الغاشية ، يوم الداهية ، يوم الآزفة ، يوم الحاقة ، يوم الطامة ، يوم الصاخة، يوم التلاق ، يوم الفراق ، يوم المشاق ، يوم الإشفاق ، يوم القصاص ، يوم لات حين مناص ، يوم التناد ، يوم الإشهاد ، يوم الميعاد ، يوم المرصاد ، يوم المنايلة ، يوم المناقشة ، يوم الحساب ، يوم المآب ، يوم العذاب ، يوم الفرار ولو وجد الفرار ، يوم القرار إما فى الجنة وإما فى النار ، يوم القضاء ، يوم الجزاء ، يوم البكاء - يوم البلاء - يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا - يوم الحشر - يوم النشر - يوم الجمع - يوم البعث - يوم العرض - يوم الوزن - يوم الحق - يوم الحكم - يوم الفصل - يوم عقيم - يوم عسير - يوم قمطرير - يوم عصيب - يوم النشور - يوم المصير - يوم الدين - يوم اليقين - يوم النفخة - يوم الصيحة - يوم الرجفة - يوم السكرة - يوم الفزع - يوم الجزع - يوم القلق - يوم العرض - يوم العرق - يوم الميقات - يوم تخرج الأموات وتظهر العورات - يوم الإنشقاق - يوم الانكدار - يوم الإنفطار - يوم الإفتقار - يوم الخروج - يوم الانصداع - يوم الإنقطاع - يوم معلوم - يوم موعود - يوم مشهود - يوم تبلى السرائر - يوم تخرج الضمائر - (يوم لا تجزى نفس عن نفس

---

(١) سورة الرحمن الآية ٣١ .

شيئاً) - (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا - يوم يدعى فيه الى النار - يوم تسجر فيه النار - يوم تنقلب فيه القلوب والأبصار - (يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) - يوم تقلب فيه الوجوه والأبصار فى النار - يوم البروز - يوم الصدور إلى الله بدون أمس - يوم لا ينفع المال - يوم لا يرتجى فيه إلا المغفرة .

وأهول أسمائه وأبشع ألقابه يوم الخلود - وما أدراك مايوم الخلود ؟ يوم الإنقطاع لعقابه)[1].

وهذا اليوم هو الذى قال الله فيه :﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾. وهنا سؤال فحواه : كيف يتفرغ الله لعباده ويخاطبهم بهذا الخطاب المبدوء بنون العظمة ؟؟

والجواب : إن الله عز وجل سينظر فى أمور عباده يوم القيامة لا أنه كان له شغل ثم فرغ منه . وإنما هذا جاء على سبيل الاستعارة من قول الرجل لمن يتهدده : لأتفرغن لك للإيقاع بك والمراد بذلك التوفر على النكاية)[2] .

يا له من تهديد مروع الذى لا يثبت له إنس ولا جان. ولا تقف له الجبال الرواس والنجوم والأفلاك .الله جل جلاله .. إنه القوى القادر.. الجبار القهار .. الكبير المتعال ، الله سبحانه وتعالى يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين « الجن والإنس » فى وعيد وانتقام ، إنه أمر ، إنه هول ، انه فوق كل تصور وإحتمال !!.

والله سبحانه ليس مشغولا ليفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشرى وايقاع للوعيد فى صورة مذهلة مزلزلة تسحق الكبار لمجرد تصورها سحقا ، فهذا الوجود كله نشأ بكلمة واحدة (كن فيكون) وتدميره وسحقه لا يحتاج إلا إلى واحدة كلمح البصر ، فكيف يكون حال الثقلين والله يفرغ لهما وحدهما ليوليهما بالانتقام ويخصهما بالعقاب .. يخص من؟؟ الثقلين « الإنس والجن ».

---

(١) من كتاب : النهاية أو الفتن والملاحم جـ١ ص ٢٥٥. لابن كثير.

(٢) من تفسير أبى حيان فى البحر المحيط - جـ٨ ، ص ١٩٤.

ولسائل يسأل يقول : لماذا سمى الإنس والجن ثقلا ؟؟

والجواب : أقول : سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما فى الأرض من غيرهما بسبب التكليف .

وقيل : سموا بذلك لأنهما ثقلا الأرض أحياء وأمواتا .. قال الله تعالى :﴿وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[1]. ومنه قولهم أعطه ثقله . أى وزنه .

وقال بعض أهل المعانى : كل شئ له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل ، ومنه قيل لبيض النعام ثقل لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به .

وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين لأنهما مثقلان بالذنوب .

وقيل : الثقل الإنس لشرفهم - وسمى الجن بذلك مجازا للمجاورة والتغليب كالقمرين والعمرين - والثقل - العظيم الشريف[2].. وفى الحديث الشريف عن النبىﷺ قال : (إنى تارك فيكم الثقلين . كتاب الله عز وجل وعترتى)[3].

فهم ... خاص :

ولعل هنا سرا بديعا فى حذف ألف التنبيه من رسم المصحف العثمانى فى قوله تعالى : (آيه الثقلان) وهذا الحذف مقصود والله أعلم من كُتَاب الوحى وهو إشارة إلى فهم خاص لهم اقتبسوه من أضواء النبوة .. وهذا الفهم هو أن خطاب الله سبحانه وتعالى للجن والانس وأنه قد فرغ لهم وأقبل على حسابهم ومساءلتهم .. يشير إلى أنهم هنا فى مقام حضور

---

(١) سورة الزلزلة الآية ٢.

(٢) انظر : تفسير الهكارى جـ٦ ص ٩٣ - والسراج المنير جـ٤ ص ١٣٦.

(٣) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ١٠ - باب - مناقب آل البيت ص ٢٩٠. وعزاه إلى مسلم - وأخرجه أبو يعلى . والطبرانى فى الكبير - كذا فى كنز العمال - جـ ١ باب - الاعتصام بالكتاب والسنة ، ص ١٦٧.

من الله سبحانه .. وأنه سبحانه قريب من كل فرد منهم قربا لا يدع لأحد فرصة للغفلة عن مراقبة الله تعالى له فهو فى حال حضور دائم وإن كان غافلا . ومن ثم فلا يحتاج إلى تنبيه[١].

هذا ووجه النعمة فى فراغ الله عز وجل للثقلين وتهديده إياهم أن فيه تنشيطا لكبح النفس جماحها من الذلل ولتتبصر الدنيا قبل العقبى قال مزيلا الآية الكريمة بقوله تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان).

تهديد وتحد :

يتضح لنا من هذه الآية الكريمة فيما سلف وفيما يأتى أن الله عز وجل يتحدى الثقلين الجن والإنس فنراه فى مقام التحدى يقدم الجن على الإنس ونراه فى مقام آخر يقدم الإنس على الجن قال تعالى :﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٢]. والسبب فى هذا أن الجن أقدم خلقا من الإنس بنص القرآن ذاته قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾[٣]. ولأن التحدى بالنفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق لقدرتهم على التشكل والتخفى ، وقد كانوا يجيدون فن هذا العمل إلى أن منعوا من ذلك ببعثة سيدنا محمد ﷺ قال تعالى :﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾[٤].

---

(١) من كتاب التفسير القرآنى للقرآن . جـ ٢٧ ص ٦٧٩. لعبد الكريم الخطيب.

(٢) سورة الاسراء الآية ٨٨.

(٣) سورة الحجر الآيتان ٢٦ ، ٢٧.

(٤) سورة الجن الآيتان ٨ ، ٩ .

أما تقديم الإنس على الجن فهو وارد فى إطار التحدى بالإتيان بمثل القرآن الكريم والإنس ألسن ،فناسب كلا فى موقعه ، هذا وتفسير هذه الآية الكريمة منوط بمعنيين ذكرا فى المراد بالسلطان فى الآية :-

المعنى الأول : يراد به .. القوة والغلبة .

المعنى الثانى : يقصد به .. الحجة والبرهان .

والآية تصور بالمعنى الأول . أن الإنس والجن جميعا فى قبضة الله كماقال تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].فهو القادر القهار. المالك لكل شئ وليس لأحد من دونه أى ملك أو سلطان . فكل شئ بيمينه وكل جن وإنس فى قبضة قدرته لا يستطيع الفرار من عقابه ولا الهروب من حكمه وقضائه كما قال عز سلطانه :﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾[1].

أى أنهم لا يستطيعون أن يفوتوه ، ولا أن يفروا من سلطانه المبسوط على السموات والأرض لا فى الدنياولا فى الآخرة ، وبالمثل لا يستطيعون الفرار من قدره الجارى.

وعلى تفسير « السلطان » بالحجة والبرهان ، قال ابن عباس إن معنى الآيه : إن إستطعتم أن تعلموا مافى السموات ومافى الأرض فحاولوا أن تعلموه ولن تعلموه إلا ببينة من الله وبرهان . وقد يدخل فى ذلك برهان العلم الذى يمكن الله الإنسان منه فيصل إلى القمر وإلى غيره من الكواكب.

وأخذ البعض من رواية الضحاك ﷺ تفسيرا لمعنى الآية الكريمة إذ يقول إذا كان يوم القيامة ، أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها فتكون

---

(١) سورة الزمر الآية ٦٧.

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢٢.

الملائكة على حافتها حتى يأمرها الرب بالنزول فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ثم يأمر الله أهل السماء التى تليها فينزلون فيكونون صفا خلف ذلك الصف ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ثم ينزل الملك الأعلى فى بهائه وجلاله وملكه وبجنبته اليسرى جهنم فيسمعون زفيرها وشهيقا فلا يأتون قطرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا قياما من الملائكة فذلك قوله تعالى :﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾[1]. وبه قال عبد الله بن المبارك أحد نساك القرن الثانى الهجرى وهذا ليس بتفسير وإنما هو من قبيل الموعظة.

وقيل إن الملائكة تنزل يوم القيامة فتحيط بجميع الخلائق وتحوق بهم فإذا رآهم الجن والإنس ، حاولوا الهروب فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت بهم وهو معنى قوله تعالى (لا تنفذون إلا بسلطان) فهم لا يخرجون إلا لسلطانه وقدرته ولن يخرجوا . وعلى هذا الوجه من التفسير ، تصور الآية قدرة الله فى يوم الحشر التى يسيطر بها على السموات والأرض، وأن أحدا من الجن والإنس لا يستطيع الخلاص من قدرته ، ولا مما سيوقع عليه من العقاب والجزاء فالجميع مرجعهم إليه ، وكأن الآية تعنى فى شطرها الأكبر - العاصين من الجن والإنس حين يحشرون ، ويرتسم أمام أعينهم عصيانهم وعقابهم فإنهم يودون لو وجدوا ملجأ فى أقطار السموات والأرض - وجوانبها يفرون إليه أو يتنكرون فيه ولكن أنى لهم ؟ والله ممسك بالوجود كله ولا مخلص من عذابه ..

وفى هذا المعنى نفسه يقول الله تعالى عن الإنسان العاصى حين يبعث يوم الحساب . إنه يصيح﴿ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾[2].

---

(١) من مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى- ص ٤٦.

(٢) سورة القيامة الآية ١٠.

فقد سدت أقطار السموات والأرض فى وجهه ويجيبه عز شأنه ناهرا له :﴿ كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾(١). فلا وزر أولا ملجأ من الأمر الإلهى المحكم وقضائه ، وإلى الله المستقر والمنتهى والمآب . حيث لا حاكم سواه ، ولا مشيئة غير مشيئته ، فهو صاحب الأمر والسلطان كلية والجن والإنس يعرضون عليه يحاسبون ، وكل ينال جزاء عمله ، إذ وكلهم إلى عقولهم واختيارهم وأرسل إليهم الشرائع لتهديهم إلى طريق الخير ، والفلاح ، وتبعدهم عن طريق الشر والإثم والضلال وحبب إليهم التقوى والطاعة ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ويكرر القرآن أن من يعمل سواء يجزى به . وجزاء سيئة سيئة مثلها أما جزاء الحسنة فعشر أمثالها كما جاء فى قوله تعالى :﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾(٢). وقوله تعالى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾(٣). وهذه الآية التى نحن بصددها والتى سبقتها تؤكد ما قلته فى خلق إبليس والجن من أنهم مكلفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون مثل الإنس ، فمؤمنهم كمؤمننا وعاصيهم كعاصينا ، لا فرق بيننا وبينهم فى شئ من ذلك ، وقد يقال إن خطاب الجن والإنس فى هذه الآية ، للتخويف والوعيد ، والتهديد ، فكيف يعد ذلك آلاءا من الله ونعمة ؟؟ ووجه الإنعام فيه أنه إنذار بالعقاب لكى يرتدع العاصى والكافر وينتهى كل منهما عن غيه ، وأيضا فإن ذلك تربية لهما ومحاولة لإصلاحهما حتى يكفا عن غوايتهما فهو إصلاح وتهذيب وتوجيه إلى الطريق المستقيم .. ولابد أن نعرف أن الغرض الإلهى من الإلحاح على ذكر العقاب والثواب فى القرآن ، لا ..لاتباع طريق الخير طلبا

---

(١) سورة القيامه الآيات من ١١ – ١٣.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٠.

(٣) سورة الشورى الآية ٤٠.

للثواب . والانحراف عن طريق الشر فرارا من العقاب فحسب ، بل أيضا- أن يخلص الإنسان لربه خلاصا ينسيه الجزاء بالثواب والعقاب وكل عمل صالح له يقدمه اليه ابتغاء وجهه لا خوف من عذاب ولا رجاء فى ثواب ، فحسبه رضا الله ، ولا جزاء وراءه يطلبه ، ولا شكور ، إنما يطلب القبول والقرب الروحانى ، ونعما ترديد العقاب والثواب فى القرآن ، لا لما ذكر آنفا من آلاء فحسب بل أيضا ليوجد مثل هذا الإنسان المثالى الذى يتبادل المحبة مع ربه .

تمهيد .. للعذاب[1] :

هذه الآية الكريمة بيان للعذاب الذى يكون يوم القيامة للعصاة من الثقلين فهو بمثابة التمهيد والتوطئة لعذاب جهنم وإن كان ذلك فى المحشر ، فإذا أراد أحد الفرار إن كان هناك فرار لحقه هذا الشواظ وذاك النحاس ، ويحق للقارئ أن يتفهم معنى « الشواظ » و « النحاس » والذى يمثل لونا من ألوان العذاب يوم القيامة ، وعلى هذا فالشواظ يراد به « لهب النار » الذى لا دخان له أو معه ..

وقيل الشواظ : النار والدخان معا ، والنحاس الدخان الذى لا لهب معه ، وبهذا المعنى ذكره النابغة الجعدى فى قوله :

يضئ كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاسا

والسليط : زيت السراج .

وقيل النحاس : المعدن المعروف يكون مذاباً يصب على رؤوس العصاة

---

(١) المناسبة : ولما سلب عنهم القدرة على النفوذ المذكور تنبيها على سلب جميع القدرة عنهم وأعلن أن ما يقدرون عليه إنما هو بتقديره لهم نعمة منه عليهم وكأن منهم من بلغ الغاية فى قسوة القلب وجمود الفكر فهو يحيل العجز عن بعض الأمور إلى أنه لم يجر بذلك عادة لا إلى أنه سبحانه المانع من ذلك فعمهم بشئ من سطوته فقال تعالى ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران﴾ . نظم الدرر - جـ٥ ص ٣٨٨.

والرأى الأول أولى ، وقرئ « ونحاس » بالضم عطفا على شواظ . وهو يتلائم مع تفسير الشواظ بأنه لهب النار بدون دخان ، وقرئ « ونحاس » بالكسر ، وهو يتلائم مع تفسير الشواظ ، اللهب والدخان جميعا ..

وقيل النحاس : المهل : وهو الماء المغلى .

وقيل النحاس : الزيت المغلى .. وأولى كل هذه التفسيرات ، تفسير النحاس بالدخان لتكرر ذكر الدخان في وصف عذاب العصاة فى القرآن ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) ﴾[1].

والسموم حر نار تنفذ فى مسام البدن وتحرق الأجساد وتسمى بها الريح الحارة فى فلوات الصحراء العربية التى تشوى الوجوه فى الصيف ، والحميم : الماء الشديد الحرارة ، واليحموم : الدخان الغليظ الأسود سواد الفحم وهو يعقد فوق العصاة ظلالا كالظل المعروف ، إذ لا يجد فيه العاصى استرواحا ولا دفعا من أذى الحر الشديد إنه ظل كريه بل هو ليس ظلا أبدا . لأنه لا بارد ولا نافع ، بل مؤذ يؤذى النظر . ويؤذى التنفس ، بل يخنق الأنفاس خنقا ، ووصف الله هذا الدخان وظله فى موضع آخر فقال تعالى مخاطبا الكافرين المكذبين لدينه ، يصف لهم ماينتظرهم من العذاب يوم القيامه : ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ (٣٠) لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (٣٣) ﴾[2].

والظل : ظل الدخان المعقود فوق نار جهنم - وهو دخان عظيم ، تتشعب منه ثلاث شعب لعظمة مصعده فى أعالى النار ، وهو ظل ليس ظليلا

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ٤١ : ٤٤.

(٢) سورة المرسلات الآيات من ٢٩ : ٣٣.

بحيث يظل من الحر ويروح عما يكتن فيه بل يزيد فى عذابه ، وما يقاسى من شدة النار، إذ لا يغنيه من لفح اللهب أى غناء ويقول : جل وعز : إن هذا الظل اللافح الملتهب يقذف بشرر عظيم شديد العظم « كالقصر ».

فقيل : هو البناء المشيد : وقيل هو : البيت من أدم أو جلد - وقيل : بل القصر جمع قصرة كجمرة وجمر : وهى الواحدة من الحطب الجزل .

وقرئت الكلمة (القصر) بفتحتين ، جمع قصر ، بفتح الصاد وهى أعناق النخل والشجر أو جذورهما إذا قطعت - وقيل القصرة الخشبية ثلاثة أزرع وفوق ذلك وكأن القصر قطع الخشب العظام وكأنما سميت القطعة منها قصرة لكونها مقصورة ومقطوعة من الخشب الممدودة الطويلة - وهو تشبيه يراد به بيان عظم هذا الشرر. وشبه تشبيها آخر بالجمالات الصفر . والجمالات جمع جمال مثل رجال ورجالات ، وهو تشبيه للشرر فى كثرته وتتابعه ولونه واختلاطه وحركته وقيل : الجمالات أو الجمالة كما جاء فى بعض القراءات : حبال السفن وهو بعيد وقيل الجمالات ، قطع النحاس الصفر. ونسب هذا القول إلى على بن أبى طالب[1].

والغرض من وصف النار فى الآية بأنها ذات شواظ . ومن وصفها فيها فى الآيات السالفة بأنها ذات دخان غليظ يكتم الأنفاس وذات شرر يملأ القلوب فزعا ورعبا أن يزدجر الكفار والعاصون . وأن يرهبوا عقاب الله وعذابه الشديد فيدخلوا فى طاعته وفى دينه إذ لا يستطيعون الوقوف فى وجهه ولا الإمتناع على عذابه ولن يستطيعوا التناصر إذ لا حول لهم ولا طول أمام قوته وقهره وفى هذه التبصرة لهم : آلاء ينبغى أن يؤدوا شكرها تصديقا وإيمانا عميقاً ولما كان إرسال هذا العذاب للعاصين بعدله ونجاة الصالحين منه بفضله قال تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان).

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير جـ٤ - ص ٤٦٠.

إنشقاق السماء ... من مشاهد يوم القيامة[١] :

يقـول الله تعـالى :(فـإذا انشـقت السـمـاء فكانت وردة كـالدهان) وانشقاق السماء محتمل لأحد معنيين :

الأول : أن يكون على حد قول الله تعالى :﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾[٢].

الثانى : أن يكون على حد قول الله تعالى :﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾[٣].

ولا فرق بين هذا أو ذاك إذ أن المعنى الذى تقصده الآية الكريمة التى نحن بصددها يشير إلى الخراب والدمار الذى يلحق أهل السماء من هول الموقف يوم القيامة ... ومجموع الآيات التى وردت فى صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل فى هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انقلابها من النسق الذى يحكمها الآن وينسق بين مداراتها وحركاتها ومنها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى :﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ

---

(١) المناسبة : لما أثبت الله الفناء لأهل الأرض بقوله تعالى (كل من عليها فان) أثبت هنا الفناء لأهل السماء بانشقاقها وتصدعها قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان) – من الفخر الرازى جـ٨ – ص ٢٣.

بيان لبعض الألفاظ : معنى وردة : حمراء يقال عرفة وردة أى حمراء اللون – وقيل الورد فى الآية يراد بها الزهرة الحمراء المعروفة : أى كوردة على التشبية ، وقيل : الوردة الفرس الحمراء على التشبيه أيضا – وقيل : وردة اسم مرة من الورد مثل سجدة من السجود – أى أن السماء انشقت وردة أو دفعة أو حركة واحدة ، والدهان : دهن الزيت ذكره ابن عباس فى صحيح البخارى ، جـ٦ كتاب التفسير – باب – تفسير سورة الدخان ، ص ١٦٤ أى أن السماء تصير مثل الدهن ذوبانا وسيلانا – وقيل : الدهان الجلد الأحمر الخالص ، والانشقاق : التصدع والانهيار والذوبان .

(٢) سورة الأنبياء الاية ١٠٤ .

(٣) سورة الفرقان الآية ٢٥.

بسًّا (٥) فكانت هباء منبثًّا (٦)﴾[1]... ومنها قوله تعالى :﴿ فإذا برق البصر (٧) وخسف القمر (٨) وجمع الشمس والقمر (٩) يقول الإنسان يومئذ أين المفر (١٠)﴾[2]. ومنها قوله تعالى :﴿إذا الشمس كورت (١) وإذا النجوم انكدرت (٢) وإذا الجبال سيرت (٣) وإذا العشار عطلت (٤) وإذا الوحوش حشرت (٥) وإذا البحار سجرت (٦) وإذا النفوس زوجت (٧) وإذا الموءودة سئلت (٨) بأي ذنب قتلت (٩) وإذا الصحف نشرت (١٠) وإذا السماء كشطت (١١) وإذا الجحيم سعرت (١٢) وإذا الجنة أزلفت (١٣) علمت نفس ما أحضرت (١٤)﴾[3]. ومنها قوله تعالى :﴿إذا السماء انفطرت (١) وإذا الكواكب انتثرت (٢) وإذا البحار فجرت (٣) وإذا القبور بعثرت (٤) علمت نفس ما قدمت وأخرت (٥)﴾[4].

ومنها قوله تعالى :﴿إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت (٣) وألقت ما فيها وتخلت (٤) وأذنت لربها وحقت (٥)﴾[5]. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذى سيقع فى الكون كله ولا يعلم حقيقته إلا الله : وفى الحديث المروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم)[6]. قال الجوهرى والطش المطر الضعيف وذكر القرطبى تكرارا هذه الصور إبان

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ٤ : ٦ .

(٢) سورة القيامة الآيات من ٧ : ١٠.

(٣) سورة التكوير الآيات من ١ : ١٤.

(٤) سورة الانفطار الآيات من ١ : ٥.

(٥) سورة الانشقاق الآيات من ١ : ٥.

(٦) أخرجه احمد فى سنده - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٧٥ - وأخرجه أحمد أبو يعلى - كذا فى مجمع الزوائد جـ١٠ ص ٣٣٥.

البعث وأنها حين تقع ويختل نظام الكون ، يكون ذلك إيذانا بالنشور والنشأة الثانية ، وهو تارة يتحدث عن انشقاق السماء وتارة يتحدث عن انفطارها ، دلالة على إختلال بناءها، والله يصورها ذائبة سائلة كما في هذه الأية ، ومثل قوله تعالى عن يوم القيامة :﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾[1].

والمهل : دردى الزيت المغلى وحثالته، وهو يقابل الدهان بمعنى : دهن الزيت في الآية، وقيل المهل : ما ذاب من المعادن حتى سال وتموج من شدة الغليان ، والعهن : الصوف المنفوش ويصور الله مايحدث في السماء وأفلاكها وكواكبها ، بطى الصحيفة على ما يكتب إذ يقول تعالى :﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2]. ودائما يصور القرآن إنقلابا ضخما في الكون يحدث يوم القيامة في السموات ، وكذلك في الأرض، إذ ترتج بكل من فيها ، وتهتز اهتزازا عظيما فتتشقق وتلقي بكل ما حملت في جوفها من موتى ، كما قال تعالى :﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾[3]. وما يزال القرآن يعرض علينا هذا الاضطراب الذى سيحدث في الكون، وهو اضطراب بعد النشأة الثانية ، وهي نشأة تقترن بسقوط أركان الكون، وتعطل الشمس والقمر عن إرسال ضوئهما وانتثار الكواكب والنجوم ذات اليمين وذات الشمال، وزلزلت الأرض زلزالا شديدا بحيث يزول كل شاخص عليها من جبل بل إنه ليصبح هباء كأنه لم يكن شيئا مذكوراً ، وهوعالم جديد أو هو نشأة جديدة وينبغى أن نؤمن بكل ما ذكره القرآن في وصفها دون أن نتمادى في محاولة تبينها، ويكفينا ما ردده وصوره القرآن عنها لسبب طبيعى هو أنها نشأة أخرى غير نشأتنا الدنيوية

---

(١) سورة المعارج الآيات من ٦ : ٩ .

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.

(٣) سورة الزلزلة الآيتان ١ ، ٢ .

- وإذا كانت أبحاث الذرة الحديثة أثبتت أن قنبلة يمكن أن تأتى على مدينة كبيرة أو على رقعة كبيرة من الأرض فأولى لله القادر صانع الكون ومنشئه النشأة الأولى أن يأتى على العالم كله فى لحظة ، وأن يدمره تدميرا ، على أن التدمير المذكور فى القرآن الكريم ليس تدميرا للتدمير أو هدما للهدم من حيث هو ، فسيعيد الله الكون فى نشأة جديدة وخلق جديد، وإذا كانت إعادته الكون بعد هدمه وتدميره وسقوط نظامه الذى يتألف منه وجوده بحيث تجتمع أجزائه بعد تحللها وبعد ما يشيع فيها من التحولات والاستحالات التى تتيح لها وجودا جديدا، فكذلك إعادة الله الإنسان بعد فنائه وبعد تحلل أجزائه فى التراب فإنه سيحدث فيه من التحولات والاستحالات ما يتيح له نشأة ثانية .قد تكون فيها لأبداننا وأجسادنا صفات أخرى تخالف صفاتنا الدنيوية ، وقد يشير إلى ذلك قوله عز شأنه :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾(١). والآية تنص على أن تبدلا عظيما سيحدث فى السموات والأرض تتغير فيه هيئاتهما وصفاتهما عما كانتا عليه فى الدنيا أو فى النشأة الأولى ، ويروى عن سهل بن سعد ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال :(يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد)(٢). وعن عائشة ﷺ قالت : يارسول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أين الناس ؟ قال : إن هذا شئ ما سألنى عنه أحد من أمتى قبلك . الناس على الصراط)(٣). ويقول الله مرارا إن هذا التبديل العام فى دائرة قدرته العلية ، فمن أنشأ الكون من

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٨.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة - ص ٦٥٩ ومعنى لفظة - عفراء - فى الحديث : البيضاء - والمعنى - على أرض بيضاء شديدة البياض.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب فى البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة - ص ٦٥٩.

العدم وبث فيه الوجود وأتاح له نظام أسراره الكونية فى النشأة الأولى لا يعجزه أن ينشأه النشأة الثانية وإلا لأعجزته النشأة الأولى - وها هى ذى تحت أبصارنا تدل دلالة قاطعة على قدرة منشئها الخارقة، وأنه لا يعجزه أى شئ فى الخلق إنشاءا وابتداءا وإعادة وتكرارا ، يقول جل ثناؤه :﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾(١). ومعنى ذلك أن الكون كله سينشأ نشأة أخرى مع نشأة الانسان الجديد : وكل حديث عن هذه النشأة سواء ، عما سيحدث فى السماء ، أو فيها وفى الأرض من نشأة ، أن يدفع الجن والإنس إلى الشكران لا إلى الكفران والجحود والتكذيب المقيت ، وهنا سؤال يجدر ذكره فحواه : أين الآلاء التى تحدثت عنها الآية الكريمة هنا ؟ وإذا كان ما تحدثت عنه آلاء هى فى حيز الشرط الذى لم يأت جوابه بعد فكيف يكون لها مفهوم بغير الجواب الذى يحكم الشرط ويكشف عن مضمونه؟

والجواب على هذا والله أعلم : أن مجرد انشقاق السماء على أيه حال ولأية غاية هو وحده دليل على تمكن سلطانه فى هذا الوجود - وهذه نعمة من أجل النعم على المخلوقات ، إذ كانت قيومية الله على الوجود ضمانة وثيقة للمخلوقات جميعا . بأنها فى يد صانعها ومدبر أمرها ، وأنها بهذا لن يجار عليها ولن تؤخذ بغير الحكمة والعدل ولن تلقى غير الفضل والإحسان هذا من جهة : ومن جهة أخرى فإن انشقاق السماء إيذان بالبعث والحساب والجزاء، وهذا أيضا نعمة من النعم الجليلة إذ أنها أعادت المخلوقات من أنس وجن إلى الحياة مرة أخرى بعد أن ردها الموت إلى حال من العدم أو ما يشبه العدم - والوجود هو فى ذاته خير من العدم على أية صورة يكون عليها موجودا وفى أى وضع يأخذه فى سلم الموجودات ، وهذه الآلاء الجليلة التى يشير إليها انشقاق السماء لمجرد الانشقاق ، فإذا كان

---

(١) سورة يس الآية ٨١.

وراء هذا الانشقاق غاية كانت تلك الغاية آلاء أخرى جليلة مستغنية بذاتها : فإذا اتصلت بانشقاق السماء ، كان ذلك آلاءا إلى آلاء،من أجل ذلك ذَيل الآية الكريمة بقوله تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان).

فى النفس منه شئ :

قال بعض الأساتذة الأجلاء وهو يتحدث عن أهوال يوم القيامة وعن هذا الإنقلاب الهائل الذى يسرى فى عالم الأرض وعالم السماء وعالم الإنسان بعد أن ذكر الأدلة القرآنية التى تصور هذا المعنى من مثل قوله تعالى :﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾(١). وقوله تعالى:﴿ إذا رجت الأرض رجا ﴾(٢). وقوله تعالى :﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(٣).

قال ما مفاده : إن هذا الانقلاب وذاك التغيير ليس على حقيقته فى هذه العوالم وإنما هذا التغير وذاك التحول إنما يكون انعكاسا على مدركات الإنسان ذاته ، بمعنى أن الإنسان ينظر إلى السماء فيجد كأنها انفطرت وينظر إلى الأرض فيجد كأنها رجت واستند فى ذلك إلى ما يقوله البعض من أن حقيقة الأشياء لا تتغير والذى يتغير هو نظر الإنسان بالنسبه لها ، فلو نظر الإنسان بالعين المجردة إلى شئ ثم نظر إليه بوسيلة أخرى من الوسائل الكاشفة كالمجهر أو المنظار الزجاجى فإنه يجد أن الصورة التى كان يراها من قبل قد تغيرت فى نظره) ، ثم يسترسل الأستاذ فيقول : يصور الله تعالى الناس يوم القيامة بقوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

---

(١) سورة الانفطار الآية ١.

(٢) سورة الواقعة الآية ٤ .

(٣) سورة ق الآية ٢٢.

المبثوث ﴾(١) . وقوله تعالى :﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾(٢). فيقول :إن هذا التشبيه الذى ورد فى الآيتين أكاد أقول إنه من قبيل الحقيقة، ثم حاول أن يجمع بين مراحل خلق الفراشة وخلق الإنسان ثم قال : إن الناس يوم القيامة على قسمين بعضهم يحمل صورة الفراش حقيقة وهم المؤمنون، لماأن الفراش أقرب إلى الروحانية منه إلى الجسمية وبعضهم يحمل صورة الجراد حقيقة وهم الكافرون ، لما يكون من الجراد من الشراسة والنهم والحصول على معطيات الحياة بغض النظر عن حقيقة مصدرها. ثم يحاول أن يؤيد مايقول بحديث رواه جابر ﷺ عن النبىﷺ أنه قال (مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذهبهن عنها وأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى)(٣). ووجه إستدلاله من هذا الحديث حمله على ظاهره وتطويعه لما يقول من تشبيهنا معاشر الأناسى بالفراش يوم القيامة ثم يعزز رأيه قائلا : قال الله تعالى :﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾(٤). وهو فى هذه الآية الكريمة يصورنا فى الآخرة من حيث أن البعض يدخل الجنة بتوفيق الله والأكثر يدخل النار بعدله) يصورنا بالفراش الذى يريد أن يذهب إلى النار بالنظر إلى ضوءها وشعاعها والتعبير بالتصور إنما هو من جانبى أما هو فيرى أن ذلك على الحقيقة.

ثم يسترسل الأستاذ قائلا : يقول الله تعالى :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ

---

(١) سورة القارعة الآية ٤ .

(٢) سورة القمر الآية ٧.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) كتاب - الفضائل - باب - شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته - ص ١٤٧.

(٤) سورة مريم الآيتان ٧١ ، ٧٢.

الأرضِ والسَّموات ﴾[١]، فيقول : إن هذا التبدل إنما يكون فى حقيقة الإنسان على معنى أنه ينظر إلى السماء فيجد وكأنها أخذت شكلا غير الذى كانت عليه فى الدنيا إذ أنها تتشقق وتتصدع بعد أن كانت سقفا مصمتا محكم البناء وأن الأرض هى بذاتها . والتغير الذى يصيبها إنما هو بالنسبة للإنسان ذاته ، ثم يقول : إن الإنسان قد تخلص من عالم المادة يوم القيامة فينظر بعين الروح ، وعلى هذا فيبنى القول بأن البعث يكون بالأرواح وليس بالأجساد هذا ما ذكره الأستاذ تحت عنوان « هذا الانقلاب فى عوالم الوجود »[٢].

وبعد هذا العرض لهذا التصور الشخصى عن أهوال يوم القيامة أقول وبالله التوفيق : إن القرآن صادق فيما يقول بمعنى أنه إذا أراد الحقيقة فإنه يذكرها ليجلى بها موقفا من المواقف كالموقف الذى يتعلق بحقيقة الذات العلية والذى لا مجال فيه للرأى والهوى :﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾[٣]. هذه قضية لا يختلف عليها اثنان ولا مجال فيها للرأى والهوى لأنها تتعلق بالذات العلية .

وإذا أراد القرآن المجاز فإنما يذكره لمعنى انطوى عليه هذا المجاز الذى أريد أن أقوله إن ما يحدث يوم القيامة إنما هو من الأمور السمعية التى أخبرنا بها الصادق الأمين والنصوص التى ذكرت فى هذا الصدد سواء أكانت من كتاب أو سنة فعلينا أن نعتقدها ونؤمن بها دون أن يكون للرأى مجال فيها ، فالله عز وجل حينما يصور الإنسان بأنه كالفراش المبثوث ، وأنه كالجراد المنتشر إنما يقصد بذلك والله أعلم الهلع الذى يصيب الناس فى هذا الموقف المشهود، يؤيد ذلك قول الله تعالى والذى لا

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٨.

(٢) من نظرات فى سورة الرحمن – ص ٨٩. لعبد الكريم الخطيب .

(٣) سورة الإخلاص .

يزال يقصد التشبيه لا الحقيقة :﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾(١).

فالله تعالى يريد أن يعطى صورة للهول الذى يصيب الناس يوم القيامة ولا ننسى أن من بلاغة القرآن أنه يجسد المعقولات حتى تأخذ شكلا راسخا فى الأذهان ولتتمكن فيها كل تمكن، أنظر إلى قول الله تعالى :﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾(٢).

أفيليق بنا حينما نستمع إلى هذا الجرس القرآنى والذى يصور الأعمال وكأنها رماد أن نقول : إن القرآن يقصد تصوير الأعمال بالتراب حقيقة، وننسى أنه يقصد الصورة المنتزعة والهيئة الكاملة لذرات التراب، إذا بعثرتها الرياح ، لا يطيب لنا هذا.

أما عن الحديث الذى استند إليه والذى ذكرته فى ثنايا العرض لرأيه إنما يعطى تصويرا عن حرص رسول الله ﷺ على أمته، ويريد أن يبين لهم طريق الصواب والنجاة إلا أنهم بطبيعتهم وأهوائهم لا ينقادون لما يقول، وأما عن الصورة التى يراها الإنسان من تبديل الأرض والسموات فى نظر الإنسان ذاته لا على الحقيقة، فقد ورد أن هذه الأرض وتلك السماء تأخذ شكلا حقيقيا غير الذى كانت عليه فى الدنيا - إستمع إلى هذا الحديث المروى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده نزلا لأهل الجنة)(٣). فهل أرضنا

(١) سورة المعارج الآيتان ٤٣ ، ٤٤.

(٢) سورة ابراهيم الآية ١٨.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) كتاب - صفة القيامة والجنة والنار - باب نزل أهل الجنة - ص ٦٦٠.

هذه خبزة لنا الآن ؟ على أساس أنه يرى كما قلت أن الأشياء كلها على طبيعتها والذى يتغير هو الانسان ، ثم ماذا ؟؟

روى عن رسول الله ﷺ من رواية سهل بن سعد رضي الله عنه قال : (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد)[1].

فهذا الحديث ينص صراحة على أن الأرض التى سنحشر عليها غير الأرض التى كنا عليها فى الدنيا . ثم ماذا ؟؟ يقول رسول الله ﷺ فى حديث رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : (يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم)[2].

أفليست هذه النصوص تؤيد صراحة التبدل والتغير الذى يصيب الكون فى أرجائه ، وأن الإنسان هو - هو لا يتغير ، أنظر إلى قول الله تعالى :﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾[3]. فكيف يكون البدء وتكون الإعادة ، إذا كانت حقائق الأشياء ثابتة، والذى يتغير هو مدركات الإنسان ؟ وكيف يكون البعث بالأرواح وحدها، وإن كنت قد ذكرت ذلك موضحا ومرجحا لكونه بالجسد والروح تحت عنوان «هل البعث بالروح والجسد ؟» والذى لا أوافق عليه الأستاذ تطويعه للنصوص بحسب ما يرى ، لا بما تُنبئُنا عنه تلك النصوص ، حقيقة قال الله تعالى :﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[4]، والذى ينظر إلى هذه الآية الكريمة يجد أنها ذكرت تيسير القرآن وسهولته ثم عقبت

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) كتاب : صفة القيامة والجنة والنار - باب البعث والنشور ووصف الأرض يوم القيامة - ص ٦٥٩.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٢٧٥.

(٣) سورة الأنبياء الآية ١٠٤.

(٤) سورة القمر الآية : ٢٢ .

بطلب الفهم والادكارفهما لا يخرج النصوص عن حقيقتها التى قصدتها . وإلا فإننا نخضع القرآن إلى آراء شخصية قد تصدق حينا وتخطئ أحيانا ... هذا ما أستطيع أن أقوله فى هذا الصدد ، والله أعلم .

توافق .. وتعاضد .. لا تعارض .. وتخالف[١] :

هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها الآن تصور لنا موقفا من مواقف يوم القيامة وله مزيد صلة بالآية السابقة إذ إنها تمهد لهذه الآية والمعنى : إذا كان ذلك اليوم الذى تنشق فيه السماء كما أشارت بذلك الآية السابقة – وكقوله تعالى :﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾[٢]. إذا كان هذا اليوم انقطعت الأعمال وطويت الصحف على ما كان لأصحابها من عمل فى هذه الدنيا فلا يحاسب مخلوق من الجن أو الإنس على ما يكون منه فى اليوم الآخر من قول أو فعل لقد انتهى زمن الامتحان والابتلاء فما يقوله أو يعمله المرء فى موقف الحساب لا يحسب له أو عليه حتى الذى يقع منه فى هذا الموقف مما يكون فى موضع ندم وعتاب كما فى الدنيا كما يتلاعن المتلاعنون أهل الضلال فى هذا اليوم ، هو مما لا ينظر إليه فى الآخرة . وفى الآية إشارة إلى أن الجن يبعثون ويحاسبون كما يبعث الإنس ويحاسبون .. وظاهر الآية يدل على أن الإنس والجن من العصاة المذنبين لا يسئلون عن ذنوبهم يوم القيامة وهو ما يعارض نصوص الذكر الحكيم معارضة صريحة من مثل قوله تعالى :﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[٣]. ومثل قوله تعالى :﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

---

(١) المناسبة: ولما كان يوم القيامة ذا ألوان كثيرة ومواقف مهولة طويلة شهيرة ، يكون فى كل منها شئون عظيمة وأمور كثيرة ، ذكر بعض ما سببه هذا الموقف من التعريف بالعاصى والطائع بآيات يجعلها الله سببا فى علمهما فقال تعالى :(فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولا جان) – نظم الدرر – جـ٥ – ص ٣٨٩.

(٢) سورة النبأ الآيتان ١٩ ، ٢٠.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٢.

الحساب ﴾(١) . وهو العرض على مالك يوم الدين ، وما يتصل بهذا العرض من الحساب والسؤال وإعطاء كل ذى حق حقه بموازين عادلة كمايقول تعالى : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿٨﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿٩﴾ ﴾(٢). ويقول تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾(٣). وقال تعالى : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾(٤). وروى عن أبى هريره رضي الله عنه عن النبىﷺ قال : (أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد)(٥).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبىﷺ قال : (ما من عبد خطا خطوة إلا يسأل عنها ماأراد بها)(٦). وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبىﷺ قال :(ما تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع . عن عمره فيماأفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن علمه فيما عمل به . وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه)(٧).

وروى عن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول اللهﷺ يقول : (إذا كان يوم القيامة يأتى الله تعالى بعبد من عبيده فيوقفه بين يديه ويسأله عن جاهه كما

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٤١.

(٢) سورة الأعراف الأيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٣٦.

(٤) سورة التكاثر الأيه ٨.

(٥) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال صحيح الإسناد - كذا فى الترغيب - جـ٤ - ص٢٩٦، وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى - جـ٩ - باب - تفسير سورة (الهاكم التكاثر) ص ٢٩٠ .

(٦) أخرجه أبو نعيم فى الحلية - كذا فى الفتح الكبير - جـ٣ - ص ١١٦.

(٧) أخرجه البيهقى وغيره - كذا فى الترغيب - جـ١ - ص ١٤٤.

يسأله عن عمله وعلمه)[١].

وهذه النصوص من الكتاب والسنة ظاهرها يتعارض مع هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى :﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾.. وفى الحقيقة لا تعارض ولا تخالف إنما تساند وتعاضد وهناك أجوبة كثيرة للعلماء الأجلاء من علماء التفسير ذكروها فى هذا الصدد، أذكرها ثم أرجح ما أرتضيه ...

١) قيل إن يوم القيامة يوم طويل فيسأل المذنبون فى بعض منه ولا يسألون فى بعض آخر .

٢) وقيل لا يسألون إذا استقروا فى النار .

٣) وقيل لا يسأل غير المذنب عن ذنبه وهذا رأى قتادة وأبو العالية.

٤) وقيل لا يسأل المذنبون عن ذنوبهم لظهورها وكثرتها.

٥) وقيل لايسأل مذنبوا هذه الأمة وأمة الجن عن ذنوب الأمم الخالية الذين عذبوا فى الدنيا .

) وقيل لايسألون سؤال استعتاب وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ وهو قول ابن عباس .

٧) وقيل لا بسألون سؤال استعلام ، وانما يسألون سؤال تقرير وإيجاب للحجة عليهم .

٨) وقيل كان السؤال أولا ثم ختم على أفواه المذنبين وتكلمت الجوارح وهو قول ينظر إلى قوله تعالى :﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢]. . وهو رأى قتادة ...)[٣].

---

(١) أخرجه الخطيب - كذا فى الفتح الكبير - جـ١ - ص ١٥٠.

(٢) سورة النور الآية ٢٤.

(٣) أنظر : البحر المحيط - لأبى حيان جـ٨ ، ص ١٩٥.

والرأى عندى والله أعلم : أن المذنبين لا يسألون عن ذنوبهم فى هذا اليوم سؤال مراجعة وعتاب ، إذ لا نفع لهم من وراء هذه المراجعة. وهذا العتاب ، حيث لا سبيل لهم إلى إصلاح ما أفسدوا كما يقول سبحانه ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾[١] . ويجوز كذلك والله أعلم : أن يكون المعنى . أنه فى هذا اليوم لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان سؤال تعرف على حاله ولا على جنايته التى جناها إذ كانت جنايته معلقة برقبته يراها أهل الموقف جميعا فلا يسأل من سائل ما حاله فى هذا اليوم إذ كان معروفا ومرئيا للجميع ؟ قال تعالى :﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾[٢].

يؤيد هذا المعنى الذى رجحته فى مجال التوفيق بين النصوص ما روى عن صفوان المازنى ﷺ عن النبى ﷺ قال :(يدنى الله العبد المؤمن يوم القيامه حتى يضع كنفه (أى ستره) وكرمه وملاطفته فيقرره بذنبه فيقول : أتعرف ذنب كذا فى يوم كذا ، فيقول : أعرف ، ويقول الله عز وجل : أنا سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته ، وأما الكافر والمنافق فينادى عليهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)[٣].

هذا ولعل اختصاص جانب الذنوب هنا فى هذه الآية الكريمة دون جانب الإحسان إذ كانت الذنوب فى هذا اليوم مما يتحاشاه أهل الموقف

---

(١) سورة الروم الاية ٥٧.

(٢) سورة الاسراء الآية ١٣.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٢ - باب قول الله تعالى : (ألا لعنة الله على الظالمين) ص ١٦٨

وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد(٥) كتاب التوبة - باب - سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين - ص ٦١٣..

ويفرون منه ، إنهم يطلبون السلامة ويعضون أصابع الندم على ما فرط منهم مى الدنيا فكيف يطوف بأحدهم طائف يدعوه الى أن يرتكب ذنبا فى هذا المقام ، ولكنه لو فرض مع هذا .. أن يقع من مذنب ذنب وهو محال فلن يحاسب عليه فقد طويت صحف الأعمال على ما كان فى عالم الامتحان والابتلاء .. ولما كان هذا التمييز من أجل النعم لئلا يؤدى الإلباس إلى ترويع بعض المطيعين غلطا أو نكاية بالسؤال عنهم قال تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان).

من صور عذاب الكافرين[١] :

يصور الله تعالى فى هذه الآية الكريمة صورة من صور العذاب للعاصين المكذبين يوم القيامة إلا أنه قبل أن يذكر هذا اللون من العذاب يعرفنا أمارات وعلامات تكون لهؤلاء الكفرة يعرفون بها ، فكما أن للمؤمنين علامات فكذلك لهؤلاء الكفرة علامات وإن تباينت بين الفريقين.

يردد القرآن أن الكفار يحشرون يوم القيامة سود الوجوه سواد الدخان أو سواد القطران ، فى حين تكون وجوه المؤمنين مبيضة ضاحكة مستبشرة ، يقول تعالى :﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾[٢].

وفى جانب الكافرين يقول تعالى :﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾[٣] . والمراد زرقة الأعين ، وهى سيما بشعة اجتماع الوجه الأسود

---

(١) المناسبة : لما كان الكلام عاما عرف بأنه خاص بتعريف المجرم من غيره دون التقرير بالذنب أو غيره من الأهوال فقال معللا لعدم السؤال (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) نظم الدرر جـ٥ ص ٣٨٩ - بيان لبعض الألفاظ : أ) المجرمون : هم المذنبون الذين إقترفوا السيئات - ب) السيما : العلامة وتمد فيقال السيماء ، وسيما الشخص ما يبدو على وجهه أو على هيئته بصفة عامة - النواصى : جمع ناصية ، وهى الشعر فى مقدم الرأس.

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩.

(٣) سورة طـه الآية ١٠٢.

مع العيون الزرقاء.. وقيل الزرقة فى الآية كناية عن العمى وفقد البصر .. ويقول تعالى :﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾(١) .

ويقول تعالى مبينا أمارات الفريقين :﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١٠٧﴾ ﴾(٢).

والمعنى فى هذه الآية الكريمة أن الزبانية وهم جنود الله من الملائكة القائمين على عذاب الكفار يأخذون بنواصيهم وأقدامهم فيلقونهم فى النار أو يجرونهم إليها آخذين بنواصيهم تارة وبأقدامهم تارة ثانية أو يجمعون بين نواصيهم وأقدامهم فى سلاسل ويسحبونهم على وجوههم أو على ظهورهم . وصور الله ذلك المعنى فى قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾(٣). والأغلال والسلاسل ، القيود يسحبون بها فى جهنم ويلقى بهم فى النار حطبا لها ووقودا، ويصور الله كيف يأمر خزنة النار من الزبانية بسحب الكافر الأثيم إلى الجحيم ، يقول عزّ سلطانه :﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ ﴾(٤). وهو يأمرهم أن يغلوه .. من الغل وهو القيد أو الطوق من الحديد أى يضعوه فى يده أو فى عنقه أو يجمعوا به يديه إلى عنقه ثم يصلوه النار فيدخلوه فيها ليتعذب بها جزاء

---

(١) سورة عبس الآيات من ٤٠ : ٤٢.

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٠٦ – ١٠٧

(٣) سورة غافر الآيات من ٧٠ : ٧٢.

(٤) سورة الحاقة الايات من ٣٠ : ٣٣.

وفاقا لكفره وعناده ويقول لهم ضعوه فى سلسلة ذرعها أو طولها سبعون ذراعا حتى تلف جسده حلقاتها وحتى يضيق عليه أشد التضييق فلا يستطيع حراكا، وذكر الله أن طول السلسلة سبعون ذراعا، ويشيع عند العرب استعمال السبعة والسبعين فى التكثير كما قال جل ثناؤه :﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(١). أى مرات كثيرة وكأن الله عز شأنه إنما أراد بذكر السبعين ذراعا وصف السلسلة بالطول لأنها إذا طالت كان إذهاق الكافر بها أشد. ويضيف الله إلى ما تقدم من عذاب الكفار وسيماهم الكئيبة أن سرابيلهم وأقمعتهم لن تقيهم النار، فهى ليست ثيابا ولا أردية إنما هى قطران كما جاء فى قول تعالى :﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾(٢). فهم موثقون فى الأغلال والأصفاد وقد طليت أجسادهم بقطران لزج كريه الرائحة سريع الاشتعال بالنار وهى كلها صور تهول وترعب وتفزع ، فمن قطران إلى سواد وجوه الى جر وسحب فى الأغلال والسلاسل الثقال ، الله يصور كل هذا النكال بالكفار ليزدجروا وينتهوا عما هم فيه من غى وكفر وضلال فإن غدا أسود خطيرا ينتظرهم ولن يفلتوا من عقاب الله إن هم استمرا فى شركهم وعنادهم ولم يراجعواأنفسهم فى دنياهم ولا ثابوا إلى رشدهم، وقد فتح الله لهم باب التوبة على مصاريعها كى يقروا على أنفسهم بخطيئاتهم وآثامهم وذنوبهم ويتوبوا إليه توبة نصوحا يتخلصون بها من كل أوزارهم ويدخلون فى طاعته فيفوزون بعفوه ومغفرته . وما من موضع فى القرآن ذكر الله فيه العقاب الا شفعه قبله أو بعده بقبول التوبة والعفو والغفران مثل ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة التوبة الآية ٨٠.

(٢) سورة ابراهيم الايتان ٤٩ ، ٥٠.

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾(١). وقوله تعالى:﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾(٢). وقوله تعالى:﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(٣). بعد قوله تعالى :﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾(٤). وهى دعوى رحيمة تقترن دائما بوصف عقاب الكفار ليتدبروا يومهم وغدهم وليسارعوا إلى طريق الهدى والفلاح.

افادتنا لمحات القرآن :

إن العلامات التى ذكرها القرآن ليعرف بها المجرمون يوم القيامة قد أفادتنا اليوم فى عالمنا الحاضر فقد اهتدى الإنسان إلى فوائد هذه العلامات فأنشأت الحكومات إدارات خاصة لعلامات المشتبه فى سلوكهم ومعتادى الإجرام فتأخذ بصمات إبهاماتهم وتحفظها فى أضابير خاصة بهم . ولكل امرئ خطوط فى إبهامه لا تشابه خطوط غيره فيه ولا يحصل فيها التباس، فمتى أحدث أحدهم حدثا وجاء بجرم روجع ملفه الخاص واستخرجت صورة إبهامه من ملفه وطوبقت على الصورة الخارجية ولاقى فى المحاكم ما يستحقه من عقاب .

والخلاصة : أن لكل امرئ أحوالا تخصه فى جسمه وعقله وأخلاقه . يعرف الناس منها قليلا وبقية علمها عند الله تعالى يعلمها ملائكته يوم القيامة فيعرفون المجرمين بها ثم تسحبهم الملائكة تارة بأخذ النواصى وأخرى بأخذ الأقدام .

روى عن الضحاك أن الملك يجمع بين ناصية أحدهم وقدميه فى

---

(١) سورة غافر الآية ٣.

(٢) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ، ٥٠.

(٣) سورة طه الآية ٨٢.

(٤) سورة طه الآية ٨١.

سلسلة من وراء ظهره ويلقيه فى النار ، وقيل : تأخذ الملائكة عليهم السلام بعضهم سحبا بالناصية وبعضهم سحبا بالقدم ، روى الحسن البصرى عن أنس ابن مالك ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (والذى نفسى بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا من قبضوا عليه بالنواصى والأقدام)[١].

وخص النواصى والأقدام بالذكر فى الآية الكريمة لأن فيها سبيلا من سبل الإهانة والإذلال والنكال ، والنعمة فى هذا نجاة الناجين من هذا العذاب يوم القيامه ولذلك ختم الآية بقوله تعالى :(فبأى آلاء ربكما تكذبان).

*****

(١) أخرجه الضياء المقديسى وابن مردويه فى صفه النار – كذا فى الدر المنثور جـ٦ ص ١٤٥.

المبحث التاسع

من مشاهد يوم القيامة عذاب جهنم[١]

إن الذى يقـرأ الآيات التى تحـدث فـيـهـا القـرآن الكريم عن النار صحاب النار وما يلقى المعذبون من ألوان العذاب والنكال يوم القيامة الذى رأ هذه الآيات مـؤمنا بها ومصدقـا لها لا يملك نفسه من أن تجـيش بها مشاعر الفزع وتستولى عليها غمرات الوجل من لفح هذا اللهب الذى يندلع ن كل حـرف من الحـروف أو كلمـة من الكلمـات التى ضـمت عليـهـا آيات لعذاب فى القرآن الكريم ، وليس هذا وحده هو الذى يعرفه المسلم من أمر عذاب الآخرة بل إن السنة المطهرة قد تولت من جانبها توضيح هذه الصورة لواضحـة لتؤكد ولتزيد من وقعها على النفوس وسيكون الحديث عن جـهنم تناولا النقاط التالية :

١) وصف جهنم ذاتها والقوى المشتملة عليها - الاحراق -

٢) وصف الأطعمة والأشربة التى تقدم لأهلها .

٣) وصف أدوات التعذيب والتنكيل .

٤) عمالها الموكلون بتعذيب أهلها .

٥) وصف أهلها الذين هم أصحابها وما يقع لهم فيها .

---

(١) المناسبة : ثم تعرض الآية الكريمة صورا أخرى من عذاب المجرمين يوم القيامه فتقول الملائكة للعاصين . هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم أن - نظم الدر جـ٥ ص ٣٩٠.

(١) وصف جهنم ذاتهـا :

يقول الله تعالى ذاكرا حقيقة جهنم :﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ﴾. وتخصيصها بهذا الاسم لأنها تلقاهم بالتجهم والعبوسة والفظاظة مثل ما كانوا يفعلون بالمؤمنين فى الدنيا ويقال لهم ذلك على سبيل التوبيخ والتقريع ، وجهنم هى النار ، وهو أحد أسمائها الدائرة فى الذكر الحكيم، والكلمة مشتقة من الجِهِنَّام – وهو القعر البعيد[١] – واتخذه القرآن علما على نار الله الموقدة كما فى هذه الآية الكريمة وتتردد فى القرآن الكريم ست(أسماء أخرى قيل إنها مع جهنم دركات النار السبع وهى – الجحيم : من الجحمة . وهى تأجج النار كما فى قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾[٢]. وسقر: قيل إنها اسم للطبقة السادسة من جهنم يقول تعالى :﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾[٣]. والسعير : جمر النار من السعر وهو حرها وتوقدها، يقول تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾[٤]. واللظى : وهى اللهب ، قيل إنها اسم للطبقة الثانية من جهنم ، يقول تعالى :﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[٥]. تنزع أطراف الجسم لشدة حرارتها – والاسم السادس الحطمة : من الحطم وهو التدمير ، يقول تعالى :﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

---

(١) لسان العرب ، جـ١ ، مادة الجيم مع الهاء ص ٧١٥ .

(٢) سورة المائدة الآية ٨٦.

(٣) سورة المدثر الآيات من ٢٦ : ٢٨.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٦٤.

(٥) سورة المعارج الآيتان ١٥ ، ١٦

وما أدراك ما الحطمة ﴿٥﴾ نار الله الموقدة ﴿٦﴾ التي تطلع على الأفئدة ﴿٧﴾﴾[١].

والاسم السابع : الهاوية : سميت به النار لبعد عمقها ومهواها يقول تعالى : ﴿وأما من خفت موازينه ﴿٨﴾ فأمه هاوية ﴿٩﴾ وما أدراك ماهيه ﴿١٠﴾ نار حامية ﴿١١﴾﴾[٢]. وأمه مأواه على التشبيه كأنها تتشوق إلى ضمه إلى صدرها على نحو ما تتشوق الأم الى ضم ابنها وأخذه بين ذراعيها ومعانقته ، والسنة المطهرة ترسم لنا صورة عن حقيقة النار فقد روى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : (ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزء من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية قال إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها)[٣].

وعن أبى هريرة ﷺ أيضا عن النبى ﷺ قال : (تحسبون أن نار جهنم مثل ناركم هذه ، هى أشد سوادا من القار هى جزء من بضعة وستين جزءا منها أو نيفا وأربعين)[٤].

وروى عن أنس ابن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :(لو أن غربا من جهنم جعل فى وسط الأرض لأذى نتن ريحه وشدة حره ما بين المشرق والمغرب ولو أن شرارة من شرر جهنم بالمشرق لوجد حرها من بالمغرب)[٥].

وروى عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال :(لما خلق الله الجنة والنار

---

(١) سورة الهمزة الايات من ٤ : ٧.

(٢) سورة القارعة الايات من ٨ : ١١.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ - باب صفة جهنم وأنها مخلوقة - ص ١٤٧.
وأخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب - جهنم - ص ٦٩٩.

(٤) أخرجه البيهقى - كذا فى الترغيب جـ٤ - ص ٨٦٩ .

(٥) أخرجه الطبرانى - كذا فى الترغيب جـ٤ - ص ٨٧٠ .. ومعنى الغرب فى الحديث بفتح الغين المعجمة واسكان الراء بعدهما باء موحدة هى : الدلو العظيمة .

أرسل جبريل إلى الجنة فقال : أنظر اليها والى ماأعددت لأهلها فيها قال : فجاء فنظر اليها والى ماأعد الله لأهلها فيها قال : فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بها فحفت بالمكاره فقال : إرجع إليها فانظر إلى ماأعددت لأهلها فيها قال : فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد، وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها قال : فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضا فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بهاأحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات فقال : إرجع إليها فرجع إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها)[١].

وروى عن ابن عباس في قوله تعالى :﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾. من مسيرة مائة عام وذلك إذا أتى بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام يشد بكل زمام سبعون ألف ملك لو تركت لأتت على كل بر وفاجر :﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[٢] . تزفر زفرة ولا تبقى قطرة من دمع إلا ندرت، ثم تزفر الثانية فتقطع القلوب من أماكنها - تقطع اللهوات والحناجر وهي قوله (وبلغت القلوب الحناجر)[٣]. وفي ظلمة النار وسوادها : يقول أبو هريرة رضي الله عنه فيما رواه عن رسول الله ﷺ قال :(أوقد على النار ألف سنه حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أبيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى أسودت فهي سوداء كالليل المظلم)[٤]. وروى هذا الحديث مختصرا قال الرسول ﷺ :

---

(١) أخرجه أبو داوود والنسائي والترمذي واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح - كذا في الترغيب جـ٤ ، ص ٨٧١ ، وأخرجه الترمذي بشرح الأحوذي ، جـ٧ ، ص ٢٨٠.

(٢) سورة الفرقان الآية ١٢.

(٣) أخرجه أدم بن أبي إياس في تفسيره كذا في الدر المنثور جـ٥ ص ٦٤. وكذا هو في الترغيب جـ٤ ص ٨٧٢. والآية من سورة الأحزاب آية ١٠.

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجة والبيهقي وقال الترمذي حديث أبي هريرة في هذا موقوفا أصح كذا في الترغيب جـ٤ ص ٥٤٤ - وهو في الترمذي بشرح الأحوذي جـ٧ ص ٢١٦.

أترونها حمراء كالنار هذه لهى أشد سوادا من القار)[١]. وروى عن علقمة عن أبن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) ﴾[٢] .قال : أما إنى لست أقول كالشجرة ولكن كالحصون والمدائن)[٣].

هذا وفى جهنم وديان وجبال أعدت لعذاب العاصين، فقد روى عن أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره)[٤].

وعن أبى سعيد رضي الله عنه أيضا عن النبى ﷺ قال : فى قوله تعالى :﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) ﴾[٥] . قال : جبل من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده عليه ذابت فإذا رفعها عادت وإذا وضع رجله عليه ذابت فإذا رفعها عادت يصعد سبعين خريفا ثم يهوى كذلك)[٦] .

وروى عن ابن مسعود رضي الله عنه فى معنى قوله تعالى :﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾[٧] . قال : واد فى جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات)[٨].

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه فى معنى قوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) ﴾[٩] . قال : (واد من قيح ودم)[١٠].

---

(١) أخرجه مالك والبيهقى فى الشعب - كذا فى الترغيب جـ٤ ص ١٧٣..

(٢) سورة المرسلات الآية ٣٢.

(٣) أخرجه البيهقى - كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٧٥.

(٤) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٩ باب - تفسير سورة الأنبياء ص ٥.

(٥) سورة المدثر الاية ١٧.

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم كذا فى تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٤٤٢.

(٧) سورة مريم الآية ٥٩.

(٨) أخرجه الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم - كذا فى الدر المنثور جـ٤ - ص ١٧٨.

(٩) سورة الكهف الآية ٥٢.

(١٠) أخرجه البيهقى - كذا فى الترغيب جـ٤ ، ص ٨٧٧ ، وأخرجه ابن جرير - كذا فى تفسير بن كثير جـ٣ ص ٩٠.

وروى عن ابن عباس ﷺ عن النبى ﷺ قال: (إن فى جهنم لواديا تستعيذ جهنم من ذلك الوادى كل يوم أربعمائة مرة أعد للمرائين من أمة محمد ﷺ)[١] . وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال :« إن جبريل ﷺ جاء إلى النبى ﷺ حزينا لا يرفع رأسه فقال له رسول الله ﷺ :(مالى أراك ياجبريل حزينا)؟ قال : انى رأيت لفحة من جهنم فلم ترجع إلى روحى بعد)[٢]. وروى عن ابن عمر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال :(إشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضى بعضا فجعل لها نفسين نفسا فى الشتاء ونفسا فى الصيف فشدة ما تجدون من البرد من زمهريرها. وشدة ما تجدون من الحر من سمومها)[٣]. وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال :(يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق يقول : إنى وكلت بثلاثة ، بكل جبار عنيد . وبكل من دعا مع الله إلها آخر. وبالمصورين)[٤]. قال العلماء وأصل النار للكافرين ، ولكن الله تعالى خوف بها الطغاة والمتمردين والعصاة من الموحدين لينزجروا عما نهاهم الله عن وفى ثنايا ذلك لا ننسى رحمة الله عز وجل وإستجابته دعوة الداعى فقد روى عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : (إذا كان يوم حار ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وإلى أهل الأرض فإذا قال العبد : لاإله إلا الله ما أشد حر هذا اليوم . اللهم أجرنى من حر نار جهنم قال الله لجهنم إن عبدا من عبادى استجار بى منك وإنى أشهدك أنى قد أجرته منك . وإذا كان يوم شديد البرد ألقى الله سمعه وبصره إلى أهل السماء وإلى أهل الأرض فإذا قال العبد لا إله إلا الله ما أشد برد هذا اليوم اللهم أجرنى من زمهرير جهنم قال الله تعالى : إن عبدا من عبادى إستجار بى من زمهريرك

(١) أخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٧ ، ص ١٩٧.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط - كذا فى الترغيب جـ٤ ، ص ٨٦٦.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ باب - صفة النار وأنها مخلوقة ، ص ١٤٠

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده والترمذى كذا فى الفتح الكبير جـ٣ ، ص ٤١٨.

وإنى أشهدك أنى قد أجرته ؟ قالوا وما زمهرير جهنم ؟ قال : جب يلقى به الكافر فيتميز من شدة البرد بعضه من بعض)[١]. هذا الذى ذكرته فى وصف حقيقة النار قليل من كثير اشتمل عليه الكتاب والسنة المطهرة ولعل الذى ذكرته هنا يرسم لنا صورة من خلال هذا العرض لحقيقة النار.

(٢) طعام أهل النار وشرابهم:

إن القرآن الكريم قد تحدث عن الطعام والشراب الذى يكون لأهل النار وكذلك السنة المطهرة تعطى صورة عن طعام أهل النار وشرابهم ، فالقرآن الكريم تتوالى فيه صور النصب والشقاء الذى يعانيه الكفار والعاصون فى الجحيم ، فهم يتضورون جوعا ويلهثون عطشا وينادون أهل الجنة إلى أن تبح أصواتهم . أطعمونا مما أطعمكم الله . وأسقونا مما سقاكم ولا مغيث ولا مجيب ، يقول جل شأنه :﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[٢] . وهو إذ حرمهما عليهم أبدلهم منهما أطعمة وأشربة تشوى بطونهم وأحشائهم شيا ، أما أطعمتهم فمنها الغسلين كما فى قوله تعالى :﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[٣] . وهو من أشجار النار الملتهبة العيدان التى تحرق كل ما تشتمل عليه حرقا . ومن أطعمتهم الضريع وهو : يابس الشوك ينبت لهم فى النار ويلهبهم الجوع فيلتهمونه ولا يستفيدون منه غذاء، إنما يستفيدون ألما وعذابا كما صور ذلك القرآن الكريم يقول تعالى :﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾[٤] .

---

(١) أخرجه البيهقى كذا فى كتاب النهاية جـ٢ – ص ٢٥٨.

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٠.

(٣) سورة الحاقة الآيتان ٣٥ ، ٣٦.

(٤) سورة الغاشية الآيتان ٦ ، ٧ .

وعن أم الدرداء عن أبى الدرداء ﷺقال : قال رسول الله ﷺ:(يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع. فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيدفع إليهم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت مافى بطونهم فيقولون : إدعوا خزنة جهنم فيقولون :(ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ، قال فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) قال : فيقولون أدعوا مالكا . فيقولون : يا مالك ليقض علينا ربك ؟ قال فيجيبهم إنكم ماكثون . قال الأعمش نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال : فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال : فيجيبهم : إخسئوا فيها ولا تكلمون قال : فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل)[1]. ومن أطعمتهم الزقوم قال تعالى :﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]. وهى مثل الضريع ، والغسلين من أشجار النار ولا وجود لها فى الدنيا ، إنما تنبت فى الجحيم طعاما للكافرين حين يعضهم الجوع فيضطرون اضطرارا إلى الطعام منها يريدون أن يملاءوا بطونهم فيملؤها بما يشبه النحاس والفلذات المنصهرة حتى ليغلى مثلها فى الأحشاء كغلى الماء الحار المتناهى فى الحرارة . ويتوعد الله بها عتاة الكافرين المعاندين الذين جحدوا الشرائع والبعث والمعاد ، ولقاء الله فى اليوم الآخر.

---

(١) أخرجه الترمذى والبيهقى كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٩٩ ، وأخرجه ابن أبى شيبه وابن أبى حاتم كذا فى الدر المنثور جـ٥ ، ص ١٦.

(٢) سورة الدخان الآيات من ٤٣ : ٤٦.

يقول تعالى :﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. فسيبلغون من ضراوة الجوع أن يمدوا أيديهم إلى هذا الشجر ويفتحوا أفواهم ويزدردوا أعواده وثماره وهم لا يزدردون ولا يبتلعون إلا جمراً ملتببا ويندفعون توا يدفعبم العطش الضارى إلى الحميم أو قل إلى الماء المغلى الذى لا يروى غلة ولا ظمأ فيشربون ويعاودون الشرب مرارا ولا يرتون كالهيم أو كالإبل العطاش التى يصيبها داء الهيام الشبيه بالأستسقاء فتشرب حتى الموت ولا تحس ريا . وهل يمكن لجمر الزقوم التى إمتلأت منه بطونهم أن تطفئه نار الجحيم ؟ إنما تزيده توقدا وتزيدهم ظمأ، وتصور السنة المطهرة الزقوم بصورة كريبة فعن ابن عباس ﷺ قال :قال رسول الله ﷺ عند تفسيره لقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[2] . (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه)[3]. والقرآن الكريم يصور شجرة الزقوم صورة بشعة فيقول تعالى :﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾[4] . والشوب : الخلط والمزج، والطلع : للنخلة فاستعير لما تحمله شجرة الزقوم من ثمار ويقول الله : إنما تنبت فى قعر الجحيم ثم تمتد ساقها وغصونها فى دركات النار ويتراءى طلعها

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ٥١ : ٥٥.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٢.

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه كذا فى الترغيب جـ٤ ، ص ٨٩٨ وهو فى الترمذى بشرح الأحوذى جـ٧ ص ٣٠٧ - وأخرجه الإمام أحمد كذا فى تفسير ابن كثير جـ١ ص ، ٣٨٨.

(٤) سورة الصافات الآيات من ٦٤ : ٦٧.

صورة كريهة قبيحة المنظر أشد ما يكون القبح مرأى ومنظرا صورة أشبه ما تكون بصورة رؤوس الشياطين المتناهين فى القبح والتى يشبه الناس بوجوههم قبيح الصورة منهم فيقولون : كأن وجهه شيطان . تعبيرا عن بشاعته ، وقد يقولون : إن رأس هذا الشخص رأس شيطان تبشيعا له وتقبيحا وكلما ضغط الجوع الخانق على الكفار الجاحدين أكلوا من هذه الشجرة أو من الضريع أو من الغسلين ويشتعل العطش فى بطونهم فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل شديد الحرارة ، وفسر المهل بدردى الزيت ، يصهر ما فى بطونهم ويحاولون الفرار من هذا العذاب فيفرون من الجحيمإلى الجحيم أو إلى حميم متأجج كما قال تعالى :﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾. فهم يطوفون أو يدورون بين الجحيم والحميم الآنى المضطرم وهو الذى انتهى حره وكلما يحاولون الخروج فتضربهم خزنة جهنم بمقامع من حديد وليس الحميم شراب أهل النار وحده فمن شرابهم (الصديد) وهو ما يسيل من أجسادهم وحروقهم شراب تشمئز منه النفوس ، شراب فظيع لا يطيقه انسان . وفى ذلك يقول جل شأنه :﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾[1] . وهذا الماء مع نتنه ورائحته الكريهة يضطر كل جبار بسبب ظمأه القاتل أن يتجرعه ويشربه نغبة بعد أخرى وهو لا يكاد يسيغه إذ يتعثر فى حلقه غصصا مميتة وكأن الموت يطل عليه من كل جانب (وما هو بميت) ويأخذه من ورائه عذاب غليظ عنيف أشد ما يكون العنف أخذا وبيلا ... وعن أبى أمامة ﷺ عن النبى ﷺ فى قوله تعالى :(ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال يقرب الى فيه فيكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، قال الله عز

---

(١) سورة ابراهيم الآيات من ١٥ : ١٧.

وجل :﴿ وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعائهم ﴾ ويقول تعالى: ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ﴾[١] . ومن شراب أهل النار : الغساق : وهو : ماء مظلم منتن ... وقيل عين فى جهنم يسيل إليها صديد الكفار ... وقيل : بل الصديد نفسه وقيل ... إنما هو الزمهرير أو البرد الذى لا يطاق . ولم يذكر فى القرآن إلا مرة واحدة فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ ﴾[٢] . والبرد إختلف فيه .

قيل - النوم - ... وقيل : كل برد بما يشمل برد الريح وبرد الظل وبرد النوم ... وقيل : برد الريح وحده ... ويتسق مع تفسير الغساق بالزمهرير ، وكأن القرآن خوف بزمهرير الثلج كما خوف بلهيب النار وبذلك يسقط قول بعض أعداء الإسلام بأن حر الجزيرة هو الذى جعل العذاب فى الدين الحنيف مقصورا على النار ، ولو مدوا أعينهم إلى أى كتاب جغرافى لعرفوا أن الجزيرة جبالا يعلوها الثلج على نحو ما هو معروف ببادية الشام وتنزل الثلوج ويشتد الزمهرير ببادية العراق فحتى لو كان القرآن خاصا بالعرب لتوعدهم بالبرد القارس كما توعدهم بالنار فما بالنا إذا كان قد توعدهم فعلا به كما فى هذه الآية - وما بالنا إذا كان الرسول مبعوثا للناس كافة وقد ردد ذلك القرآن كثيرا قائلا : إنه جاء نذيرا للبشر ، وتصور السنة المطهرة فظاعة هذا اللون من الشراب وهو الغساق فعن أبى سعيد رضي الله عنه عن

---

(١) أخرجه احمد والترمذى والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٩٤ - وهو فى الترمذى بشرح الأحوذى جـ٧ ، ص ٣٠٢ وأخرجه ابن كثير فى تفسيره جـ٣ ، ص٨٢.

(٢) سورة النبأ الآيات من ٢١ : ٢٦ .

النبيﷺ قال : (لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا)[١].

وقد إختلف في معنى « الغساق » فقيل : هو مايسيل من بين جلد الكافر ولحمه قاله ابن عباس وقيل: هو صديد أهل النار .. قاله إبراهيم وقتادة وعطية وعكرمة وقال كعب : هو عين في جهنم تسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك فيستنقع فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه فيجر لحمه كما يجر الرجل ثوبه.

وقال عبد الله بن عمرو : الغساق القيح الغليظ لو أن قطرة منه تهراق في المغرب لأنتنت أهل المشرق ، ولو تهراق في المشرق لأنتنت أهل المغرب)[٢]. وفسر الغساق بالبرد الشديد وهو مروى عن عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل إمام أهل الكوفة كما روى عنه أنه قال : الغساق أشد على الكافرين من عذاب النار آلاف المرات ولعل مما يشهد لهذا التفسير أن الله عز ذكره وصف طقس الجنة بأنه معتدل لا حر فيه كحر النار ولا برد فيه كبرد الصقيع ، إذ يقول تعالى :﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾[٣] . وروى عن بن عمرﷺعن النبيﷺ أنه قال :(اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضا فجعل لها نفسين نفسا في الشتاء ونفسا في الصيف فشدة ماتجدون من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدون من الحر من سمومها)[٤]. وهناك شراب آخر يسقوه أهل

---

(١) أخرجه الإمام أحمد كذا في تفسيرابن كثير جـ٤ ، ص ٤٢ وأخرجه الترمذى كذا في الترغيب جـ٤ ص ٨٧١.

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ، جـ٤ . ص ٨٩٦.

(٣) سورة الإنسان الآية ١٣.

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه جـ٤ باب صفه النار وأنها مخلوقة ص ١٤١.

النار فعن أبى موسى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :(ثلاثة لا يدخلون الجنة - مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر - ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة - قيل وما نهر الغوطة؟ قال نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهن)(١). وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة فإن مات مات كافرا فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال : صديد أهل النار)(٢). هذا طعام أهل النار وشرابهم كما صوره القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٣) أدوات التعذيب - والتنكيل :

يصور القرآن الكريم والسنة المطهرة أدوات التعذيب التى يعذب بها أهل جهنم ومن خلال هذا التصوير نرى أن فيهاأساليب وأدوات مختلفة من فنون العذاب التى يعذبون بها ففيها السلاسل والأغلال وفيها مقامع من حديد وفيها مساجر ومرابط وفيها الحجارة ، وفيها الجباب ذات الهوام .

يقول تعالى :﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(٣) . ويقول تعالى :﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾(٤) . وعن يعلى ابن منبه رضي الله عنه ورفع الحديث إلى

---

(١) أخرجه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٩٦ وكذا هو فى الدر المنثور جـ٢ ص ٣٢٣.

(٢) رواه أحمد باسناد حسن وبن حبان فى صحيحه كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٩٧ وأخرجه أحمد فى مسنده كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٩٧.

(٣) سورة غافر الآية ٧١.

(٤) سورة الحاقة الآيات من ٣٠ : ٣٣

النبيﷺ قال :(ينشئ الله سحابة سوداء مظلمه فيقال يا أهل النار أى شئ تطلبون ؟ فيذكرون بها سحابة الدنيا فيقولون يا ربنا الشراب فتمطرهم أغلالا تزيد فى أغلالهم وسلاسل تزيد فى سلاسلهم وجمرا يلتهب عليهم)[1]. وفى شأن المقامع الحديد التى يعذبون بها فى جهنم يقول الله تعالى :﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾[2] .

وتصور السنة المطهرة قوة هذا المقمع وتأثيره فيمن يعذب به (فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبىﷺ قال : لو أن مقمعا من حديد وضع فى الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض ، ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد كما يضرب أهل النار لتفتت وعاد غبارا)[3].

ويصور القرآن صورة أخرى لعذاب الكفار فيقول تعالى :﴿ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[4]. وهذا اللون من العذاب وثيق الصلة بالسلاسل والأغلال فبينهما اتصال وثيق إلا أنه باعتبار الإيلام إعتبر لونا من ألوان العذاب ومما يعذب به أهل النار ويعتبر أداة من أدوات العذاب ، الحجارة فعن محمد بن هاشم رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية :﴿ نارا وقودها الناس والحجارة ﴾[5] . قرأها النبىﷺ فسمعها شاب إلى جنبه فصعق فجعل رسول اللهﷺ رأسه فى حجره . رحمة له فمكث ما شاء الله أن يمكث ثم فتح عينيه فقال بأبى أنت وأمى مثل أى شئ الحجر ؟؟ قال : أما يكفك ماأصابك ، على أن الحجر الواحد منها لو وضع على جبال الدنيا كلها

---

(١) أخرجه الطبرانى وقد روى موقوفا عليه وهو أصح - كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٨٦.

(٢) سورة الحج الأيتان ٢١ : ٢٢.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده وأبو يعلى فى مسنده والحاكم - كذا فى الفتح الكبير - جـ٣ ص ٤١.

(٤) سورة غافر الآية ٧٢.

(٥) سورة التحريم الآية ٦.

لذابت منه وأن مع كل إنسان منهم حجرا وشيطانا)[١]. وعن نوع الحجارة تحدثنا السنة المطهرة فعن عبد الله بن مسعود ﷺ في قوله تعالى :﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾. قال : هى حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين)[٢] .

ومن أدوات العذاب التى تسلط على أهل النار فيعذبون بها . الهوام من العقارب والحيات فعن يزيد بن شجرة ﷺقال : إن لجهنم لجبابا فى كل جب ساحل كساحل البحر فيه هوام وحيات كالبخاتي وعقارب كالبغال الذل ، فإذا سأل أهل النار التخفيف قيل : أخرجوا إلى الساحل فتأخذهم تلك الهوام بشفاههم وجنوبهم وما شاء الله من ذلك فتكشطها فيرجعون فيبادرون إلى معظم النيران ويسلط عليهم الجرب حتى أن أحدهم ليحك جلده حتى يبدو العظم فيقال : يا فلان هل يؤذيك هذا ؟؟ فيقول : نعم ، فيقال له : ذلك بما كنت تؤذى المؤمنين)[٣]. وعن أبى مسعود ﷺ فى قوله تعالى :﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾[٤] . قال : زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال)[٥] ..

٤) عمالها .. الموكلون بتعذيب أهلها :

أما عن صفة عمال جهنم والذين يقومون بتعذيب أهل جهنم فإن فى جهنم جنودا غلاظا شدادا يدفعون الجهنميين إلى جهنم دفعا فى غير مرحمة

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا والبخارى فى الضعفاء – كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٨٧.

(٢) أخرجه الحاكم موقوفا وقال صحيح على شرط الشيخين – كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٨٨ – وأخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم كذا فى تفسير ابن كثير جـ١ ص ٦١.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا كذا فى الترغيب – جـ٤ –ص ٨٩١ ، باب – فى ذكر حياتها وعقاربها.

(٤) سورة النحل الآية ٨٨.

(٥) أخرجه الحافظ ابو يعلى – كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ، ص ٥٨١ – وأخرجه أبو يعلى والحاكم موقوفا وقال صحيح على شرط الشيخين ، كذا فى الترغيب جـ٤ ، ص ٨٩٢.

قال تعالى :﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾[1]. ثم يقولون لأهلها: ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[2]. وهم ملائكة غلاظ شداد يقول الله فيهم :﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[3]. وهم الزبانية الذين يدعون المجرمين إلى جهنم دعا قال تعالى :﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾[4]. وتصور السنة المطهرة قوة هؤلاء الزبانية وما يقومون به من عمل ، فعن عبد الله بن مسعود عن النبى أنه قال :(يؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[5].

وفى رواية أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ففاجأه فتغير وجه النبى ﷺ فسأله على عن ذلك فقال : يا أبا الحسن إن جبريل قرأ على (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا) وأخبرنى أنها إذا جاءت تقاد بسبعين ألف زمام كل زمام معه سبعون ألف ملك فبينما هم كذلك إذ شردت عليهم شردة تفلتت من أيديهم فلولا أنهم أدركوها لأحرقت من فى الجمع فاحذرها يا محمد)[6]. ومعنى يؤتى بها - أى جاء بها من المحل الذى خلقها الله فيه وهى دائرة بأرض المحشر حتى لا يبقى لأهل الجنة طريق إلا الصراط وإنما كان لها أزمة لتمنعها من خروجها على أهل المحشر فتحرقهم فلا يخرج منها إلا عناق التى تخرج منها تلتقط الناس الذين أمر بهم إلى النار وفى الحديث الذى رواه كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فى عظم خزنة جهنم المشار إليهم بقوله تعالى (عليها ملائكة غلاظ شداد) كل ملك ما بين منكبيه مسيرة

---

(١) سورة الطور الآية ١٣.

(٢) سورة الطور الآية ١٤.

(٣) سورة التحريم الآية ٦.

(٤) سورة العلق الآية ١٨.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب جهنم - ص ٦٩٩.

(٦) أخرجه ابن كثير فى كتابه النهاية - جـ٢ ص ٢٢٩.

سنة ولكل واحد منهم قوة لو أنه ضرب بالمقمع الذى فى يده جبلا لصار دكا فيدفع فى النار بكل ضربة سبعين ألف فى قعر جهنم)[١] وأما قوله تعالى :﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٢] . فالمراد بهؤلاء رؤساء الزبانية وإلا فملائكة النار لا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى :﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾[٣] . ولزبانية جهنم وهم خزنتها قوة صارمة عاتية فعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال :(لوكان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لأحترق المسجد ومن فيه)[٤] .

وفى رواية أخرى عن أبى هريرة ﷺ أيضا عن النبى ﷺ قال:(لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النارلأحرقهم)[٥] - هذه النماذج من الكتاب والسنة تعطينا صورة عن وصف عمال جهنم الموكلين بتعذيب أهلها.

٥) وصف أهلها الذين هم أصحابها:

إن الذى يتصفح القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أنهما أطنبا الحديث فى وصف أهل النار وذلك لمزيد الترهيب منهم والترغيب فى غيرهم من أهل الجنة وإنى سأعرض نماذج من الكتاب والسنة تصف لنا هؤلاء وكيف يكون حالهم فى جهنم ؟ وما أعرضه هنا إنما هو قليل من كثير والغرض منه إلقاء الضوء فى هذا الصدد على هؤلاء ، يقول الله تعالى فى صفة الذين هم أصحاب جهنم :﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ

---

(١) أخرجه ابن جرير كذا فى الدر المنثور جـ٦ ص ٢٤٤.

(٢) سورة المدثر الآية ٣٠.

(٣) سورة المدثر الآية ٣١.

(٤) أخرجه الحافظ أبو يعلى كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٧٧.

(٥) أخرجه البزار كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٨٧٠.

مُمدَّدَة ﴿٩﴾ ﴾[١]. ويقول تعالى :﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾[٢] . ويقول تعالى :﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٣] . ويقول جل شأنه :﴿ أُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ ﴾[٤] . ويقول عز سلطانه :﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[٥] . ويقول تعالى :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾[٦]. ويقول جل شأنه :﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾[٧] . ويقول تعالى :﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[٨] . ويقول تعالى :﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾[٩] . وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :(ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع)[١٠] . وعنه رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : ضرس الكافر مثل

---

(١) سورة الهمزة الآيتان ٨ ، ٩ .

(٢) سورة فاطر الآية ٣٧.

(٣) سورة المؤمنون الآيه ١٠٤.

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠.

(٥) سورة العنكبوت الآية ٥٥.

(٦) سورة فاطر الآية ٣٦.

(٧) سورة الكهف الآية ٢٩.

(٨) سورة المؤمنون الآيتان ٦٤ ، ٦٥.

(٩) سورة الأحزاب الايات من ٦٦ : ٦٨.

(١٠) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٨ باب صفة الجنة والنار ص ١٤٢ وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب صفة الجنة باب جهنم ص ٧٠٧.

أحد وفخذه مثل البيضاء ومقعده من النار كما بين قديد ومكه وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعا بذراع الجبار)[١]. وعن أبى العجلان رضي الله عنه قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتوطؤه الناس)[٢]. وعن مجاهد قال : قال ابن عباس رضي الله عنه (أتدرى ما سعة جهنم ؟ قلت لا ، قال أجل والله، والله ما تدرى أن بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا، تجرى فيه أودية القيح والدم قلت أنهار»؟ قال : لا ... بل أودية)[٣]. وروى عن أبى غسان الضبى قال : قال أبو هريرة رضي الله عنه بظهر الحيرة ، تعرف عبد الله ابن جراش وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : فخذه فى جهنم مثل أحد، وضرسه مثل البيضاء قلت لم ذاك يارسول الله قال : كان عاقا بوالديه)[٤]وروى عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : إن أهل الناريدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يقول : إنكم ماكثون ثم يدعون ربهم فيقولون : ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون فلا يجيبهم مثل الدنيا ثم يقول (أخسئوا فيها ولا تكلمون) ثم ييأس القوم فما هو إلا الزفير والشهيق تشبه أصواتهم أصوات الحمير أولها شهيق وآخرها زفير)[٥].

وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون فى النار

(١) أخرجه مسلم بنحوه بشرح النووى مجلد(٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب جهنم ص٧٠٦.

(٢) أخرجه البيهقى كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩٠٥ - وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٧ ص٣٠٠.

(٣) أخرجه أحمد باسناد صحيح والحاكم كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩٠٨.

(٤) أخرجه الطبرانى كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩٠٨ باب فى عظمة أهل النار وقبحهم فيها.

(٥) أخرجه الطبرانى موقوفا ورواته محتج بهم فى الصحيح والحاكم وقال صحيح على شرطهما كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩١٧ - وأخرجه ابن أبى شيبه وعبد الله ابن أحمد فى زوائد الزهد - كذا فى الدر - جـ٥ ، ص ١٦.

حتى تسيل دموعهم فى خدودهم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع قيل يعنى الدم فيقرح العيون)[١].

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة لآدم عليه السلام قم فجهز من ذريتك تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحدا إلى الجنه فبكى أصحابه وبكوا ثم قال لهم رسول الله ﷺ إرفعوا رؤسكم فوالذى نفسى بيده ما أمتى فى الأمم إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود فخفف ذلك عنهم)[٢]...

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية وأصحابه عنده (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم) إلى آخر الآية فقال هل تدرون أى يوم ذلك قالوا : الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله عز وجل ياآدم قم فابعث بعثا إلى النار فيقول : وما بعث النار فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فشق ذلك على القوم فقال رسول الله ﷺ إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ثم قال إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ثم قال رسول الله ﷺ: إعملوا وبشروا فإنكم بين خليقتين لم يكونا مع أحد إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج وإنما انتم فى الناس أو قال فى الأمم كالشامة فى جنب البعير وكالرقمة فى ذراع الدابة إنما أمتى جزء من ألف جزء)[٣]. هذا والعذاب فى جهنم يتفاوت بتفاوت ذنوب العاصين فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل مايرى أن أحدا أشد منه عذابا

---

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى - كذا فى تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٣٧٧.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٦ باب تفسير سورة الحج ص ١٢٢ وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٩ باب تفسير سورة الحج ص ٩.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه بنحوه جـ٤ كتاب بدأ الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج ص ١٦٨.

وإنه لأهونـهم عذابا)[١] .

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : إن أهـون أهل النار عذابا رجل منتعل بنعلين من نار ، يغلى منهما دماغه مع إجزاء العذاب ومنهم من فى النار إلى كعبيه مع إجزاء العذاب ومنهم من فى النار إلى ركبتيه مع إجزاء العذاب ومنهم من قد اغتمر)[٢] . وروى هذا الحديث برواية أخرى مختصرا ونصه (أن أدنى أهل النار عذابا رجل منتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حر نعليه)[٣]. وعن ابن عباس ﷺ عن النبى ﷺ قال :(إن أهون أهل النار عذابا أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه)[٤].

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقتهم فلفحتهم لفحة فلم تدع لحما على عظم إلا ألقته على العرقوب)[٥].

وعن عبد الله ابن مسعود ﷺ قال : إذا بقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار فيها مسامير من نار ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت من نار ثم جعلت تلك التوابيت من نار ثم قذفوا فى نار جهنم فيرون أنه لا يعذب فى النار غيرهم)[٦].

وهذا المعنى الذى ورد فى الحديث يؤيده قول الله تعالى :﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[٧] . هذه نصوص من الكتاب والسنة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٨ باب صفة الجنة والنار ص ١٤٤ وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب الإيمان باب أهون أهل النار عذابا ص ٤٨٨.

(٢) أخرجه أحمد والبزار – ورواته رواه الصحيح كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩١١.

(٣) أخرجه مسلم كذا فى الترغيب جـ٤ ص ٩١١.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (١) كتاب الإيمان – باب شفاعة النبى لأبى طالب ص٤٨٧ .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم كذا فى تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٥٧.

(٦) أخرجه ابن أبى الدنيا فى صفة النار والبيهقى فى البعث كذا فى الدر جـ٤ ص ٣٣٩.

(٧) سورة الزمر الآية ١٦.

تبرز لنا ما يكون عليه أهل النار من أوصاف وما يتلقونه من سوء المصير الذى ينتظرهم أو من البلاء الذى يتلقاه أهل النار فوق ما هم فيه من بلاء إن جهنم ذاتها لا تقف منهم موقفا محايدا أى بمعنى أن تجرى معهم على طبيعتها بما فيها من طاقات جهنمية لا تتصورها العقول بل إنها تتحول يوم ذلك بما فيها من طاقات حرارية وبما تحمل فى أحشائها من كريه الطعام ووبيل الشراب. وبما فى ساحتها المتسعرة من زبانية وسلاسل وأغلال تتحول بكل هذا إلى عدو مبين تطلب ، وتراها عند هؤلاء المارقين إليها حتى لكأنها إنما كانت تنتظر يومهم هذا لتجد فيهم طعاما لها وكأنما طال انتظارها واشتد قرمها .. فلما ساقهم سوء عملهم إليها أعملت فيهم مخالبها وأنيابها فى حنــق وغيظ فهى إذ تطبــق عليهم وتضمهم إليها (تكاد تميز من الغيظ) وإذا سألها رب العزة (هل امتلأت) فتقول (هل من مزيد ؟).

فيا لخسران أهلها ويا لسوء مقامهم فيها ويا بؤس صحبتهم لها .. هؤلاء المشركون الذين أعد الله لهم مشاهد العذاب آنفة الذكر فقد أبقوا عن طاعته وعاشوا فى الخطيئة وما أبشع ما تكون المعيشة ، فاستحقوا أن يعذبوا أبشع عذاب وألا تأخذ الله فيهم رحمة أو رأفة أو يمسهم بضرب من الرفق والعفو والغفران إنهم ليسوا أهلا إلا للعقاب والنكال . وأن يعيشوا فى النار حطبا لها ووقودا . يطعمون من شجرها البشع ملتهبا ويتجرعون من مائها صديدا بشعا وكلما احترقت جلودهم بدلهم الله غيرها ليظلوا فى نفس النصب والشقاء والعذاب وفى ذلك يقول عز من قائل :﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[1] . وهى نفسها السرابيل المذكورة

---

(١) سورة النساء الآية ٥٦.

فى قوله تعالى :﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾[1]. سميت سرابيلهم جلودا للزومها جلودهم على المجاورة ، وهذه المشاهد المرعبة من عذاب الكفار يوم القيامة وفى الحياة الآخرة يضيف إليها القرآن مشاهد أخرى تصور ما يكونون فيه من ظلمات بعضها فوق بعض فى حين يعيش أهل الجنة فى نور من فوقه نور مما يجعل المنافقين يتوسلون إليهم أن يقتبسوا من نورهم كما جاء فى قوله تعالى :﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾[2] . فهم وأمثالهم من الكفار يلفهم ظلام دامس فيتجبون إلى أهل الجنة يتضرعون إليهم أن ينظروا نحوهم ليأخذوا من نورهم قبسا وهاجا فيقال لهم أنظروا وراءكم فيعودون يظنون أن من ورائهم نورا فلا يجدون شيئا فيرجعون فيجدون سورا صفيقا ضرب بينهم وبين المؤمنين له باب باطنه من قبل أهل الإيمان فيه الرحمة وظاهره من قبلهم وقبل أمثالهم من الكفار فيه العذاب ، ودائما يقترن بالعذاب الحسى عذاب نفسى ، فالكفار لا يشقون بالظلام ولا بالنار وتحريقها . ولا بالزقوم وطعامه الكريه ، ولا بالصديد وشرابه فحسب بل يشقون أيضا بأهوال نفسية تعذب بها نفوسهم كما تعذب أبدانهم ولذلك تتكرر كلمة (ذوقوا) و(ذق) و (ليذوقوا العذاب) للدلالة على أن تعذيب الأبدان يرافقه تعذيب النفوس وإيلامها ويصور الله أعمالهم فى الدنيا منصوبة أمام أعينهم فى الآخرة حسرات ، يقول جل شأنه :﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) ﴾[3] . فهم يتحسرون فى

---

(١) سورة ابراهيم الأيتان ٤٩ - ٥٠.

(٢) سورة الحديد الآية ١٣.

(٣) سورة البقرة الآية ١٦٧.

الآخرة على ماأجرموا فى جنب الله وما عملوا من سيئات كما لم يتحسر أحد . حسرات تملأ نفوسهم شقاءً وعناءً وآلاما ممضة لا سبيل إلى التخلص منها بل دائما تصب عليهم صبا كما يصب الهوان والإحساس بالصغار والحقارة حتى ليصبح ذلكِ جزءً لا يتجزأ من العذاب ولذلك تكرر وصفه فى القرآن بأنه (عذاب مهين) إذ يذوق فيه الكفار كل ألوان الهوان (وترهقهم ذلة) لا تكاد تبقى فيهم بقية من إنسانيتهم ، بل إنه لم يعد لهم منها شئ سوى الندم والحسرة والشعور العميق بالذل والهوان :﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾[1]. خزيا لا نهاية له ، وكل ذلك العذاب النفسى والحسى وصفه الله فى القرآن لا ليصور انتقامه من الكفار العصاة وإنما ليزجرهم عن إرتكاب المعاصى ويرغبهم فى الطاعات كما جاء فى قوله تعالى :﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[2] . وصور ذلك أيضا فى قوله تعالى :﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾[3]. ولا شك أن هذا التخويف والوعيد نعمة أو نعم عظيمة للجن والإنس كى يزدجروا عن غواياتهم وينتبهوا عن ضلالاتهم ويسلكوا طريق النجاة قبل فوات الأوان ..

ولما كان عذاب المجرم القاطع لما من شأنه أن يكون متصلا ، من أكبر النعم وأثرها لكل أحد حتى لمن سواه من المجرمين فسبب عنه قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد كررت هذه الآية عقب ذكر النار سبع مرات تنبيها على استدفاع أبوابها السبعة كما مضى فى سورة الرحمن .

جناحا الإسلام .. (ترهيب ... وترغيب) :

إن الإسلام الحنيف رسم صورة مجسدة ليوم القيامة أبرز فيها كل لون مخيف مفزع تنفر منها النفوس وتضمر الكراهية لها فتعمل على ما

---

(١) سورة النحل الآية ٢٧.

(٢) سورة الأنفال الآية ٤٢.

(٣) سورة الإسراء الآية ٦٠.

يبعد منها ويجنب الوقوع فيها ، وقد رأينا كيف صنعت شريعة الإسلام لهذا ... فلم تدع من صور التهويل والتخويف لهذا اليوم شيئا إلا صورته فى دقة ووضوح وإلا وضعته موضع التهييج والإثارة ، وقد عرف عن أسلافنا الأخيار أنهم كانوا إذا مروا بآيات عذاب إضطرب لها كيانهم وتشققت لها صدورهم وفاضت أعينهم من الدمع حزنا وإشفاقاً وكان من صنيع الشريعة الغراء فى هذا الأمر أنها لم تدع اليأس يستولى على النفوس . ولم تقطع على الناس الطريق إلى النجاة والخلاص لأن الصورة التى أقامها الإسلام لعذاب القيامة لو تسلطت على تفكير الناس وأستبدت وحدها بهم لألبستهم ثياب الكمد والحسرة ، ولصارت بهم إلى بلاء مطبق ويأس قاتل وحزن مقيم، لهذا جاءت الشريعة الإسلامية من جانب آخر تحمل إلى الناس أرواح الرجاء وتدنى منهم مواكب الأمل ، وتفتح لهم دواعى العمل للجنة بما تطلعهم عليه من نعيمها الذى لا يفنى . وسعادتها التى لا يبلى جديدها أبَدَ الدهر ، والذى ينظر فى الشريعة الإسلامية يقف عند سياستها التى رسمتها للترغيب والترهيب يجدها أحكم وأعدل سياسة يستقيم عليها الناس وتصلح بها دنياهم وآخرتهم جميعا، يقول أبو هريرة ﷺ فيما يرويه عن رسول الله ﷺ : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد)[1]. والله سبحانه وتعالى يقول :﴿ وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾[2] .

فالعاقل هو الذى يقيم حياته بين الرجاء واليأس، وأما الرجاء المطلق فهو كاليأس المطبق كلاهما يدعو إلى شل الإرادة وفقدان العزيمة ، والقضاء على نوازع العمل المبادرة ، وملاك السياسة فى الترغيب والترهيب ،

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد(٥) كتاب - التوبة - باب - سعة رحمة الله تعالى. ص٥٩٧- وأخرجه الترمذى بشرح الأحوذى جـ٩ باب ما جاء في فضل التوبة والأستغفار . ص ٢٢٧.

(٢) سورة الحديد الآية ١٩.

والإعتدال فيهما يكون بلا إفراط ولا تفريط - فإذا عرضت الشريعة جهنم عرضا مخيفا مفزعا تنخلع له القلوب وترجف له الأوصال ، جاءت بالجنة فسكنت بها القلوب الواجفة ، وأمسكت بها النفوس الممزقة ، وأعادت إلى الإنسان الفزع المضطرب سكينته وأمنه ، وإذا رغبت فى الجنة وفتحت أبوابها ووسعت مداخلها ووقفت بالناس جميعا عليها وأوسعت لهم فى رحابها - جاءت من ناحية أخرى فأثارت دواعى الخوف من النار وأرسلت إلى الناس نذرا من لهيبها وهنا يتحدد موقف الإنسان من الجنة أو النار فليس له إلى الجنة سبيل إلا إذا عمل لها وأستقام على الطريق الموصل إليها، وليس له من النار خلاص إلا إذا تجنب طريقها ونفض يده من المآثم التى تدفع الناس إليها وليس الطريق إلى الجنة أمانى وأحلاما ولهوا ولعبا . وإنما هو عمل وعرق وجهاد ومغالبة للنفس وحبس للشهوات وقهر للأهواء أما الطريق إلى النار فهو طريق هين . لين لا يبذل له عمل ولا يعطي له جهد ، وإنما هو إنطلاق من كل قيد ، وتحلل من كل فضيلة. وإتباع لكل هوى .

هكذا ميزان الأمور. إننا لا ننال فى دنيانا أو من دنيانا شيئا طيبا إلا بجهد وعمل ويقظة وتضحية ، ولا نخسر شيئا إلا عن إهمال وتقصير وغفلة وأثرة طالب العلم مثلا لا يظفر بالنجاح إلا إذا أخذ نفسه بالإقبال على الدرس وإيثار الكتاب على اللعب ، والسهر على النوم ، والجد على الإستخفاف والكسل . وإنه بمقدار ما يبذل يكون حظه من النجاح ومكانه فى الناجحين - أما إن أراد أن يتخلف ولا نظن أن يكون لعاقل أن يريد هذا فإن ذلك لا يحمله على شئ فى العمل ولا يطلب إليه شيئا من البذل ، وحسبه أن يقف فى الجانب المقابل للعاملين الباذلين فيلهو ويلعب وينام ما حلى له النوم . ثم إن له أن يطمئن إلى أن المركب إنما تسير به إلى جبهة المتخلفين وهو يغط فى نوم عميق . ثم إن له أن يضمن مكانا فى الصف الأول فى هذه الجبهة إذا هو أكثر من النوم . وفى اللهو . ذلك شأن كل مطلب فى الحياة

وذلك هو موقف الطالبين لكل مطلب ، العمل . والتضحية ، والبذل هى الثمن لكل نجاح ولكل طيب ، والنوم ، والتفريط واللعب واللهو ، هى الطريق إلى الخيبة وسوء المصير ، وأمر الآخرة فى شريعة الإسلام قائم على هذا التقدير ، الجنة للذين أمنوا وعملوا الصالحات قال تعالى :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾(١) . وقال سبحانه :﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾(٢) . وقال سبحانه :﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾(٣) . ولهذا يقول أنس ﷺ فيما يرويه عن رسول الله ﷺ : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات)(٤).

هذا هو ميزان الشريعة الإسلامية فى الدعوة إلى الهدى وفى التحذير من الزيغ والضلال وهو ميزان الحساب الذى يحاسب به الناس يوم القيامة، يقول تعالى :﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾(٥) فإذا وقر هذا فى نفس المؤمن بالله كان له أن يطمئن إلى المصير الذى يصير إليه وأن يطمع فى رضاء الله ورضوانه فليس جهنم هى وحدها المصير الذى يصير إليه الناس وإنما هناك إلى جانب الجحيم جنات عرضها السموات والأرض . جنات أعدت للمتقين وليست الجنة بالمكان الذى يقصر دونه جهد أى إنسان من الناس. بل هى على علو مقامها وعظمة شأنها

---

(١) سورة النازعات الايتان ٤٠ ، ٤١ .

(٢) سورة يونس الآيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة النازعات الآيات من ٣٧ : ٣٩ .

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووى – مجلد (٥) – كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب – الجنة وصفة نعيمها وأهلها – ص ٨٧.

(٥) سورةالقارعة الايات من ٦ : ١١ .

وجلالة قدرها ممهدة السبل مفتحة الأبواب لكل إنسان مهما كان شأنه فى الحياة . ومهما كانت منزلته بين الناس ، وننظر فنرى ماذا عملت شريعة الإسلام من تدبير لتحمى الإنسان من السقوط فى جهنم وإستنقاذه منها وفتح أبواب الجنات له ننظر فنجد طريقين . فلسفا لنا هذا المعنى بمثابة ضوء كاشف :

الأول منهما :الحسنات والسيئات : الحسنة فى شريعة الإسلام بعشر أمثالها والسيئة بسيئة ، فمن عمل حسنة جعلها الله فى ميزان حسانته عشرا ومن عمل سيئة جعلها الله فى ميزان سيئاته سيئة واحدة .. وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾[١] . وليس فضل أوسع من هذا الفضل ولا إحسان أبلغ ولا أكرم من هذا الإحسان – حسنة بعشر وسيئة بسيئة ولو كان الأمر على أن الحسنة بحسنة ، والسيئة بسيئة لكان عدلا ، ولكن رحمة الله بعباده أحاطت بهم وشملتهم بالفضل والإحسان فكان مع العدل الرحمة والإحسان ولننظر فى إنسان يسئ عشر إساءات ويحسن مرة ثم هو مع هذا لا زال إنسانا على الصحة والسلامة فى إنسانيته وفى حسبانه من أهل الخير والنجاة . وفى هذا يقول ابن مسعود ﷺ .(هلك من غلبت واحدته أعشاره)[٢] . إنسان تسعة أعشاره فى الوحل والظلام وعشره فى اليبس والنور ثم هو مع هذا لا يزال فى الناجين المباركين فماذا بعد هذا؟ لا تستكثر هذا فإن رحمة الله واسعة وفضله لا ينفذ فالله سبحانه غنى عن عباده لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم . ولكن فى الطاعة صلاحهم

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٦٠.

(٢) أخرجه الدر المنثور موقوفا على ابن مسعود – جـ٣ – ص ٨٧.

وفى المعصية فساد أمرهم :﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[١] .﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[٢] . لا تستكثر على الله شيئا فقد سبقت رحمته غضبه ووسعت رحمته كل شئ وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة يرفعه ﷺ (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو موضوع على العرش . رحمتى تغلب على غضبى وفى لفظ سبقت رحمتى على غضبى)[٣] .

والثانى منهما : ***رحمة الله الواسعة*** : إن كنت قد إستكثرت أن تكون الحسنة بعشر والسيئة بواحدة فاعلم أن الأمر أكثر من هذا وأنك بهذا التقدير سئ الظن بالله ومن ساء ظنه بالله فقد ساء أدبه وساء مقامه فى مواطن الرحمة والرضوان ففى الحديث القدسى المروى عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ عن رب العزة قال : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى)[٤]. إقرأ قول الله تعالى :﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[٥] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٧.

(٢) سورة النساء الآية ١٤٧.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ ، باب : بدء الخلق ، ص ١٢٩ – وأخرجه مسلم بشرح النووى – مجلد (٥) كتاب التوبة – باب – سعة رحمة الله تعالى ، ص ٥٩٥.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٥) كتاب – الذكر والدعاء والتوبة والأستغفار – باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله ، ص ٥٤١.

(٥) سورة الزمر الآيتان ٥٣ ، ٥٤ .

وفى هذا المعنى يقول تعالى :﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾[١] . وفى الحديث المروى عن أبى ذر ﷺ عن النبى ﷺ عن رب العزة - يقول الله عز وجل: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد ومن جاء بالسيئة فجزاء سيئة سيئة مثلها أو أغفر ، ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا . ومن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا ، ومن آتانى يمشى أتيته هرولة ومن لقينى بتراب الأرض خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة)[٢].

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبىﷺ قال :(جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه وأخر الله تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة)[٣].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال :(قدم علىّ رسول الله ﷺ فإذا إمرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول الله ﷺ أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قلنا لا فقال : (الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٤]. ماذا تقول بعد هذا ؟؟ قل: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ولكن على أن لا تذهب بك هذه الرحمة

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووى - مجلد (٥) - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار - باب - فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله - ص ٥٤٢.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ، جـ٨ ، كتاب الأدب - باب جعل الله الرحمة مائة جزء ، ص ٩.

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٨ - كتاب الأدب - باب - رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ، ص ٩.

الواسعة مذهب التضييع لما ينبغى أن تقوم له من حمد الله على نعمته والولاء لرب النعم ومصدر الإحسان ، فذلك هو شأن العقلاء من الناس يلقون الإحسان بالشكران ، والمغفرة ، بالطاعة والولاء .. وصدق الله العظيم إذ يوجز ذلك كله فى قوله تعالى :﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾[1] . ثم يشفع ذلك بقوله :﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾[2].

****

(١) سورة طه الآية ٨١ .

(٢) سورة طه الآية ٨٢ .

المبحث العاشر

مع جنتي السابقين وأصحاب اليمين في رحاب عروس القرآن

أضواء على الآيات في آخر سورة الرحمن:

١) قال الله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) والذى ينظر فى الآية الكريمة يجد أنها أثابت الذى يخاف من ربه جنتان. فما حقيقة الخوف؟ وماالفرق بينه وبين الخشية؟

هذه وغيرها من الأسئلة سنجد الإجابة عنها من خلال هذا العرض..

أما حقيقة الخوف فهو توقع مكروه بعلامات أو أمارات مظنونة أو متيقنة ويقابله الرجاء وهو توقع محبوب بمثل هذه الأمارات والعلامات المتيقنة والمظنونة وهو فريضة على كل مؤمن يقول تعالى﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].. وعن أبى هريرة ﷺ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله تعالى الجنة)[٢].. قوله فى الحديث أدلج).

الإدلاج مخففا: سْير أول الليل ومثقلا: سير آخر الليل .. والمراد من الإدلاج التشمير والجد والإجتهاد فى أول الأمر. فإن من سار فى أول الليل كان جديرا ببلوغ المنزل)[٣] ..

والمؤمنون دائما على خوف وخشية ووجل من عقاب الله. ومن أن لا يقبل منهم ما يعملون وهم لذلك يسارعون ويسابقون إلى الخيرات والأعمال الصالحة. وهم مع ذلك مشفقون أن ترد عليهم يقول تعالى فى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٥.

(٢) أخرجه الترمذى والبغوى كذا فى تفسير ابن كثير - جـ ٤ . ص ٢٧٨.

(٣) من كتاب السراج المنير - جـ ٤ . ص ٣٩ للخطيب الشربينى.

حقهم: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[١] .. خوفا من العقوبة وطمعا فى المثوبة وعلى نحو ما يدفعهم هذا الخوف إلى الخير يصرفهم عن الشر وكل ما يجر إلى الإثم، وفى الحديث أن السيدة عائشة ﵂ قالت: قلت: يارسول الله (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) أهو الذى يسرق ويشرب الخمر ويزنى؟ قال: لا يابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه)[٢].

فالخائفون الوجلون هم الذين يعملون الصالحات ويخشون ألا يتقبلها الله منهم لا الذين يؤتون المعاصى ثم يخافون الله ويخشونه - فخشية هؤلاء وخوفهم ليسا من باب هذا الخوف المحمود الذى يجنب صاحبه الآثام ظاهرا وباطنا والذي يحثه على عمل الصالحات والإجتهاد فيها ولذلك قيل: لا يعد خائفا من لم يكن للذنوب تاركا فإن ترك الذنوب وخاف ربه كانت له الجنتان المذكورتان فى الآية يدل لذلك ما روى عن أبى الدرداء ﵁ أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت وإن زنى وإن سرق؟ فقال الثانية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقلت الثالثة فقال: نعم وان رغم أنف أبى الدرداء)[٣].

هذا ويلاحظ أن الخوف ليس استحضارا ولا استشعارا للرعب من عقاب الله - وإنما هو مراقبة المسلم لربه فى كل ما يقول وكل ما يفعل لأنه معروض عليه يوم القيامة ومجزى بما قدمت يداه .. وكأنه ضرب من قلق المسلم على مصيره قلقا يوجد فى داخل نفسه الضمير الحى الذى يستشعر صاحبه الخشية من عذاب الله فى سره وعلنه كما يستشعر

(١) سورة السجدة جزء من الآية ١٦.

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذى وابن أبى حاتم كذا فى تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤٨.

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وأحمد وابن منبه والحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والنسائى وأبو ليلى وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه والبغوى بسنده كذا فى الدر المنثور - جـ ٦. ص ٦٤٦.

الرجاء والطمع فى نعيمه وفراديسه ففى الحديث المروى عن عائشة رضي الله عنها عن النبى ﷺ قال (إنى أتقاكم لله وأشدكم له خشية)(١) .. ويروى أن أبابكر الصديق رضي الله عنه ... فكر ذات يوم فى القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطى السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال: (وددت أنى كنت خضرا من هذه الخضر تأتى على بهيمة فتأكلنى وأنى لم أخلق)(٢).

وهى صورة عظيمة لما زرع القرآن الكريم فى ضمير الصديق من الخوف الصادق المثمر حتى ليصبح بعد الرسول مثلا أعلى للمؤمنين فى التقوى والعبادة والأعمال الصالحة ومع ذلك يرهب الله ويخافه ويخشى لقاءه، وفيه وفى أمثاله بل أيضا فيمن لا يبلغون منزلته من المؤمنين الذين يكفون أنفسهم عن المعاصى ويتحرون الطاعات خوفا من الله ورهبا - نزلت الآية التى نحن بصددها ونزل مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(٣).

وهنا سؤال وجواب حان موعدهما يقتضينا البحث فى الآية ذكرهما.

أما السؤال فهو هل هناك فرق بين الخوف والخشية؟ .. والجواب: نعم هناك أكثر من فرق ..

الفرق الأول:

أن مرتبة الخشية أعلى من مرتبة الخوف بدليل أن الله تعالى أسند الخشية إلى العلماء وقصرها عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ١ كتاب الإيمان باب قول النبى ﷺ (أنا أعلمكم بالله وإن المعرفة فعل القلب لقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم). ص ١١،

وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (٣) كتاب الصوم - باب - حكم القبلة فى الصوم ص ١٦٣.

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة كذا فى الدر المنثور جـ ٦ . ص ١٤٦.

(٣) سورة فصلت الآية ٣٠.

الْعُلَمَاءُ﴾[١].. فخشيتهم لله لسر عظمته – أما الخوف فإنه أدنى مرتبة لأنه يقوم على المنفعة بالإعطاء أو الخوف من سلب النعمة – لذلك كان الخوف أدنى من الخشية – فكيف لو عبر الله بالخشية فى قوله تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ..

الفرق الثانى:

أن الله تعالى حينما ذكر الخوف ذكر المقام فقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه) بينما فى التعبير بالخشية ذكر ذاته المجردة حيث قال (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .. وعن أنس ﷺ مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال: (خشية الله رأس كل حكمة والورع سيد العمل)[٢] والسر فى ذلك أن العلماء عرفوا ربهم فعظموه ...

وقد ورد فى الآية الكريمه أن من خاف مقام ربه له جنتان. فما المقام؟

والمقام فى الآية مصدر بمعنى القيام – والمراد به بمقام الرب إشرافه وإطلاعه وكونه مراقبا للإنسان مهيمنا عليه لا يخفى عنده شىء من أمره أو من قوله وفعله كما وصف نفسه تعالى بقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾[٣] بمعنى أنه رقيب على كل نفس حفيظ عليها عالم بكل ما عملت فى دنياها من خيرا أو شرا ومجازيها به لا يظلمها مثقال ذرة – وقيل: بل كلمة «مقام» إسم مكان .. والمراد مكان الخلق وموقفهم الذى يقفون فيه للعرض يوم الحساب يقول تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤] وكأن تقدير

---

(١) سورة فاطر جزء من الآية ٢٨.

(٢) أخرجه القضاعى .. كذا فى الفتح الكبير جـ ٣. ص ٨٧ – وأخرجه بنحوه السخاوى فى المقاصد الحسنة وقال عزاه الديلمى لأنس مرفوعا ص ١٥٩.

(٣) سورة الرعد جزء من الآية ٣٣.

(٤) سورة المطففين الآية ٦.

الكلام فـى كلمة «مقام ربـه» مقام الله الذى يقوم فيه العباد للحساب وهو مقام الحشر والميعاد - وينبغى أن نعرف أن الله جل جلاله منزه عن القيام والمكان لما يؤول إليه ذلك من تشبيهه بالعباد، وكل ما جاء فى القرآن مما قد يفيد تشبيها أو تجسيدا إنما هو تمثيل لعظمة الله وجلاله وكذلك ذكر المقام هنا (فلا قيام ولا وقوف ولا واقف إنما هو تصوير لعظمته وجلاله وإنه ليجل عن أن يحيط به شىء أو تحيط به حواس)[١] .. وقد ورد فى الآية الكريمة أن من خاف ربه له جنتان فما هى الجنة)؟ وما المراد بالجنتين فى الآية؟

مع جنتى السابقين وأوصافهما:

أما الجنة فأصلها: البستان الذى تغطى أشجاره رقعة من الأرض وقد سمى الله بها دار عباده المتقين فى الآخره وقال إن عرضها كعرض السموات والأرض .. يقول تعالى ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢] وقد نبه جل شأنه بسعة عرضها على أن سعة طولها لا تقف عند حد .. وقال ابن عباس رضي الله عنهما فى معنى الآية آنفة الذكر (تقرن السموات والأرض بعضهما إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله)[٣].

ويروى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قيل للرسول عليه السلام: إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال سبحان الله !! فأين الليل إذا جاء النهار؟)[٤].

---

(١) بتصرف من كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٣٣٩ للقاضى عبد الجبار.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٣.

(٣) أخرجه ابن جرير من طريق السدى. كذا فى الدر المنثور جـ ٢ - ص ٧٢.

(٤) أخرجه البزار وأحمد بروايات مختلفة كذا فى تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٤.

وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (١) كتاب الإيمان باب اثبات رؤية المؤمنين ربهم ص ٤٢٦.

وهو يشير إلى قدرة الله تعالى التى لا نهاية لها وأنه لا غاية لسعة ملكه فى الدنيا والأخرة واختلف المفسرون فى المراد بالجنتين فى الآية الكريمة فقيل: جنة للخائف من الإنس - وجنة للخائف من الجن - وقيل: بل جنتان للخائف من الطرفين، جنة لعقيدته وجنة لعمله، وقيل: بل جنة لعمل الطاعات - وثانية لترك المعاصى - وقيل: جنة يثاب بها المؤمن على قدر ثوابه وجنة يتفضل بها الله عليه - وقيل جنة معجلة فى الدنيا بلذة المفاجأة والتقوى والعمل الصالح. وجنة مؤجلة هى الموعودة فى الآخرة وقيل: جنة روحية وجنة جثمانية)(١).

وأولى من هذه الأقوال أن تكون هناك جنتان فعلا فى الدار الآخرة تنتظران المتقين المقربين، ومن ورائهما جنتان آخريان كما ستنص على ذلك آية تالية بعد وصف هاتين الجنتين الأوليين وبذلك يتضح أن الجنات المذكورة فى القرآن أربع طبقات للجنات الأربع المذكورة فى السورة وهى:

عدن، والنعيم، والفردوس، والمأوى .. وهذا الذى ذهبت إليه هو الذى أيدته الأحاديث المطهرة .. فعن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل الارداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن)(٢). ويتضح من المقابلة بين الآية الأولى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) والآية الثانية (ومن دونهما جنتان) أن الجنتين الأوليين أشرف وأرفع من الجنتين التاليتين وكأنهما للخائفين من المقربين ذوى الدرجات العلى (ومن دونهما جنتان) لمن يأتى وراءهما من أصحاب اليمين - ولكن أى الجنات الأربع السابقة يوضع فى الجنتين الأوليين ..

---

(١) من كتاب الفخر الرازي جـ ٨. ص ٢٨.

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ باب تفسير سورة الرحمن ص ١٨١ وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (١) كتاب الإيمان باب إثبات روية المومنين ربهم ص ٤٢٦.

وأيها يوضع فى الجنتين الأخريين؟ .. الإجابة عن ذلك بسيطة فإن من يقرن الثواب الموصوف بعدهما إلى ثواب الجنات الأربع فى القرآن يعرف توا أن إحدى الجنتين الأولين جنة عدن فإن كل ماذكر هنا من ثواب يدخل فى ثوابها المذكور فى آيات كثيرة مثل قوله تعالى هذا ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾[1] .. واللفظ الذى وصفت به الحور العين موجود بنصه فى آيات أخرى متصلة بجنات عدن فصل فيهما ما جاء هنا من التنعيم بالفرش على نحو ما يتضح عما قليل فى مقارنة الآيات بعضها ببعض وإذا فجنة عدن إن صح هذا الفهم - إحدى الجنتين المرادتين - والجنة الثانية جنة النعيم لنفس الملاحظة وهى أن الثواب المقترن بها فى سورتى الصافات والواقعة يلتقى مع ثواب الجنتين المذكور هنا فقد جاءت فيه الفواكه والفرش الوفيرة ووصفت الحور العين بأنهن (قاصرات الطرف وبذلك تكون الجنتان جنة النعيم. وجنة عدن. وهما عطاءان كريمان خليقان بكل ثناء وشكر من الخائفين المقربين الذين يخشون ربهم سواء أكانوا من الإنس أو من الجن .. وقد وضع الله هاتين الجنتين ومامر من تفاصيل نعيمهما أمام الجن والإنس ليرد ضالهم وعاصيهم إلى طريق الهدى وليدفع أرشدهم وطائعهم إلى المضى فى طريق الفلاح وأن يزداد من أعمال البر والخير حتى يصبح من المقربين الأبرار الخليقين بجنتى عدن والنعيم اللتين يحفل القرآن بوصف جمالهما وصفو الحياة فيهما ورغد العيش وهناءته مما لا يخطر على بال إنسان. ويروى أن الرسول ﷺ تلا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال الجنتان بستانان فى عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام فى وسط كل ببستان دار من نور وليس منها شىء إلا يهتز نعمة وخضرة)[2].

---

(١) سورة ص الآيات من ٤٩: ٥٢.

(٢) أنظر الدر المنثور جـ ٦ ص ١٤٧.

وفى ختم الله تعالى هذه النعم بقوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلفات إلى هذه النعم التى يجدها من يدخل هذه الجنة على أى صورة تكون عليها، فكيف وهى على هذه الصفات التى وصفها الله سبحانه وتعالى بها؟

إن كل وصف لهذه الجنة الرحبة الفسيحة هو نعم مجددة تضاف إليها وتستدعى واجب الحمد والشكر لله رب العالمين.

٢) فى وصف الله تعالى للجنتين اللتين هما للسابقين قال تعالى (ذواتا أفنان) والأفنان: جمع فنن وهو الغصن، فهى جنات ذات أغصان لاحد لها ولا حصر أغصان تنشر على أهل الجنة الظل ويجنون منها الثمار كما قال تعالى ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا ﴾[(١)]. فظلالها قريبة منهم تظللهم لا من شمس ولا من حرارة فليس فى الجنة حر ولا شمس وإنما بها جو معتدل، وكأنما ظلال الغصون فيها للمتاع وزيادة النعيم وقد سخرت الغصون بجميع ثمارها لأهل الجنة كى يقطفوا منها كما يشاؤن وعبر الله عن هذا النعيم الدائم من الطعام والظلال مما تعطيه الأغصان والأفنان فقال تعالى ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾[(٢)] وقال فى صفة أهل الجنة ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[(٣)] .. وارفا ممتعا تجد النفس فيه راحتها ولذتها لذة لا توصف ويصف القرآن كما مر بنا ظل أهل النار بأنه غير ظليل وأنه لا بارد كسائر الظلال ولا واق من سموم النار بل هو ظل من يحموم أو دخان يخانق وقد سمى هذا الدخان المميت ظلا هزوا وسخرية بالكفار الآثمين قال تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا

---

(١) سورة الإنسان الآية ١٤.

(٢) سورة الرعد جزء من الآية ٣٥.

(٣) سورة النساء جزء من الآية ٥٧.

كَرِيمٍ﴾(١) .. أما ظل أهل الجنة فظل يحيي النفوس ويملؤها مسرة ومتاعا وهو كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾(٢) والظل الممدود هو الذى لا يتفاوت من مكان إلى مكان ولا ينقص من مكان بالقياس إلى مكان آخر – وقد تكون الظلال فى الآيات تمثيلا لكنف الله تعالى ورحمته أو هى تجمع بين الظلال الحقيقية وظلال الرحمة والعطف والرأفة والنعمة ومن الأحاديث النبوية الرائعة المتصلة بالظلال الدنيوية لا الأخروية ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا يارسول الله لو إتخذنا لك وطاءا فقال مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)(٣).

وذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يراد بالأفنان فى الآية: الأغصان والظلال والثمار وإنما يراد فنون النعيم الآخروى وألوانه وكأن الآية تشير إلى ألوان النعيم الكثيرة التى أعدها الله للمتقين فى كلتا الجنتين العظيمتين سواء مااتصل منها بطبيعة الجنة الفاتنة وأنهارها وأشجارها وثمارها وظلالها وعيونها أو ما اتصل منها بمتاع أهل الجنة فى طعامهم وشرابهم وفى ثيابهم وحليهم وفى نسائهم وأزواجهم من الحور العين ويضيف القرآن الكريم إلي كل ما أحصى من هذا النعيم الذى لا يطوف بعقل بشر فى حياته الدنيا أن للمتقين ما يشاؤن عند ربهم، قال تعالى﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا

---

(١) سورة الواقعة الأيات من ٤١: ٤٤.

(٢) سورة الواقعة الآيات من ٢٧: ٣٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن صحيح كذا فى الترغيب جـ ٤ ص ٢٦٥ وأخرجه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه بنحوه كذا فى البيان والتعريف جـ ٣ ص ١٧٥.

يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ﴾[1] .. فكل ما يفد على خيالهم ويتمنونه يجدونه تحت أبصارهم فى الجنات لا مد أبصارهم فقط بل مد أيديهم، بل إنه ليسبغ عليهم من عنده مالم يسألوه ولم تبلغه أمانيهم وإنها لألوان نعيم فوق ألوان - ألوان لا يحيط بها وصف ولا يستقسيها نعت يضيفها الله على الأبرار الذين آمنوا به وحسن إيمانهم ومضوا يعملون الصالحات يريدون بها وجهه وقلوبهم وجلة من لقائه راجين رحمته وخائفين خوفا شديدا من عذابه مع الأمل فى الحظوة بثوابه وأنه يعمهم بسعة فضله منه وأن من أعد كل هذه النعم والآلاء للثقلين لخليق بأن يتعلقا بعبادته ويتمسكا بهداه رجاء القبول أو التقبل ورجاء الرضا والإثابة بالنعيم الخالد ومن ثم قال تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

٢) فيما يتصل بالجنتين السابقتين قال تعالى (فيهما عينان تجريان) ..

وعن ابن عباس والحسن البصرى ﷺ: أن إحدى العينين. السلسبيل والأخرى التسنيم - أما السلسبيل فجاءت فى قوله تعالى واصفا إياها ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾[2] ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ ﴾[3] والآيات توضح النعيم بعين فائحة الرائحة إذ ينهل منها الأبرار كأسا من الخمر الصافية مزاجها الكافور الأبيض الخالص برائحته العطرة، عين تنفجر لهم كلما شاءوا من فرط النعمة وشمولها، ويطاف عليهم زيادة فى النعيم بآنية تحمل الأطعمة من كل لون وبأكواب ودنان من فضة لها شفافية الزجاج

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٢) سورة الإنسان الآيتان ٥، ٦.

(٣) سورة الإنسان الآيات من ١٥: ١٩

وقـواريره وصـفـاؤه ولها بياض الفضة وبهاؤها وجمالها فى مقادير وأحجام وأشكال مقدرة مقيسة بقدر الحاجة منها قياسا دقيقا وفى تلك الأكواب - البديعة يسقون خمرا مزاجها زنجبيل لذيذ الطعم - وإنها للعين الرائعة عين السلسبيل الذى ينحدر شـرابها فى الحلق إنحـدارا سائغا سلسا وما يزال وصفاء مخلصون أو قل وصفاء منعمون لا يحول ولا يزول ماعلى وجـوههم من نظرة البـهـاء ورونقه يطوفون على أهل الجنان رائحين غادين بتلك الأكواب وإنك لتـحـسـبـهم لصـفـاء ألوانـهم وإشـراق وجـوهـهم لؤلؤا مـتناثرا يشع البـهـجـة والجـمـال - وتلك عين السلسـبيل وما يغمر أهل الجنة حولها من نعيم أما عين التسنيم فقد وصفها الله تعالى بقوله واصفا شراب الأبرار وما أعده لهم في الجنات ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] والرحـيق من خمر الجنة وفى الحديث المروى عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال: (أيما مؤمن سقى مؤمنا شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عرى كساه الله من خضر الجنة)[2] ووصف الرحيق بأنه مختوم ختامه مسك فدنانه سدادها مسك لا طين كزقاق الخمر الدنيوية وهو تمثيل لكمال نفاسة هذا الرحيق، أو هذه الخمر الصافية الأرجة. والله يدعو الناس إلى التنافس فى التعلق بهذا الرحيق الذى يشفى القلوب والنفوس ويقول: (إن مزاجه من تسنيم أى شراب رفيع كما يدل على ذلك اشتقاق الكلمة)[3] إما لأنه ينحدر من أعلى مكان وإما لأنه أرفع شراب مكانة وقدرا.

---

(١) سورة المطففين الآيات من ٢٥: ٢٨.

(٢) أخرجه الإمام أحمد كذا فى تفسير ابن كثير جـ ٤. ص ٤٨٦.

(٣) من مختار الصحاح ص ٣١٧.

وقال بعض المفسرين: إنه علم لعين تجرى من جنة عدن، وكأن السلسبيل عين تجرى من جنة النعيم فهما عينان متقابلتان. يرتوى أهل الجنات من أقداح - شرابهما ريا لا يعدله رى ريا يبعث فى نفوسهم لذة صافية لا يشوبها أى أذى من الأذى المعروف للخمر الدنيوية وما تحدثه من غيبوبة وتخدير للعقل وصداع للرأس ووجع وفى ذلك يقول الله تعالى واصفا تلك الخمر الأخروية واستعذاب أهل الجنة لها ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[1] فهى خمر تجرى من عين لا تزال تتفجر بها، ليست كخمر الدنيا التى تستخرج - بالعصر وضروب أخرى من العلاج وتوضع فى أوعية بل هى خمر جارية كثيرة - وهى لذة خالصة ليس فيها ما يشوبها من غول أو بعبارة أخرى من صداع مكدر وليس فيها ما ينزف العقل ويذهب به ليس فيها أى عيب من عيوب الخمر الدنيوية بل هى متاع خالص للشاربين وهذا الوصف نجده فى قوله تعالى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾[2] .. وكأنما حلت هنا كلمة (لا يصدعون عنها) مكان كلمة (لا فيها غول) فى الآية السابقة .. والغول ما يغتال العقل ويذهب به من الصداع وهو نفس معنى (لا يصدعون عنها) أى لا يحدر لهم صداع عنها ولا يلحقهم أى وجع أو ألم فى الرأس - والله بذلك يكافىء الأبرار الذين حرموا على أنفسهم حسب تعاليمه الخمر الدنيوية وماتجر إليه من فسق، خمرا أخروية أكثر منها لذة ومتاعا .. وشتان بين لذة لا تدوم يمازجها الأذى وتخدير العقل وصداع الرأس وتدفع إلى الخطيئات والموبقات. ولذة باقية لا تفنى ولا يشوبها أى إيذاء لا للنفس ولا للرأس ولا للعقل لذة خالصة سائغة للشاربين وفى النهى عن تناول الخمر الدنيوية يقول أبو هريرة

---

(١) سورة الصافات الآيات من ٤٥: ٤٧.

(٢) سورة الواقعة الآيات من ١٧: ١٩.

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: (إذا تناول العبد كأس الخمر ناشده الإيمان بالله لا تدخلها على فإني لا أستقر أنا وهي في وعاء واحد، فإن أبى وشربها نفر الإيمان نفرة لا يعود إليه أربعين صباحا فإن تاب تاب الله عليه ونقص من عقله شيء لا يعود إليه أبدا)[1] والشارع إذ حرمها في الدنيا لما تجر إليه من الفسوق والعصيان أحلها في الآخرة، بل جعلها متاعا صافيا مزيلا منها كل أذى وكل ضرر بل لقد صورها ممزوجة بأنواع من الطيب والزنجبيل معروضة في أقداح وأكواب بديعة وبأيدي وصفاء يسرون الناظرين .. كل ذلك ليصرف المؤمنين عن الخمر المحرمة بما أعد لهم في الآخرة من هذه الخمر المبهجة. وإن ما وصفه بها لآلاء ونعم سابغة جديرة بالشكر والثناء تمتد بإمتداد جريان العينين في الجنة ومن ثم يعقب الله عز وجل على الآية الكريمة بقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

) في وصف فاكهة جنتى السابقين قال تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان).. إختلف المفسرون في المراد بالزوجان قيل: هما صنفان - معهود وغريب لم يره أحد ولا سمع به ..

وقيل: ضربان: رطب - ويابس .. أو حلو وحامض .. وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو)[2] وكأن كل ما فيها يستمد من حلاوة الطاعات وليس فيها شيء يستمد من مرارة السيئات كزقوم جهنم الفظيع الذي مر وصفه .. وربما كانت الآية تشير إلى قانون من قوانين الخلق في تلك الحياة وأنه يسري في الحياة الأخرى وهو قانون (التزاوج) الذي يعم في الكون جميع مخلوقاته، ومر بنا قانون العدل والتوازن الذي رمز إليه الله

---

(١) أخرجه الديلمي .. كذا في كنز العمال. جـ ٥ باب - الوعيد على شارب الخمر من الأكمال. ص ١٦٧.

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن المنذر كذا في الدر المنثور جـ ٧ ص١٤٧.

بالميزان فى صدر سورة الرحمن فكل ما فى الكون ينتظمه قانونان: قانون العدل وقانون التزاوج القائمان فى تركيبه، وكما أن قانون العدل يشمل الوجود الدنيوى والأخروى فكذلك قانون التزاوج - وقد وقف القرآن إزاءه مرارا وتكرارا، موضحا أنه سر الحياة الزوجية - وما تفضى إليه من الأبناء والمحافظة على الحياة الإنسانية إذ يقول الله تعالى ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾(١) فقد جعل للإنسان زوجته من نفسه بل لقد خلقهما من (نفس واحدة) حتى يكتمل بينهما التلاؤم وحتى يحس الإنسان أن زوجته ليست جزءا من جسمه المادى بل هى جزء لا يتجزأ من جوهره الروحى .. وهو لذلك يسكن إليها ويجد راحته وهناءته ومتاعه من المودة والرحمة واللطف والرقة فيها وبالمثل: خلق الأنعام من الضأن والماعز والإبل والبقر كما جاء فى تـ له تعالى ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾(٢) وقد فصلها فى قوله تعالى ﴿ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾(٣) وكذلك نظراؤه، وعلى نحو خلقه للأنعام والإنسان على أساس قانون التزاوج خلقه لجميع الحيوانات والكائنات والثمرات كما قال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾(٤) ... وقال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾(٥) فاكهة وغير فاكهة بل لقد عم الله هذا التزاوج فى كل شىء فى الكون وكل جنس من أجناس موجوداته فقال تعالى ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾(٦) ..

---

(١) سورة الروم جزء من الآية ٢١.

(٢) سورة الزمر جزء من الآية ٦.

(٣) سورة الأنعام جزء من الآية ١٤٣

(٤) سورة الشعراء الآية ٧.

(٥) سورة الرعد جزء من الآية ٣.

(٦) سورة الذاريات جزء من الآية ٤٩.

وذهب جمهور المفسرين: إلى أن الزوج كل ما يقترن بغيره مماثلا له أو مضادا مما جعلهم يقولون إن المراد بالزوجان فى الآية نوعان مختلفان كالذكر والأنثى والسماء والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والنور والظلام والسهل والجبل والبر والبحر والصيف والشتاء والجن والإنس. والخير والشر والإيمان والكفر والدنيا والأخرة والحق والباطل والسعادة والشقاء والحياة والموت. والعز والذل والقوة والضعف والعلم والجهل والفرح والحزن والحرارة والبرودة والحلو والمر وهو بعد فى التفسير ..

وقيل: إن المراد بالتزاوج فى الآية أن كل شىء فى الوجود لا ينفك من تركيب أو قل من تزاوج بين صورة ومادة وهو أيضا إغراق فى البعد والتماس لتفسير التزاوج بما يقوله المتفلسفة عن المادة والصورة أو عن الجوهر والعرض وليس هناك ما يضطرنا إلى مثل هذا التأويل أو مثل فهم المفسرين السابق .. فالله يكرر أن كل ما فى العالم خلق أزواجا مقترنة. قانون قائم من قوانينه فى خلق العالم وصنعه. كما قال تعالى مصورا عظم قدرته ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾(١). والآية صريحة فى أن كل ما فى الكون خلق أزواجا ما نعلمه أو نعرفه من الناس .. ومن النباتات والحيوانات وما لا نعلمه ولا نعرفه بطريق من طرق معرفتنا وعلمنا مما لم يجعل الله لنا طريقا إلى العلم به ومعرفته .. سواء أكان فى أرضنا وما يتصل بها من الجمادات والموجودات أم كان فى كواكب أخرى مما لا يحيط به علم البشر، والنص فى الآية على أن الفاكهة فى الآخرة ستكون زوجين قد يشير كما أسلفت إلى أن قانون التزاوج الدنيوى فى الخلق سيظل ساريا فى الآخرة وقد يكون فى هذا القانون ما يشير إلى أن الله وحده المتصف بالوحدانية والفردانية فلا شريك له ولا مماثل، أنه الوتر الفرد ولا يوجد فى الوجود فرد سواه فهو المنفرد بالأحدية ولا شىء يماثله فى أحديته

---

(١) سورة يس الآية ٣٦.

بوجـه من الوجـوه إذ كل شىء سـواه، زوج وكفء لشىء آخـر كل شىء خلق زوجا مماثلا لنظير وقرين وكأنما سيظل هذا القانون ساريا فى الآخرة على الفاكهة وغير الفاكهة حتى يظل للثقلين انسهما بالوجود المألوف وهى آلاء ونعم مزدوجة حرية بكل شكر وكل إمتنان، من أجل هذا قال تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ..

وهنا ملاحظات جديرة بأن تذكر يستدعى المقام ذكرها ..

فى وصف الله تعالى للجنتين اللتين هما للسابقين قال تعالى (ذواتا أفنان) أى أغصان جمع فنن أو ألوان جمع فن، فى حين أن هذا الوصف توصف به بساتين الدنيا - فهل هناك من فائدة فى هذا التعبير؟

أقول: هناك فائدة من وجهين:

الأول : أن جنان الدنيا تؤخذ منها الثمار للضرورة والحاجة بخلاف جنات الآخرة فإنها للذة لذا قال تعالى (ذواتا أفنان).

الثانى: أن أشجار جنات الدنيا لها سيقان غليظة وهى مرتفعة تعوق الأكل منها بخلاف أشجار الجنة فليس لها سيقان وإنما هى دانية يأكل منها القائم والقاعد والمتكىء. ثم إن التنكير فى الأفنان يدل على التكثير والتعجب.

وبنظرة أخرى فى التعبير القرآنى نجد أن الله تعالى قال (فيهما من كل فاكهة زوجان) بعد أن قال (ذواتا أفنان) وذكر الأفنان يغنى عن ذكر الفاكهة فما الأفنان إلا الأغصان عليها الفاكهة وقد وسط بين الآيتين قوله تعالى (فيهما عينان تجريان) فهل هناك من فائدة نلمسها فى التعبير القرآنى بذلك؟

أقول: أجرى الله تعالى ذكر الجنتين على عادة المتنعمين فإن الإنسان عندما يدخل الجنة فإنه يقدم التنزه والفرجة على الأكل، ألا ترى أن الإنسان فى الدنيا لا يأكل حتى تغلبه شهوة الجوع ثم يأكل بعد ذلك

فذكر الله بعد ما تتم به المتعة والمشاهدة الأشجار والأنهار ثم ما تتم به اللذة وهو الأكل فسبحان من يأتى بالآى بأحسن المعانى فى أبين المبانى..

وبنظرة آخرى نجد أن الله سبحانه وتعالى ذكر بعد كل وصف من أوصاف الجنة ما يدل على النعمة بقوله تعالى: (فبأى آلاء ربكما تكذبان) بينما لم يذكر ذلك فى معرض الحديث عن النار فى قوله تعالى مثلا (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران) ومعلوم أن التعذيب بالشواظ غير التعذيب بالنحاس وكذلك فى قوله تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) ومعلوم أن التعذيب بالطواف غير التعذيب بشرب الحميم فهل هناك سر وراء ذلك؟

نعم: إن فى ذلك إظهارا لجانب رحمة الله تعالى فهو بينما يتحدث عن نعم الجنة يفصلها ويطيل فيها لأنها أحب إلى النفس ..

أما فى معرض الحديث عن النار يجمل الكلام فيها إيلاما للنفس - كما أن التكرار الذى يعود إلى الجنة بقوله تعالى (فيهما عينان تجريان) وقوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) يدل هذا التكرار على أن التطويل فى المحبوب أحب إلى النفس وإطنابه مستحسن.

٥) ولعل من نعم الله على عباده أنه بعد أن ذكر هذا الوصف التفصيلى للجنة يذكر ما يدل على الراحة فيقول (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان) والآية الكريمة تصور لنا جانبا من فرش أهل الجنة وما تغرق فيه من النعيم وأسبابه والفرش تشتمل الأسرة والمنصات والمجالس كما تشمل الوسائد والبسط وكل ما يجلس عليه الشخص أو يضطجع وينام من الطنافس وهى طنافس بطائنها من إستبرق وهو: ماغلظ من الديباج أو الحرير. أما ظواهرها فقيل إن

الرسول ﷺ قال: (إنها نور يتلألأ)[١].. وقيل: إنها من سندس وهو الحرير الرقيق، وصورت سورة الواقعة أسرتهم فقالت: إنهم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾[٢] والموضونة: المنسوجة من الذهب المشبكة بالدر والياقوت والزبرجد وهم يتكئون عليها ويجلسون جلوس الراحة والمتعة متقابلين متوادين كل منهم يقبل على صاحبه فى حنو وود ومحبة لا فى تناكر وتباغض وتنافر. كأهل النار، وتأخذ الفرش فى سورة أخرى من سور القرآن هذه الصورة السابقة قال تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[٣] وإرتفاع الأسرة إما حقيقى فهى عالية فى الهواء على قوائم طوال .. وإما مجازى بمعنى أنها رفيعة القدر لحسنها ولما كللت به من الزبرجد والجواهر - والنمارق: الوسائد المسماة فى عاميتنا باسم المساند والمخدات وهى مصفوفة فوق المجالس والأسرة للإتكاء عليها والإستناد طلبا للراحة -

والزرابى: الأبسطة .. وهنا سؤال حان وقته - ربما قيل فى قوله تعالى (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) كيف يصح وصف البطائن التى هى الأدون دون الظهائر التى هى الأرفع؟

والجواب: إنه بذكر البطائن قد دل على الظهائر وإن كانت الظهائر أرفع فقد دل بذلك على أنها أرفع من الإستبرق)[٤] وعن عبد الله بن مسعود ﷺ فى قوله عز وجل (بطائنها من إستبرق) قال: أخبرتم بالبطائن فكيف بالظهائر؟)[٥] وتصور بقية الأية (جنا الجنتين) وهو ما

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٦٣٤٩.

(٢) سورة الواقعة الأيتان ١٥، ١٦.

(٣) سورة الغاشية الأيات من ١٣: ١٦.

(٤) من كتاب - تنزيه القرآن عن المطاعن. ص ٣٣٩ للقاضى عبد الجبار.

(٥) أخرجه البيهقى كذا فى الترغيب جـ ٤. ص ٩٨٤ موقوفا باسناد حسن وكذا هو فى الدر المنثور جـ ٦. ص ١٤٧.

يجنى من ثمارها الطيبة بأنه (دان) فهو فى متناول أيديهم، قريب منهم بحيث يقطفون منه كلما شاءوا قائمين أو جالسين أو – مضطجعين لا يرد أيديهم بعد ولا أشواك.

وقيل: إن الأشجار تدنو للأبرار كى يأخذوا من ثمارها ما يريدون.

وقيل: إن كل ما يطلبونه يجدونه فوقهم فيتناولونه.

والذى ينظر فى هذه الآية يجد أنها قد تضمنت نعمتين:

الأولى: نعمة الإتكاء وهى مظهر من مظاهر الراحة.

والثانية: نعمة قرب ثمار الجنة لهم فقد قال تعالى ﴿ **قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ** ﴾[1].. وقال تعالى ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾[2].

وبنظرة تأملية نجد أن هذه الآية تدل على أن ثمار الجنة ثمار تختلف عن ثمار بساتين الدنيا من عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الثمرة فى الدنيا على رؤوس الشجر – والإنسان عند الإتكاء يبعد عن رؤسها وفى الأخرة هو متكئ والثمرة تنزل عليه.

الوجه الثانى: من قرب من ثمرة شجرة فى الدنيا بعد عن الأخرى. وفى الآخرة أعلاها وأدناها يسهل الأخذ منهما فى وقت واحد وفى مكان واحد وفى الأخرة المستقر فى جنة عنده جنة أخرى.

الوجه الثالث: أن العجائب من خواص الجنة فكأن أشجارها دائرة عليهم سائرة إليهم وهم ساكنون، على خلاف مما كان فى الدنيا وجناتها وفى الدنيا يتحرك، الإنسان ومطلوبه ساكن وفى الحقيقة أن من لم يكسل ولم يتقاعد عن عبادة الله تعالى فى الدنيا إلى الخيرات إنتهى أمره إلى

---

(١) سورة الحاقة الآية ٢٣.

(٢) سورة الإنسان الآية ١٤.

سكون، لا يحوجه شئ إلى حركة فأهل الجنة إن تحركوا تحركوا لا لحاجة وطلب، وإن سكنوا سكنوا لا لاستراحة بعد التعب ثم إن ولىّ الله قد تصير له الدنيا نموذجا من الجنة فإنه يكون ساكنا فى بيته ويأتيه الرزق متحركا إليه دائرا حواليه يدل على هذا قول الله تعالى: ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[1] وهذه النعم الجليلة تستدعى من الثقلين شكرها وتقديم الثناء لمنعمها لهذا قال تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

أوصاف نساء السابقين:

٦) والناظر فى قوله تعالى فى وصف النساء (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) يجد ترتيب القرآن عجيبا وتناسقه رائعا فالله تعالى قد ذكر أولا ما يدل على النزهة بقوله تعالى (فيهما عينان تجريان) .. ثم ذكر ما يدل على التفكّه بقوله تعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) ثم ذكر ما يدل على الإتكاء والراحة بقوله تعالى (متكئين على فرش) ثم ذكر بعد ذلك ما يكون معهم فى الفراش وبه تتم اللذة والمتعة فقال تعالى (فيهن قاصرات الطرف) .. وهذه الآية قد تضمنت هى والآية التى بعدها أوصاف نساء الجنتين ..

الوصف الأول: قوله تعالى (قاصرات الطرف) ..

الوصف الثانى: قوله تعالى (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان)

الوصف الثالث: قوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) .. ومع كل صفة من هذه الصفات نقف لنتأمل ما معنى قاصرات ومقصورات؟؟

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٧.

يحتمل أن يكون معنى قاصرات ومقصورات: قاصرات الطرف من القصور وهو المنع - أى المانعات أعينهن من النظر إلى الغير - أو من القصور أى أن أعينهن ليس فيها طمع ولا طمح إلى الغير وأرجح: أنه من القصر لأن القصر مدح والقصور ليس بمدح.

وقيل معناه: أنهن قصرن أبصارهن على أزواجهن فلا يمددن طرفا إلى غيرهم ... فأبصارهن مقصورة وهن قاصرات فيكون من اضافة اسم الفاعل إلى المفعول والدليل على ذلك أن القصور مدح والقصر ليس كذلك وفيه ترتيب جميل .. أنه قال تعالى بعد ذلك (حور مقصورات فى الخيام) فهن مقصورات وهن قاصرات والجمع بين القصر في الأيتين أن أقول:

فى الآية الأولى: أنهن قد قصرن أبصارهن على أزواجهن كعادة العفائف.

وفى الثانية: قد قصرن أنفسهن فى الخيام كعادة المخدرات وقصرن أنفسهن عن الطمح أو أقول: أن المراد بالآيتين - إظهار العظمة والعفة وذلك بأن المرأة إذا كان لها ولى يرد عنها صانها عن التبرج والظهور .. وإذا كانت عفيفة فى نفسها فلا تتحرك يمنة أو يسرة فجمع لهن بين عفة النفس والولى لأن وليهن الله، وبين الإشارة إلى عفتهن بقوله تعالى (قاصرات الطرف) ثم تمام اللطف أنه تعالى قدم ذكر ما يدل على العفة على ما يدل على العظمة وذكر فى أعلى الجنتين قاصرات وفى أدناها مقصورات والذى يدل على أن المقصورات يدل على العظمة أنهن يوصفن بالمخدرات لا بالمتخدرات إشارة إلى أن تخديرهن بفعل فاعل ثم تنقلنا الآية إلى صفة أخرى تدل على كمال العفة وتمام اللذة وهى قوله تعالى: (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)

وقد قال المفسرون فى معناها تفسيرات ثلاثة:

الأول: لم يغرهن **الثانى:** لم يجامعهن **الثالث:** لم يمسسهن وهذا المعنى الثالث أقرب إلى الكمال وأليق بمقام العفة لكن دلالة الطمث عليه بعيد .. والناظر فى آيات القرآن يجد أنه تعالى عبر فى جماع نساء الدنيا بقوله تعالى ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[2].. وهذا التعبير بالكناية والإجابة عن هذا: هى أن فى جماع نساء الدنيا اضعافا للبدن وتركا للعبادة وفيه قبح أحيانا لذلك ذكر بلفظ مستور كناية عن قبحه أما نساء الآخرة فأتى فيهن بلفظ يدل على معنى أكثر من الجماع والمواقعة وهو الطمث ليدل على اخلائه من القبح، وفى ذكر كلمة (قبلهم) بلاغة إذ أنها تدل على نفى الطمث عنهن مطلقا ... ثم يذكر الله ما يدل على كمالهن الحسنى بعد كمالهن العقلى بقوله تعالى (كأنهن الياقوت والمرجان) .. ولعل وجه الشبه فى الياقوت والمرجان بجانب الحسن والصفاء الصيانة، فالحور العين كالمعادن التى فى أكمامها لا تمتد إليهن يد .. والياقوت والمرجان حجران كريمان صافيان صفاء البلور ولكنهما مع هذا الصفاء مشربان بحمرة ليست فى البلور، ولهذا كان تشبيه الحور بهن أبلغ وأصدق مما يجرى فى بشرتهن من دم الشباب الذى يشرق منه هذا الشعاع الشفقى على وجوهن ..

هذا ويلاحظ أن الجنتين اللتين وعدهما الله الذين يخافون مقام ربهم قد عرضتا فى هذا العرض المفصل الذى يتحدث فى كل مقطع من مقاطعه عن نعم الله وآلائه التى يحملها هذا المقطع والتى تدعو الثقلين – الإنس والجن إلى الوقوف بين يديها وإمعان النظر فيها – ثم تحديد موقفهم منها وهل يشكرون أم يكفرون؟؟

---

(١) سورة النساء جزء من الآية ٤٣.

(٢) سورة البقرة جزء من الآية ٢٣٧.

وفى هذا التفصيل إشارة إلى أن أى نعمة من نعم الله وإن بدت فى العين صغيرة لا يكاد يلتفت الناس إليها ولا يقدرونها قدرها - هى فى حقيقتها نعمة جليلة تضم فى كيانها نعما جليلة أيضا .. وهذا هو بعض السر فى هذا التعقيب عقب كل نعمة بقوله تعالى فبأى آلاء ربكما تكذبان.

٧) ولسائل يسأل يقول: علام كل هذه النعم التى تفوق حد الوصف وغاية الكمال؟

يجيب الرب قائلا: (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)

لكلمة الإحسان معنيان ..

(معنى الإتقان فى العمل ....، ومعنى الإنعام على الغير)(١) وقد إستخدمت فى الآية بالمعنين جميعا. فكلمة الإحسان الأولى يراد بها إحسان الإنسان فى عمله وامتثاله لطاعات ربه - وكلمة - الإحسان الثانية: يراد بها إحسان الله على المتقين المؤمنين بنعيم الجنات والرضوان ..

وقيل: بل الإحسان الأول: التوحيد وكلمة الشهادة لما روى من أن النبى ﷺ تلا الآية ثم قال: يقول الله: (هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتى وحظيرة قدسى)(٢) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان وقال هل تدرون ماقال ربكم؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: (ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة)(٣).

---

(١) من مختار الصحاح. ص ١٣٧.

(٢) من تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٦٣٥٣.

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه والبغوى كذا فى الدر المنثور جـ ٦ ص ١٤٩ وكذا هو فى تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٨.

وذهب كثير من المفسرين (إلى أن الإحسان الأول الإحسان فى العمل عامة)[١] وكأن الرسول ﷺ نص من هذا الإحسان على أعظم أصنافه وهو الإيمان بوحدانية الله إعتقادا وعملا ... وفى الحديث المروى عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: (يارسول الله دلنى على عمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار فقال عليه الصلاة والسلام: إذا عملت سيئة فاعمل بجانبها حسنة فإنها بعشر أمثالها فقال يارسول الله: لا إله إلا الله من الحسنات؟ فقال عليه السلام: هى أحسن الحسنات)[٢] إذ هى الأصل الأول فى الإيمان ونوره وهداه .. ومن إحسان المؤمن إمتثاله لجميع تعاليم الدين الحنيف والنهوض بعبادته على الوجه الأكمل كما جاء فى الحديث المروى عن أبى هريرة رضي الله عنه فى إجابة الرسول ﷺ على سؤال جبريل عليه السلام (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٣].

والإحسان بهذا المعنى يتطلب بأن يستشعر المؤمن دائما أنه بحضرة ربه يراقبه فى كل صغيرة وكبيرة فى السر وفى العلن لا تخفى عليه منه خافية وهو دائما يصفى له نفسه بالتوحيد والإخلاص الصادق والخشية والإنابة والعبادة حق العبادة - ويتردد فى القرآن وصف المؤمنين الذين عملوا الصالحات بأنهم محسنون كما فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].. وفى قوله تعالى ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

---

(١) من تفسير البيضاوى جـ ٢ ص ٣٥٢.

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه كذا فى الدر المنثور جـ ٣ ص ٦٤.

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ - باب تفسير سورة لقمان ص ١٤٤ - وأخرجه مسلم بشرح النووى مجلد (١) كتاب الإيمان - باب تعريف الإيمان ص ١٣٧.

(٤) سورة الزمر الآيتان ٣٣: ٣٤.

(٥) سورة المرسلات الآيتان ٤٣، ٤٤.

ومن الإحسان المتعلق بالإنسان: الإنفاق على الفقراء وذوى الحاجة، وقد نوه القرآن به وبأجره وثوابه عند الله تنويها عظيما إذ سماه (قرضا حسنا) وتعهد عهدا عظيما ومن أوفى بعهده من الله - أن يضاعف ثوابه مرارا كثيرة يقول تعالى ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1].. ولقد تعهد لمن ينفق ماله فى جهاد أعداء دينه وحربهم أن يضاعف لهم ما ينفقونه سبعمائة ضعف، ومثل المنفق فى هذا الجهاد بزارع زرع فى الأرض حبة فإذا هى تنبت سبع سنابل عجيبة فى كل سنبلة مائة حبة كما جاء في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2] وهو إنعام من الله مضاعف يلقى به إنعام المؤمن بالإحسان فوق كل إحسان، وقد سمى الله كل ما يقدمه المؤمن فى دنياه من عمل صالح حسنة - أى نعمة وثوابا - يثاب عليه فى أخراه كما قال تعالى ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾[3] بل لقد وعد بأن تضاعف الحسنةعشرة أضعاف كما قال تعالى ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[4] .. ويقول تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[5] فلهم ثوابهم وهو ثواب مضاعف إذ يجدون كل ما يشاءون مما تشتهيه أنفسهم ويلذ أعينهم ولدى الله فوق ذلك (زيادة) من النعم لا يمكن حصرها ولا الإحاطة بها وهذا معناه: أن كل ما يتصوره المؤمن من أنواع الإحسان الإلهى والإنعام الربانى الذى وعده الله به فى الذكر الحكيم ووراءه فى الآخرة أنواع لا تحصى من نعيم الجنان والرضوان والآية توضح تفضل الله على أصحاب الجنتين السابقتين جنتى عدن والنعيم بأنه إحسان يستحقونه على ما قدمت

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦١.

(٣) سورة النمل الآية ٨٩.

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ١٦٠.

(٥) سورة يونس جزء من الآية ٢٦.

أيديهم من إحسان وكأنه جزاء عادل لأعمالهم وهو فوق العدل لأنه زائد عليه. إنعاما عظيما خليقا بكل شكر وثناء على رب العالمين – وهذه الآية ختام ثمانى آيات دالة على العمل الموصل إلى الثمانية أبواب الكائنة لجنتى المقربين وقد ذيلها بقوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان).

نعم أصحاب اليمين:[١]

والناظر فى هذه الآية الكريمة (ومن دونهما جنتان) وماتلاها من آيات يجد .. أنها قد ذكرت أوصاف الجنتين اللتين لأصحاب اليمين وكذلك نسائهن وبالطبع فهى منزلة دون منزلة السابقين ..

ولست هنا أتعرض بالتفصيل فى بيان الأفضلية بينهما وأنما أحاول النظر فى الآيات تمشيا مع النص القرآنى.

والمعنى فى هذه الآية الكريمة: أى ومن دون هاتين الجنتين اللتين ذكرهما الله سبحانه وتعالى فى قوله جل شأنه (ولمن خاف مقام ربه جنتان) أى ومن دون هاتين الجنتين جنتان أخريان أنزل منهما درجة وأدنى منزلة، وإن كان مافيهما من النعيم مالا يحيط به وصف وأن القطرة منه لتوازى ماعرف الناس جميعا من نعيم الدنيا. وهذا يعنى أن أهل الجنة ليسوا على درجة واحدة وهذا طبيعى إذ لم يكن المحسنون على درجة سواء فى الإحسان وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾[٢].. وقد جاء بيان ذلك فى سورة الواقعة التالية لهذه السورة وفيها يقول سبحانه ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝

---

(١) المناسبة:

ولما كان قد علم بما ذكر أول هذا الكلام من الخوف مع ذكر وصف الإكرام وآخره من ذكر الإحسان. أن هذا الفريق محسنون وكان من المعلوم أن العاملين طبقات وأن كل طبقة أخرها على مقدار أعمالها إقتضى الحال بيان ما أعده لمن دونهم فقال تعالى: (ومن دونهما جنتان) نظم الدرر جـ ٥. ص ٢٩٣.

(٢) سورة آل عمران جزء من الآية ١٦٣.

وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[(١)] فالناس فى الآخرة على ثلاثة أحوال .. أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال والسابقون من أصحاب اليمين، وكل حال من تلك الأحوال الثلاثة درجات كثيرة، يختلف بعضها عن بعض صعودا ونزولا وقيل: الجنتان الأوليان .. جنة عدن .. وجنة النعيم .. والأخريان: جنة الفردوس وجنة المأوى .. قال ابن جريج: هى أربع جنان جنتان منهما للسابقين المقربين (فيهما من كل فاكهة زوجان وعينان تجريان) وجنتان لأصحاب اليمين (فيهما فاكهة ونخل ورمان وفيهما عينان نضاختان) قال ابن زيد: (إن الأوليين من ذهب للمقربين والأخريين من ورق لأصحاب اليمين)[(٢)] .. فعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ فى الآية قال: (جنتان من ذهب للمقربين وجنتان من ورق لأصحاب اليمين)[(٣)].

ويجيئ الوصف الأول للجنتين بقوله (مدهامتان) والمعنى أنهما سوداوان من شدة الخضرة فالدهمة تعنى السواد (يقال: فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء وادهام الشئ ادهيما أى إسود قال تعالى (مدهامتان) أى: سوداوان من شدة الخضرة من الرى والعرب تقول لكل شىء أخضر أسود. وسميت قرى العراق سوادا لكثرة خضرتها)[(٤)] وعن أبى أيوب الأنصارى رضي الله عنه قال: سألت النبى ﷺ عن قوله (مدهمتان) قال (خضراوان)[(٥)].

ويجيئ الوصف الثانى لجنتى أصحاب اليمين فى قوله تعالى: (فيهما عينان نضاختان) أى فوارتان بالماء .. وفى الصحاح (عين

---

(١) سورة الواقعة الآيات من ٧: ١١.

(٢) من كتاب: فتح البيان .. جـ ٩ .. ص ٢٤٣ صديق خان.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه كذا فى الدر المنثور جـ ٦ ص ١٤٦.

(٤) من مختار الصحاح ص ٢١٣.

(٥) أخرجه الطبرانى وابن مردويه كذا فى الدر المنثور جـ ٦. ص ١٤٩.

نضاخة: كثيرة الماء قال أبو عبيدة فى قوله تعالى (نضاختان) أى (فوارتان)[١].

والنضخ والنضح بمعنى واحد إلا أن النضخ أكثر إعطاءاً للماء من النضح كما يشعر بذلك ثقل الخاء وخفة الحاء فعلى مقدار وزن كل منهما يكون قدر كل من النضخ والنضح من الماء أى أن فى هاتين الجنتين عينى ماء تضخا الماء ضخا فى دفعات متتالية ولا ترسلانه متدفقا كهاتين العينين اللتين فى الجنتين السابقتين كما يقول سبحانه (فيهما عينان تجريان) وليس هذا من الله سبحانه وتعالى. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما هو إعطاء يفرق فيه بين أهل الإحسان حيث ينزل كل منهما منزلته التى هو أهل وذلك هو عدل الله الذى يجرى مع إحسانه ويضبط موازينه وبالتأمل فى هذه الآيات نجد أنها تشير إلى أن هذه النعم دون النعم السابقة وهذا يؤدى بنا إلى تساؤل مؤداه من المعلوم أن أهل الجنة حينما يعطيهم الله نعما فكل نعمة تأتى تكون مثلها أو أحسن منها على حد قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[٢].

وقد أجاب الكشاف عن ذلك فقال: (أن هاتين الجنتين لأولاد المؤمنين) قال تعالى (ألحقنا بهم ذريتهم) بعد قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ﴾[٣].. فهو من باب إنعام الله عليهم فكأنه قال لهم:(أسكنوا فيها من شئتم)[٤].

وهذه النعم التى ذكرت فى وصف جنتى أصحاب اليمين جديرة بالشكر والعرفان بالثناء على رب العالمين من أجل ذلك ينادى الله على

---

(١) من مختار الصحاح ص ٦٦٤.

(٢) سورة البقرة جزء من الآية ٢٥.

(٣) سورة الطور جزء من الآية ٢١.

(٤) من كتاب الفخر الرازى جـ ٨ ص : ٣

الثقلين مستفهما (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وبعد وصف الله تعالى لجنتى أصحاب اليمين أعنى وصف العينين اللتين تنضخان فيهما ماءا. يأتى وصف آخر من أوصاف الجنة وهو نضج الثمار إذ أنه مترتب على الرى بالماء. إذ أنه كالسبب فى إنشائه فيقول تعالى فيهما فاكهة ونخل ورمان).

ولعلنا نتساءل: هل هناك من فائدة وراء تخصيص النخل والرمان بالذكر دون غيرهما من أنواع الفواكه ؟؟

والإجابة عن ذلك: قال المفسرون: خصت هذه الأنواع دون غيرها لما بينها من التقابل فأحدهما حلو والآخر غير حلو، وكذلك أحدهما من فواكه البلاد الحارة. والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما فاكهة وغذاء، والآخر فاكهة ودواء، وأحدهما أشجاره فى غاية الطول، والآخر أشجاره بالضد. وأحدهما ما يؤكل منه بارزا ومالا يؤكل كامنا، فيكون الآخر بالعكس فهما كالضدين والإشارة إلى الطرفين نتناول الإشارة إلى ما بينهما كما قال تعالى (رب المشرقين ورب المغربين).

وقيل: خصا بالذكر لشرفهما ولكثرتهما وجودا فى الخريف والشتاء كما فى جنات الدنيا حتى جعلت مثالا لهاتين فقال تعالى (فيهما فاكهة ونخل ورمان) فإن كلا منهما فاكهة وادام فلذا خصا تشريفا وتنبيها على ما فيهما من التفكه وأولهما أعم نفعا وأعجب خلقا فلذا قدمه وهذه الآية الكريمة نوهت بالفواكه الشجرية، أما الفواكه الأرضية (مثل البطيخ فقد تضمنته الآية السابقة (مدهامتان) وكأنها تشغل أنواع الخضر وما يدخل فيها من الفواكه الأرضية التى لا تقوم على ساق)[1] .. وهذا الذى ذكره المفسرون أكثر إحتمالا للمعنى مما ذكره بعض المفسرين حيث قال مانصه (ولعله خصهما بالذكر لكثرة وجودهما فى البلاد العربية)[2].

---

(١) من الفخر الرازى جـ ٨. ص ٣٥.

(٢) أنظر التفسير الواضح جـ ٢٧ ص ٥٢.

وما قيل ردا على الشيخ (المراغى) تحت عنوان «ضروب من النعم تتجلى» فى الفصل الثانى من المبحث الأول عند قوله تعالى (فيهما فاكهة والنخل ذات الأكمام) يقال هنا وأبعد بعض المفسرين فذهب إلى أن ذكر الرمان الذى يتخذ للدواء كما يتخذ للطعام مع أصحاب اليمين وجنتيهما يدل على ضعف استعدادهما بالقياس إلى المقربين أصحاب الجنتين الأوليين إذ الدواء إنما يهيأ ويعد لضعيف المزاج)[١] وهذا الذى ذهب إليه البعض فى تفسيرهم إنما هو تصور خاطىء لمعنى الآية الكريمة إذ أنه ينطبق على رمان الدنيا أما فى الجنة فلا مرض ولا حاجة إلى دواء وكل ثمرة هناك فهى للتفكه.

وفى وصف نخل الجنتين يحدثنا ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: (نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر وكرانيفها ذهب أحمر وسعفها كسوة لأهل الجنة منها مقطعاتهم رحللهم وثمرها أمثال القلال أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزبد ليس لها عجم)[٢] .. وعن رمان الجنة يحدثنا أيضا ابن عباس رضي الله عنهما فيقول: قال رسول الله ﷺ: (ما من رمانة من رمانكم هذه إلا وهى تلقح بحبة من رمان الجنة)[٣].

وإلى هنا فقد إنتهى الحديث عن صفة جنتى أصحاب اليمين.

---

(١) من كتاب: سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة ص ١٤٦ شوقى ضيف.

(٢) أخرجه ابن المبارك وابن أبى شيبة وهناء بن السرى وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث المنشور كذا فى الدر المنثور جـ ٦. ص ١٥٠.

(٣) أخرجه ابن السنى فى الطب النبوى وابن عدى وابن عساكر والديلمى كذا فى الدر المنثور جـ ٦. ص ١٥٠.

صفة نساء أصحاب اليمين:[(١)]

ثم تنتقل بنا الأيات لتعرض لنا أوصاف الحور العين التى يأخذها أصحاب اليمين فيقول تعالى (فيهن خيرات حسان) فيهن: أى فى الجنتين المذكورتين وما أعد الله لأهل اليمين نساء (خيرات حسان) قيل: المراد: خيرات الأخلاق فاضلات. وقيل فى وصفهن: لسن بدمرات ولا متطلعات ولا متشوقات ولا ذربات ولا سليطات. ولا طماحات ولا طوافات فى الطرق وكأنه يصف الخيرات فى دنيانا - والدمرات من الدمر: وهو الرائحة المستكرهة من عرق أو غيره، والمتطلعات من التطلع إلى غير أزواجهن. والمتشوقات المتزينات:

أى أن جمالين متصنع لا طبيعى. والذربات - الثرثارات - والسليطات: طويلات اللسان والطماحات: الشرسات الناشزات اللاتى لا يرضين دائما عن الزوج. والطوافات فى الطرق الدورات اللاتى لا يمكثن فى بيت ولا ينتظرن فيه أزواجهن. وكل ذلك إنما يمكن أن يقال فى نساء الدنيا - وقيل معنى خيرات: مختارات، اختارهن الله وأبدع خلقهن، أو تكوينهن وأخلاقهن أو شمائلهن.

والأولى أن تفسر الكلمة بحسن الأخلاق لمجيء كلمة (حسان) بعدها، فهن فاضلات حسناوات، وهما نعتان إلهيان لهن يرفعانهن إلى الذروة العليا.

وفى معنى الآية الكريمة قال ابن مسعود ﷺ (إن لكل مسلم خيّرة ولكل خيّرة خيمّة ولكل خيمّة أربعة أبواب يدخل عليه كل يوم تحفة وكرامة

---

(١) المناسبة :

ولما كان مانكر لا تكمل لذته إلا بالأنيس وكان قد ورد أنه يكون فى بعض ثمار الجنة وحمل أشجارها نساء وولدان كما أن أمثال ذلك فى باطن مياه الدنيا (وجعلنا من الماء كل شيء حى) قال جامعا على نحو ما مضى من الإشارة أن الجنتين لكل واحد من أفراد هذا الصنف فقال تعالى (فيهن خيرات حسان) - نظم الدرر جـ ٥. ص ٣٩٤.

وهدية لم تكن قبل ذلك لا ترحات ولا طماحات ولا بخرات ولا ذفرات حور عين كأنهن بيض مكنون)[١].

ثم يذكر الله بعد ذلك الوصف الثانى والثالث بقوله تعالى (حور مقصورات فى الخيام) وقوله تعالى (لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان) .. والمعنى فى ذلك أنهن محبوسات محجوبات لا يتبذلن فى شارع أو سوق ولا يخرجن لبيع أو شراء ولعل الحجاب الذى يقصده الشارع ويصف به الحور العين هو البعد عن التبذل والولوع إلى المجتمعات والنوادى وأنهن مقصورات على أزواجهن لا ينظرون إلى رجال غيرهن وكلنا بينه وبين نفسه لا يحب إلا المرأة المقصورة عليه أما التى تتركه وتصادق غيره وتراقصه وتستضيفه الأيام والليالى ففى الواقع - ليست هذه إمرأته وحده - تلك طبيعة الرجال .. أما الذين طغت على عقولهم المدنية الكاذبة حتى فقدوا رجولتهم وتركوا نساءهم للأصدقاء والخلان تحت إسم الحرية والمدنية فهؤلاء لم يعد للعقل والمنطق معهم سبيل، ونساء الجنة حور مقصورات فى الخيام أبكار لم يطمثهن قبل أزواجهن انس ولا جان. ثم تنقلنا الآيات إلى مايدل على كمال المتعة فيقول الله تعالى (متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان) وهذا الوصف مقابل لقوله تعالى فى وصف حال أهل الجنتين العاليتين (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان).

الرفرف: المسند ووصف بلفظ الجمع (خضر) إشارة إلى أن لكل من أهل الجنة مسندا خاصا يتكىء عليه. والمساند جميعها ذات لون واحد فهى مفردة فى صفوفها. جمع فى لونها.

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم كذا فى تفسير بن كثير جـ ٤. ص ٢٨٠ .. وأخرجه ابن أبى الدنيا موقوفا من رواية جابر الجعفى كذا فى الترغيب جـ ٤ ص ٩٥٧ وكذا هو فى الدر المنثور جـ ٦. ص ١٥١.

والعبقرى: الجيد من البسط الخارق للعادة فى دقة صنعه. والعبقرى – نسبة إلى عبقر وهو: واد كانت العرب تعتقد فى جاهليتها أنه موطن الجن. وأبى الجن تنتسب الأعمال الخارقة التى تتجاوز حدود الطاقة البشرية ومنه سمى العبقرى .. وهو الذى يجئ فى أفعاله بالخوارق والمعجزات لغيره.

وفى الآية فرق آخر يظهر فى المتكأ أصحاب كل من الجنتين العاليتين والجنتين الواقعتين تحتهما فعلى حين يتكئ أصحاب الجنتين الأوليين على فرش بطائنها من ديباج وحشوها من حرير وعلى حين أن هذا الإتكاء لا يباعد بينهم وبين ثمر الجنة الذى يكون بين أيديهم فى أى وضع يكونون عليه كما يقول سبحانه (متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان) .. يكون متكئا أصحاب الجنتين الأخرين على رفاف – أى مساند – خضر لم تعرف المادة المشكلة منها أهى حرير أو غير حرير؟ وإن عرف أن هذه المساند مثبوثة على بسط حسان كما لم يعرف إن كان هذا الإتكاء يباعد بين المتكئين وبين ثمر الجنة. فلا تناله أيديهم إلا إذا غيروا من وضعهم واعتدلوا فى جلستهم أو أنهم ينالونه من قريب؟

والتفرقة التى أشارت إليها الآية الكريمة بين السابقين فى الجنة وبين أهل اليمين هى أمر لازم يقتضيه عدل الله وكما فرق هذا العدل بين المحسنين والمسيئين. فأنزل هؤلاء الجنة وأنزل أولئك النار كذلك فرق هذا العدل بين المحسنين أنفسهم وأحل كل منهم منزلته حسب إحسانه وبهذا يعمل المحسنون على أن يزدادوا إحسانا حتى لا يقصر بهم سعيهم ويسبقهم السابقون إلى الدرجات العلى. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[١].

---

(١) سورة الأحقاف الآية ١٩.

وأمام هذه الآية التى معنا أتساءل أقول:

فى وصف الله تعالى لجنتى السابقين ونسائهما قدم الإتكاء على وصف النساء بينما فى معرض الحديث عن الجنتين اللتين لأصحاب اليمين وذكر أوصافهما ونسائهما أخر الإتكاء؟

وهذا التساؤل قد أجاب عنه بعض المفسرين بوجهين:

الأول: أن أهل الجنة ليس عليهم تعب وحركة، فهم منعمون دائما. لكن الناس فى الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله إجتماع مستفيضاً وعند قضاء وطر د يستعمل الإغتسال والإنتشار فى الأرض للكسب، ومنهم من يكون مترددا فى طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازما قبل قضاء الوطر وبعده فالله تعالى قال فى صفه الجنة: متكئين قبل الإجتماع بأهلهم وبعد الإجتماع كذلك لعلهم أنهم دائمون على السكون فلا تعب لهم لاقبل الإجتماع ولا بعد الإجتماع.

الثانى: هو أن الجنتين المتقدمتين لأهل الجنة الذين جاهدوا والأخيريتين – لذرياتهم الذين الحقوا بهم فهم فيها وأهلهم فى الخيام منتظرات قدوم أزواجهن فإذا دخل المؤمن جنته التى هى سكناه يتكئ على الفرش وأما كونهم فى الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل فى يومنا. واتكاء المؤمن غير حاصل فى يومنا. فقدم ذكر كونهن (فيهن) هنا وأخره هناك[1].

هذا ويتضح لنا أن السورة جسمت نعم الجنة المادية بكل ما يتصل بها من رياض وظلال وعيون ومياه جارية تسر العين والنفس ومطاعم وفواكه تمتع وتلذ طاعمها وفرش وديباج ووشى تبهج الناظرين. وحور عين فى أروع ما يكون من جمال وزينة وكل ذلك إنما هو تصوير لنعيم الجنة. بما نشاهده ونبصره فى دنيانا، وهو فوق ذلك درجات، إنه نعيم

---

(١) من كتاب الفخر الرازى جـ ٨. ص ٣٦.

الجنة الذى لا يلحقه ولا يشبهه ولا يدنو منه أى نعيم فى تلك الدنيا الفانية وإنه لخليق بكل أفراد الثقلين من الإنس والجن أن يتنافسوا فيه ويتسابقوا بعبادة الله حق عبادته وشكره على آلائه ونعمه التى لا يستطيع أن ينهض بحقها أى شكر أو ثناء، وبهذه الآية تمت النعم الثمانية المختصة بجنتى أصحاب اليمين إشارة إلى العمل لأبوابها الثمانية وقد وسط الله فى الحديث عن الجنتين وصفتهما ونساء الجنتين وأوصافهن قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .. وذلك للإشارة إلى أن تكذيبهم بوجود الجنة فضلا عن تكذيبهم بصفتها حقيق بالإنكار والتوبيخ.

ولما دل ماذكر فى هذه الصورة من النعم على إحاطة مبدعها بأوصاف الكمال، ودل بالإشارة بالنعمة الأخيرة على أن نعمه لا نهاية لها لأنه مع أن له الكمال كله متعال عن كل شائبة نقص فكانت ترجمة ذلك قوله تعالي فى ختام نعم الآخرة مناظرا لما تقدم من ختام نعم الدنيا معبرا هناك بالبقاء لما ذكر قبله من الفناء. وهنا من البركة إشارة إلى أن نعمه لا إنقضاء لها فقال تعالى (تبارك إسم ربك ذى الجلال والإكرام) قال ابن برجان: تبارك أى تفاعل من البركة. ولا نكاد نذكره جل ذكره إلا عند أمر معجب ومعناه: ثبت ثباتا لا تسع العقول جميع وصفه لكونه على صيغة المفاعلة المفيدة لبذل الجهد إذ كانت مع من تكن منازعته وذلك مع اليمن والبركة والإحسان.

ولما كان تعظيم الإسم أقعد وأبلغ فى تعظيم المسمى قال: اسم ربك. أى المحسن إليك بانزال القرآن الذى جبلك على متابعته. فصرت مظهرا له وصار خالقا لك فصار إحسانه إليك فوق الوصف ولذلك قال واصفا للرب فى قراءة الجمهور – ذى الجلال أى العظمة الباهرة فهو المنتقم من الأعداء. والإكرام: أى الإحسان الذى لا يمكن الإحاطة به فهو المتصف بالجمال الأقدس المقتضى لفيض الرحمة على جميع الأولياء.

وقرأ ابن عامر «ذو» .. صفة للإسم. وكذا هو فى مصاحف أهل الشام والوصفان الأخيران من شبه الإحتباك لأنه حذف من الأول متعلق الصفة وهى النقمة للأعداء ومن الثانى أثر الإكرام وهو الرحمة للأولياء، فإثبات الصفة أولا يدل على حذف ضدها ثانيا. وإثبات الفعل ثانيا يدل على حذف ضده أولا قال الرازى: كأنه يريد بالإسم الذى إفتتح به السورة وقد إنعطف آخر السورة على أولها على وجة أعم فيشمل الإكرام بتعليم القرآن وغيره والإنتقام بإدخال النيران وغيره)[١].

وعن عائشة ﵂ فى معنى الآية الكريمة قالت: كان رسول الله ﷺ: إذا سلم من الصلاة لم يقعد إلا مقدار ما يقول: (اللهم أنت السلام ومنك السلام .. تباركت ياذا الجلال والإكرام)[٢] وعن ثوبان ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ: إذا إنصرف من صلاته إستغفر ثلاثا وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام)[٣].

إنتهى والحمد لله رب العالمين (ياذا الجلال والإكرام لا تحرمنا من آلاءك يارحمن) أمين .

١٠/٢/٢٠٠١م

١٦/ذوالقعدة/١٤٢١هـ

القاهرة - الأميرية

---

(١) من كتاب – نظم الدرر جـ ٥ ص ٣٩٦.

(٢) أخرجه مسلم والسنن الأربعة كذا فى تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨١.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى كذا فى الدرر المنثور جـ ٦ ص ١٥٣.

التعريف بالمؤلف وكتبه

مؤلف هذا الكتاب: إسمه/ جمعة على عبد القادر. يرجع ميلاده إلى سنة تسع وأربعين وتسعمائة وألف من مواليد قرية - طملاى - من قرى محافظة المنوفية - منّ الله عليه بنعمة البصيرة وهو فى العام السادس لميلاده أهلته هذه النعمة لأن يتعلم القرآن الكريم فحفظه بتوفيق الله وهو ابن سبع، وجوده على رواية حفص، وأراد الالتحاق بالمعهد الأزهرى إلا أنه كان فى هذا الوقت صغيرا فكان هذا دافعا له لأن يضيف الى تجويده للقرآن رواية أخرى وهى ورش، ولما بلغ عمره دون الثانية عشرة بقليل التحق بالمعهد الأزهرى، وكان من الموفقين فى دراسته، وحصل على شهادة الإبتدائية الأزهرية، التى سميت فيما بعد بالإعدادية، ولا يحصل على هذه الشهادة إلا من درس بالمعاهد الأزهرية أربع سنوات، وواصل السير فى هذا المعهد الأزهرى حتى حصل على الثانوية الأزهرية، وكانت مدة الدراسة فى هذا القسم الثانوى خمس سنوات، ووقتها كانت التجربة الأولى فى أن يؤدى المكفوفون إمتحاناتهم تحريريا فى كل المواد تقريبا، وقد حظى بتوفيق الله سبحانه وتعالى، وكان الأول على مكفوفى هذا المعهد، فحصل على شهادة الثانوية سنة تسع وستين وتسعمائه وألف من معهد منوف الدينى، وحقق الله له ما كان يرجوه، وهو أن يكون من الطلاب الذين ينتسبون إلى كلية أصيلة لها قصب السبق فى جامعة الأزهر - إنها كلية أصول الدين - وعندما التحق بهذه الكلية العتيقة نعم أيضا بتوفيق الله سبحانه وتعالى فحصل على شهادة الإجازه العالية «الليسانس» من قسم التفسير وعلوم القرآن سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة والف، وفى هذا التاريخ كان لا مفر وقتها من أن يعمل خريجو أصول الدين بوزارة الأوقاف كائمة وخطباء وهذه نعمة يحظى بها من تخرج من كلية أصول الدين لاسيما إذا كان حقل الدعوة الذى يعمل

يتناسب مع حياة الداعى، ونظرا لأن الدعوة إلى الله الشأن فيها أنها جهاد تحتاج من الداعى إلى صبر وجلد ومثابرة، فقد تم تعيينه فى قرية نائية عن العمران وقد عمل بها إماما وخطيبا، وحظى بإعجاب من يصلون خلفه ويستمعون إلى خطبه وقد كان يرغب فى أن يواصل دراسته بالدراسات العليا لا سيما وأن تقديراته بكلية أصول الدين كانت بمرتبة «جيد جدا» وبعد عمله بالأوقاف قرابة شهر واحد حظى بأن يكون من المكلفين من قبل كلية أصول الدين بالعمل فيها معيدا، وواصل الدراسة من جديد فحصل على شهادة «الماجستير» سنة خمس وسبعين وتسعمائة وألف وكان التقدير أيضا «جيد جدا» وبالجهد الدؤب والمكابدة فى سبيل تحصيل العلم لاسيما لرجل له هذه الظروف الخاصة أمل أن يحقق الله له الأمل المنشود ليحصل على شهادة «الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية» تحت عنوان «تفسير سورة الرحمن» وكان ذلك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألف، ومن يمن الطالع أن ليلة مناقشة هذه الرسالة إتفقت قضاءا وقدرا مع ليلة القدر من شهر رمضان، ولم يقف جهد الباحث فى هذا الميدان على الحصول على الدكتوراة وإنما مواصلة البحث ومواكبة العلم كانت سببا فى حصوله على درجة «أستاذ مساعد» سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف، وكان وقتها يعمل بكلية البنات بالمدينة المنورة كمعار لها من قبل جامعة الأزهر، وها هو الآن يعترف بالجميل للكلية التى خرجته فيعمل بها استاذا بعد أن حصل على درجة الأستاذية سنة تسع وثمانين وتسعمائة والف، والأمل فى الله كبير أن يمنحه مزيدا من التقدم، ثم عمل الأستاذ المذكور بكلية أداب البنات بالدمام المملكة العربية السعودية كأستاذاً لقسم الدراسات الإسلامية بها طيلة ست سنوات فى صدر التسعينات، ومن بين الأعمال العلمية التى شارك فيها إشرافه على رسالة الماجستير فى القسم سالف الذكر وهى بعنوان أسماء سور القرآن الكريم وعلاقة الإسم فيها بالمسمى مع تحقيق المسألة

فيما قيل فى فضلها، كما ناقش رسالة لنيل الدكتوراة وكانت بعنوان «إسماعيل وإسحاق عليهما السلام بين القرآن الكريم والعهد القديم» وها هو الأن يؤدى رسالته فى جامعة الأزهر. قصدنا من هذا العرض السريع التعريف بالمؤلف حتى يعرف كل باحث أن الجد والإجتهاد هما سبب نيل المطالب وما أجمل قول القائل:

ومن طلب العلوم بغير كد ★★★ سيدركها إذا شاب الغراب

ولن يشيب الغراب ولن تحصل العلوم إلا بالصبر عليها بشرط أن ينعم الباحث بتوفيق الله سبحانه وتعالى بعد أخذه بالأسباب فهناك فرق بين التوكل والتواكل، هكذا تعلمنا من الأزهر الشريف الذى نرفع أكف الضراعة إلى الله سبحانه وتعالى لأجله أن يصونه من المشككين فى مكانته، ومنزلته كما ادعوا الله عز وجل أن يبارك فيمن ساعدنى منذ بدايتى حتى صرت رجلا من الذين ينتسبون إلى جامعة الأزهر الشريف، وأخص بالذكر والدى الذين وقفا بجوارى فى أيام كانت عصيبة حالكة لولا لطف الله اللطيف كذلك أدعوا بالرحمة لمن كان سببا فى أن أكون من أهل القرآن معلمى الأول كذلك أدعو الله عز وجل لكل معلم أمدنى بكلمة راجيا من الله أن ينعم الجميع بتوفيقه ورحمته.

كتب للمؤلف

ونظرا لأن طبيعة عمل المؤلف وميدان تخصصه دراسة القرآن الكريم ومدارسة قضاياه كان منهاجه في هذا الخصوص دائر بين تفسير القرآن الكريم وقضاياه التى ينتظمها علم مدون تحت عنوان علوم القرآن جاءت كتبه ومؤلفاته فى هذا الإطار وكانت كتبه فى مادة تفسير القرآن تتسم بالمنهجية التى إكتسبها من تعليمه بالأزهر فهو عندما يقف أمام نص قرآني فإنما يُعْنىَ فيه بالتفسير التحليلي وهذا التفسير التحليلى من طرقه الكشف عن مفردات النص وإبراز ما فيه من لغة، وبلاغة، ومناسبة، واستنباط أحكام. هذا المسلك الذى ترسمه المؤلف تجده بارزا فى هذه المؤلفات:

أولا التفسير:

١) الأفنان فى تفسير سورة آل عمران .. جزاءان.

٢) الأضواء فى تفسير سورة النساء.

٣) الإيضاح والبيان فى تفسير سورة البقرة.

٤) الإيضاج والبيان في تفسير سورة الشورى.

٥) تفسير سورة غافر.

٦) تفسير سورة فصلت.

٧) «س و ج» فى تفسير سورة الأعراف.

٨) تفسير سورة الرحمن.

٩) «شرح الصدور فى تفسير سورة النور».

ثانيا: وفى الجانب الثانى ويقصد به مادونه المؤلف وكتب عنه فى «علوم القرآن» كانت للمؤلف كتب وأبحاث منها:

١) فيض الرحمن فى علوم القرآن.

٢) أساس البنيان فى علوم القرآن.

٣) بحث بعنوان «المحكم والمتشابه فى القرآن».

٤) زاد الراغبين فى مناهج المفسرين.

٥) بحث بعنوان «الله يتجلى فى خلق الإنسان».

هذا وللمؤلف أعماله العلمية التى تتصل برسائل الجامعة بين إشراف ومناقشة فقد أشرف وناقش عدد من الرسائل حصل من خلالها أصحابها على مرتبة الماجستير أو الدكتوراه، وها هى رسائل الدكتوراة والماجستير التى أشرف عليها وناقشها.

أولا: الدكتوراة:

١) القرآن والتفسير فى شبه جزيرة ماليزيا منذ أوائل هذا القرن إلى الآن، عرض وتحليل.

٢) التيسير فى علم التفسير للإمام الفقيه عمر بن محمد بن أحمد النسفى السمرقندى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ دراسة وتحقيق من أول سورة النور إلى أخر سورة الزمر.

٣) حامكا وجهوده فى تفسير القرآن الكريم بأندونسيا فى كتابه الأزهر.

٤) التيسير فى علم التفسير للإمام عمر النسفى المتوفى سنة ٥٣٧ هـ تحقيق ودراسة من أول سورة الفاتحة إلى قوله تعالى «تلك الرسل» من سورة البقرة. جزءان.

٥) الدخيل فى تفسير التبيان للطوسى من أول الفاتحة إلى أخر النساء.

٦) الدخيل والإسرائليات فى تفسير الإمام محمد بن جرير الطبرى من الجزء ١٢ إلى الجزء ١٥ ثلاث أجزاء.

٧) الدخيل فى تفسير فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشيخ محمد بن على الشوكانى من سورة الأنعام إلى أخر سورة الإسراء.

٨) التفسير والمفسرون فى غرب إفريقيا.

٩) العلامة أبو السعود ومنهجه فى التفسير.

ثانيا: رسائل الماجستير:

١) دراسة تحليلية لسورة الطلاق وأحكامها.

٢) الدخيل فى تفسير الطبرى المسمى «جامع البيان من تأويل آى القرآن» لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى لجزئ «تلك الرسل».

«كل الطعام» الجزء الثالث والرابع.

٣) أيات النداء فى القرآن دراسة موضوعية.

٤) سيدنا أيوب ﷺ فى ضوء القرآن الكريم والتوراة والإنجيل.

٥) كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لشهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى المعروف بأبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ تحقيق ودراسة.

٦) تفسير آيات الصيام.

٧) منزلة العمل فى الإسلام كما يصورها القرآن الكريم.

٨) هود وصالح فى القرآن الكريم.

٩) دراسة وتحقيق لمخطوط أبى الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ من أول سورة الذاريات حتى نهاية سورة الناس.

١٠) التيسير فى علم التفسير للإمام أبى حفص النسفى المتوفى سنة

٥٣٧ هـ تحقيق ودراسة من أول سورة الواقعة إلى أخر سورة المرسلات.

١١) ذكر الله عز وجل فى القرآن الكريم.

وهناك رسائل أخرى قيد الإشراف والمناقشة والله نسأل أن يوفقنا من خلال ما عرضنا إلى خير الطريق وأقوم سبيل والله من وراء القصد، هذا ومن بين الرسائل والتى هى تحت الإشراف الأن لدى المؤلف:

١) الدخيل فى تفسير الدر المنثور للحافظ جلال الدين السيوطى.

٢) حاشية الحافظ جلال الدين السيوطى على تفسير القاضى البيضاوى دراسة وتحقيق.

٣) عيون التفاسير للفضلاء السماسير لأحمد بن محمود السيواس «٨٠٣ هـ» تحقيق ودراسة وتعليق ومن بين الكتب لدى المؤلف الكتاب الماثل بين أيدينا للقراء وطلبة العلم والذى بعنوان: جلال الفكر فى التفسير الموضوعى لآيات من الذكر، وهو كتاب يتضمن جملة من المباحث فى التفسير الموضوعى لكتاب الله عز وجل، والمؤلف إذ يقدم هذه النماذج من مؤلفاته للقراء يسأل الله عز وجل الأجر على تحصيل العلم كما يسأله التوفيق لطلبة العلم وقراءه،

والله من وراء القصد

المراجع

القرآن الكريم:

١) البرهان فى علوم القرآن بدر الدين الزركشى.

٢) البيان فى أصل تكوين الإنسان أحمد بك الحسينى.

٣) البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف ابن حمزة الحسينى.

٤) التحصيل لفوائد كتاب التفصيل لعلوم التنزيل التميمى المهدوى.

٥) التربية فى كتاب الله محمود عبد الوهاب فايد.

٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى.

٧) التفسير العظيم للحافظ ابن كثير.

٨) التفسير العلمى للآيات الكونية فى القرآن الكريم حنفى أحمد.

٩) التفسير الفريد للقرآن المجيد للجمال.

١٠) التفسير القرآنى للقرآن عبد الكريم الخطيب.

١١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) الرازى.

١٢) التكرار فى القرآن حمزة الكرمانى.

١٣) التفسير الموضوعى للقرآن الكريم د/احمد السيد الكومى و.د/ محمد القاسم.

١٤) التفسير الواضح د/محمد محمود حجازى.

١٥) الجامع لأحكام القرآن القرطبى.

١٦) الجواهر فى تفسير القرآن طنطاوى جوهرى.

١٧) الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان ت/ عبد الرحمن محمد عثمان.

١٨) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور الحافظ جلال الدين السيوطى.

١٩) الزخيرة فى تفسير أجزاء قرآنية محمد عبد الله الجزار.

٢٠) اسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير.

٢١) السراج المنير فى الإعانة على تفسير كلام ربنا الحكيم الخبير للخطيب الشربينى.

٢٢) الإسلام ونظرية دارون ـ محمد أحمد باشميل.

٢٣) الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخى.

٢٤) إصلاح الوجوه والنظائر للدمغانى.

٢٥) أعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب.

٢٦) العقائد الإسلامية سيد سابق.

٢٧) الفتح الكبير للسيوطى شرح النبهانى.

٢٨) المفردات للراغب الأصفهانى.

٢٩) الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى.

٣٠) القراءات الشادة لعبد الفتاح القاضى.

٣١) القرآن والعلم الحديث عبد الرزاق نوفل.

٣٢) آكام المرجان فى غرائب وعجائب الجان للشبلى.

٣٣) الله والعلم الحديث عبد الرزاق نوفل.

٣٤) الله والإنسان عبد الكريم الخطيب.

٣٥) أمالى المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد الشريف المرتضى الموسوى العلوى.

٣٦) المصباح المنير للرافعى.

٣٧) المقاصد الحسنة للسخاوى.

٣٨) انجيل متى المطبعة الأمريكانية بيروت.

٣٩) النهاية فى الفتن والملاحم الحافظ ابن كثير.

٤٠) آيات الله فى الآفاق محمد أحمد العدوى.

٤١) بحوث فى تفسير القرآن جمال الدين عياد.

٤٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز الفيروز أبادى.

٤٣) تسهيل السبيل فى فهم معانى التنزيل محمد تاج العارفين الصديق «مخطوطة».

٤٤) تفسير البحر المحيط أبو حيان.

٤٥) تفسير البيضاوى للإمام البيضاوى.

٤٦) تفسير المراغى الشيخ احمد مصطفى المراغى.

٤٧) تفسير الهكارى للحافظ الهكارى.

٤٨) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين الراغب الأصفهانى.

٤٩) تنزيه القرآن عن المطاعن القاضى عبد الجبار.

٥٠) تنوير الأذهان بما تيسر تفسيره من القرآن للدجوى.

٥١) حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى.

٥٢) دائرة المعارف القرن الرابع عشر إلى العشرين محمد فريد وجدى.

٥٣) دراسات فى التفسير الموضوعى زاهر بن عواض الألمعى.

٥٤) دلائل النبوة البيهقى.

٥٥) رسالة فى الاستعاذة والبسملة والفاتحة وهى مخطوطة.

٥٦) روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى للألوسى.

٥٧) صحيح البخارى للإمام البخارى.

٥٨) صحيح مسلم بشرح النووى للإمام النووى.

٥٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم.

٦٠) عقائد المفكرين فى القرن العشرين عباس العقاد.

٦١) عن القرآن محمد صبيح.

٦٢) فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى.

٦٣) فتح البيان فى مقاصد القرآن صدّيق خان.

٦٤) فتح القدير الشوكانى.

٦٥) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن نديم الجسر.

٦٦) كما تحدث القرآن خالد محمد خالد.

٦٧) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال المتقى الهندى.

٦٨) لسان العرب لابن منظور.

٦٩) مباحث فى التفسير الموضوعى مصطفى مسلم.

٧٠) مجمع البيان فى تفسير القرآن للطبرسى.

٧١) مجمع الزوائد للهيثمى.

٧٢) محاسن التأويل جمال الدين القاسمى.

٧٣) مختار الصحاح أبو بكر الرازى.

٧٤) مختصر تذكرة القرطبى للشعرانى.

٧٥) مختصر شعب الإيمان للقزوينى.

٧٦) مشاهد القيامة سيد قطب.

٧٧) مقال فى الإنسان دراسة قرآنية عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ.

٧٨) نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر شمس الدين الدمشقى.

٧٩) نظرات فى سورة الرحمن عبد الكريم الخطيب.

٨٠) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى.

٨١) نقض مطاعن فى القرآن محمد أحمد عرفة.

فهرس موضوعات الكتاب